تحليل نفسي

أيريك فروم

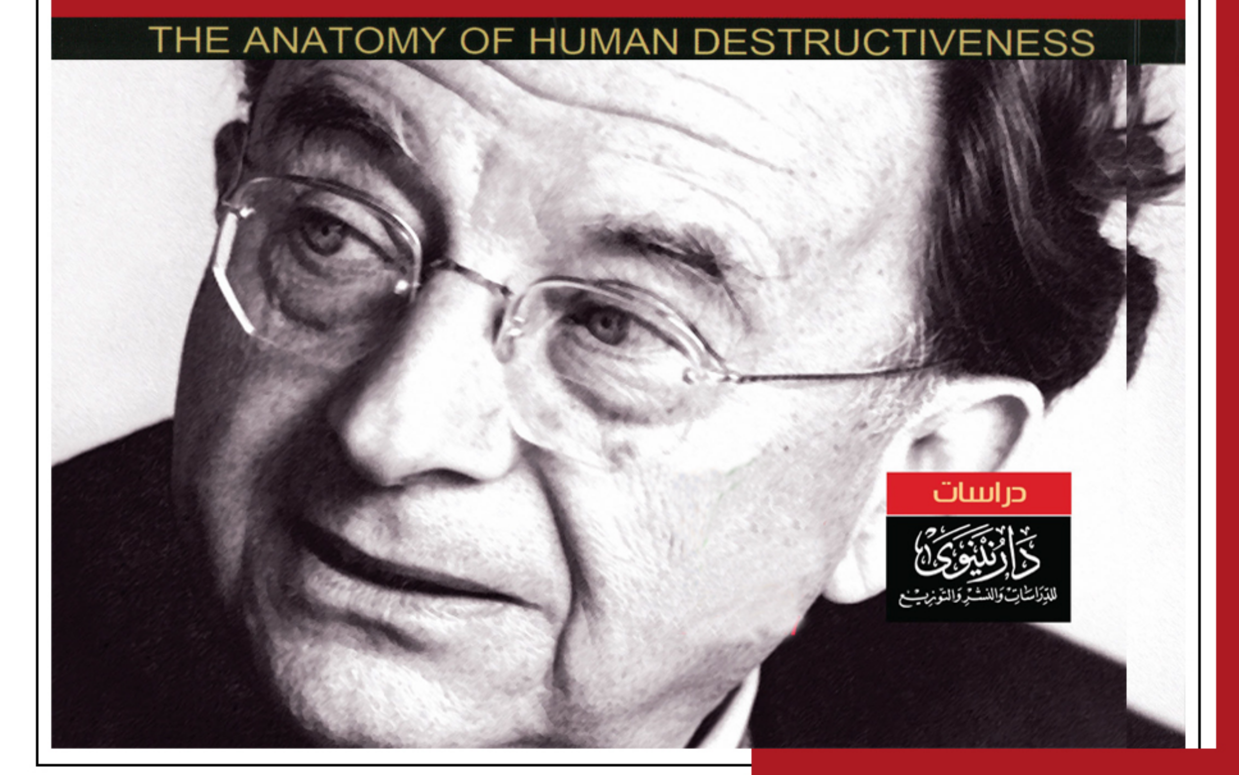
ERICH FROMM

ترجمة محمود منقذ الهاشمي

الجزء الثاني

تشريح التدميرية البشرية

THE ANATOMY OF HUMAN DESTRUCTIVENESS



دراسات

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

تشريح التدميرية البشرية الجزء الثاني أيرك فورم

تشريح التدميرية البشرية

إن هذه الدراسة هي الكتاب الأول من عمل شامل في النظرية التحليلية النفسية. وقد بدأتْ بدراسة العدوان والتدميرية لأنها، فضلاً عن أنها إحدى المشكلات النظرية الأساسية في التحليل النفسي، تجعلها موجةُ التدميرية التي تغمر العالم إحدى أوثق الدراسات اتصالاً بالأمور العملية.

وعندما شرعت في هذا الكتاب قبل أكثر من ست سنوات استهنت كثيراً بالصعوبات التي من شأني أن أواجهها. وسرعان ما صار واضحاً أنني لن أستطيع أن أكتب عن التدميرية البشرية على الوجه الذي يفي بالغرض إذا ظللت ضمن حدود ميدان كفاءتي الأكبر، وهو التحليل النفسي. إذ بينما المقصود أن يكون هذا البحث تحليلياً نفسياً قبل كل شيء، فأنا أحتاج كذلك إلى القليل من المعرفة في ميادين أخرى، وخصوصاً في فيزيولوجيا الأعصاب، وعلم النفس الحيواني، وعلم المستحاثات، والأنثروبولوجيا، لكي أتجنب العمل في إطار مرجعي شديد الضيق يؤدي، من ثم، إلى التحريف. كان ينبغي لي على الأقل أن أكون قادراً على التحقق من صحة استنتاجاتي بالمعطيات الرئيسية من الميادين الأخرى لأتيقن من أن فرضياتي لا تناقضها وأحدِّد، كما كان أملي، مسألة هل تؤكد فرضياتي.

ومادام لا يوجد عمل يذكر ويوحِّد المكتشفات حول العدوان في كل هذه الميادين، أو حتى يُجملها في أي مجال من مجالات التخصص، كان عليَّ أن أقوم بهذه المحاولة بنفسي. وقد اعتقدتُ أن من شأن هذه المحاولة أن تخدم قرائي.





الجزء الثاني

عنوان الكتــاب: تشريح التدميريّة البشريّة - الجزء الثاني
اســم المؤلــف: إريك فروم
اســم المترجم: محمود مُنقذ الهاشمي
الموضــــوع: دراسات فكرية
عدد الصفحات: 328 ص
القيـــاس: 17.5 ❖ 25 سم
الطبعة الأولى: 1000 / 2016 م - 1437 هـ

ISBN: 978-9933-536-56-5



سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

 دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
 Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى



تشريح التدميرية البشرية

الجزء الثاني

تأليف : إريك فروم
ترجمة: محمود منقذ الهاشمي

ERICH FROMN

THE ANATOMY OF HUMAN DESTRUCTIVENESS

إريك فروم

إريك فروم (٢٣ مارس، ١٩٠٠ - ١٨ مارس، ١٩٨٠) عالم نفس وفيلسوف إنساني ألماني أمريكي. ولد في مدينة فرانكفورت وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٣٤. والتحق بجامعة فرانكفورت وهايدلبيرغ حيث درس فيها العلوم الاجتماعية والنفسية والفلسفية.

من أعماله: الهروب من الحرية (١٩٤١)، التحليل النفسي والدين (١٩٥٠)، اللغة المنسية: مدخل إلى فهم الأحلام والقصص الخيالية والأساطير (١٩٥١)، المجتمع العاقل (١٩٥٥)، رسالة سيجموند فرويد: تحليل لشخصيته وتأثيره (١٩٥٩)، أزمة التحليل النفسي: مقالات عن فرويد وماركس وعلم النفس الاجتماعي (١٩٧٠)، تشريح نزوع الإنسان إلى التدمير (١٩٧٣).

كما حرر كتباً، بأقلام كتّاب متعددين عن بوذية زن ومفهوم ماركس للإنسان وغيرها.

الفصل الحادي عشر

العدوان الخبيث:
القسوة والتدميرية

التدميرية الظاهرية

تختلف عن التدميرية كثيراً بعض التجارب القديمة الدفينة في الأعماق والتي كثيراً ما يبدو للملاحِظ الحديث أنها براهين على الأعمال التدميرية الفطرية عند الإنسان. ولكن التحليل الدقيق يمكن أن يُظهر أنه مع أنها تؤدي إلى الأعمال التدميرية، فإن باعثها ليس الولع بالتدمير.

وأحد الأمثلة على ذلك هو الشغف بسفك الدم، الذي كثيراً ما يسمى «اشتهاء الدم». وبالنسبة إلى كل المقاصد العملية، فإن إراقة دم شخص تعني قتله، وهكذا فإن «القتل» و«إراقة الدم» مترادفان. ومع ذلك فالسؤال الذي ينشأ هو ألا يمكن أن يكون هناك سرور قديم بإراقة الدم مختلف عن السرور بالقتل.

وعلى مستوى الخبرة العميقة سحيقة العهد، فإن الدم مادة شديدة الغرابة. وكان مساوياً بالفعل للحياة والقوة الحيوية، وأحد المواد المقدسة الثلاث التي تخرج من الجسم. والمادتان الأخريان هما المنيّ والحليب. ويعبّر المنيّ عن الذكر، على حين يعبّر الحليب عن الأنثى والخلق الأمومي، وكلاهما يعدّ مقدساً في الكثير من العبادات والطقوس. ويتجاوز الدم الاختلاف بين الأنثى والذكر. وفي أعمق مستويات التجربة، يستولي المرء سحرياً على القوة الحيوية نفسها بإراقة الدم.

واستخدام الدم للمقاصد الدينية معروف جيداً . وكان كهنة المعبد العبري من طقسهم الديني نثر الدم من الحيوانات الذبيحة . وكان الكهنة الأزتيك Aztec يقدّمون لآلهتهم قلوب ضحاياهم التي لاتزال تنبض . وفي الكثير من العادات الطقسية فإن الأخوّة تتعزّز رمزيًا بتمازج دماء الأشخاص المترابطين .

ومادام الدم «عصارة الحياة»، فإن تجربة احتساء الدم تعاش في الكثير من الأحوال على أنها زيادة المرء لطاقته . وفي طقوس باخوس العربيدة وكذلك في الطقوس المرتبطة بـ «سيريس» كان أحد جوانب الطقس السري أكل اللحم النيء مع الدم . وفي المهرجانات الديونيسوسية في كريت جرت العادة أن يقتطعوا لحم الحيوان بأسنانهم . وأمثال هذه الطقوس موجودة كذلك في علاقتها بالكثير من الربات والأرباب الكتونيين chtonic (J.Bryant,1775) . ويذكر جي . جيي . بورك G.J.Bourke أن الآريين الذين غزوا الهند كانوا ينظرون إلى هنود الداسيو Dasyu الأصليين باحتقار لأنهم كانوا يأكلون لحم الحيوان والإنسان غير المطهوّ، ويعبّرون عن اشمئزازهم منهم بإطلاقهم عليهم لقب «آكلي النيء» . [1] وما يتصل اتصالاً وثيقًا بهذا الاحتساء للدم وأكل اللحم النيء تلك العادات المذكورة عن القبائل البدائية التي لاتزال موجودة . ومن الواجب في بعض الاحتفالات الدينية عند هنود الهاماتسا Hamatsa في الشمالي الغربي من كندا عضّ ذراع إنسان أو ساقه أو صدره . [2] وفكرة أن شرب الدم يعدّ مانحًا للصحة يمكن أن نراها حتى في الأزمنة الحديثة . وقد كان من عادة البلغار إعطاء الإنسان الذي استولى عليه الرعب

---

١ - يمكن أن نرى كم يجب أن يكون وجود هذا الطقس المتعلق بأكل اللحم من الحيوان الحي متأخراً من الموروث التلمودي الذي ينصّ على أنه من المعايير الأخلاقية السبعة التي قبلها نوح (ومن خلال الجنس البشري كافة) كان تحريم أكل اللحم من حيوان حي .

2- Report on the North Western Indians of Canada, in "Proceedings of the British Association for Advancement of Science," meeting at Newcastle-upon-Tyne, 1889 (quoted by J.G.Bourke, 1913).

كثيراً القلب المرتعش لحمامة ذُبحت في تلك اللحظة، لمساعدته على الشفاء من رعبه. (J.G.Bourke 1913). وحتى في ديانة شديدة التطور كالروم الكاثوليك نجد الممارسة العتيقة لاحتساء الخمرة بعد تكريسها على أنها دم المسيح؛ وسيكون من التحريف التخسيسي أن نفترض أن هذا الطقس تعبير عن الدوافع التدميرية، وليس بالأحرى تعزيزاً للحياة وتعبيراً عن الجماعة.

ويبدو للإنسان الحديث أن إراقة الدماء ليست إلا التدميرية. ومن المؤكد أن الأمر كذلك من وجهة نظر واقعية، ولكن إذا نظر المرء لافي مجرد الفعل بل في أعمق مستويات التجربة، فقد يصل إلى نتيجة مختلفة. فبإراقة المرء دمه أو دم الآخر، يكون على اتصال مع القوة الحيوية، وقد يكون هذا الاتصال تجربة مسكرة على المستوى الممعن في القدم، وعندما يقدَّم إلى الآلهة، يمكن أن يكون فعلاً من أفعال التفاني الأشد قدسية؛ ولاحاجة إلى أن يكون حافزه الرغبة في التدمير.

ويمكن أن تنطبق اعتبارات مماثلة على ظاهرة أكل البشر للحم البشر. والذين يجادلون لصالح التدميرية الفطرية عند الإنسان كثيراً ما كانوا يستخدمون أكل لحم البشر حجة أساسية لإثبات نظريتهم. وهم يشيرون إلى أن جماجم الكهوف التشوكوتية Choukoutien قد وُجدت والأدمغة منزوعة منها من الأساس. وكان يُظن أن ذلك حَدَث لأجل أكل الدماغ، الذي يزُعَم أن القتلة يستطيبون مذاقه. ولاريب أن ذلك احتمال، ولكنه احتمال ربما كان أكثر انسجاماً مع وجهة النظر عند المستهلك الحديث. والتفسير الأرجح هو أن الدماغ كان يُستخدم لمقاصد طقسية-سحرية. وكما أشرنا من قبل، فإن هذا الموقف قد اتخذه أ. سي. بلانك (1961) A.C.Blanc، الذي وجد شبهاً قوياً بين جماجم إنسان بكين والجماجم الموجودة في جبل سيسيرو التي يرجع تاريخها إلى ما يقرب من نصف مليون سنة بعد ذلك. وإذا كان هذا التفسير صحيحاً، صدق الأمر نفسه على أكل لحم البشر الطقسي وإراقة الدم واحتسائه الطقسي.

ومن المؤكد أن أكل البشر للحم البشر غير الطقسي كان ممارسة شائعة عند «البدائيين» في القرون الأخيرة. ومن كل ما نعرفه عن طبع الصيادين -الجامعين الذين لايزالون أحياء، أو ما يمكن أن نفترضه عن الصيادين- الجامعين قبل التاريخ، نقول إنهم ليسوا قتلة، ومن البعيد جداً عن الاحتمال أنهم كانوا من آكلي لحم البشر. وكما يعبّر ممفورد عن ذلك بإيجاز: «كما أن الإنسان البدائي كان عاجزاً عن العروض الضخمة للقسوة والتعذيب والإبادة، فمن الممكن أنه كان بريئًا تمامًا من قتل الإنسان من أجل الغذاء» (L.Mumford, 1967).

والمقصود من الملاحظات السابقة هو التحذير من التأويل المتسرّع الذي يرى أن السلوك التدميري كله هو نتيجة غريزة تدميرية، بدلاً من أن يتبيّن البواعث الدينية وغير التدميرية خلف سلوك كهذا. ولم يُقصد منها الإقلال من فورات القسوة والتدميرية الحقيقيتين اللتين نتجه الآن إليهما.

الأشكال العفوية

تظهر التدميرية [1] في نوعين: عفوي، ومرتبط ببنية الطبع. وأشير بالعفوي إلى تفجّر الدوافع التدميرية الهاجعة (وليس من الضروري أن تكون مكبوتة) التي تنشّطها ظروف غير عادية، خلافًا للوجود الدائم للخصال التدميرية في الطبع، ولو أنه ليس معبّراً عنه دائمًا.

المدوّنات التاريخية

إن التوثيق الأوفى -والأرهب- للأشكال العفوية على ما يظهر من التدميرية هو في مدوّنات التاريخ المتمّدن. وتاريخ الحرب هو تقرير عن القسوة والتعذيب من دون تمييز، واللذين كانت ضحاياهما الرجال والنساء والأطفال. وقد أعطى الكثير

---

١ -أستخدم مصطلح «التدميرية» هنا ليشمل كلاً من التدميرية بالمعنى الصحيح («النكروفيليا» necro-philia) والسادية، وهو تمييز سيتم لاحقًا.

من هذه الحوادث الانطباع بعربدات التدمير، التي لم يكن للعوامل الأخلاقية المتعارف عليها أو الصادقة أي أثر في منعها. وكان القتل أخفّ تجليات الحرب. ولكن العربدات لاتتوقف عند هذا الحدّ: فكان الرجال يُخصَون، والنساء تُبقَر بطونهن، والأسرى يُصلبون أو يُرمى بهم إلى الأسود. ويكاد لايكون هناك عمل تدميري يمكن للخيال البشري أن يفكر فيه لم يُنفَّذ المرة تلو المرة. وقد شهدنا القتل المسعور المتبادل لمئات الألوف من الهندوس والمسلمين في الهند في أثناء التقسيم، وفي إندونيسيا في العملية التطهيرية المعادية للشيوعية سنة 1965، التي ذُبح فيها، وفقًا للمصادر المتباينة مابين أربعمائة ألف ومليون شيوعي حقيقي أو مزعوم، مع الكثيرين من الصينيين. (M.Caldwell, 1968). ولا أود أن أمضي إلى ما هو أكثر من ذلك في وصف تجلّيات التدميرية البشرية: إنها معروفة جيداً، وبالإضافة إلى ذلك، فكثيراً ما يستشهد بها الذين يريدون أن يثبتوا أن التدميرية فطرية، كما فعل، مثلاً، فريمن (D.Freeman (1964 .

أما أسباب التدميرية، فستتم معالجتها عندما سنبحث في السادية والنكروفيليا. وقد ذكرت هذه التفجّرات هنا لكي أقدّم أمثلة على التدميرية التي هي ليست مرتبطة ببنية الطبع، كما هي الحال في الطبع السادي والنكروفيلي. ولكن هذه التفجرات ليست عفوية بمعنى أنها تندلع من دون أي سبب. أولاً، هناك على الدوام ظروف خارجية تثيرها، كالحروب، أو المنازعات الدينية أو السياسية، والفقر، والضجر بالغ الشدة، وتفاهة الفرد. ثانيًا، هناك أسباب ذاتية: النرجسية الجماعية الشديدة على المستوى القومي أو الديني، كما هو الأمر في الهند، واستعداد ما لحالة الغيبوبة، كما في أجزاء من إندونيسيا. وليس من طبيعة الإنسان إحداث الظاهرة المفاجئة، ولكن الاستعداد للتدمير تغذّيه بعض الأوضاع الدائمة وتحركه الأحداث الجارحة المباغتة. ولولا هذه العوامل المهيّجة، يبدو أن الطاقات

التدميرية في هؤلاء السكان ستكون هاجعة، وليست، كما هو الأمر في الطبع التدميري، مصدراً للطاقة يتدفّق باستمرار.

التدميرية المنتقمة

التدميرية المنتقمة هي رد الفعل العفوي على الألم الشديد وغير المبرَّر النازل على الشخص أو على أعضاء جماعته التي يتماثل معها. وهي تختلف عن العدوان الدفاعي العادي في ناحيتين: (١) إنها تقع بعد وقوع الضرر، ومن ثم فهي ليست دفاعًا إزاء خطر مهدِّد؛ (٢) إنها أشد بكثير، وكثيراً ماتكون بطاشة ومفعمة بالتوق الشديد، ولايُشفى غليلها. وتعبّر اللغة بنفسها عن هذه الصفة الخاصة بالانتقام في مصطلح «الظمأ إلى الانتقام».

ويكاد لايحتاج إلى التأكيد كم هي التدميرية المنتقمة واسعة الانتشار، سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي. ونحن نراها على شكل الثأر الفردي بوصفه سنّة متّبعة عمليًا في كل أنحاء العالم: في أفريقيا الشرقية والشمالية الشرقية، وفي الكونغو الأعلى، وأفريقيا الغربية، وبين الكثير من القبائل الحدودية في الهند الشمالية الشرقية، وفي البنغال، وغينيا الجديدة، وبولينيزيا، وفي كورسيكا (حتى فترة قريبة)، وقد كانت واسعة الانتشار بين السكان القدامى لأمريكا الشمالية (M.R.Davie, 1929). والثأر الدموي واجب مقدس يقع على عضو الأسرة أو العشيرة أو القبيلة أن يقتل عضواً من الوحدة الاجتماعية المقابلة إذا قتل أحد من أهله. وخلافًا للعقاب البسيط، حيث تكفّر عن الجريمة عقوبةُ القاتل أو الذين ينتسبون إليه، فإن عقوبة المعتدي في حالة الثأر الدموي لاتُنهي السلسلة. إذ يمثّل القتل العقابي قتلاً جديداً يُجبر بالتالي أعضاء الجماعة المعاقَبة على أن تعاقِب وهكذا إلى ما لانهاية. ومن الناحية النظرية، فإن الثأر الدموي سلسلة لانهاية لها، وهو في الواقع يؤدي إلي إفناء أسر أو جماعات أكبر. ويجد المرء الثأر الدموي- ولو على سبيل الاستثناء- حتى بين السكان المسالمين كسكان غرين لاند، الذين لايعرفون

معنى الحرب، مع أنه كما يكتب ديڤي Davie فإن: «الممارسة لايتم ظهورها إلا قليلاً والواجب لايبدو أنه يُثقل كثيراً على الباقين بوصفه قاعدة» (M.R.Davie, 1929).

وليس الثأر الدموي وحده، بل إن كل أشكال العقاب- من العقاب البدائي إلى الحديث- هي تعبير عن الانتقام (K.A.Menninger,1968). والمثال الكلاسيكي هو «قانون مقابلة الأذى بمثله» (*) في «العهد القديم». والتهديد بالمعاقبة على الفعل السيّئ حتى الجيل الثالث أو الرابع يجب أن تُعدّ كذلك تعبيراً عن ثأر الإله الذي عُصيت أوامره، ولو أن من شأن المحاولة أن تُضعف المفهوم بإضافة «المحافظة على الرحمة نحو الآلاف، والصفح عن الظلم والتجاوزات والإثم». ويمكن أن نجد الفكرة نفسها عند الكثير من الشعوب البدائية- وعلى سبيل المثال، عند شعب الياكوت Yakut الذي يقول قانونه: «إن دم الإنسان، إذا أُريق، يتطلّب التعويض». وعند شعب الياكوت فإن أولاد المقتول كانوا يأخذون ثأرهم من أطفال القاتل حتى الجيل التاسع (M.R.Davie,1929).

وهيهات أن يُنكَر أن الثأر الدموي والقانون الجزائي، وإن كانا سيئين، فإن لهما كذلك وظيفة اجتماعية معينة في دعم الاستقرار الاجتماعي. ويمكن أن نرى القوة التامة لاشتهاء الثأر هذا في تلك الأحوال التي تنعدم فيها هذه الوظيفة. وهكذا فإن عدداً كبيراً من الألمان كانت تحرّضهم الرغبة في الانتقام بسبب الخسارة في حرب 1914-1918، وعلى الأخص بسبب جور معاهدة سلام ڤرساي في شروطها المادية، ولاسيما في مطالبتها أن تقبل الحكومة الألمانية المسؤولية وحدها عن نشوب الحرب. ومن المشهور أن الفظاعات الحقيقية أو المزعومة يمكن أن تُلهب أشد الغيظ والرغبة في الانتقام. وقد استخدم هتلر الزعم بسوء معاملة الأقليات

---

*- «قانون مقابلة الأذى بمثله» هو في اللاتينية lex talionis وهو ينص على المساواة بين الجريمة والعقاب، كما جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من «سفر الأحبار» في التوراة: «العين بالعين والسن بالسن»، وكما جاء من قبل في «شريعة حمورابي». (المترجم)

الألمانية في تشيكوسلوفاكيا محوراً للدعاية قبل أن يهاجم البلد؛ وكانت المذبحة الفاحشة في إندونيسيا سنة 1965 تلهبها أول الأمر قصة التمثيل بجثث بعض الجنرالات المعارضين لسوكارنو. وأحد الأمثلة على الظمأ إلى الثأر الذي دام مايقرب من ألفي سنة هو رد الفعل على تنفيذ الإعدام بيسوع الذي قيل إن اليهود مسؤولون عنه؛ وتقليديًا كانت صيحة «قتلة المسيح» أحد أكبر المصادر للعداء العنيف للسامية.

فلماذا يكون الانتقام على هذه الدرجة من الشدة والاستحكام؟ ليس في وسعي إلا أن أقدّم بعض التأملات. دعونا أولاً ننظر مليًا في فكرة أن الانتقام هو بمعنى من المعاني عمل سحري. فبالقضاء على الشخص الذي ارتكب الفظاعة يتم إبطال فعله سحريًا. ولايزال يُعبَّر عن هذه الفكرة اليوم بالقول إن المجرم من خلال عقوبته «قد دفع دينه»؛ ويكون، وعلى الأقل نظريًا، كمن لم يرتكب جريمة. ويمكن أن يقال إن الانتقام إصلاح سحري؛ ولكن ولو افترضنا أن ذلك هو كذلك، فلماذا تكون هذه الرغبة في الإصلاح بالغة الشدة؟ لعل الإنسان موهوب بإحساس أولي بالعدل؛ وقد يكون ذلك لأنه يوجد شعور عميق الجذور بـ«المساواة الوجودية»: فنحن جميعًا نولد من الأمهات، وقد كنا ذات حين أطفالاً لاحول لنا ولاقوة، وسوف نموت.[1] وعلى الرغم من أن الإنسان لايستطيع في الكثير من الأحيان أن يدافع عن نفسه إزاء الأذى الذي يوقعه فيه الآخرون، فإنه في رغبته في الانتقام يحاول أن ينظف الصحيفة بإنكاره، سحريًا، أن الأذى قد وقع في يوم من الأيام. (يبدو أن للحسد[2] الجذر نفسه. فقابيل لم يستطع أن يتحمل أن يُرفَض ويُقبل أخوه. وقد كان هذا الرفض اعتباطيًا، ولم يكن في مستطاعه أن يبدّله؛ وهذا الظلم الأساسي أثار مثل هذا الحسد بحيث لايمكن أن يُزال السبب إلا بقتل هابيل.) ولكن يجب أن يكون هناك أكثر من سبب للانتقام. إذ يبدو أن الإنسان

١- إن شايلوك في «تاجر البندقية» The Merchant of Venice III,i يقدم تعبيرًا جميلاً ومؤثرًا عن هذا الشعور بالمساواة.

٢- cf. G.M.Foster (1972)

يأخذ حقه بيديه عندما يخذله الإله أو السلطات الدنيوية. لكأنه في شغفه بالانتقام يرفع نفسه إلى دور الإله أو ملائكة الانتقام. وقد يكون فعل الانتقام ساعته العظمى بسبب هذا العلوّ الذاتي.

ويمكن أن نضيف بعض التأملات الأخرى. فإن القساوات التي هي من قبيل التجديع والخصاء والتعذيب تنتهك أدنى متطلّبات الضمير المشترك عند كل البشر. فهل عاطفة الانتقام من الذين يرتكبون هذه الأعمال المجردة من الصفات الإنسانية يحركها هذا الضمير الأولي؟ أم هل يمكن أن تكون، إضافة إلى ذلك، دفاعًا من المرء في وجه إدراكه لتدميريته بوساطة الحيلة الإسقاطية: هم-لاأنا- تدميريون وقساة؟

إن الإجابات عن هذه الأسئلة تقتضي المزيد من الدراسات في ظاهرة الانتقام. ولكن يبدو أن الاعتبارات المقدمة حتى الآن تدعم رؤية أن عاطفة الانتقام عميقة المستقر إلى حد أنه لابد للمرء من أن يعتقد بأنها موجودة في كل البشر. ومع ذلك فإن هذا الافتراض لاينطبق على الحقائق الواقعة. فعلى حين أنها واسعة الانتشار فعلاً، توجد فوارق كبيرة في الدرجة، إلى حد أنه يبدو أنه ليس لدى بعض الثقافات [1] والأفراد إلا الحد الأدنى من آثارها. ولابد من أن تكون هناك عوامل تفسّر الاختلاف. وأحد هذه العوامل هو الندرة مقابل الوفرة. فالشخص- أو الجماعة- الذي لديه ثقة بالحياة ويستمتع بها، والذي قد لاتكون موارده المادية وافرة وإنما كافية لئلا تُظهر له الشحّ، سيكون أقل توقًا إلى التعويض عن الضرر من الشخص القلق الادخاري الخائف من ألاّيستطيع التعويض عن خساراته.

وهذا عامل يمكن أن يقال كثيراً بدرجة كبيرة من الاحتمالية: إن الظمأ إلى الثأر يمكن أن يُرسَم على خط يكون في أحد طرفيه الناس الذين لاشيء فيهم سوف

---

١ - منها، مثلاً، التباين بين نظام الثقافة «أ» ونظام الثقافة «ج»، المدروسين في الفصل الثامن.

يثير الرغبة في الثأر؛ وهؤلاء هم الناس الذين بلغوا درجة من النمو هي في المصطلحات البوذية أو المسيحية المثال لكل البشر. ويكون في الطرف الآخر الذين لهم طبع ادخاري قلق، أو شديد النرجسية، والذين سوف يثير حتى أقل الأذى الصبوة العارمة إلى الانتقام. وهذا النمط يمثّله الإنسان الذي سرق منه لص بضعة دولارات ويريد له أن يعاقَب بقسوة؛ أو الأستاذ الجامعي الذي استخفّ به أحد الطلبة ولذلك يكتب تقريراً سلبيّاً بحقه عندما يُطلب إليه أن يزكّي الطالب من أجل عمل جيد؛ أو الزبون الذي عامله بائع «بطريقة غير صحيحة» ويشكوه للإدارة، ويريد إحراق الرجل. وفي هذه الأحوال نحن نتعامل مع شخص يكون فيه الانتقام موجوداً باستمرار.

التدميرية الوَجْدية

إن الإنسان في معاناته من عجزه وانفصاله يمكن أن يتغلّب على عبئه الوجودي بحالة وَجْد تشبه الغيبوبة («في أن يكون المرء إلى جانب ذاته») فيحرز بذلك الوحدة من جديد في داخل نفسه ومع الطبيعة. وثمت طرق كثيرة لتحقيق ذلك. والطريقة العابرة جداً توفرها الطبيعة في الفعل الجنسي. ويمكن أن يقال إن هذه التجربة هي النموذج الأصلي الطبيعي للتركيز الكامل وأحوال الوَجْد الآنيّة؛ وهي قد تشمل الشريك الجنسي ولكنها في معظم الأحوال تجربة نرجسية بالنسبة إلى كل من الشريكين، اللذين ربما يشتركان في الإقرار المتبادل بالفضل للذة التي حصل عليها كل منهما من الآخر (يُعتقد تقليديّاً أن ذلك حب).

وكنا قد أشرنا إلى طرق تواكلية أخرى أشد وأكثر دوامًا للوصول إلى الوجد. ونجد هذه الطرق في العبادات الدينية، كالرقص الوَجْدي، وتناول المخدرات، والعربدات الجنسية المسعورة، أو حالات الغيبوبة المستحثّة ذاتيًا. والمثال البارز على الحالة المستحثّة ذاتيًا هو الاحتفالات الطقسية المحدثة للغيبوبة في «بالي» Bali . وهي مثيرة للاهتمام بوجه خاص في علاقتها بظاهرة العدوان لأن

المشاركين في إحدى الرقصات الطقسية [1] يستخدمون الكريس Kris (وهو نوع خاص من الخنجر) الذي يطعنون به أنفسهم (وفي بعض الأحيان يطعن بعضهم بعضاً) وهم في ذروة غيبوبتهم (J.Belav,1960 and V.Monteil,1970)

وهناك أشكال أخرى من أحوال الوجد يكون فيها الكره والتدميرية محور التجربة. وأحد الأمثلة على ذلك هو حالة «البرسركي الذاهب» الموجودة بين القبائل التيوتونية (والبرسركي berserk تعني «قميص الدب»). وكانت طقس ابتداء يستحثّ فيه الشاب الذكر على الدخول في حالة تماثل مع الدب. ومن دأب المبتدئ أن يهاجم الناس، ويحاول أن يضربهم، ولايتكلم بل يكتفي بإحداث جلبة مثل دب. وكان الدخول في هذه الحالة الشبيهة بالغيبوبة هو الإنجاز الأعلى لهذا الطقس، وكانت المشاركة فيه بداية الرجولة المستقلة. ويتضمن تعبير furor teuton-icus الطبيعة المقدسة لهذه المرحلة الخاصة من الغيظ. وعدة ملامح في هذا الطقس جديرة بالملاحظة. أولها أنه غيظ من أجل الغيظ، فليس موجّهاً ضد عدو ولاتُثيره أية أذية أو إهانة. إنه هادف إلى حالة شبيهة بالغيبوبة تنتظم في هذه الحالة حول الإحساس كلي الانتشار بالغيظ. ومن الممكن أن استجلاب هذه الحالة كان يتم بمساعدة المخدّرات (H.D.Fabing,1956). وكانت القوة التوحيدية للغيظ المطلق مطلوبة بما هي وسيلة لبلوغ خبرة الوَجْد. ثانياً، إنها حالة جماعية قائمة على الموروث، وعلى هداية الشامانات، وعلى تأثير المشاركة الجماعية. ثالثاً، إنها محاولة للنكوص إلى الوجود الحيواني، وفي هذه الحالة إلى وجود الدب؛ ويتصرف المبتدئون مثل حيوان مفترس. وفي نهاية الأمر، فهي حالة غيظ عابرة وليست مزمنة.

والمثال الآخر على الشّعيرة التي بقيت حتى اليوم والتي تُظهر حالة الغيبوبة المنتظمة حول الغيظ والتدميرية يمكن أن نراها في بلدة إسبانية صغيرة. ففي تاريخ

---

١ - إن هذه الرقصات ذات قيمة فنية عالية، ووظيفتها تتجاوز كثيراً الوظيفة التي أكّدتُها هنا.

معين من كل سنة يتجمع الرجال في الميدان الرئيسي ومع كل منهم طبل صغير أو كبير . وفي منتصف النهار تمامًا يبدؤون بقرع الطبول ولايتوقفون إلا بعد أربع وعشرين ساعة . وبعد مدة من الزمن يدخلون في حالة السُّعار التي تصير حالة غيبوبة في عملية القرع المتواصل للطبول . وبعد أربع وعشرين ساعة على وجه الدقة تنتهي الشَّعيرة . تتمزق جلود الكثير من الطبول ، وتتورم أيدي الطبالين وكثيراً ما تنزف . وأدعى ملامح هذه العملية إلى الملاحظة هو وجوه المشاركين : إنها وجوه رجال في سُعار الغيظ .[1] ومن الواضح أن قرع الطبول قد أعطى التعبير عن الدوافع التدميرية القوية . وبينما من المحتمل أن الإيقاع في بداية الشَّعيرة قد ساعد على إثارة الحالة الشبيهة بالغيبوبة ، فإن كل طبّال يتملكه بعد فترةٍ شغفٌ بالضرب تمامًا . ويستولي هذا الشغف كل الاستيلاء ، وبسبب قوة شدته وحدها يكون في مقدور الطبالين أن يستمروا أربعًا وعشرين ساعة على الرغم من إيذاء أيديهم ومن أن أجسامهم تكون منهوكة بصورة متزايدة .

عبادة التدميرية

إن تكريس شخص كل حياته للكره والتدميرية شبيه في الكثير من النواحي بالتدميرية الوَجْدية . ومع أنها ليست حالة آنية كما في حالات الوَجْد ، فإن لها وظيفة الاستحواذ على كامل الشخص ، وتوحيده في عبادة هدف واحد هو : التدمير . وهذه الحالة هي التوثين الدائم لإله الدمار ؛ والمنقطع إليه قد تخلّى عن حياته ، إن جاز التعبير .

«كرن» و«فون سالومون»: حالة سريرية من توثين التدمير

إن المثال الممتاز على هذه الظاهرة يمكن أن نجده في الرواية السِّيرية الذاتية التي كتبها إ . فون سالومون E.von Salomon(1930) ، أحد الذين ساعدوا في سنة

---

١ - إن اسم البلدة هو كالاندا Calanda . وقد رأيت فيلمًا عن هذه الشعيرة ولم أنسَ ما خلّفه في نفسي من الأثر غير العادي لعربدة البغض .

1922 على جناية قتل ف. راتِناو W.Rathenau ، وزير الخارجية الألماني الليبرالي الموهوب.

ولُد فون سالومون سنة 1902 ، وهو ابن ضابط شرطة، وكان ضابطًا عسكريًا مرشّحًا عندما اندلعت الثورة الألمانية سنة 1918 . وكان مترعًا بالبغض اللاهب للثوريين، ولكنه بالقدر نفسه ضد الطبقة البرجوازية الوسطى، التي اعتقد أنها كانت راضية بأسباب الراحة ذات الوجود المادي وفقدت روح التضحية والإخلاص للأمة. (كان في بعض الأحيان متعاطفًا مع الجناح الأكثر تطرفًا من الثوريين اليساريين لأنهم، كذلك، كانوا يريدون القضاء على النظام القائم.) وكوّن فون سالومون لنفسه أصدقاء من مجموعة من غير الضباط متعصّبة وتقاسمه الرأي، ومنهم «كرن» Kern الذي قتل راتِناو فيما بعد. وفي مآل الأمر قُبض عليه وحكم عليه بالسجن خمس سنوات. [1] وفون سالومون هو، كبطله كرن، يمكن أن يعدّ نموذجًا أصليًا للنازي، ولكن سالومون ومجموعته، خلافًا لجلّ النازيين، كانوا رجالاً خالين من الانتهازية أو حتى الرغبة في وسائل الراحة في الحياة.

ويتحدث فون سالومون في روايته السيرية الذاتية عن نفسه: «كانت لديّ على الدوام لذة خاصة في التدمير، وهكذا كنت أستطيع أن أشعر في غمرة الألم اليومي بسرور يستحوذ عليّ وأنا أرى كيف نقصت القيم والأفكار البالية، وكيف انسحق مستودع المثاليات قطعة قطعة حتى لم يبق شيء إلا صرة اللحم والأعصاب الباردة؛ الأعصاب التي تشبه الأوتار المشدودة التي يعزف كل منها نغمة باهتزاز وازدواج وكذلك في سَمْت الانفراد الرقيق.»

ولم يكن فون سالومون مخلصًا للتدمير دائمًا كما توضح هذه الجملة. ويبدو أن بعض أصدقائه، وخصوصًا كرن الذي تأثّر به كثيرًا، قد أثّروا فيه بموقفهم الأشد

---

١ - لا أعرف هل تغيّرت شخصيته لاحقًا أمْ لا ولا أي نوع من التغيّر حصل له إن حصل. وتحليلي محدَّد حصرًا بما يقوله حول نفسه وأصدقائه في الزمن الذي يكتب حوله، شريطة أن تكون الرواية سيرية ذاتية.

تعصبًا. ويُظهر نقاش شديد الإثارة للاهتمام بين فون سالومون وكرت انقطاع كرت إلى التدميرية والبغاضة المطلقتين.

ويبدأ فون سالومون المحادثة بقوله: «أريد القوة. أريد هدفًا يملأ يومي، أريد الحياة جميعها وبكل ما في هذه الدنيا من حلاوة، أريد أن أعرف أن التضحيات مجدية.»

فيجيبه كرن بشراسة: «عليك اللعنة، أمسك عن أسئلتك. حدثني إذا كنت تعرف، وإذا كانت السعادة التي أنت شره إليها سعادة، عن سعادة أكبر من السعادة التي لانعيشها إلا بالعنف الذي نفنى به مثل الكلاب.»

وبعد عدة صفحات يقول كرن: «لايمكن أن أتحمل أن تنمو السعادة من أنقاض هذا الزمن. نحن لانقاتل حتى تكون الأمة سعيدة، نحن نقاتل لإرغامها على السير في وجهة مصيرها. فإذا أعاد هذا الرجل [راتِناو] الوجه للأمة، واستطاع أن يحركها مرة أخرى نحو الإرادة والهيئة اللتين ماتتا في الحرب، فإنني لاأستطيع أن أتحمل ذلك.»

وفي جوابه عن السؤال كيف بقي، بوصفه ضابطًا إمبراطوريًا، بعد يوم الثورة، يقول:

لم أعش بعد ذلك؛ وكنت، بوصفي مأمورًا شريفًا، قد وضعت رصاصة في رأسي في التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨؛ فأنا ميت. وما يعيش فيّ ليس أنا. ومنذ ذلك اليوم لم أعرف «أنا»...لقد متّ من أجل الأمة. ولذلك كل شيء فيّ لايعيش إلا في سبيل الأمة. كيف بوسعي أن أتحمل ذلك لو كان مختلفًا! إنني أفعل ما يجب أن أفعل، لأنني أموت في كل يوم. ومادام ما أفعله لايُعطى إلا لسلطة واحدة فكل شيء راسخ في هذه السلطة. *هذه السلطة تريد التدمير وأنا أدمّر*. وأنا أعرف أنني سأنسحق وأصير لاشيء، وسأسقط عندما تُفلتني هذه السلطة. [الإبراز مني.]

إننا نرى في عبارات كرن المازوخيةَ الشديدة التي يجعل بها نفسه خاضعاً عن طيب نفس للسلطة العليا، ولكن الأدعى إلى الاهتمام في هذا السياق هو القوة التوحيدية للبغاضة والرغبة في التدمير الذي يعبده هذا الرجل، والذي هو مستعد من أجله أن يمنح حياته من دون تردّد.

ويبدو أن لدى فون سالومون الأمل في أن تفسح السلطة وحلاوتها المجال للبغاضة والمرارة المطلقتين، سواء بتأثير من انتحار كرن قبل أن يتمكّنوا من توقيفه أو بسبب الإخفاق السياسي لأفكاره. وفي السجن شعر بالانعزال الشديد إلى حد أنه لم يستطع أن يتحمل المدير حين حاول أن يدنو منه «باهتمام إنساني خاص». ولم يستطع أن يتحمل أسئلة زملائه السجناء في دفء أيام الربيع الأولى. «كنت أزحف إلى زنزانتي التي كانت معادية لي - فكنت أكره الحارس الذي يفتح الباب والرجل الذي يأتيني بالحساء والكلاب التي كانت تلعب أمام نافذتي. **كنت خائفًا من الفرح.**» (الإبراز مضاف). ثم يصف كم جعلته الشجرة التي في الفناء غاضباً عندما بدأت تزهر. ويروي عن استجابته لعيد الميلاد الثالث في السجن عندما حاول المدير أن يجعل اليوم ساراً للسجناء ليساعدهم على النسيان:

ولكنني لاأريد أن أنسى. عليّ اللعنة إذا نسيت. كنت على الدوام أريد أن أستعيد في ذهني كل يوم وكل ساعة من الماضي. فهذا يخلق بغاضة قوية. لاأريد أن أنسى أي إذلال، أي احتقار، أية إيماءه متعجرفة، أريد أن أفكر في كل خسّة عوملت بها، كل كلمة سبّبت لي الألم وكان يُقصد منها إيلامي. أريد أن أتذكر كل وجه وكل تجربة وكل عدو. ***أريد أن أغمر حياتي كلها بكل القذَر المقزّز، بهذه الكتلة المتكدّسة من الذكريات المقزّزة. لاأريد أن أنسى؛ ولكن الخير القليل الذي حدث لي هو أنني أريد أن أنسى.*** [الإبراز مضاف].

وبمعنى معين فإن فون سالومون وكرن وأفراد حلقتهما الصغيرة يمكن أن يُعدّوا ثوريين، فقد أرادوا القضاء الكلي على البنية الاجتماعية والسياسية الموجودة وأن ينزلوا مكانها نظامًا قومويًا عسكرانيًا -لم تكن لديهم أية فكرة ملموسة عنه. ولكن الثوري بمعناه في علم الطباع ليس الشخص الذي يتصف بمجرد الرغبة في إسقاط النظام القديم؛ وإذا لم تحرضه محبة الحياة والحرية، فهو متمرد تدميري. (وهذا يصدق كذلك على الذين يشاركون في حركة ثورية حقيقية، ولكن تحرضهم التدميرية.) ولو حللنا الواقع النفسي لهؤلاء الناس، لوجدنا أنهم مدمرون لاثوريون. إنهم لايكرهون أعداءهم وحسب، بل يكرهون الحياة ذاتها. ويغدو هذا واضحًا جدًا في قول كرن وفي وصف فون سالومون لرد فعله على الرجال في السجن، وعلى الأشجار، وعلى الحيوانات. إنه يشعر نحو أي شخص أو أي كائن حي بعدم الارتباط وعدم الاستجابة إطلاقًا.

وغرابة هذا الموقف لافتة للنظر بوجه خاص إذا فكّر المرء في موقف الكثيرين من الثوريين الحقيقيين في حياتهم الخاصة، ولاسيما في السجن. ويتذكر المرء رسائل روزا لوكسمبورغ Rosa Luxemburg الشهيرة في السجن التي تصورّ فيها وبرقة شعرية ذلك الطائر الذي تستطيع أن تلاحظه من زنزانتها، وهي رسائل لايوجد فيها أي أثر للمرارة. ولكن لايحتاج المرء إلى أن يفكر في شخصية غير عادية مثل روزا لوكسمبورغ. فقد وُجد، ويوجد، آلاف من الثوريين في السجن في كل بقاع العالم لم تنقص فيهم محبة كل ما هو حي في أثناء سنواتهم في السجن.

ولكي نفهم لماذا كان يَنشد أشخاص أمثال كرن وفون سالومون أداء أدوارهم في الكره والتدمير علينا أن نعرف المزيد عن تاريخهم؛ وهذه المعرفة غير متوافرة، وعلينا أن نقنع بالمعرفة عن شرط واحد لعبادتهم للكره. إن العالم الكلي قد انهار، أخلاقيًا واجتماعيًا. قيمهم القوموية، ومفهومهم الإقطاعي للشرف والطاعة، فهذه

أمور قد فقدت أساسها في هزيمة المَلَكية. (على الرغم من أنها في التحليل الأخير لم تكن الهزيمة العسكرية التي أوقعها الحلفاء، بل المسيرة الظافرة للرأسمالية في داخل ألمانيا هي التي قضت على عالمهم شبه الإقطاعي.) فما تعلّموه بوصفهم ضباطًا صار الآن عديم الجدوى، مع أن فرصهم المهينة ستكون بعد أربع عشرة سنة ممتازة. إن ظمأهم إلى الثأر، وانعدام المعنى في وجودهم الحالي، واجتثاثهم الاجتماعي، إن كل ذلك يذهب بعيداً ليفسّر عبادتهم للكره. ولكننا لانعرف إلى أي حد كانت تدميريتهم تعبيراً عن بنية طبع سبق أن تشكلّت قبل سنوات طويلة من الحرب العالمية الأولى. ويبدو على الأرجح أنه هذه كانت حالة كرن، في حين أفترض ُأن موقف فون سالومون ربما كان أشد آنيّة وتستحثّه بقوة شخصية كرن المؤثرة. ويبدو أن كرن ينتسب حقًا إلى البحث اللاحق في الطبع النكروفيلي. وقد قدّمته هنا لأنه يقدّم مثالاً جيدًا على العبادة التوثينية للكره.

ولعل ملاحظة أخرى أن تكون وثيقة الصلة بهذين المثالين وبالأمثلة الأخرى الكثيرة على التدميرية، ولاسيما بين الجماعات. إن الشخص قد يكون رد فعله الأول هو العدوان الدفاعي على التهديد؛ وهو بهذا السلوك يكون قد أسقط الموانع التقليدية من السلوك العدواني. وهذا يسهّل على الأنواع الأخرى من العدوانية، كالتدمير والقسوة، أن تكون منفلتة. وقد يؤدي ذلك إلى رد الفعل المتسلسل الذي تصير فيه التدميرية من الشدة إلى حد أنه عندما تصل إلى «حجم خطير»، فالنتيجة هي حالة الوَجْد عند الشخص، وبصورة خاصة عند الجماعة.

الطبع التدميري: السادية

إن ظاهرة التفجُّرات العفوية الآنيّة لها أوجه كثيرة بحيث من الضروري القيام بقدر كبير من الدراسة الإضافية للوصول إلى فهم لها أكثر تحديدًا مما قُدّم في المقترحات التجريبية المقدَّمة في الصفحات السابقة. ومن جهة أخرى، فإن المعطيات حول التدميرية في أشكالها المرتبطة بالطبع أغنى وأكثر تحديدًا؛ وليس هذا

بالمدهش إذا أخذنا في الاعتبار أنها مكتسبة من الملاحظات المطوّلة للأفراد في التحليل النفسي وملاحظات الحياة اليومية، ثم إن الشروط التي تُحدِث هذه الأشكال من الطبع مستقرة نسبيًا وذات دوام طويل.

هناك مفهومان تقليديان لطبيعة السادية، يُستخدمان منفصلين أحيانًا، ومجتمعين أحيانًا أخرى.

ويُعبَّر عن أحد المفهومين بمصطلح «الشبق الألمي» (الألغولاغنيا -algolag nia) وتتكون الكلمة من algos بمعنى الألم و lagnia ومعناها الشبق، وقد وضعه فون شرِنك- نوتسِنغ - von Schrenk Notzing في بداية القرن العشرين. وقد ميَّز الألغولاغنيا الإيجابية الإيلامية (السادية) من الألغولاغنيا السلبية التألّمية (المازوخية). وفي هذا المفهوم تبدو ماهية السادية هي الرغبة في الإيلام، بقطع النظر عن أي ارتباط جنسي خاص.[1]

ويرى المفهوم الآخر أن السادية في ماهيتها ظاهرة جنسية- وفي مصطلحات فرويد أنها دافع اللبيدو المتحيز (وذلك في المرحلة الأولى من تفكيره)- ويفسّر الرغبات السادية التي لها صلة صريحة بالمجاهدات الجنسية بأنها تتحرض بهذه المجاهدات لاشعوريًا. وقد جرت تعبئة قدر كبير من العبقرية التحليلية النفسية لإثبات أن اللبيدو هو القوة الدافعة للقسوة، حتى حين لايمكن للعين المجردة أن تكتشف مثل هذه التحريضات الجنسية.

ولانكران أن السادية الجنسية هي، مع المازوخية الجنسية، أشهر الانحرافات الجنسية وأكثرها حدوثًا. وهي بالنسبة إلى الناس المصابين بهذا الانحراف شرط للإهاجة الجنسية والتفريج. وهي تتفاوت بين الإيلام الجسدي لامرأة، مثلاً،

١- راجع J.P.de River (1956). ويحتوي هذا الكتاب على مجموعة من تواريخ الحالات الإجرامية المثيرة للاهتمام التي تعالج الأعمال السادية، ولكن يشكو هذا الكتاب من استخدامه غير التمييزي لمفهوم «السادية» ليشمل الدوافع المختلفة إلى إيذاء الآخرين.

بضربها- وإذلالها، ووضع الأغلال فيها، أو إرغامها على الطاعة التامة في النواحي الأخرى. وفي بعض الأحيان يحتاج السادي إلى إيقاع الألم المبرّح والمعاناة الشديدة لكي يُثار جنسياً: وفي بعض الأحيان يكون للكمية الصغيرة من ذلك الأثرُ المرغوب فيه. وفي مرات كثيرة تكون الأخيولة السادية لإثارة الهياج الجنسي، وليس هناك عدد قليل من الرجال الذين لديهم جماع جنسي طبيعي مع زوجاتهم، ولكن المجهول عند شريكهم هو الحاجة إلى الأخيولة السادية ليتهيّج جنسياً. وفي المازوخية الجنسية يكون المنوال معكوساً: إذ تكمن إثارة المرء في أن يكون مضروباً وخاضعًا لسوء المعاملة والأذى. وكلا الانحرافين السادي والمازوخي الجنسيان موجودان بكثرة بين الرجال. ويبدو أن السادية الجنسية أكثر انتشاراً بين الرجال منها بين النساء، وعلى الأقل في ثقافتنا؛ وأن تكون المازوخية أكثر وقوعًا بين النساء أمر من الصعب التحقّق منه لانعدام المعلومات الموثوق بها حول الموضوع.

وقبل الشروع في البحث في السادية يبدو أن من المناسب تقديم بعض التعليقات على مسألة هل هي انحراف، وإذا كانت كذلك، فبأي معنى.

لقد صار دارجًا بين بعض المفكرين الراديكاليين سياسيًا، أمثال هربرت ماركوزه، أن يُثنوا على السادية بوصفها أحد التعبيرات عن الحرية الجنسية. وكتابات المركيز ده ساد تعيد طبعها المجلات الراديكالية السياسية بوصفها تجليًا لهذه «الحرية». فقد قبلوا حجة ده ساد أن السادية رغبة جنسية، وأن الحرية تقتضي أن يملك الناس الحق في إشباع رغباتهم السادية والمازوخية، ككل الآخرين، إذا أعطاهم الإشباع اللذة.

والمشكلة معقدّة تمامًا. وإذا كان المرء، كما كان يجري، يعّرف أية ممارسة جنسية لاتفضي إلى إنجاب الأطفال، أي لاتؤدّي إلا إلى اللذة الجنسية بأنها انحراف، فلاريب أن يهبّ كل الذين يعارضون هذا الموقف التقليدي- وهم على حق في ذلك- دفاعًا عن «الانحرافات». ومهما يكن، فإن هذا التعريف ليس

التعريف الوحيد للانحراف، وهو في الحقيقة تعريف عتيق ومهجور إلى حد ما.

إن الرغبة الجنسية، حتى عندما لايكون الحب موجوداً، هي تعبير عن الحياة وإعطاء اللذة وتقاسمها. ولكن الأعمال الجنسية التي تتصف بأن يصير أحد الشخصين موضوعًا لاحتقار الآخر، ورغبته في الإيذاء، ورغبته في السيطرة ليست إلا الانحرافات الجنسية الحقيقية؛ لالأنها لاتخدم الإنجاب، بل لأنها تحرف دافع خدمة الحياة إلى دافع خنق الحياة.

وإذا قارن المرء السادية بشكل من السلوك الجنسي كثيراً ما كان يُدعى انحرافًا- أي كل أنواع الاتصال الفمي- التناسلي صار الاختلاف واضحًا تمامًا. فالسلوك الأخير بوصفه تقبيلاً إنما هو انحراف صغير، لأنه لاينطوي على السيطرة على شخص آخر وإذلاله.

والحجة القائلة بأن متابعة المرء رغباته هي حقه الطبيعي ومن ثم فإن احترامها يمكن أن يكون مفهومًا جداً من وجهة نظر عقلانية، ما قبل فرويدية، تفترض أن رغبات الإنسان هي وحدها الخير بالنسبة إليه، ومن ثم فإن اللذة هادية إلى العمل المرغوب فيه. ولكن هذه الحجة تبدو بعد فرويد بالية إلى حد ما. فنحن نعرف أن الكثير من رغائب الإنسان غير عقلية، وبالضبط لأنها تؤذيه (إذا لم تؤذِ الآخرين) وتتعارض مع نموه. والشخص الذي تحرّضه الرغبة في التدمير والذي يشعر باللذة في فعل التدمير لن يستطيع أن يقدم التبرير لامتلاكه الحق في أن يتصرف تدميريًا لأن هذه هي رغبته ومصدر لذته. وقد يردّ المدافعون عن الانحراف السادي بأنهم لايُحاجّون لصالح إشباع الرغبات التدميرية القاتلة؛ وأن السادية هي مجرد تبدٍّ من تبدّيات الدافع الجنسي الكثيرة، وأنها «مسألة ذوق»، وليست أسوأ من أي شكل آخر من الإشباع الجنسي.

إن هذه الحجة تغفل أهم نقطة في المسألة: وهي أن الشخص الذي تثيره الممارسات السادية جنسيًا له **طبع** سادي- أي أنه سادي، شخص له رغبة شديدة في

السيطرة على شخص آخر وإيذائه وإذلاله. وشدة رغباته السادية تؤثّر في دوافعه الجنسية؛ وهذا لايختلف عن أن التحريضات الأخرى غير الجنسية، كالانجذاب إلى السلطة، أو الغنى، أو النرجسية يمكن أن تثير الرغبة الجنسية. وفي الواقع، ليس هناك مجال سلوكي يظهر فيه طبع الشخص أكثر مما يظهر في الفعل الجنسي- وبالضبط لأنه السلوك الأقل نمذجة و «اكتساباً بالتعلّم». وحب الشخص، أو رقة فؤاده، أو ساديته أو مازوخيته، أو جشعه، أو نرجسيته- وبالفعل كل سمة في طبعه- يعبَّر عنها في سلوكه الجنسي.

وفي بعض الأحيان تقدَّم الحجة التي مفادها أن الانحراف السادي مفيد صحيّاً لأنه يوفّر مصرفًا مأمون الجانب للنزعات السادية المتأصّلة في كل الناس. ووفقًا لهذه الحجة فإن حراس معسكر الاعتقال عند هتلر كان من شأنهم أن يكونوا لطفاء مع السجناء لو أنهم استطاعوا التفريج عن ميولهم السادية في علاقاتهم الجنسية.

أمثلة على السادية- المازوخية الجنسية

إن الأمثلة التالية على السادية والمازوخية الجنسية هي من كتاب «قصة أو» The Story of O من تأليف پولين رياج (1965) Pauline Réage، وهو إلى حد ما أقل مقروئية من أعمال ده ساد الكلاسيكية.

دوّت. فكبّل پيير يديها فوق رأسها بزنجير السرير. وعندما تقيّدت على هذا النحو قبّلها عاشقها مرة أخرى، واقفًا بجانبها على السرير، وأخبرها من جديد أنه يحبها، ثم نهض عن السرير وأومأ لپيير. وراقب صراعها، العقيم جداً؛ واستمع إلى أنّاتها وهي تعلو وتصير صرخات. وعندما انهمرت دموعها، صرف پيير. وكانت بعدُ تجد القوة لتقول له من جديد إنها تحبّه. ثم قبّل وجهها المبلّل، وفمها اللاهث، وحل قيودها، وألقاها، وغادرها. (P.Réage, 1965)

يجب أن تكون «أو» من دون إرادة؛ ويجب أن تكون لعاشقها وأصدقائه السيطرة التامة عليها؛ فهي تجد سعادتها في العبودية وهم في دور السادة المطلقين. والمقتطف التالي يعطينا صورة عن هذا الجانب من العمل السادي- المازوخي. (يجب أن يوضَح أن أحد شروط سيطرة عاشقها هو أن تخضع لأصدقائه بالطاعة التي ترضخ بها له. وأحدهم هو السير ستيفن.)

وأخيراً جلست مستوية، وكأن ما كانت ستقوله يغمّ نفسها، وفكّت الكلاليب العلوية لسترتها، حتى صار شق نهديها مرئيًا. ثم وقفت. وكانت يداها وركبتها ترتجف.

وقالت لرنيه بإسهاب، «إنني ملكك، وسأكون ما تريدني أن أكون.»

فقاطعها، «لا. ملكنا. رددي بعدي. إنني أنتمي إلى كليكما. وسأكون ما يريده كلاكما أن أكون.»

وكانت عينا السير ستيفن الشهباوان ثابتتي التحديق إليها، كما كانت عينا رنيه، وكانت ضائعة بين التحديقين، تردد ببطء بَعدَه العبارات التي كان يمليها عليها، ولكن كدرس الصرف، كانت تحوّلها إلى صيغة المتكلم.

«تسلّمين للسير ستيفن ولي بالحق...» الحق في التصرف بجسدها كلما أراد، في أي مكان وبأية طريقة يختارانهما، والحق في إبقائها مكبّلة، والحق في ضربها بالسوط مثل عبدة أو أسيرة لأقل تقصير أو مخالفة، أو لمجرد متعتهما، والحق في ألا يباليا بتوسلاتها وصرخاتها، إذا جعلاها تضج. (P.Réage,1965)

لاتشكّل السادية (والمازوخية) بوصفهما انحرافين جنسيين إلا شيئًا طفيفًا من كمية السادية الهائلة التي ترتبط بالسلوك غير الجنسي. فالسلوك السادي غير الجنسي، الهادف إلى الإيلام الجسدي الذي يصل إلى حد الموت، يكون موضوعَه كائن لاحول له ولاقوة، سواء أكان إنسانًا أم حيوانًا. وقد كان أسرى الحرب،

والعبيد، والأعداء المهزومون، والأطفال، والمرضى (ولاسيما المرضى ذهنيًا)، ونزلاء السجون، وغير البيض المجردون من الأسلحة، والكلاب- لقد كانوا جميعًا موضوع السادية الجسدية، التي تتضمن غالبًا أقسى التعذيب. ومن العروض الفخمة للقسوة في روما إلى وحدات الشرطة الحديثة، كان التعذيب يُستخدم تحت قناع المقاصد الدينية والسياسية، وفي بعض الأحيان لتسلية الجماهير المعدمة بكل صراحة. و«المدرَّج» في روما هو بالفعل مأثرة من أكبر مآثر السادية البشرية.

وأحد أوسع تجليّات السادية غير الجنسية انتشاراً هو سوء معاملة الأطفال. ولم يصبح هذا الشكل معروفًا على نطاق واسع إلا في السنوات العشر الأخيرة بفضل عدد من الأبحاث بدءاً بالعمل الذي هو الآن كلاسيكي وقام به كمب وزملاؤه (1962) . C.H.Kempe et al. ومنذ ذلك الحين نُشر عدد من الأبحاث الأخرى،[1] والأبحاث الإضافية جارية مجراها على المستوى القومي. وهي تُظهر أن سوء معاملة الأطفال يتراوح بين التسبّب بالوفاة بالضرب المبرّح والتجويع المقصود إلى التسبّب بالأورام والجروح الأخرى غير المميتة. وحول الحدوث الحقيقي لمثل هذه الأعمال فنحن نكاد حقًا لانعرف شيئًا، مادامت المعلومات المتيّسرة تأتي من المصادر العامة (مثلاً، من رجال الشرطة الذين يطلب الجيران حضورهم، ومن المشافي)، ولكن المتفق عليه أن عدد الحالات المخبَر عنها ليس إلا جزءاً يسيراً من كل الحالات. ويبدو أن أوفى المعلومات هي المعلومات التي يرويها «جل» عن اكتشافات الدراسة الاستطلاعية على مستوى البلد كله. ولن أذكر إلا معلومة من هذه المعلومات: إن الأعمار التي يتعرّض فيها الأطفال لسوء المعاملة يمكن تقسيمها إلى عدة فترات: (١) من سن السنة إلى سن السنتين؛ (٢) ويتضاعف حدوث ذلك من سن الثالثة إلى سن التاسعة؛ (٣) من سن التاسعة إلى الخامسة

1- cf. D.G.Gill (1970); in R. Helfiner and C. H.Kempe, eds.(1968),cf.S.X Rad-hill,also B.F.Steele and C.B.Pollock.

عشرة يتضاءل حدوث ذلك حتى يقارب المستوى الباكر ويختفي بالتدريج بعد سن السادسة عشرة (D.G.Gill,1970) . وهذا يعني أن السادية تكون أشد عندما يكون الطفل عاجزاً بعد، ولكنه قد بدأ في أن تكون له إرادته ورد فعله على رغبة البالغ في التحكّم الكامل فيه.

والقسوة الذهنية، وهي الرغبة في إذلال الآخر وإيذاء مشاعره، من المحتمل حتى أن تكون أوسع انتشاراً من السادية الجسدية. وهذا النمط من الهجوم السادي أكثر أمانًا للسادي بكثير؛ فبالرغم من كل شيء، فليست القوة الجسدية هي التي تُستخدم بل «مجرد» كلمات. ومن جهة أخرى، فإن الألم النفسي يمكن أن يكون في شدة الألم الجسدي أو حتى أكثر. ولست بحاجة إلى تقديم أمثلة على هذه السادية الذهنية. فالآباء يسببونها لأطفالهم، والأساتذة لطلابهم، والأعلى مقامًا للذين هم أدنى منهم- وبكلمات أخرى، فهي تُستخدم في أي وضع يكون فيه شخص لايستطيع أن يدافع عن نفسه في وجه السادي. (وإذا كان المعلم ضعيفًا، تحوّل الطلاب في الكثير من الأحيان إلى ساديين.) ويمكن أن تتقنّع السادية الذهنية بطرق كثيرة تبدو في الظاهر غير مؤذية: بالسؤال، بالابتسامة، بالملاحظة المربكة. من لايعرف «فنانًا» في هذا النوع من السادية، من لايعرف الشخص الذي حسبُه أن يعثر على الكلمة المناسبة أو الإيماءة المناسبة ليربك أو يُذلّ الآخر بهذه الطريقة البريئة؟ ومن الطبيعي أن هذا النوع من السادية غالبًا ما يكون أشد تأثيراً بكثير عندما تقع الإهانة أمام الآخرين.[1]

جوزيف ستالين: حالة سريرية من السادية غير الجنسية

كان ستالين أحد الأمثلة التاريخية البارزة على السادية الذهنية والبدنية على السواء. فسلوكه وصف مدرسي للسادية غير الجنسية، كما كانت روايات ده ساد

١- يقول التلمود إن من أهان شخصاً أمام الآخرين كمن قتله.

وصفًا مدرسيًا للسادية الجنسية. كان أول من أمروا بتعذيب السجناء السياسيين منذ بداية الثورة، وهو إجراء كان الثوريون الروس حتى زمن إصدار هذا الأمر ينأون بأنفسهم عنه. (R.A.Medvedev,1971). [1] وفي ظل ستالين فاقت طرق التعذيب التي استخدمها رجال المخابرات في الإتقان والقسوة أي شيء فكرت فيه الشرطة القيصرية. وفي بعض الأحيان كان يُصدر الأوامر شخصيًا حول نوع التعذيب الذي يجب أن يعذّب به السجين. وكان على الأكثر يمارس السادية الذهنية، التي أود أن أقدم بضعة أمثلة توضحها. وكان أحد الأشكال التي يستمتع بها ستالين هو طمأنة الناس أنهم في أمان، وما ذلك إلا ليوقفهم بعد يوم أو يومين. ولاريب أن التوقيف يصدمهم بأقسى ماتكون الصدمة لأنهم كانوا يشعرون شعوراً خاصًا بالأمان؛ وإلى جانب ذلك، كان ستالين يتمكن من التمتّع باللذة السادية في معرفة مصير الرجل في الوقت الذي يطمئنه برضاه عنه. ماذا يوجد أكبر من التفوق والسيطرة على شخص آخر؟

وها هي بعض الأمثلة الخاصة التي يوردها ميد ڤيديف Medvedev :

قبيل توقيف بطل الحرب الأهلية د. ف. سرديتش D.F.Serdich ، شرب ستالين نخبَه في حفلة استقبال، موحيًا أنهما يشربان «نخب الأخوّة». وقبل بضعة أيام من القضاء على بليوخر Bliukher ، تكلّم ستالين معه بحميمية في أحد الملتقيات. وعندما جاء وفد أرمني إلى ستالين، سأله عن الشاعر تشارنتس Char-ents وقال إنه لن يُمسّ، ولكن بعد بضعة أشهر تم توقيف تشارنتس وقتله. وتحدثت زوجة نائب رئيس دائرة «أورجونيكيدز» الحكومية، أ. سيريبروفسكي A.Serebrovskii عن مكالمة هاتفية غير متوقعة من ستالين ذات مساء في سنة 1937. قال ستالين، «أسمع أنك تجولين على قدميك. وذلك ليس جيدًا. فقد يعتقد الناس بما يجب ألا يعتقدوا به. سأرسل إليك سيارة إذا تم إصلاح

---

١ - إن الشواهد في هذا القسم هي من العمل نفسه.

سيارتك.» وفي الصباح التالي وصلت سيارة من مرآب الكرملين لتستخدمها السيدة سيريبروفسكي. ولكن بعد يومين تم توقيف زوجها، وقد أُخذ من المشفى مباشرة.

وكان المؤرخ الشهير والخبير بالشؤون العامة ي. ستكلوف Steklov قد شوّشته كل أعمال التوقيف، فاتصل هاتفيًا بستالين وطلب إليه تحديد موعد للقاء. فقال ستالين، «حتمًا، تعال في الحال»، وطمأنه حين التقيا: «مابالك؟ إن الحزب يعرفك ويثق بك؛ وليس هناك ماتقلق بشأنه.» وعاد ستكلوف إلى البيت وإلى أصدقائه وأسرته، وفي تلك الليلة عينها جاءه رجال المخابرات. ومن الطبيعي أن فكرة أصدقائه وأسرته الأولى كانت الاستنجاد بستالين، الذي بدا أنه لايعرف ماذا يجري. وكان الاعتقاد بجهل ستالين أسهل من الاعتقاد بغدره الماكر. وفي سنة 1938، سقط أ. أكولوف A.Akulov، الذي كان ذات حين أمين خزينة الاتحاد السوفييتي، وفيما بعد سكرتير اللجنة التنفيذية الوسطى، سقط وهو يتزلّج وأصيب بارتجاج في الدماغ كاد يودي بحياته. وبإيعاز من ستالين تمّ إحضار الجرّاحين البارزين من الخارج لإنقاذ حياته. وبعد معافاة طويلة وصعبة، عاد إلى عمله، وعلى إثر ذلك تمّ توقيفه وإطلاق الرصاص عليه.

وكان الشكل المتقن بصورة خاصة من السادية هو عادة ستالين في توقيف زوجات كبار الموظفين السوفييت أو الحزبيين- وفي بعض الأحيان أطفالهم- وإبقائهن في معسكر تشغيل المعتقلين، في حين أن على أزواجهن أن يُرجعوا قدمًا إلى الوراء ماسحين بها الأرض وهم ينحنون أمام ستالين من دون أن يجرؤوا على المطالبة بالإفراج عنهن. وعلى هذا المنوال جرى توقيف زوجة كالينين Kalinin رئيس الاتحاد السوفييتي سنة 1937,[1] وزوجة مولوتوف Molotov، وزوجة أحد الموظفين البارزين وهو أوتو كوسينن Otto Kuusinen وابنه، وأرسلوا جميعًا نساءً

١ - يورد ميدفيديف أنه قد عذّبها المحققون حتى وقّعت على عبارات تضع زوجها موضع الريبة، وتغاضى عنها ستالين إلى حين؛ فقد كان يريدها أساسًا لتوقيف كالينين والآخرين متى يروق له ذلك.

وأطفالاً إلى معسكر تشغيل المعتقلين. ويقول شاهد لم يُذكَر اسمه إن ستالين سأل كوسين بحضوره لماذا لم يحاول أن يحرر ابنه. فأجابه كوسين، «من الواضح أن هناك أسبابًا وجيهة لاعتقاله». ووفقًا للشاهد، «فكشّر ستالين وأمر بإطلاق سراح ابن كوسين.» وأرسل كوسين جعُب زوجته إلى معسكر تشغيلها ولكنه لم يرسلها بنفسه بل ترك مدبرة شؤون منزله تقوم بذلك. وقد قام ستالين بتوقيف زوجة سكرتيره الخاص، في حين ظل زوجها في منصبه.

لا يتطلّب الكثير من الخيال أن نتصور المهانة الشديدة التي لحقت بهؤلاء الموظفين الذين لم يستطيعوا ترك وظائفهم، ولم يستطيعوا أن يطلبوا الإفراج عن زوجاتهم أو أبنائهم، وعليهم أن يوافقوا ستالين على أن التوقيف كان مبررًا. فإما أن هؤلاء الناس عديمو المشاعر تمامًا، وإما أنهم معطوبون أخلاقيًا وقد فقدوا كل احترام للذات وإحساس بالكرامة. والمثال البليغ هو رد فعل شخص من أقوى الأشخاص في الاتحاد السوفييتي، وهو لازار كاغانوفيتش Lazar Kaganovich على توقيف أخيه ميخائيل مويسيفيتش Mikhail Moiseevich ، الذي كان وزيراً لصناعة الطيران قبل الحرب:

كان ستالينيًا، مسؤولاً عن قمع الكثير من الناس. ولكنه بعد الحرب لم يعد ستالين راضيًا عنه. وفي النتيجة، فإن بعض الموظفين الموقوفين، الذين زُعم أنهم أسسوا «مركزًا فاشيًا» تحت الأرض، قد ذكروا اسم ميخائيل كاغانوفيتش بوصفه شريكًا في الجريمة. لقد زعموا الزعم الموعَز به بوضوح (والذي لا يُعقل مطلقًا) أنه هو (اليهودي) قد تقرر أن يكون نائبًا لرئيس الحكومة الفاشية لو استولى الهتلريون على موسكو. وعندما علم ستالين بهذه الشهادات، التي من الواضح أنه توقّعها، اتصل هاتفيًا بـ «لازار كاغانوفيتش» وقال له إن أخاه يجب توقيفه لأنه كان على صلة بالفاشيين. فقال لازار، «طيب، ماذا إذن؟ إذا كان ذلك ضروريًا، أوقفوه!» وفي مناقشة اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي لهذا

الموضوع، أثنى ستالين على لازار لـ «مبادئه»: لقد وافق على توقيف أخيه. ولكن ستالين أضاف بعد ذلك أن التوقيف يجب ألا يتمّ على عجل. وقال ستالين، لقد كان ميخائيل مويسيڤيتش في الحزب منذ سنوات كثيرة، ويجب التحقّق من صحة الشهادات مرة أخرى. وهكذا جرى الإيعاز إلى ميكويان Mi-koyan بترتيب مواجهة بين م.م. والشخص الذي شهد ضده. وتمت المواجهة في مكتب ميكويان. وأُحضر إليه رجل كرر شهادته بحضور كاغانوڤيتش، مضيفًا أن بعض مصانع الطائرات قد بُنيت عمدًا قرب الحدود قبل الحرب حتى تتمكن القوة الألمانية من الاستيلاء عليها بسهولة أشد. وعندما سمع ميخائيل كاغانوڤيتش الشهادة، طلب الإذن له بالذهاب إلى مرحاض صغير ملاصق لمكتب ميكويان. وهناك سُمع صوت عيار ناري بعد بضع ثوان.

وهناك بعدُ شكل آخر لسادية ستالين هو عدم إمكان توقّع سلوكه. فهناك أحوال فيها أناس أمر بتوقيفهم، ولكنهم بعد التعذيب والأحكام القاسية أُطلق سراحهم بعد عدة أشهر أو سنوات وعُيّنوا في مناصب رفيعة، من دون تفسير في أغلب الأحيان. والمثال الناطق هو سلوك ستالين نحو رفيقه القديم سيرجي إيڤانوڤيتش كاڤتارادزه Sergei Ivanovich, Kavtaradze،

الذي ساعده في إحدى المرات على الاختباء والتواري عن أعين الشرطة السريين في سانت بطرسبورغ. وكان كاڤتارادزه قد انضم في العشرينيات إلى المعارضة التروتسكية، ولم يتركها إلا عندما ناشد المركز التروتسكي مؤيديه أن يتوقفوا عن النشاط المعارض. وبعد جريمة قتل كيروف، نُفي كاڤتارادزه إلى «كازان» بوصفه تروتسكيًا سابقًا، وكتب رسالة إلى ستالين يقول فيها إنه لم يكن يعمل ضد الحزب. فأعاد ستالين كاڤتارادزه من المنفى على الفور. وسرعان مانشرت صحف مركزية كثيرة مقالة كتبها كاڤتارادزه يسرد فيها واقعة عمله الخفي مع ستالين. وأحب ستالين المقالة، ولكن كاڤتارادزه لم يعد يكتب شيئًا حول هذا الموضوع. ولم يُعد حتى انضمامه إلى الحزب، وعاش على القيام بعمل

تحريري متواضع. وفي نهاية 1936 تم توقيفه فجأة هو وزوجته، وبعد التعذيب حُكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص. كان قد اتُّهم بالتخطيط مع بودو مديفاني Budu Mdivani لقتل ستالين. وبُعيد صدور الحكم، تم تنفيذ الحكم رمياً بالرصاص بحق مديفاني. ولكن كافتارادزه تم إبقاؤه في زنزانة الموت مدة طويلة. ثم أُخذ إلى مكتب بيريا Beria حيث قابل زوجته، التي شاخت إلى حد أنها أصبحت لاتُعرف. وتم الإفراج عن كليهما. وفي البدء عاش في أحد الفنادق؛ ثم حصل على غرفتين في شقة مشتركة وبدأ العمل. وأخذ ستالين يُظهر له شتى علامات الاستحسان، فيدعوه إلى الغداء وفي إحدى المرات يقوم حتى بزيارته مع بيريا. (وأحدثت هذه الزيارة هياجاً شديداً في الشقة المشتركة. وقد أُغمي على جارة من جيران كافتارادزه عندما، حسب كلماتها «ظهرت في العتبة صورة الرفيق ستالين»). وعندما كان ستالين يدعوه إلى الغداء، كان يصبّ له الحساء بنفسه، ويروي النكات، ويستعيد الذكريات. ولكن ستالين في إحدى مناسبات الغداء هذه، هبّ فجأة في وجه ضيفه وقال، «ومازلت تريد قتلي.»[١]

يُرينا سلوك ستالين في هذه الحالة بوضوح خاص عنصراً في طبعه- هو الرغبة في أن يُظهر للناس أنه يمتلك السلطة المطلقة والسيطرة المطلقة عليهم. فبكلمة منه يمكن أن يقتلهم، وأن يعذّبهم، وأن ينقذهم ثانية، وأن يكافئهم، إن له قدرة الله على الحياة والموت، والقدرة على أن يجعل الطبيعة تنمو أو تفنى، وعلى الإيلام وعلى الشفاء. فالحياة والموت يعتمدان على هواه. وهذا الأمر يمكن أن يفسّر كذلك لماذا لم يقض على بعض الناس أمثال ليتفينوف Litvinov (بعد إخفاق سياسته في التفاهم مع الغرب) أو إيرنبورغ Ehrenburg الذي كان يمثّل كل شيء يكرهه ستالين، أو پاسترناك Pasternak، الذي انحرف في الاتجاه المعاكس لإيرنبورغ. ويقدّم ميدفيديف التفسير وهو أنه قد حافظ في بعض الأحوال على البلاشفة

١- يقول ميدفيديف، لاشك أن ستالين كان يعلم جيداً أن كافتارادزه لم يكن يريد قتله.

القدماء أحياء ليدعم الزعم أنه كان يواصل عمل لينين. ولكن من المؤكد أن ذلك لايمكن أن يقال في حالة إيرنبورغ. وأقدّر أن الحافز هنا أيضًا هو أن ستالين كان يستمتع بالإحساس بالسيطرة على هواه ووفقًا لحالته، ولايتقيد بأي مبدأ- حتى بأسوأ المبادئ.

طبيعة السادية

لقد قدّمتُ هذه الأمثلة على سادية ستالين لأنها تفيد كثيراً في تقديم المسألة المحورية: **طبيعة السادية**. وقد تناولنا وصفيًا إلى الآن مختلف أنواع السلوك السادي، الجنسي، والبدني، والذهني. وهذه الأشكال المختلفة من السادية ليس بعضها مستقلاً عن بعضها الآخر؛ والمشكلة هي العثور على العنصر المشترك، الذي هو ماهية السادية. وقد زعم التحليل النفسي الأرثوذكسي أن جانبًا معينًا من الدافع الجنسي هو المشترك في كل هذه الأشكال؛ ففي المرحلة الثانية من نظرية فرويد تم الجزم بأن السادية مزيج من الإيروس (الدافع الجنسي) وغريزة الموت، موجّهة من المرء إلى الخارج، في حين أن المازوخية مزيج من الإيروس وغريزة الموت، موجهة من المرء نحو ذاته.

وضد هذه الفكرة، أرى أن جوهر السادية، والمشترك في كل تبّدياتها، هو **الشغف بامتلاك السيطرة المطلقة وغير المحدودة على كائن حي**، سواء أكان حيواناً أم طفلاً أم رجلاً أم امرأة. وإجبار شخص على احتمال الألم أو الإهانة ليس التبّدي الوحيد مطلقًا. فالشخص الذي لديه السيطرة الكاملة على كائن حي آخر يحوله إلى شيء، إلى ملكية، في حين يغدو إلهَ الشخص الآخر. وفي بعض الأحيان يمكن أن تكون السيطرة مسعفة، وفي تلك الحالة يمكن أن نتحدث عن سادية محبة للخير، كما يجد المرء في الأحوال التي يحكم فيها أحد الأشخاص شخصاً آخر من أجل خير الآخر، وهو في الحقيقة يعمل على إنجاحه في الكثير من النواحي، باستثناء أنه يبقيه في حالة عبودية. إلا أن السادية في جلّها سيئة النية. فالسيطرة الكاملة على

إنسان آخر تعني شلّه، وخنقه، وإحباطه.

وتزوّدنا مسرحية «كاليغولا» Caligula لألبير كامو بمثال على النمط المتطرف من السيطرة السادية التي تبلغ مبلغ الرغبة في القدرة على كل شيء. فنرى كيف أن كاليغولا، الذي أوصلته الظروف إلى منصب السلطة غير المحدودة، يصير دائماً أعمق علوقاً باشتهاء السلطة. وينام مع زوجات أعضاء مجلس الشيوخ ويستمتع بإذلالهن عندما يكون عليهن أن يتصرفن مثل صديقات معجبات ومتملّقات. ويقتل بعضهن، وعلى من تظل ساكتة أن تبتسم وتمزح. ولكن حتى كل هذه السلطة لاتُشبعه؛ فهو يريد السلطة المطلقة، يريد المحال. وكما يجعله كامو يقول، «يريد القمر».

من السهل إلى حد كاف القول إن كاليغولا مجنون، ولكن جنونه طريقة في الحياة؛ إنه جزء من مشكلة الوجود الإنساني، لأنه يخدم وهم القدرة على كل شيء، وتجاوز حدود الوجود البشري. وكاليغولا في طور المحاولة للظفر بالسلطة المطلقة فَقَدَ كل صلته بالبشر. صار بطردهم مطروداً، وكان لابد من أن يُجنّ، عندما خاب سعيه للقدرة على كل شيء، فتُرك فرداً عاجزاً وحيداً.

ولاريب أن حالة كاليغولا استثنائية. فقليلون من الناس تكون لديهم في وقت من الأوقات فرصة الوصول إلى سلطة كبيرة بحيث يمكن أن تستغويهم أنفسهم حتى يتوهموا أنها يمكن أن تكون سلطة مطلقة. ولكن وُجد بعض هؤلاء الناس طوال التاريخ، حتى يومنا هذا؛ فإذا ظلوا منتصرين، يُحتفل بأنهم رجال دولة أو جنرالات عظام؛ وإن انهزموا، عُدّوا مجانين أو مجرمين.

وهذا الحل المتطرف لمشكلة الوجود الإنساني يُمنَع منه الشخص العادي. ومع ذلك ففي جلّ الأنظمة الاجتماعية، وفي جملتها أنظمتنا، يمكن حتى لأدنى المستويات الاجتماعية أن يسيطر على شخص يكون خاضعًا له. والموجودون دائماً هم الأطفال، أو الزوجات، أو الكلاب؛ أو الناس المغلوب على أمرهم كنزلاء

السجون، والمرضى في المشافي، إذا لم يكونوا أثرياء (وخصوصاً المرضى عقلياً)، والتلاميذ في المدارس، وأعضاء الأنظمة المكتبية المدنية. ويعتمد ذلك على البنية الاجتماعية وعلى مسألة إلى أية درجة تكون سلطة المترئسين مضبوطة ومقيدة وكم تقدم هذه الأوضاع من الإمكانية لإشباع السادية. وفضلاً عن كل هذه الأوضاع، فإن الأقليات الدينية والعرقية، بمقدار ماتكون ضعيفة، توفّر فرصة هائلة لإشباع السادية حتى لأفقر عضو من أعضاء الأكثرية.

والسادية هي إجابة من الإجابات عن مشكلة أننا وُلدنا بشراً عندما لايمكن الوصول إلى الإجابات الأفضل. وتجربة السيطرة المطلقة على كائن آخر، أي تجربة القدرة على كل شيء فيما يتعلق بالكائن الحي ذكراً أو أنثى أو حيواناً، تخلق وهم مجاوزة حدود الوجود البشري، ولاسيما للشخص الذي تكون حياته محرومة من الإنتاجية والفرح. والسادية في ماهيتها ليس لها هدف عملي؛ فهي ليست «تافهة» بل «تعبّدية». **إنها تحويل العجز إلى خبرة القدرة على كل شيء.**

وعلى أية حال، ليس كل وضع يكون فيه لشخص أو جماعة سلطة غير مضبوطة على غيره يُحدِث السادية. فالكثيرون من الآباء وحراس السجن ومعلمي المدارس والبيروقراطيين - وربما معظمهم - ليسوا ساديين. ولأية طائفة من الأسباب، فإن بنية طبع الأفراد الكثيرين ليست مُفضية إلى نشوء السادية حتى في الظروف التي تقدم فرصة لها. والأشخاص الذين لهم طبع يرفد الحياة دائماً لن تُغريهم السلطة بسهولة. ولكن سيكون من الإفراط الخطير في التبسيط أن أصنّف الناس في مجموعتين فقط: هما الشياطين الساديون والقديسون غير الساديين. فالمهم هو شدة العاطفة السادية ضمن بنية طبع في شخص معين. وهناك أشخاص كثيرون يمكن أن توجد في طباعهم عناصر سادية، ولكنها تتوازن مع نزعات قوية رافدة للحياة بحيث لايمكن أن يصنَّفوا ساديين. وليس نادراً في أمثال هؤلاء الأفراد وجود نزاع داخلي بين التوجّهين يؤدي إلى الحساسية المتعاظمة نحو السادية وإلى

التشكل الارتدادي لردود الأفعال النافرة من كل أشكالها. (قد تظل آثار نزعاتهم السادية ظاهرة في السلوك غير المهم، الهامشي، وتكون ضئيلة ضآلة كافية للإفلات من الإدراك.) وهناك غيرهم من ذوي الطبع السادي الذين تتعادل فيهم السادية على الأقل مع القوى التعويضية (وليس مجرد القوى المكبوتة)، ومع أنهم قد يشعرون بقدر معين من المتعة في السيطرة على الناس الذين لاحول لهم ولاقوة، فليس من شأنهم أن يشاركوا في التعذيب الفعلي وماشابهه من الفظائع أو أن يلتذوا بذلك (إلا في الظروف غير العادية، كالسُّعار الجماهيري). وهذا يمكن أن يبرهن عليه موقف نظام هتلر من الفظائع السادية التي أمر بها. فقد كان هذا النظام يضطر إلى أن يُبقي أمر إفناء بعض المدنيين من الألمان والبولونيين والروس سراً مكتوماً لاتعرفه إلا مجموعة صغيرة من قوة الشرطة الألمانية الخاصة SS، ولكنه كان يحجبه عن السكان الألمان. وفي الخطب الكثيرة التي يلقيها هملر وغيره من منفّذي الفظائع، كان يؤكّد أن أعمال القتل يجب أن تتم بطريقة «إنسانية»، من دون تجاوزات سادية، وإلا كانت بغيضة حتى لرجال القوة الخاصة. وفي بعض الأحوال كانت الأوامر تصدر بأن المدنيين الروس والبولونيين الذين لامناص من قتلهم يجب أن تُجرى لهم محاكمة صورية قصيرة لمنح منفذي إعدامهم الشعور بأن إطلاق النار «قانوني». ومع أن كل هذا يبدو سخيفاً في ريائه، فإن البرهان على أن القادة النازيين كانوا يعتقدون أن أعمال السادية واسعة النطاق من شأنها أن تكون مقزّزة لمعظم الذين هم فيما عدا ذلك موالون مخلصون للنظام. وقد بان قدر كبير من المادة منذ ١٩٤٥، ولكن البحث المنّظم في الدرجة التي كان الألمان منجذبين بها إلى الأعمال السادية- ولو أنهم تجنّبوا المعرفة عنها- لم يتم بعد.

ولايمكن لخصال الطبع السادي أن تُفهم إذا عزلها المرء عن البنية الكلية للطبع. إنها جزء من تناذر يجب فهمه في كليته. وبالنسبة إلى الطبع السادي فإن كل شيء يعيش يمكن التحكّم فيه؛ فتصير الكائنات الحية أشياء. أو يظل الأدق، هو

أن كل الكائنات الحية تصبح أشياء للسيطرة تعيش وترتعش وتنبض. والسادي يريد أن يصير سيد الحياة، ولذلك من الواجب المحافظة على خصيصة الحياة في ضحيته. وهذا في الحقيقة مايميزه من الشخص التدميري. فالمدمّر يريد أن يتخلّص من الشخص، وأن يزيله، وأن يقضي على حياته؛ ويريد السادي الإحساس بالسيطرة على الحياة وخنقها.

والخصلة الأخرى في السادي هي أنه لايثيره إلا الضعفاء، وليس الأقوياء. فإنه لايسبّب أية لذة للسادي جَرح أحد الأعداء، مثلاً، في قتال بين المتساوين، لأن الجَرح في هذه الحالة ليس تعبيراً عن السيطرة. وبالنسبة إلى الشخص السادي فليست هناك خصيصة تدعو إلى الإعجاب إلا واحدة، وهي القوة. وهو يعجب ويحب الذين لديهم القوة ويخضع لهم، والذين يحتقرهم ويريد السيطرة عليهم هم العاجزون الذين لايستطيعون المقاومة.

والشخص السادي يخشى كل شيء لايكون يقينياً وقابلاً للتنبؤ به، بل يقدم المفاجآت التي تُرغمه على ردود الفعل العفوية والأصلية. ولاترعبه الحياة تحديداً إلا لأنها بطبيعتها غير قابلة للتنبؤ بها وغير يقينية. وأن يكون المرء محبوباً أمر يقتضي قدرته على أن يُحِب، وأن يثير الحب، وينطوي دائماً على خطر الرفض والخيبة. وهذا هو السبب في أن الشخص السادي لايمكن أن «يحب» إلا عندما يسيطر، أي عندما تكون له سلطة على موضوع حبه. والشخص السادي يكون لديه في العادة «رُهاب الأجانب» و«رُهاب الجِدّة» - فالشخص الذي هو غريب يشكّل الجِدّة، وما هو جديد يثير الخوف والشبهة والنفور، لأن من شأن ذلك أن يتطلّب الاستجابة العفوية والحية وغير المتواترة.

والعنصر الآخر في التناذر هو رضوخيّة السادي وجبنه. وقد يكون تناقضاً أن

السادي شخص رضوخي، ومع ذلك فإن هذا الأمر ليس عدم تناقض وحسب- وإنما هو بالحديث الدينامي ضرورة. فهو سادي لأنه يشعر بأنه عاجز، غير حي، وغير قادر. ويحاول أن يعوّض عن هذا العَوَز بامتلاكه السيطرة على الآخرين، بتحويله الدودة التي يكون إياها إلى إله. ولكن حتى السادي الذي لديه السيطرة يعاني من عجزه البشري. وقد يقتل أو يعذّب، ولكنه يظل شخصاً خالياً من الحب، منعزلاً، مذعوراً بحاجة إلى قوة أعلى منه ويمكن أن يخضع لها. وبالنسبة إلى الذين هم أدنى من هتلر مرتبة، كان «الفورر» * قوتهم العليا؛ وبالنسبة إلى هتلر نفسه، كانت القوة العليا هي القدر، وقوانين التطور.

وهذه الحاجة إلى الرضوخ راسخة الجذور في المازوخية. والسادية والمازوخية، المترابطتان بصورة ثابتة، هما ضدان من الناحية السلوكية، ولكنهما بالفعل وجهان مختلفان لحالة أساسية واحدة: الإحساس بالعجز الجوهري. والسادي والمازوخي يحتاج كلاهما إلى الكائن الآخر لـ «يكمل» نفسه، إن جاز القول. وكلاهما يفتش عن العلاقة التواكلية لأنه ليس له مركز في ذاته. وبينما يبدو أن السادي متحرر من ضحيته، فهو يحتاج إلى الضحية بطريقة عكسية.

وبسبب الصلة الوثيقة بين السادية والمازوخية فالأصح أن نتحدث عن الطبع السادي- المازوخي، ولو أن أحد الجانبين سيكون أكثر هيمنة في شخص معين. وقد أُطلق على الطبع السادي- المازوخي كذلك «الطبع التسلّطي»، بترجمة الجانب السيكولوجي في بنية طبعه إلى مصطلحات ذات موقف سياسي. ويجد هذا المفهوم تبريره في أن الأشخاص الذين يوصف موقفهم السياسي بأنه تسلّطي (إيجابي أو

---

* الفورر: من الكلمة الألمانية Führer وتعني الزعيم، وهو لقب أطلقه هتلر على نفسه. وبعضهم يلفظ اللقب خطأً «الفهرر». (المترجم)

سلبي) يكشف غالباً (في مجتمعنا) خصال الطبع السادي- المازوخي: التحكّم في الذين هم أدنى والخضوع لمن هم أعلى.[1]

ولايمكن فهم الطبع السادي- المازوخي تماماً من دون الرجوع إلى مفهوم فرويد في «الطبع الشرجي»، الذي وسّعه تلامذته، ولاسيما «ك. أبراهام» K.Abraham و«إرنست جونز» Ernest Jones.

واعتقد فرويد (1908) أن الطبع الشرجي يتجلّى في تناذر خصال الطبع: العناد، والترتيب، والبخل، وبعدئذ أُضيف إلى هذه الخصال الضبط في المواعيد، والنظافة. وافترض أن هذا التناذر راسخ الجذور في «اللبيدو الشرجي» الذي له مصدر في المنطقة الشرجية المهيّجة للشهوة الجنسية. وفُسّرت خصال الطبع في هذا التناذر بأنها تشكّلات ارتدادية أو تصعيدات لأهداف هذا اللبيدو الشرجي.

وفي محاولتي إحلال **نموذج الاتصال** محل نظرية اللبيدو، توصّلت إلى الفرضية القائلة بأن الخصال المتعدّدة لهذا التناذر هي تجلّيات لنموذج الاتصال القائم على إبقاء المسافة، والسيطرة، والرفض، والادخار («الطبع الادخاري») (E.Fromm, 1947). وهي لاتعني ضمناً أن ملاحظات فرويد السريرية فيما يتصل بالدور الخاص بكل شيء يخصّ الغائط وحركة الأمعاء لم تكن صحيحة. وعلى العكس، فقد وجدتُ في الملاحظة التحليلية النفسية للأفراد أن ملاحظات فرويد تتأكد تماماً. ولكن الاختلاف يكمن في الإجابة عن السؤال التالي: هل اللبيدو

---

١ - جرى تحليل الطبع التسلّطي أول مرة في الدراسة الألمانية المشار إليها في الفصل الثاني، الهامش الثامن. وأظهرت المعلومات أن / 78/ في المائة من المجيبين لم يكن لديهم طبع تسلّطي ولاطبع مضاد للتسلّطية ومن ثم فليس من شأنهم أن يكونوا، في حالة ظفر هتلر، نازيين متحمسين أو معادين للنازية متحمسين. وكان لدى ما يقرب من / 12/ في المائة طبع معادٍ للتسلّطية ومن شأنهم أن يظلوا أعداء للنازية عن اقتناع، في حين كان لدى زهاء / 10/ في المائة طبع تسلّطي ومن شأنهم أن يصبحوا نازيين متحمسين. وهذه النتائج تتفق بصورة قريبة جداًمع ما حدث بعد 1933 (E.Fromn et al.,1936). وبعدئذ درس ت. أدورنو T.Adorno الطبع التسلّطي. ومهما يكن، ففي هذه الدراسة عولج الطبع التسلّطي سلوكياً لاتحليلياً نفسياً على أساس الطبع السادي- المازوخي. (T.Adorno et al., 1950)

الشرجي هو **مصدر** الانشغال بالبراز، وبصورة غير مباشرة، مصدر التناذر في الطبع الشرجي، أم أن التناذر هو التبدّي لنمط خاص من الاتصال؟ وفي الحالة الثانية فإن الاهتمام الشرجي يجب أن يُفهم على أنه تعبير آخر، ولكنه **رمزي**، عن الطبع الشرجي، وليس على أنه **سببه**. وبالفعل، فإن البراز رمز مناسب جداً: إنه يمثّل ماأزيل من عملية الحياة البشرية ولم يعد يفيد حياة الإنسان. [1]

والشخص الادخاري مرتّب في علاقته مع الأشياء، والأفكار والمشاعر، ولكن ترتيبه عقيم وجامد. وهو لايتحمل أن تكون الأشياء في غير موضعها ويضطر أن يرتّبها؛ وبهذه الطريقة يسيطر على المكان؛ وبالدقة غير المعقولة في المواعيد يسيطر على الزمان؛ وبالنظافة الإلزامية يبطل الصلة التي له بالعالم الذي يُعدّ قذراً وعدائياً. (ولكنه في بعض الأحيان، عندما لايكون قد نشأ تشكّل ارتدادي أو تصعيد، لايفرط في النظافة بل يغلب عليه أن يكون قذراً.) والشخص الادخاري يَخبُر به مثل حصن محاصر؛ ويجب أن يمنع أي شيء من الخروج منه وأن يحفظ ما هو في داخل الحصن. وعناده وتشبّثه بالرأي دفاع شبه آلي في وجه التطفّل.

ويغلب على المدّخر أن يشعر أنه لايمتلك إلا كمية ثابتة من القوة والطاقة والقدرة الذهنية، وأن هذا الموجود يتناقص وينفد بالاستعمال ولايمكن ملؤه ثانية. وهو لايستطيع أن يفهم وظيفة إعادة الملء الذاتية في كل جوهر حي، وأن نشاطنا واستخدام قدراتنا تزيد قوتنا في حين أن التبلّد يُضعفها؛ وعنده أن الموت والدمار لهما واقع أكثر من الحياة والنمو. وفعل الإبداع معجزة يسمع عنها، ولكنه لايعتقد بها. والقيم العليا عنده قيمتان هما النظام والأمن؛ وشعاره: «لاجديد تحت الشمس.» وفي علاقته بالآخرين فإن الحميمية تهديد؛ ويعني الأمن إما ابتعاد الشخص وإما امتلاكه. ويميل المدخر إلى أن يكون مرتاباً وإلى أن يكون لديه

١- الذين يودون التظنّن قد يعتبرون أنّ الافتتان بالبراز والروائح يشكل نوعاً من النكوص الفيزيولوجي العصبي إلى مرحلة تطورية كان الإنسان فيها أكثر توجّهاً بالشم منه بالنظر.

إحساس خاص بالعدل يقول من حيث الماهية: «ما هو لي فهو لي وما هو لك فهو لك.»

والطبع الادخاري- الشرجي له طريقة واحدة في الشعور بالأمان في اتصاله بالعالم: بامتلاكه والسيطرة عليه، مادام عاجزاً عن وصل نفسه به بالحب والإنتاجية.

وقول التحليل النفسي الكلاسيكي بأن الطبع الادخاري -الشرجي له العلاقة الوثيقة بالسادية أمر أثبتت المعطيات السريرية صحته بصورة تكفي وتزيد، وسيكون ثمت اختلاف ضئيل بين أن يفسّر المرء هذه الصلة على أساس نظرية اللبيدو أو على أساس اتصال الإنسان بالعالم. وقد أوضحها كذلك أن الجماعات الاجتماعية ذات الطبع الادخاري- الشرجي تميل إلى إظهار قدر ملحوظ من السادية.[١]

وما يكاد يساوي الطبع السادي- المازوخي، بالمعنى الاجتماعي لاالسياسي، هو الطبع البيروقراطي.[٢] ففي النظام البيروقراطي فإن كل شخص يسيطر على

١ - راجع (E.Fromm (1941، حيث أظهرتُ هذه الصلة في الطبقة الألمانية الوسطى الدنيا.

٢- في حديثي عن البيروقراطيين أشير هنا إلى البيروقراطيين الباردين التسلّطيين الذين هم على الطراز كما لايزالون موجودين في الكثير من المشافي والمدارس والسجون ودوائر السكك الحديدية والبريد قديمة الطراز. والصناعة الكبيرة، التي هي كذلك منظمة بيروقراطية، قد أنشأت نمطاً مختلفاً كلياً من الطبع- هو الطبع البيروقراطي الودود، البسّام، «المتفهّم» الذي لعله قد درس مقرراً تعليمياً في «العلاقات الإنسانية». وتكمن أسباب هذا التغيّر في طبيعة الصناعة الحديثة، وحاجتها إلى عمل منسّق بين أعضاء فريقها، لتجنّب التصادم، ومن أجل علاقات أفضل، وعدد من العوامل الأخرى. وليس الأمر كأن البيروقراطيين الودودين غير صادقين، وكأنهم يبتسمون بدلاً من إظهار وجوههم الحقيقية؛ ففي الواقع، ليس السادي ذو الطراز القديم مناسباً جداً ليكون بيروقراطياً حديثاً، لمجرد الأسباب التي ذُكرت الآن. فليس البيروقراطي الحديث سادياً تحوّل إلى ودود، ولكنه شيء مهم بالنسبة إليه، ومعاملته الودية، في حال أنها ليست زائفة، فهي سطحية وواهية بحيث تصير زائفة. ولكن حتى هذا ليس منصفاً، لأنه لاأحد يتوقع حقاً أن تكون أكثر من معاملة سطحية وواهية، إلا في اللحظة القصيرة التي يبتسم فيها كلاهما وينغمسان في وهم أن هذا اتصال إنساني. وسوف تؤكد هذه الانطباعات أو تصحّحها دراستان موسعتان ودقيقتان لطبع المدير الحديث. (M.Maccoby; I. Millán؛ وكلٌّ منهما ستصدر قريباً)

الأدنى منه ويسيطر عليه الشخص الأعلى منه. ويمكن لكلا الدافعين السادي والمازوخي أن يتحققا في مثل هذا النظام. فالطبع السادي سوف يحتقر من هم أدنى منه وسوف يعجب بمن هم أعلى منه ويخشاهم. وليس على المرء إلا أن ينظر إلى التعبير الوجهي والصوت البادين على نمط معين من البيروقراطيين وهو ينتقد مرؤوسه، أو يقطّب عندما يصل متأخراً دقيقة واحدة، أو يُصرّ على السلوك الذي يعبّر رمزياً على الأقل أنه في أثناء ساعات الدائرة «يخصّ» الرئيس. أو يمكن أن يفكر المرء في البيروقراطي خلف نافذة دائرة البريد ويراقب ابتسامته الرقيقة التي تكاد لاتلاحَظ وهو يغلق نافذته عند تمام الساعة 5,30 بعد الظهر، حيث كان على آخر شخصين انتظرا دورهما نصف ساعة أن يغادرا الدائرة ويعودا في اليوم التالي. وليست المسألة أنه يتوقف عن بيع الطوابع عند تمام الساعة 5,30 : فالجانب المهم من سلوكه هو أنه يتمتّع بإحباط الناس، ويُريهم أنه هو يتحكّم فيهم، وهو رضى معبّرٌ عنه في تعبيره الوجهي.[١]

وغني عن القول إنه ليس البيروقراطيون من ذوي الطراز العتيق هم وحدهم الساديون. ووحدها الدراسة القائمة على علم النفس العمقي يمكن أن تُظهر ما هو مجال السادية بين هذه المجموعة إذا ما قورنت بغير البيروقراطيين والبيروقراطيين الحديثين. وحسبُنا أن نذكر مثالين بارزين، هما الجنرال مارشال Marrhal والجنرال أيزنهاور Eisenhouer ، وكلاهما من ذوي أعلى المراتب في البيروقراطية العسكرية في إبان الحرب العالمية الثانية، وقد كانا لافتين للانتباه باهتمامهما الإنساني بحياة جنودهما. ومن جهة أخرى فإن عدداً من الجنرالات الألمان والفرنسيين في الحرب العالمية الأولى كانوا لافتين للانتباه بالقسوة والوحشية اللتين كانوا يضحون بهما بأرواح جنودهم من دون أن يكون لذلك قصد تكتيكي وافٍ بالمراد.

---

١ - هذا مثال من المعطيات السلوكية الكثيرة التي تُفلت من شباك جلّ التجارب والاختبارات السيكولوجية.

وفي الكثير من الأحوال تتنكّر السادية باللطف وبما يبدو شبيهاً بحسن النية تجاه بعض الناس في بعض الظروف. ولكن سيكون من الغلط الاعتقاد بأن اللطف لايُقصد منه إلا الخداع، أو أنه مجرد حركة تعبيرية، وليس قائماً على أي إحساس أصيل. ولفهم هذه الظاهرة فهماً أفضل من الضروري أن نعتبر أن معظم الناس الأسوياء يريدون أن يحافظوا على صورتهم الذاتية التي تجعلهم قاصدين أن يكونوا إنسانيين في بعض النواحي على الأقل. وأن يكونوا غير إنسانيين أبداً معناه أن يكونوا منعزلين تماماً، وأن يفقدوا أي شعور بأنهم جزء من الجنس البشري. ومن ثم لايدهشنا أن ثمت معلومات كثيرة تجعل المرء يفترض أن الغياب الكامل لأي لطف، أو مودة، أو رقة عن أي كائن بشري تخلق على المدى الطويل، قلقاً لايُحتمل. وهناك تقارير [١] عن أحوال الجنون والاضطرابات النفسية بين الرجال الذين كانوا في التشكيلات النازية الخاصة وكان عليهم أن يقتلوا آلاف الناس. وفي ظل النظام النازي كان يعاني الموظفون الذين عليهم أن ينفّذوا الأوامر بالقتل الجماعي من انهيارات عصبية أطلق عليها Funktionärskrankheit («داء الموظفين»). [٢]

وقد استخدمت كلمتي «التحكّم» و«السلطة» في الإشارة إلى السادية، ولكن على المرء أن يكون مدركاً التباسهما بوضوح. فكلمة power يمكن أن تعني السلطة بمعنى السيطرة على الناس، ويمكن أن تعني القدرة على عمل الأشياء. وما يجاهد السادي من أجله هو السلطة بمعنى السيطرة على الناس، وبالضبط لأنه يفتقر إلى القدرة power على **أن يكون**. ولسوء الحظ، فإن الكثيرين من الكتّاب يستخدمون هذا المعنى الملتبس لكلمتي power و control، ومن أجل أن يمدحوا «السلطة» بمعنى السيطرة يماثلونها مع «القدرة». ثم إن عدم التحكّم لايعني عدم أي نوع من

١- اعترف بها هملر Himmler بصورة غير مباشرة في خطاب له في /6/ تشرين الأول (أوكتوبر)، Kol-denz Nazi Arch NS 19, H.R.10.1943

٢- من اتصال شخصي مع H.Brandt.

التنظيم، بل مجرد تلك الأنواع التي يكون فيها التحكم استغلالياً ولايكون في وسع المسيطَر عليه أن يسيطر على المسيطرين. وهناك أمثلة كثيرة من المجتمعات البدائية ومن جماعات مقصودة معاصرة تكون فيها سلطة عقلية حقيقية قائمة على الموافقة الإجماعية- لاالتي تتم بالاحتيال- ولاتنشأ فيها علاقات «السيطرة على الناس».

ومن المؤكد أن من ليست له قدرة الدفاع عن نفسه يعاني كذلك من مشكلة في طبعه. وقد يصبح رضوخياً ومازوخياً بدلاً من أن يصير سادياً. ولكن عجزه الواقعي قد يفضي كذلك إلى نشوء فضائل كالتضامن والحنو وكذلك إلى الإبداع. وأن يكون المرء عاجزاً ومن ثم في خطر أن يُستعبد، أو أن تكون لديه القدرة ومن ثم أن يكون في خطر أن يتجرد من إنسانيته، هما شران. ومسألة أيهما يجب على المرء أن يتجنّب هي مسألة اقتناع ديني أو أخلاقي أو سياسي. والبوذية، والمأثور اليهودي ابتداءً بالأنبياء، والأناجيل المسيحية تقرر قراراً واضحاً، على الضد من الفكر المعاصر. وإنه لأمر مشروع تبيان الفوارق الدقيقة بين القدرة power وعدم القدرة non- power، ولكن خطراً واحداً يجب تجنّبه: هو خطر استخدام المعنى الغامض لكلمات معينة للتوصية بخدمة الله وخدمة قيصر في آن واحد، ويظل الأسوأ، المماثلة بينهما.

الشروط التي تُحدِث السادية

إن المشكلة المتعلقة بالسؤال ما هي العوامل المفضية إلى نشوء السادية هي أكثر تعقيداً من أن تجد الإجابة الوافية عنه في هذا الكتاب. إلا أن إحدى المسائل يجب أن تكون واضحة من البداية: ليست هناك علاقة بسيطة بين البيئة والطبع. وهذا لأن الطبع الفردي تحدّده عوامل مثل النزعات الطبيعية الموروثة تكوينياً، وخصائص الحياة العائلية، والأحداث الاستثنائية في حياة الشخص. وليست هذه العوامل الفردية تؤدي الدور وحدها؛ فالعوامل البيئية أشد تعقيداً مما يُفترض عموماً بكثير. وكما أكدتُ من قبل، فإن المجتمع ليس واحداً. إن المجتمع نظام شديد التعقيد؛ هو

الطبقات الوسطى الدنيا الجديدة والقديمة، والطبقات الوسطى، والطبقات العليا، والنُّخب التي يدبُّ فيها الهرم، والجماعات التي لها أوليست لها تقاليد دينية أو فلسفية- أخلاقية، والبلدات الصغيرة والمدن الكبيرة- وهذه هي مجرد بعض العوامل التي يجب أن تؤخذ في الحسبان؛ ولايمكن لعامل مفرد منعزل أن يعلّل فهم بنية الطبع وفهم بنية المجتمع. ولذلك، إذا أراد المرء أن يربط بين البنية الاجتماعية والسادية، فلاشيء سيسد الحاجة أقل من التحليل التجريبي الشامل لكل العوامل. ولكن يجب أن يضاف في الوقت نفسه أن السلطة التي من خلالها تستغل جماعةٌ جماعةً أخرى وتُخضعها من شأنها أن تُحدث السادية في الجماعة المسيطرة، ولو أنه ستكون ثمت استثناءات فردية كثيرة. ومن ثم فإن السادية (باستثناء أنها مرض فردي) لن تزول إلا عندما يتم التخلّص من السيطرة الاستغلالية لأية طبقة، أو جنس، أو جماعة أقلية. وفيما عدا بضعة مجتمعات صغيرة فإن هذا لم يحدث حتى الآن في أية بقعة من العالم. ومع ذلك، فإن إنشاء نظام قائم على القانون ويمنع الاستخدام التعسّفي للسلطة قد كان خطوة في هذا الاتجاه، ولو أن هذا التطور قد توقّف في الكثير من أرجاء العالم التي وُجد فيها ذات حين وهو مهدَّد حتى في الولايات المتحدة باسم «القانون والنظام».

ويُظهر المجتمع القائم على السيطرة الاستغلالية ملامح أخرى يمكن التنبؤ بها. فهو يميل إلى إضعاف الاستقلال، والسلامة الأخلاقية، والتفكير النقدي، والإنتاجية في الناس الخاضعين له. وهذا لايعني أنه لايمدهم بكل أنواع التسليات والتعاقدات، ولكنه لايمدهم إلا بالأنواع التي تحدّ نمو الشخصية بدلاً من أن ترفده. وقد قدّم القياصرة الرومان العروض العامة الفخمة، وكانت على الأكثر ذات طبيعة سادية. والمجتمع المعاصر يقدّم عروضاً مشابهة على شكل التقارير الصحفية والتلفزيونية عن الجريمة والحرب والفظائع؛ وحين لاتكون المحتويات فظيعة مريعة، فهي غير مغذية كمعجّنات الفطور التي تروّج لها وسائل الإعلام نفسها للإضرار

بصحة الأطفال. وهذا الغذاء الثقافي لايقدّم المثيرات المنشّطة، المثيرات للفعالية، بل يروّج للسلبية والكسل. وهو في أفضل الأحوال يقدّم اللهو والطرب، ولكنه يكاد لايقدّم الفرح؛ لأن الفرح يتطلّب الحرية، وإرخاء أعنّة التحكّم المشدودة، وهذا بالضبط ما يصعب على النمط السادي- الشرجي أن يقوم به.

أما السادية في الفرد، فإنها تنسجم مع الوسط الاجتماعي، بانحرافاته نحو الأعلى والأدنى. والعوامل الفردية التي تزيد من السادية هي كل الشروط التي من شأنها أن تجعل الطفل أو البالغ يشعر بالخواء والعجز (والطفل غير السادي قد يصبح مراهقاً أو بالغاً سادياً إذا حدثت ظروف جديدة.) ومن تلك الشروط تلك التي تُحدِث الفزع، كالعقوبة الإرهابية. وأعني بها نوع العقوبة الذي لاتُحدَّد شدته بدقة، والمرتبط بسوء السلوك الخاص والمعلن ولكنه السلوك التعسّفي، تغذّيه سادية المعاقِب والشدة التي تُحدِث الذعر. واعتماداً على مزاج الطفل قد يصبح مثل هذا العقاب حافزاً مهيمناً في حياته، وقد ينهار إحساسه بالاستقامة ببطء، وينخفض احترامه لذاته. وفي مآل الأمر يمكن أن يتكشّف في كثير من الأحيان عن أنه ليس لديه إحساس بالهوية بعد ذلك، أي أنه لم يعد «هو».

والشرط الآخر لإحداث العجز الخطير هو حالة الندرة النفسية. فإذا لم تكن هناك إثارة، ولاشيء يوقظ ملكات الطفل، وإذا كان هناك مناخ البلادة وانعدام الفرح، فإن الطفل يتجمد؛ ولايكون ثمت شيء يمكن أن يُحدِث أثراً عليه، ولاأحد يستجيب أو حتى يصغي، ويُترك الطفل للإحساس بالعجز والقصور. ولايؤدي هذا العجز بالضرورة إلى تشكيل الطبع السادي؛ وسواء أتشكّل أم لم يتشكل، فهو يعتمد على عوامل أخرى كثيرة. ومع ذلك فهو أحد المصادر الكبرى التي تُسهم في نشوء السادية، فردياً واجتماعياً.

وعندما ينحرف الطبع الفردي عن الطبع الاجتماعي، تعمد الجماعة الاجتماعية إلى تقوية كل عناصر الطبع التي تتوافق معه، في حين تصبح العناصر

المضادة للطبع الاجتماعي هاجعة. وعلى سبيل المثال، إذا عاش شخص سادي مع جماعة كانت أكثريتها غير سادية وكان السلوك السادي يُعدّ فيها غير مستساغ وبغيضاً، فإن الفرد السادي لن يغيّر بالضرورة طبعه، ولكنه لن يعمل بمقتضاه؛ ولن تختفي ساديته، بل «ستجفّ»، إن جاز القول، لافتقارها إلى التغذية. وتقدّم المستوطنات الجماعية وغيرها من بعض الجماعات المعينة أمثلة كثيرة على ذلك، على الرغم من أنه توجد كذلك أحوال يُحدِث فيها المناخ الجديد تغييراً حقيقياً في الطبع.[1]

والشخص ذو الطبع السادي لن يكون من حيث الماهية مؤذياً في مجتمع مضاد للسادية؛ وسيُعد شخصاً يعاني من مرض. ولن يكون شعبياً ولن تكون لديه إلا سبل صغيرة، إذا وُجدت أية سبل، إلى الوظائف التي يمكن أن يمارس فيها أي تأثير اجتماعي. وإذا سأل أحدهم ما الذي يجعل سادية الشخص بالغة الشدة، فعلى المرء ألا يفكر في العوامل البيولوجية التكوينية (S.Freud, 1937)، بل في المناخ النفسي المسؤول إلى حد كبير، لا عن إحداث السادية الاجتماعية وحسب، بل كذلك عن تقلّبات السادية ذات الخصوصية الشاذة والتي تحدث فردياً. وإنه لهذا السبب لا يمكن فهم نشوء الفرد تماماً على أساس تكوينه وخلفيته العائلية وحدهما. وإذا لم نعرف موقع الشخص وأسرتِه ضمن النظام الاجتماعي، وروحَ هذا النظام، امتنع علينا أن نفهم لماذا تكون بعض الخصال شديدة التواصل وعميقة المستقر.

هاينريش هملر: حالة سريرية من السادية الادخارية- الشرجية

إن هاينريش هملر Heinrich Himmler مثال ممتاز على الطبع السادي المرذول يوضح ما قيل حول العلاقة بين السادية والطبع التسلّطي، البيروقراطي الادخاري- الشرجي.

---

١ - من اتصال شخصي مع الدكتور موش بدمور Dr.Moshe Budmore .

وكان «كلب صيد أوروبا الضخم»، كما سمّاه الكثيرون، مسؤولاً مع هتلر عن قتل ما بين خمسة عشر مليوناً وعشرين مليوناً من العزّل المغلوب على أمرهم من الروس والپولونيين واليهود.

أي نوع من الإنسان كان؟[1]

يمكن أن يبدأ المرء بالنظر ملياً في أوصاف قليلة لطبع هملر لاحظها ملاحظون مختلفون. ولعل أدق وصف لطبع هملر وأشده اكتناهاً قد قدّمه ك. ج. بوركات Burckhardt، في الزمن الذي كان فيه ممثلاً لـ «عصبة الأمم» في دانتسيغ في پولونيا. «كان هملر يترك في المرء الانطباع بالمرؤوسية الغريبة، والتحرّج القائم على ضيق العقل، والنظامية المجردّة من الصفات الإنسانية، والممتزجة بعنصر الأوتوماتية»(K.J.Burckhardt, 1960). وهذا الوصف يشتمل على جل العناصر الماهوية في الطبع السادي التسلّطي الموصوف آنفاً. إنه يؤكد موقف هملر الخضوعي المرؤوسي، وتحرّجه البيروقراطي ونظاميته غير الإنسانية. إنه ليس وصف مبغض ولا وصف غول كما يجري تصوّره عادة، بل وصف بيروقراطي متجرد من الصفات الإنسانية إلى أقصى الحدود.

والعناصر الإضافية في بنية طبع هملر يقدّمها ملاحظون آخرون. وقد أمضى نازي قيادي، هو الدكتور ألبرت كربس، الذي طُرد من الحزب سنة 1932، ست ساعات في محادثة مع هملر في قطار السكة الحديدية في العام 1929، أي عندما

---

١ - إن تحليل هملر يتابع على الأغلب المعلومات التي قدّمها ب. ف. سميث (B.f.Smith,1971) في سيرته الرائعة. وقد استخدم سميث كل المعلومات المتيسّرة عن هملر وفي جملتها: دفاتر يوميات هملر الستة (وُجدت سنة 1957) التي تشمل السنوات 1910-1922، وكذلك بضع صفحات فالتة من سنة 1924؛ وجدول هملر بالمراسلات التي تلقّاها وأرسلها ما بين 1918 و1926؛ وقائمة هملر المذيّلة بقراءاته وتشمل مجموعة هملر من الأوراق الرسمية والمذكرات الشخصية. وقد استخدمتُ كذلك دراسة ج. أكرمان J.Ackermann، التي تحتوي على العدد الكبير من المقتطفات من يوميات هملر، ودراسة S.T.Angress and B.F.Smith (1959).

كانت لدى هملر سلطة صغيرة- ولاحظ اضطرابه وارتباكه. وكان ما جعل الرحلة تكاد لاتطاق بالنسبة إلى كربس هو «الثرثرة الغبية التي لامعنى لها من حيث الأساس والتي تطفّل بها عليّ طيلة الوقت». وكان حديثه مزيجاً غريباً من الكلام القصير لمتبجّح عسكري، برجوازي صغير، والنبوءة الحماسية لواعظ طائفي (quoted by J.Ackermann, 1970). والتطفّل الذي يُجبر به هملر شخصاً آخر على الاستماع إلى ثرثرته التي لانهاية لها، محاولاً بذلك السيطرة عليه، هو أمر نموذجي في الطبع السادي.

والوصف المثير للاهتمام كذلك لطبع هملر يقدمه أحد أكثر الجنرالات الألمان موهبة، وهو هاينتس غودريان Heinz Guderian :

كان أغبى أتباع هتلر هو هاينريش هملر. كان هذا الإنسان التافه، بكل ما فيه من أمارات الدونية العرقية، يتصرف بطريقة بسيطة. وقد حاول أن يكون دمثاً. وكان أسلوبه في الحياة، خلافاً لأسلوب غورنغ، بسيطاً بصورة متقشّفة. ولكن أكثر الأشياء لامحدودية فيه كانت أخيولاته... فبعد /20/ تموز (يوليو) ابُتلي هملر بالطموح العسكري. وساقه ذلك إلى تعيين نفسه قائداً عاماً للجيش الاحتياطي أو حتى قائداً عاماً لكل فرق الجيش. وكان أن أخفق هملر على المستوى العسكري أولاً وتماماً. وحكمه في أعدائنا يجب أن يُعدّ مجرد حكم صبياني. وكانت لي الفرصة عدة مرات لألاحظ افتقاره إلى الثقة بالنفس والشجاعة بحضور هتلر. (H.Guderian, 1951)

وقد كتب مُلاحِظ آخر، هو ممثّل النخبة المصرفية الألمانية، إميل هلفريش Emile Helfferich إن هملر كان «نموذج المربي القاسي في المدرسة القديمة، وكان صارماً تجاه نفسه ولكنه أشد صرامة تجاه الآخرين ... وكانت أمارات الحنوّ ولاسيما النبرة الودية في رسائل شكره كلها زيف، كما يجد المرء كثيراً عند الطبائع الباردة» (E.Helfferich,1970).

والصورة الأقل سلبية يقدّمها مرافق هملر العسكري، ك. ڤولف K.Wolf: وهي لاتذكر إلا تعصّبه وافتقاره إلى الإرادة وساديته: «استطاع أن يكون رب أسرة رقيق القلب، ورفيقاً جيداً وصادقاً ومتفوقاً. وكان في الوقت عينه حالماً غريب الأطوار، ومتعصّباً تستولي عليه الوساوس... وأداة فاقدة الإرادة بيدي هتلر، الذي كان مرتبطاً به بالحب/ الكره دائمي التزايد» (K.Wolf,1967). إن ڤولف يصف شخصيتين متضادتين- تتساويان في القوة ظاهرياً- هما اللطيفة والمتعصّبة، ولايناقش صحة الأولى ولايصف غيبارد Gebhard، وهو شقيق هملر الأكبر، أخاه هاينريش إلا من الناحية الإيجابية، على الرغم من أن شقيقه الأصغر قد آذاه وأهانه قبل أن يصبح قوياً من الناحية السياسية بمدة طويلة. ويبلغ الأمر بـ«غيبارد» أن يمتدح «اللطف والاهتمام الأبويين اللذين كان بهما يُعنى بحاجات مرؤوسيه وهمومهم.»[1]

وتحتوي هذه الأوصاف على أهم خصال الطبع في هملر. جموده، وتفاهته، وعدم أهميته، وخضوعه لهتلر، وتعصّبه. ومن المؤكد أن اهتمامه الودي بالآخرين، الذي يذكره ڤولف وأخوه الأكبر، سمة سلوكية، ولكن إلى أي حد هي سمة في الطبع، أي أنها أصيلة، هو أمر يصعب تقديره؛ فبالنظر إلى شخصية هملر الكلية، لابد أن العنصر الأصيل في لطفه قد كان بالغ الضآلة.

وإذ تغدو البنية الكلية لطبع هملر أوضح، سوف نجد أنه بالفعل مثال توضيحي مدرسي للطبع السادي -المازوخي الشرجي (الادخاري)، الذي سبق أن لاحظنا أن **الإفراط في الترتيب والتحذلق** البائن خصلتان بارزتان فيه. وكان هملر، منذ سن الخامسة عشرة، قد حافظ على سجل مراسلاته الذي حفظ فيه كل رسالة تلقّاها وكتبها.

كانت حماسته لهذه الأعمال وتحذلقه وولعه بالسجل الدقيق الذي يحفظ

١- من مسوَّدة كتاب غير منشور كتبها غيبارد هملر Gebhard Himmler عن هاينريش هملر.

ماكان يديه وهو منهمك فيها تكشف جانباً مهماً من شخصيته. وكانت ذهنية كاتب الحسابات عنده ظاهرة على أوضح مايكون عندما يتسلّم البريد من «لو» Lu و«كيث» Keathe [وهما صديقان حميمان]. (ولم تُحفَظ الرسائل التي كان يتلقّاها من أسرته.) وكان يكتب على كل رسالة مفردة تصل إلى يديه لاتاريخ التسلّم وحسب بل كذلك وقته الدقيق بالساعة والدقيقة. وبما أن أكثر هذه الرسائل كانت تهنئات بيوم الميلاد وما إلى ذلك، فإن تحذلقه كان يتجاوز السخافة. (B.F.Smith,1971)

وبعد ذلك، وعندما صار هملر رئيساً لقوة الشرطة الألمانية الخاصة، الـ«إس. إس» SS، كانت لديه بطاقة فهرس يدوّن عليها كل شيء أعطاه لشخص من الأشخاص في أي وقت (B.F.Smith,1971). وبوحي من أبيه كتب كذلك يوميات من سن الرابعة عشرة إلى سن الرابعة والعشرين. وفي كل يوم تقريباً يجد المرء تدوينات خالية من المغزى نادراً ماتضاف إليها أية فكرة عميقة.

كان هملر يدوّن كم طال نومه، ومتى ذهب إلى الغداء، ومتى تناول الشاي أو هل دخّن أم لا، ومن رأى في أثناء النهار، وكم دامت دراسته، وإلى أية كنيسة ذهب ومتى عاد إلى البيت في المساء. ثم إنه كان يدوّن اسم الذي زاره، وهل كان مضيفوه لطيفين معه، وفي أي وقت ركب القطار ليعود إلى أبويه، وهل وصل القطار متأخراً أم في الموعد المحدَّد. (B.F.Smith,1971)

وإليكم مثالاً من تدوين يومياته في الأسابيع من / 1/ آب (أغسطس) إلى / 16/ آب 1915 (B.F.Smith,1971):

آب 1 الساعة 15 الأحد.. استحممتُ (على ما يظهر في البحيرة أو البحر) ثالث مرة... بابا، وإرنستي وأنا بعد أن ركبنا في القارب الخفيف أربع مرات. وكان غيارد يعاني من الحر الشديد.

2 15 الإثنين... استحممتُ خامس مرة مساء.

3 الثلاثاء... استحممتُ سادس مرة.

6 الجمعة...استحممت سابع مرة... استحممتُ ثامن مرة.

7 السبت. استحممتُ صباحاً تاسع مرة.

8 ... استحممُت عاشر مرة.

9 استحممتُ صباحاً في المرة الحادية عشرة. وبعد ذلك في المرة الثانية عشرة.

12 لعبتُ، ثم استحممتُ في المرة الثالثة عشرة...

13 VII لعبتُ، ثم استحممتُ في المرة الرابعة عشرة...

16 VII ...ثم استحممتُ في المرة الخامسة عشرة والأخيرة...

والمثال الآخر هو التالي. في 23 آب من السنة نفسها، دوّن هملر أن / 8000 / روسي قد أُخذوا أسرى في غومبينن Gumbinnen ؛ وفي 28 آب، أنه قد تم أسر / 30,000 / روسي في بروسيا الشرقية، وفي 29 آب، أن عدد الأسرى لم يكن / 30,000 / بل / 60,000 / ، وأنه بعد الإحصاء الهادئ الأدقّ، / 70,000/ . وفي 4 تشرين الأول (أوكتوبر) دوّن أن عدد الأسرى الروس لم يكن / 70,000/ بل / 90,000 / . وأضاف «إنهم يتكاثرون كالهوام» (B.F.Smith,1971).

وفي 26 آب وضع التدوين التالي :

26 آب. لعبتُ في الحديقة مع فوك. أسرت قواتنا /1,000/ روسي في شرقي ڤايشل. تقدُّم النمساويين. وبعد الظهيرة اشتغلتُ في الحديقة. ضربتُ على البيانو. وبعد تناول القهوة زرنا آل كيسنبارت. وسُمح لنا هناك بقطف الخوخ من الشجرة. وتساقطت خوخات كثيرة مذعورة. لدينا الآن مدافع 42 سم.
(.J.Ackermann, 1970)

ويعلّق أكرمان أنها تظل مسألة غامضة هل كان هملر معنيّاً بعدد الخوخات الجاهزة للأكل أم بعدد الرجال المقتولين.

وربما كان هملر قد اكتسب بعض تحذلقه من أبيه، وهو إنسان متحذلق إلى أبعد الحدود، كان مدرّساً ثانوياً، ثم مديراً يبدو أن قوته الرئيسة هي ترتيبه. وكان محافظاً، ومن حيث الأساس إنساناً ضعيفاً، عتيق الطراز، وأباً ومعلماً تسلّطياً.

وكانت الخصلة البارزة الأخرى في بنية طبع هملر هي **رضوخيته**، أو **«تبعيّته»** كما سماها بوركارت. ومع أنه لايبدو أنه كان خائفاً من أبيه للغاية، فقد كان مطيعاً له أكثر الطاعة. وكان ينتمي إلى أولئك الناس الذين لايخضعون لأن السلطة مرعبة جداً بل لأنهم **هم** شديدو الفزع- لامن السلطة بل من الحياة- بحيث يبحثون عن السلطة ويريدون أن يخضعوا لها. فكان يستخدم أباه، ومعلميه، ومن ثم من هم أعلى منه مرتبة في الجيش والحزب، من غريغور شتراسر Gregor Strasser إلى

هتلر، لإنجاح مجرى حياته وإلحاق الهزيمة بمنافسيه. وحتى الزمن الذي وجد فيه شتراسر والقادة النازيين شخصيات أبوية جديدة وقوية، لم يتمرد البتة. وكان هو وأبواه من الروم الكاثوليك؛ وكان من المترددين على الكنيسة بانتظام، ثلاث مرات أو أربع مرات في الأسبوع في إبان الحرب، وكان يُطمئِن أباه أنه يجب ألا يقلق بشأن قراءته الكتب غير الأخلاقية مثل كتب زولا. ولكن لاتوجد علامات على الاتّقاد الديني في تاريخ هملر الشاب؛ فقد كان موقفه وموقف أسرته تقليدياً صرفاً، معهوداً في طبقته.

وتبدُّل الولاء من الأب إلى شتراسر- هتلر، ومن المسيحية إلى العبادة الآرية للطبيعة، لم يحدث من قبيل التمرد. بل كان تبدّلاً سلساً وحذراً. ولم تُتّخذ خطوة جديدة قبل أن يكون من المأمون اتخاذها. وفي النهاية، عندما لم يعد وثنه ذا فائدة، حاول أن يعمل تحت قيادة سادة جُدد، هم الحلفاء، الأعداء الكبار بالأمس والظافرون اليوم. ولعله في هذه الناحية يكمن أعمق اختلاف في الطبع بين هملر وهتلر؛ فقد كان هتلر متمرداً (ولم يكن ثورياً)؛ وقد أعوز هملر عنصر التمرد تماماً. ولهذا السبب ليس هناك أساس للظن بأن تحوّل هملر إلى نازي كان تمرداً على أبيه. ويبدو أن الباعث الحقيقي على هذا التبدّل قد كان مختلفاً. فقد كان هملر يحتاج إلى شخص قوي ذي سلطان ليعوّض عن ضعفه. وكان أبوه رجلاً ضعيفاً فَقَد، بعد هزيمة النظام الإمبراطوري وقيمه، الكثير من عزّه وكبريائه السابقين. والحركة النازية الشابة، مع أنها لم تكن بعدُ قوية عندما انضم إليها هملر، كانت قوية في عنف انتقادها لا لليسار وحسب بل كذلك للنظام البرجوازي الذي ينتمي إليه أبوه. وأدّى هؤلاء الشباب دور الأبطال الذين يملكون المستقبل، ووجد هملر، المراهق الضعيف الرضوخي، صورة ملائمة للرضوخ لها أكثر مما كان أبوه. وفي الوقت ذاته، فقد استطاع أن ينظر إلى أبيه نظرة عدم المبالاة مع شيء من التنازل، إذا لم يكن من الاحتقار الخفي، الذي يتناسب سيره مع مقدار تمرده.

وكان أكثر أمثلة خضوعه تطرفاً هو خضوعه لهتلر، على الرغم من أنه لابد أن يظن المرء أن انتهازيته قد أقنعته باستخدام درجة من التملّق الذي لم يكن كله أصيلاً. فقد كان هتلر بالنسبة إليه الإنسان- الإله الذي له أهمية المسيح في الديانة المسيحية وأهمية كريشنا Krishna في ديانة «بهاغاڤاد- جيتا» Bhagavad-Gita . وهو يكتب عنه: «لقد قدّرت كارمَة العنصر الألماني الشامل أن يقود الحرب ضد الشرق وينقذ العنصر الألماني في العالم؛ ووجد أحدُ الأشخاص النورانيين العظام تجسّده فيه» (J.Ackermann,1970). وخضع لكريشنا -المسيح- هتلر كما كان خاضعاً للمسيح- الإله القديم، باستثناء أن الخضوع الجديد كان بحماسة أشد. ولكن يجب أن يُلاحَظ أنه في الظروف التي يقدّمها الأرباب الجدد هناك فرص أكبر للشهرة والسلطة.

وكان خضوع هملر لشخص الأب القوي يصحبه **اعتماد على أمه** عميق وشديد، اعتماد على أمه التي كانت تحب هذا الابن ومشغوفة به. ومن المؤكد أن هملر لم يعانِ من عدم محبة أمه له- وهذا روْسم موجود في عدد من الكتب والمقالات المكتوبة عنه. ولكن يمكن أن يقول المرء إن حبها كان بدائياً؛ فقد افتقر إلى التبصّر أو البصيرة فيما يحتاج إليه الصبي الذي يترعرع؛ كان حبَّ أم لوليدها، وهي لم تغيّر صفته وقد ترعرع الصبي. وهكذا كانت محبتها له تُفسده وتسد سبيل نموّه وتجعله متكلاً عليها. وقبل أن أصف هذا الاتكال، أود أن أشير إلى أن الحاجة إلى الأب القوي عند هملر، كما هي عند الكثير من الآخرين، يُحدِثها ضعف الشخص الذي يُحدِثه بالتالي بقاؤه ولداً صغيراً يتوق إلى محبة أمه (أو الشخصية الأمومية)، وحمايتها، وترفيهها عنه، وعدم مطالبته بأي شيء منه. وهكذا يشعر أنه ليس مثل الرجال بل مثل الأطفال، ضعيفٌ، معتمد على عون الآخرين، ومن

دون إرادة أو مبادرة. ومن ثم كثيراً ما يبحث عن قائد قوي يمكن أن يخضع له، ويمنحه الشعور بالقوة، ويصبح -في العلاقة الاقتدائية- بديلاً من الخصائص التي تُعوزه.

وكانت في هملر هشاشة بدنية وذهنية كثيراً ما توجد في أمثال «أولاد أمهم» هؤلاء وقد حاول أن يتغلّب عليها «بممارسة قوة إرادته»- ولكن على الأغلب بخشونة وتجرد من الرحمة. وصارت السيطرة والقسوة البديلين من القوة؛ ومع ذلك كان لامناص من أن يُخفق مادام الضعيف لايغدو قوياً بأن يكون قاسياً؛ وكل ما يفعله هو إخفاء ضعفه عن نفسه وعن الآخرين مؤقتاً، مادام في مقدوره التحكّم فيهم.

وثمت دليل وافر يُرينا أن هملر كان «صبيّ أم» نموذجياً. ففي سن السابعة عشرة عندما كان يؤدي التدريب العسكري، بعيداً عن أبويه، كتب في الشهر الأول

ثلاثاً وعشرين رسالة إلى البيت، ومع أنه تلقّى رداً عليها عشر رسائل أو اثنتي عشرة رسالة، كان يتذمر باستمرار من أن الأسرة لم تكتب له العدد الكافي من الرسائل. والجملة الأولى في رسالته في 24 كانون الثاني نموذجية: «عزيزتي ماما، جزيل الشكر لرسالتك الغالية. فقد تلقيت أخيراً شيئاً منك.» وبعد يومين، وقد تلقى رداً آخر من البيت، يبدأ بالحالة النفسية ذاتها، ويضيف، «انتظرت ذلك مدة طويلة وأنا أتألم». ورسالتان في ثلاثة أيام لم توقف نواحه في التاسع والعشرين من الشهر، «مرة أخرى لم أتسلّم منكم اليوم أي شيء».

وكانت أولى رسائله تجمع بين توسّلاته من أجل إرسال البريد والتذمرات من أوضاعه المعيشية: فكانت غرفته جدباء وباردة، وقد عانى من الانتباه إلى فسفس الفراش؛ ووجد الطعام شحيحاً ومنفّراً والتمس إرسال صرر من الطعام

والمال الكافي للسماح له بأن يأكل في المطعم الخاص أو مطعم صالة الجمعة في البلدة. وكانت المنغصات التافهة، كرفع الثياب المغلوط فيها إلى الحمّام بطريق الإهمال، تأخذ أبعاد المآسي الصغيرة وتُروى للأسرة بالتفصيل. وكانت هذه الشكاوى والنواحات في جانب منها مناشدات للسيدة هملر لتقديم يد العون. وكانت في الرد، تسرع في إرسال سلسلة من الحوالات المالية البريدية وطرود تحتوي على الطعام، والفراش الإضافي، ومسحوق قتل الحشرات، والملابس المغسولة النظيفة. ومن الواضح أن هذه المؤن التي تصل من لاندشوت كانت مصحوبة بالكثير من النصح والتعابير العديدة عن القلق. وتحت تأثير هذه الرسائل كان هملر، المدرك أنه يجب أن يحافظ على موقفه بوصفه جندياً شجاعاً، يحاول في بعض الأحيان أن يسحب الشكوى التي حركت العملية كلها. ولكنه كان على الدوام ينتظر حتى يتلقى الصرة قبل تغيير نبرته، ولم يكن إرجاؤه يدوم طويلاً. وفي مسألة الطعام لم يكن يخجل أبداً ورسائله مليئة بالملاحظات التقديرية حول طبخ أمه («معجّنة التفاح Apfelstruded التي تناولتُها بعد جلسة التدريب كانت رائعة») وبطلب الأغذية التي تؤكل على عجل كالتفاح والكعكات المسطّحة المحلاّة. (B.F.Smith,1971)

ومع مرور الزمن صارت رسائله أقلّ تواتراً إلى حد ما- مع أنها لم تقلّ عن ثلاث رسائل أسبوعياً- وعلى الرغم من ذلك فإن طلبه للبريد ظلّ ملحّاً كما كان في أي وقت. وفي بعض الأحيان قد ينزعج تماماً عندما لاتكتب إليه كما يتوقع. وقد بدأ رسالة 23 آذار 1917 بقوله: «أمي العزيزة، شكراً جزيلاً لأنبائك اللطيفة (التي لم أحصل عليها). إن المقصود من ذلك في الحقيقة أنك لم تريدي الكتابة.»

إن هذه الحاجة إلى إشراك أبويه في كل شيء، وخصوصاً إشراك أمه، قد ظلّت عندما عمل طالباً في الزراعة prokitkant (لديه عمل عملي في الحقل).

وكان وهو في التاسعة عشرة من عمره قد أرسل ما لايقلّ عن ثماني رسائل وبطاقات في الأسابيع الثلاثة الأولى ونصف الأسبوع الأول، مع أنه كثيراً ما كان يعلّق أنه كان أكثر انشغالاً من أن يكتب. وعندما مرض بالحمى شبه التيفية كادت حال أمه تؤول إلى الاضطراب الجنوني؛ وعند الشفاء، أمضى قدراً كبيراً من الوقت وهو يكتب لها التفصيلات عن حالته الصحية. درجة الحرارة، الحركة المعوية، الأوجاع والآلام. وفي الوقت ذاته كان نبيهاً نباهة كافية لئلا يريد أن يترك الانطباع بأنه رضيع بكّاء، يبثّ في أخباره الطمأنة المتوالية بأنه رائع ويؤنّب أمه على قلقها. وقد بلغ به الأمر أنه كان يبدأ رسالته بثلاثة أو أربعة أشياء ذات اهتمام عام ثم يضيف: «والآن أما كيف تجري الأمور معي فأستطيع أن أراك، يا أمي العزيزة، متململة بنفاد صبر (B.F.Smith,1971). وربما كان هذا صحيحاً، ولكن الجملة هي مثال على الطريقة التي استخدمها هملر طيلة حياته- إسقاط رغباته ومخاوفه على الآخرين.

لقد تعرّفنا إلى الآن بالشاب المرتّب إلى حد الهوس، والمصاب بوسواس المرض، والانتهازي، والنرجسي الذي يحسّ كأنه وليد ويحنّ إلى حماية الأم في حين يحاول في الوقت نفسه أن يتبّع صورة الأب ويحاكيها.

ومما لاريب فيه أن موقف هملر الاتكالي، الناشئ جزئياً من موقف أمه المفرط في تدليله، قد زاده بعض الضعف الحقيقي، الجسدي والذهني على السواء. فمن الناحية الجسدية، لم يكن هملر طفلاً شديد القوة وكان يشكو من اعتلال الصحة في سن الثالثة. وفي ذلك الحين أصيب بعدوى تنفّسية خطيرة ويبدو أنها استقرت في رئتيه وكان بعض الأطفال قد ماتوا منها. وكان أبواه شديدي الاهتياج فأتيا بالطبيب الذي نقل الطفل طوال الطريق من مونيخ إلى باساو Passau لمعالجته. ولتقديم أفضل علاج للطفل، ذهبت السيدة هملر معه إلى مكان ذي مناخ أفضل، وكان أبو يزوره عندما يستطيع اقتطاع وقت من عمله. وفي سنة 1904عادت الأسرة بكاملها

إلى مونيخ من أجل صحة الطفل. ولا يُجدي شيئاً أن يستحسن الأب كل هذه الإجراءات، التي كانت غالية التكاليف وغير ملائمة له، ومن دون احتجاج في الظاهر.[1]

وفي سن الخامسة عشرة بدأ يشكو من علة في معدته، كان من شأنها أن تزعجه بقية عمره. ومن الصورة الكلية لهذا المرض من المحتمل وجود عامل ذي منشأ نفسي قوي. وبينما استاء من هذا المرض في المعدة بوصفه دليلاً على الضعف، فقد منحه فرصة لينشغل بنفسه باستمرار وليتحلّق حوله الناس ويستمعون إلى شكاواه ويكثرون الاهتمام به.[2]

وكان مرض هملر الآخر علّة قلبية مزعومة يُفترض أنها كانت نتيجة عمله في الحقل سنة 1919 . والطبيب المونيخي الذي عالجه عندما أصيب بالحمى شبه التيفية هو نفسه الذي قام آنئذ بتشخيص القلب المتضخّم عضوياً (المتوسّع) الناشئ عن الإجهاد المفرط في أثناء خدمته العسكرية. ويعلّق ب. ف. سميث أن تشخيص القلب المتضخّم كثيراً ما كان يتمّ ويُعزى في تلك السنوات إلى الإجهاد في الحرب، وأن جلّ الأطباء اليوم يهزؤون بأمثال هذه التشخيصات. ويفترض الرأي الطبي الحالي أنه لم يكن في قلب هملر أي سوء، وأنه بقطع النظر عن مشكلات التغذية غير الكافية وما خلّفته الحمى شبه التيفية، «من المحتمل أنه كان في صحة جيدة إلى حد معقول» (B.F.Smith,1971).

ومهما تكن الحال، فلابد أن التشخيص قد زاد ميول هملر الموَسوِسة في المرض وروابطَه بأبويه، اللذين ظلا قلقين ومهمومين.

١- إن هذا عامل آخر يجعلني أفترض أن الأب لم يكن نظامياً خشناً ومرعباً كما يصوَّر في بعض الأحيان.

٢- عندما كان في السلطة وجد شخصاً من أمثال هؤلاء في الدكتور كرستن Kersten، الذي يبدو أنه كان له بعض التأثير فيه، وليس من المدهش اعتبار أن وظيفة كرستن بالنسبة إليه هي الشخص- الأمومي.

على أن ضعف هملر البدني قد تجاوز تلك المجموعات المرضية الثلاث- الرئوية، والمعدية، والقلبية. فقد كان له مظهر ناعم وهشّ ويعوزه من الناحية البدنية حسن الحركة والرشاقة. فمثلاً، عندما اشترى دراجة واستطاع أن يصطحب أخاه غيبارد في نزهاته، «كان مغرماً بالسقوط من دراجته، وتمزّق ثيابه، ومكابدة المنغّصات الأخرى» (B.F.Smith,1971). وقد أظهر الارتباكَ الجسدي في المدرسة ومن المحتمل أن ذلك كان أشد إذلالاً له.

ولدينا تقرير ممتاز عن هملر في أثناء سنواته المدرسية كتبه زميله في الدراسة، ج. ڤ. ف. هولغارتن G.W.F.Hallgarten الذي صار فيما بعد مؤرخاً بارزاً.[١] ويقول هولغارتن إنه عندما سمع عن صعود هملر إلى السلطة كاد لايتصور أن هذا هو الشخص الذي كان رفيقه في الصف نفسه.

ويصف هولغارتن هملر بأنه غلام حليبي الوجه وعمودي الانتصاب بصورة غير عادية كان يضع النظّارة على عينيه وكثيراً ما يُبدي ابتسامة «نصف مرتبكة ونصف خبيثة». وكانت له شعبية كبيرة مع كل المعلمين وكان تلميذاً نموذجياً في كل سنواته المدرسية، مع أفضل المؤهلات في كل الموضوعات الأساسية. وكان في الصف يُعدّ مفرط الطموح a Streber . وهناك مادة واحدة كان هملر مقصّراً فيها هي التمرينات الرياضية. ويصف هولغارتن بالتفصيل كيف كان هملر مهاناً عندما لم يكن قادراً على القيام بالتمارين البسيطة نسبياً، وكان معرّضاً لالسخرية المعلم وحسب بل كذلك لسخرية رفاق صفه، الذين كان يسعدهم أن يروا هذا الصبي الطموح في موقف الدونية. (G.W.F.Hallgarten,1969).

ولكن هملر على الرغم من ترتيبه كان يُعوزه الانضباط والمبادرة. كان كثير الكلام، وقد عرف ذلك، وقرّع نفسه عليه وحاول التغلّب عليه. وكان أكثر ما

1- cf.G.W.F.Hallgarten (1963).

يفتقر إليه هو قوة الإرادة التي انعدمت فيه انعداماً تاماً تقريباً؛ ، ولذلك، فليس بالمدهش أنه كان يمتدح الإرادة القوية والصلابة بوصفهما فضيلتين مثاليتين، ولكنه لم يكتسبهما. وعوّض عن هذا الافتقار إلى قوة الإرادة بالسيطرة القسرية على الآخرين.

ومن الأمثلة التي توضح إدراكه لرضوخيته وافتقاره إلى الإرادة تدوين من تدوينات يومياته في / 27/ كانون الأول 1919 : «إن الله سيوصل كل شيء إلى غاية جيدة ولكنني لن أخضع من دون إرادة القدر، ولكنني سأوجّه سيره بنفسي بأقصى مستطاعي» (J.Ackermann,1970). إن هذه الجملة ملتوية ومتناقضة إلى حد ما. وهو ينطلق من الاعتراف بإرادة الله (في ذلك الحين كان بعدُ كاثوليكياً مواظباً)؛ ثم يجزم أنه «لن أخضع» ويقيّد ذلك بإضافة قوله من «دون إرادة»- وهكذا يحل النزاع بين رضوخيته الفعلية ومثاله في امتلاك الإرادة القوية بحل وسط هو أنه سيخضع ولكن بإرادته؛ ثم يعد نفسه بتوجيه سير قدره، ولكنه يقيّد هذا «الإعلان للاستقلال» بالإضافة الواهية «بأقصى مستطاعي». وعلى النقيض تماماً من هتلر، كان على الدوام وظل ضعيفاً، وقد عرف ذلك. وكانت حياته صراعاً ضد هذا الإدراك، محاولة ليصير قوياً. كان هملر كثير الشبه بالمراهق الذي يريد أن يتوقف عن ممارسة العادة السرية ولكنه لايستطيع، والذي يشعر بالذنب والضعف، ويتهّم نفسه بضعفه، ويحاول دائماً أن يتغيّر ولايُفلح. ولكن أتاحت له ظروفه وفطنته منصباً له كل هذه السيطرة على الآخرين بحيث تمكّن من أن يعيش بوهم أنه أصبح «قوياً».

ولم يكن هملر يشعر بالضعف وعدم الرشاقة البدنية وحسب، بل كان يعاني كذلك من إحساسه بالدونية الاجتماعية. وكان أساتذة المدرسة الثانوية في أدنى مستويات النظام الملكي ويخشون كل المقامات الأرفع منهم. وكان ذلك على أشد مايكون في أسرة هملر، مادام أبوه قد كان في مدة من الزمن مدرّساً خصوصياً

للأمير هاينريش الباڤاري Heinrich of Bavaria وحافظ بعد ذلك على علاقة شخصية كافية للطلب من الأمير بأن يكون عرّاب ابنه الثاني، الذي اكتسب بذلك اسم هاينريش. وبهذا المعروف الأميري الذي أُنعم به على أسرة هملر، وصلت الأسرة إلى أعلى ما يمكن الوصول إليه من الطموحات؛ ومن المحتمل أن الصلة كانت لها أطيب الآثار لأن الأمير لم يُقتل في المعركة إبان الحرب العالمية الأولى (الأمير الوحيد الذي يصيبه هذا المصير). وبالنسبة إلى هملر الشاب، فيمكن للمرء أن يفترض أنه لتوقه الشديد إلى إخفاء إحساسه بعدم القيمة، لابد أن النبالة بدت له مثل سماء اجتماعية خيّمت عليه إلى الأبد.

ومع ذلك فإن طموح هملر قد بلغ المحال. فمن المراهق الخجول الذي يقاسي من الدونية الاجتماعية ويُعجب بأعضاء طبقة النبلاء ويحسدهم، أصبح رئيس قوة الشرطة الألمانية الخاصة الـ «إس. إس» SS، التي كانت تعني طبقة النبلاء الألمانية الجديدة. فلم يعد فوقه الأمير هاينريش، ولم يعد فوقه أي «كونت» أو «بارون» أو صاحب لقب «فون». فهو، زعيمَ الـ «إس. إس» مع أتباعه، كان النبيلَ الجديد؛ وهو كان الأمير؛ لابد أن ذلك كان أُخيولته على الأقل. وقد أوضحت ذكريات هولغارتن عن سنواتهما المدرسية هذه الصلة بين النبالة والـ «إس. إس» SS. وكانت هناك مجموعة من أبناء الأسر النبيلة في مونيخ، تعيش في دار لها، ولكنها كانت تذهب إلى قاعة الألعاب الرياضية للتعليم. ويتذكر هولغارتن أن أعضاء هذه المجموعة كانوا يرتدون لباساً كاللباس الذي ارتداه فيما بعد أعضاء الـ «إس. إس»، باستثناء أن لونه كان أزرق قاتماً ولباس الـ «إس. إس» SS كان أسود اللون. وإشارته إلى أن هذا اللباس قد أفاد في أن يكون أنموذجاً للباس الـ«إس. إس» تبدو معقولة جداً.

وكان هملر يعظ الجماعة بالشجاعة والتضحية بالذات باستمرار. والقول بأن ذلك كان تظاهراً يصبح شديد الوضوح في التاريخ المعقّد بعض الشيء حول رغبته

في الالتحاق بالجيش والذهاب إلى الجبهة سنة 1917 . كان هاينريش كأخيه الأكبر والكثيرين من الشبان الذين كانت لهم صلات بالصفوف العليا من المؤسسة العسكرية- يحاول أن يدخل في فوج لتدريب الضباط لكي يصبح طالباً في الكلية العسكرية (Fänrich طامحاً في أن يكون ضابطاً ذا رتبة عسكرية). وكانت لهذا التدريب فائدتان : الفائدة الواضحة هي الحصول على مرتبة الضابط مع الأمل في مواصلة العمل العسكري الاحترافي فيما بعد، والفائدة الأقل وضوحاً هي أن هذا التدريب يستغرق زمناً أطول من تدريب الجنود الذين تمّ اختيارهم أو تطوعوا ليكونوا جنوداً عاديين. ويمكن أن يتوقع المرء أن يستغرق التدريب ثمانية أو تسعة أشهر قبل أن يستطيعوا الذهاب إلى الجبهة. وكان الجنود العاديون يُرسَلون في العادة إلى الجبهة في وقت أقصر بكثير في تلك الفترة من الحرب.

وقد سبق أن دخل شقيق هملر الأكبر غيبارد سنة 1916 وأُرسل في مآل الأمر إلى الجبهة. وكانت الضجة التي أحدثتها الأسرة بشأن الشقيق الأكبر ورحيل الأعداد المتزايدة من الشبان المتوجّهين إلى الجبهة قد جعلت هاينريش هملر يتوسّل إلى أبويه أن يسمحا له بترك المدرسة وكذلك بالدخول في فوج تدريب الضباط. وقام أبو هملر بعمل كل شيء يقدر عليه لتحقيق رغبة ابنه بحشد صلاته الاجتماعية. ولكن على الرغم من التزكية الحارة المقدّمة من أرملة الأمير هاينريش، فإن القطعة العسكرية التي زكُّي لها كانت قد أخذت كفايتها من المرشّحين لتدريب الضباط ورفضتْه. وقام الأب، بطريقته المنظمة، بتقديم الطلبات إلى ثلاث وعشرين قطعة عسكرية، بعد أن دوّن أسماء أعلى الضبّاط في كل قطعة وأسماء الناس الذين يمكن أن تكون لهم صلة بقادة القِطَع. وعلى الرغم من كل ذلك لم ينل إلا الرفض. وحتى عندئذ لم يكن الأستاذ هملر مستعداً للاعتراف بالهزيمة. فبعد خمسة أيام أرسل الطلب الرابع والعشرين إلى قطعة جنود المشاة الحادية عشرة، التي لم يقترب منها بعد. وعندما كان الأب يقاتل في معركة الطلبات، فَقَدَ هاينريش الأمل مؤقتاً،

واعتقد بوضوح أنه يمكن أن يؤخذ إلى الخدمة جندياً عادياً. وباستخدامه علاقات أبيه، قدّم طلباً إلى مدينة «لاندشوت» Landshut للعمل في «الخدمة المساعدة» Hilfsdienst ، وهي نوع من العمل الحربي من أجل الذين لم يستدعهم الجيش. وغادر المدرسة ودخل في هذه الخدمة، يحدوه الأمل، كما هو واضح، في أنه بهذه الطريقة يمكن أن يتأخر سحبه إلى الخدمة العسكرية؛ ولكن عندما أصدرت وزارة التعليم الباڤارية أمراً خاصاً يُظهر أن هاينريش ليس في خطر أن يُسحب إلى الجيش، أعاد التحاقه بالمدرسة. وبُعيد ذلك، كان لدهشته ودهشة أبيه أن الطلب الرابع والعشرين قد حمل ثمراً، وأُمر بالحضور في بضعة أيام إلى قطعة جنود المشاة الحادية عشرة في «رغنسبورغ» Regensburg .

وعند نهاية الأسبوع الأول سمع إشاعة تقول إنه لن يبقى في فوج تدريب الضباط، بل تمّ إدراجه في عداد المنقولين بالسفينة إلى الجبهة. «أوصلته هذه الحالة إلى أعماق الغمّ ومحت حماسته الشديدة للقتال» (B.F.Smith,1971). وحين شرح لأبويه أنه لم يكن يائساً لأنه لن يصبح ضابطاً، طلب إليهما أن يتوسّطا ابنَ ابنة عمته الذي كان ضابطاً ذا رتبة في هذه القطعة وأن يلتمسا منه المساعدة على هذا الأمر. وكان الأبوان، ولاسيما الأم، مروَّعين كما كان الفتى نفسه تقريباً، وبعد شهر كان ابن ابنة العمة ليويتانت تساله Lieutant Zahle ، يواصل طمأنته لهاينريش أنه لن يُنقَل إلى الجبهة، ملحّاً عليه أن يهدّئ روعه وأن يمضي بالبرنامح حتى النهاية.

وما كادت خشية هاينريش من أن يُرسَل إلى الجبهة تهدأ حتى اتخذ موقف الثقة بالنفس. وتجرأ على التدخين (مع أنه كان عليه أن يلتمس التبغ من أبيه)، وكان يحكم في الوضع السياسي بالتعليق على خبر استقالة لودندورف Ludendorff المغلوط فيه بأنه «لم يسرّه». وقد أمضى العام 1918 من بدايته حتى أوائل تشرين الأول في التدريب وانتظار الأوامر للذهاب إلى الجبهة. ويبدو أنه في هذا الوقت

كان شديد التوق إلى أن يُرسَل وحاول أن يكسب رضى الضباط ليضمن تعيينه في المفاضلة مع تعيين صديقه كستلر Kistler ، الذي كان كذلك شديد التوق إلى الذهاب إلى الجبهة، في حالة أنه لن يُعيّن إلا واحد منهما. ولكن هذه الجهود لم تكن ذات جدوى، وهكذا استأنف اتصالاته الاجتماعية وزياراته للمسرح.

والسؤال الواضح هنا هو لماذا كان، في هذه المرحلة، تواقاً إلى الذهاب إلى الجبهة في حين كان قبل عدة أشهر مذعوراً جداً. توجد عدة إجابات حول هذا التناقض الظاهر. فقد ارتقى أخوه غيبارد في المعركة إلى ضابط مرشّح تماماً، ولابد أن ذلك قد جعل هاينريش شديد الغيرة والتوق إلى إظهار أنه هو بطل كذلك. وقد يكون كذلك أن التنافس مع كستلر كان فيه ما يكفي من الإثارة لجعله ينسى أحوال قلقه من خلال رغبته في أن يغلب كستلر في هذه المباراة الصغيرة. وعندما كان هاينريش يبذل هذه الجهود لكي يُرسَل إلى الجبهة كتب في الوقت نفسه تماماً: «أرى أن الوضع السياسي شديد السواد، كلي السواد... لن أفقد عزيمتي ولو كانت هناك ثورة، وهي غير واردة» (B.F.Smith,1971). وكان همل فطيناً إلى حد أن يعرف، كما كان كل شخص غيره تقريباً في ألمانيا في تشرين الأول 1918 ، أن الحرب انتهت وخسرت. وكان من المأمون جداً أن يريد أن يُرسل إلى الجبهة في ذلك الحين، عندما كان ثمت شعور بالموجة الثورية في ألمانيا وكانت الثورة ستندلع بعد ثلاثة أسابيع بكامل القوة. وفي الواقع، فإن المعارضة الصاعدة والحالة الثورية قد سببّت ألا تُرسِل السلطات العسكرية هؤلاء الشبان إلى الجبهة في النهاية.

وكان المثال الآخر الذي يوضح افتقار همل إلى الإرادة وعدم حسمه للأمور هو حياته المهنيّة. فكان قراره أن يدرس الزراعة قد جاء مفاجأة مدهشة تماماً، ولاتزال الحوافز على ذلك غير واضحة. وبالتعليم الكلاسيكي الذي تلقّاه، لابد أن أسرته قد توقعت أن تكون له مهنة مثل أبيه. ويبدو أن التفسير المعقول أكثر من غيره هو أنه كان يشك في قدرته على الدراسة في الميدان الفكري الأكثر دقة، وأن دراسة

الزراعة بدت له طريقة في الحصول على درجة أكاديمية ما. وعلى المرء ألا ينسى أن خيار الزراعة هذا كان نتيجة الخيبة في الوصول إلى هدفه الأول، وهو أن يصير ضابطاً محترفاً في الجيش. وعمله الزراعي قد اعترضه مرضه القلبي الحقيقي أو المزعوم، ولكن ذلك لم يوقف عزمه على الاستمرار فيه. وأحد الأشياء التي قام بها هو تعلّمه اللغة الروسية، لأنه كان يخطّط لأن يهاجر إلى الشرق ويصير مزارعاً. وكان يبدو أنه يعتقد أن القوات الألمانية سوف تفتح بعض الأراضي في الشرق، وسيكون له مكان فيها. وقد كتب: «لاأعرف الآن لماذا أعمل. إنني أعمل لأن العمل واجبي، ولأنني أجد الأمان في العمل لي ولرفيقة العمر الألمانية التي سأعيش معها يوماً ما وأناضل طيلة حياتي بوصفي ألمانياً، بعيداً عن ألمانيا العزيزة» (B.F.Smith,1971). وبعد شهر: «اليوم، وفي داخل نفسي، قد فككتُ ارتباطي بكل شخص واعتمدت على نفسي وحدها. وإذا لم أجد فتاة يلائم طبعها طبعي وتحبني، فسأذهب إلى روسيا بمفردي» (B.F.Smith,1971).

هذه العبارات كاشفة تماماً. إن هملر يحاول إنكار مخاوفه وعزلته واتكاليته بتأكيد إرادته القوية. إنه سوف يعيش بعيداً عن ألمانيا مع فتاة أو من دونها، معتمداً على نفسه كلياً، وبهذا النوع من الكلام يحاول أن يُقنع نفسه أنه لم يعد «صبي الأم». ولكنه يتصرف فعلياً كأنه صبي في السادسة يقرر أن يهرب من الأم لالشيء إلا ليختبئ حول الزاوية منتظراً أن تأتي به. وإذا أخذنا في الاعتبار أنه كان في ذلك الحين شاباً في العشرين، فإن الخطّة كلها ضمن الظروف المعطاة، كانت أُخيولة من الأُخيولات الرومانسية غير الواقعية التي كان ميالاً إليها عندما لم يكن مشغولاً بالمتابعة المباشرة لمصالحه.

وعندما يتبين أنه ليس ثمت فرصة للاستقرار في روسيا، بدأ في تعلّم اللغة

الإسبانية مع فكرة الاستقرار بصفة مزارع في أمريكا الجنوبية.[1] وفي أوقات مختلفة كان يفكر ملياً في بقاع مثل الپيرو وجورجيا (في الاتحاد السوڤييتي) وتركيا، ولكن كل هذه الأفكار هي محض حلم يقظة. ولم يكن لدى هملر في تلك المرحلة من حياته مكان يذهب إليه. ولم يستطع أن يصبح ضابطاً. ولم يكن لديه حتى المال ليغدو مزارعاً في ألمانيا- وأقل من ذلك بكثير في أمريكا الجنوبية. ولم يكن يُعوزه المال وحسب وإنما كان ما يتطلّبه هو سعة الخيال والجلَد والاستقلال. وكان في الحالة التي كان عليها الكثيرون الآخرون الذين أصبحوا نازيين لأنه لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه اجتماعياً أو مهنياً، ومع ذلك كانوا طموحين ولديهم الرغبة المتأجّجة في الارتقاء.

ولابد أن العجز عن بلوغ هدف، ومن المحتمل أن الرغبة في الذهاب بعيداً حيث لايعرفه أحد قد زادتهما التجربة التي عاشها وهو طالب في مونيخ. فقد صار عضواً في جمعية أخوية وبذل كل شيء ليجعل لنفسه شعبية. وزار إخوةً مرضى في الأخوية وبحث عن الأعضاء والمتخرجين في كل مكان. ومع ذلك كان شديد الانزعاج لأنه لم تكن له شعبية كبيرة بين إخوته الأعضاء، وعبّر بعضهم عن عدم ثقتهم به بصراحة تامة. وقد زادت من عدم شعبيته أفكاره الثابتة وتنظيمه المستمر وخوضه في القيل والقال، وردُّ خائباً عندما حاول أن يُنتخب لمنصب في الأخوية. ولم يكن في علاقته بالفتيات يتجاوز موقفه المحترس المتصلّب، وجعل مسافة كبيرة بينه وبين الجنس الآخر لوجود خطر صغير وشيك يتهدّد عفافه» (B.F.Smith,1971).

---

١ - إن طريقته معهودة كذلك في توجّهه النظامي المتحذلق. فهو يتعلّم لغة قبل أن تكون لديه حتى أدنى فكرة عن الإمكانات العملية لبلوغ الهدف الذي من أجله يتعلّم اللغة. ولكن تعلّم لغة ليس فيه أي ضرر؛ وهو لايتطلّب تكوين قرار ويتيح له أن يصدّق أن لديه مخططاً عظيماً، في حين أنه لايقوم فعلياً بشيء سوى الانسياق. وهذا هو وضعه بالضبط في أوائل العشرينيات.

وكلما أصبحت الفرص المهنيّة ميؤوساً منها أكثر، ازداد انجذاب هملر إلى أفكار الجناح اليميني المتطرف. وقد قرأ كتابات معادية للسامية، وعندما قُتل وزير الخارجية الألماني «راتِناو» Rathenau سنة 1922، كان مسروراً ودعاه «وغداً». وصار عضواً في منظمة سرية بعض الشيء للجناح اليميني المتطرف der Freifeg، وتعرّف بـ «إرنست روم» Ernest Röhm، وهو ناشط في الحركة الهتلرية. وعلى الرغم من كل هذه التعاطفات والصلات مع اليمين المتطرف، فقد ظل حذراً إلى حد يكفي لئلا يقرن مصيره بمصيرهم تماماً وبقي في مونيخ وواصل حياته المألوفة. «لأنه على الرغم من خوضه في السياسة وعذابه بشأن نفسه ومستقبله، مازال الكثير من عاداته وطرقه القديمة مستحكماً فيه، ومنها اختلافه إلى الكنيسة وزياراته الاجتماعية ورقصاته الأخوية ونقل ثيابه المتّسخة إلى إنغولشتات Ingolstadt [أمه] (B.F.Smith,1971). وأنقذه من ورطته المهنية عرض عمل، قدّمه شقيق أحد أساتذته. وكان العمل هو معاونٌ تقني في شركة للسماد الآزوتي، حيث عُيّن في بحث الشركة في السماد. والغريب في ذلك أن هذا العمل ذاته هو الذي أفضى به مباشرة إلى مجال السياسة النشطة. كان النبات الذي يعمل فيه في شلايسهايم Schleissheim، في شمالي مونيخ، وصادف أن إحدى الوحدات شبه العسكرية، Bund Bücher، كان هناك مقر قيادتها. وكان من العسير أن يتحاشى الانجذاب إلى دويّ النشاط هذا، وبعد الكثير من التردّد انضم إلى حزب هتلر، حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي،[1] وهو من أنشط الجماعات المتنافسة في الجناح اليميني. ووصفُ الأحداث في ألمانيا وباڤاريا في ذلك الحين سوف يحتاج إلى حيّز كبير. وباختصار، كانت الحكومة الباڤارية تتسلّى بفكرة الانقلاب على حكومة

١- حزب العمل الألماني القومي الاشتراكي Nationalsozialistische Deutsche Arbeiterpartei (NSDAP).

الرايخ في ألمانيا بمساعدة جماعات الجناح اليميني، ولكنها أخفقت في النهاية في مسعاها. وفي غضون ذلك ترك هملر عمله في شلايسهايم وانضم إلى وحدة عسكرية، هي سرية إبدال لقطعة رايخسفير العسكرية. ولكن الرايخسفير قد حلّت سريته لأنه كان هناك الكثيرون الذين يريدون المشاركة في العمل ضد برلين، وهكذا فبعد سبعة أسابيع فقط انتهى عمل هملر العسكري الجديد. ولكنه في غضون ذلك كان قد عَقَد صلات حميمة مع «روم»، وفي يوم «قَوْمَة مونيخ» كان هملر هو الذي يحمل علم الحرب الإمبراطوري القديم، ويسير إلى جانب «روم» على رأس رتل يحاول الاستيلاء على وزارة الحربية. وأحاط روم ورجاله بوزارة الحربية، ولكنهم بالتالي كانوا محاطين بالشرطة الباڤارية. وانتهت محاولة هتلر لنجدة «روم» في مسيرته غير الناجحة ضد القوات العسكرية في «فلدرنهاله» Feldhernhalle. وتخلّى قادة جماعة «روم» وبقية الرجال عن أسلحتهم، وعرّفوا بأنفسهم للشرطة، وذهبوا إلى بيوتهم.

وكان هملر، مع إعجابه بنفسه لحمله الراية، خائفاً من أن يجري توقيفه ومُحبَطاً من أن الحكومة لم تهتم به. ولم يجرؤ على القيام بأي شيء يمكن أن يُفضي إلى التوقيف، مثل العمل مع المنظمات المحظورة. (يجب أن ندرك أن التوقيف، ليس من شأنه أن تكون له أية عواقب مرعبة. والأرجح أنه سيُطلَق سراحه، أو يُحكَم له بالبراءة، أو يُحكَم عليه حكماً قصيراً يقضيه محبوساً في «فتسونغ» Fet-sung، مثل هتلر- وهو مكان هنيء فيه كل وسائل الراحة، باستثناء حق المغادرة.) وبدلاً من ذلك، أرضى نفسه ببعض التبريرات: «بوصفي صديقاً، وعلى الأخص جندياً وعضواً مخلصاً في الحركة الشعبية، لن أهرب من الخطر، بل علينا واجب بعضنا تجاه بعض وتجاه الحركة وهو أن نبقى على استعداد للصراع»

(B.F.Smith,1971) . وبناء على ذلك، فقد عمل في الحركة الشعبية التي لم تكن محظورة، وظل يسعى للحصول على عمل، ويتلهى بفكرة تحديد موقع جذاب في تركيا. حتى إنه كتب إلى السفارة السوفييتية يستفسر منها عن أية فرصة للذهاب إلى أوكرانيا- وهذه خطوة غريبة من هذا المتعصّب في عدائه للشيوعية. وفي هذه الفترة أصبح عداؤه للسامية أقبح ومصطبغاً بالجنس، ربما بسبب انشغاله المستمر بالجنس. وأخذ يتظنن حول الفتيات اللواتي كان يلتقيهن ويتلقّف الكتابات الجنسية كلما تيّسر له ذلك. وحين كان يزور أصدقاء قُدامى سنة 1924، عثر في مكتبهم على كتاب «سادي في اللباس الكهنوتي» Ein Sadist in Priesterrock من تأليف «ك. ف. شليختغرول» C.F Schlichtegroll، وقد كان ممنوعاً في ألمانياسنة 1904. ومضى فيه سريعاً فأتم قراءته في يوم واحد. وعموماً، فقد قدّم الصورة التي من شأن المرء أن يتوقعها لشاب مقموع ومذعور ويقاسي من عجزه عن الاتصال بالنساء.

وأخيراً حُلّت مشكلة مستقبله. فإن أحد قادة «حركة التحرر القومي الاشتراكي» ورئيس مكتبها الإقليمي في باڤاريا الدنيا، غريغور شتراسر Gregor Strasser، قد عرض عليه العمل سكرتيراً ومساعداً عاماً له. فقبل على الفور، وذهب مع شتراسر إلى لاندشوت وارتقى مع شتراسر في الحزب. وكان شتراسر يمثّل أفكاراً مختلفة تماماً عن أفكار هتلر. وقد شدّد على الملامح الاشتراكية الثورية في البرنامج النازي وكان زعيماً للجناح الأكثر جذرية، مع أخيه «أوتو» Otto ومع يوزف غوبلز Joseph Goebbles. وقد أرادوا أن يُبعدوا هتلر عن توجّه الطبقة العليا واعتقدوا أن على الحزب أن ينادي بثورة اجتماعية وتكفيه من التوابل معاداة السامية» (B.F.Smith,1971). ولكن هتلر لم يغيّر مسلكه. وإذ عرف غوبلز أي الجانبين أقوى، تخلى عن أفكاره وتبع هتلر. وترك شتراسر الحزب، أما «روم»، الذي كان رئيساً للحركة الاشتراكية ويمثل الأفكار الثورية الأكثر جذرية، فقد قُتل

بناء على أوامر هتلر، وفي الواقع على أيدي رجال هملر في قوة الشرطة الخاصة (الـ «إس إس» SS). وكان موت «روم» والقادة الآخرين في الحركة الاشتراكية هو البداية والشرط لصعود هملر إلى القمة.

ولكن «حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي» كان حزباً صغيراً في 1925 - 1926، وبدا أن جمهورية ڤايمار قد أصبحت أكثر استقراراً، ومن الواضح أنه كانت لدى هملر بعض الشكوك. فقد خسر أصدقاءه السابقين، و«حتى أبويه قد أوضحا أنهما لايستنكران عمله الحزبي وحسب بل ينظران إليه على أنه ابنٌ مضربُ الأمثال في الضياع» (B.F.Smith,1971). وكان راتبه ضئيلاً، وكثيراً ما كان يضطر إلى اقتراض المال. ولذلك ليس من المستغرب أن الرغبة القديمة في الحصول على موقع وطيد بوصفه مديراً لمزرعة قد استولت عليه من جديد، وأنه أخذ يتسلى من جديد بفكرة الهجرة إلى تركيا. ولكنه ظل في منصبه الحزبي لأن كل محاولاته للعثور على عمل لم تُجد البتة- وليس لأن ولاءه لأفكار الحزب كان ثابتاً وشديد القوة. ولكن بعد فترة قصيرة أشرقت أشياء. فقد صار غريغور شتراسر زعيم الدعاية الألمانية في الحزب سنة 1929 وعُيِّن هملر نائباً له.

وبعد ثلاث سنوات ترأس هملر ثلاثمائة رجل من الـ «إس. إس»، صاروا في العام 1933 جيشاً قوامه خمسون ألفاً من الرجال.

ويعلّق سميث في سيرته عن هملر: «مايشوّشنا بعمق ليس تنظيم الـ«إس. إس» ولامنصب هملر النهائي بوصفه رئيساً لشرطة الرايخ، بل تعذيب ملايين البشر وإفناء الملايين الأكثر منهم عدداً. ولاتوجد في طفولة هملر وشبابه إجابة مباشرة عن هذه الأسئلة» (B.F.Smith,1971). ولاأعتقد أنه محق وسأحاول أن أبيّن أن سادية هملر راسخة الجذور في بنية طبعه قبل أن تأتيه الفرصة لممارستها على المستوى الذي جعل اسمه يدخل التاريخ بوصفه وحشاً دموياً بزمن طويل.

يجب أن نتذكر أن السادية في تعريفها الواسع هي الشغف بالسيطرة المطلقة وغير المقيّدة على إنسان آخر؛ وليس الإيلامُ الجسدي إلا أحد تبديّات هذه الرغبة في القدرة على كل شيء. وعلينا ألا ننسى كذلك أن المازوخية ليست نقيض السادية، وإنما هي جزء من النظام التواكلي الذي تكون فيه السيطرة الكاملة والخضوع الكامل تجلّيين لهما الأهمية الأساسية الضرورية نفسها.

ويمكن أن تكون من بواكير الدلائل على لذة هملر في التشهيرات الخبيثة بالناس الآخرين حادثة وقعت في إبان الحرب عندما كان هملر في السادسة عشرة من العمر. كان بعض السكسونيين الموسرِين الذين يُمضون العطلة في باڤاريا قد ادخروا الغذاء هناك وأرسلوه إلى وطنهم، حيث الحصول على هذه الأشياء أصعب بكثير. فتم التشهير بهم في الصحيفة، وسميث يعتقد أن وفرة المعلومات التي حصل عليها هملر عن الأصناف التي جلبوها «تشير بالتأكيد إلى أنه قد أدى دوراً ما في فضحها» (B.F.Smith,1971). وكتب هملر في سنة 1919 قصيدة صغيرة تشير كذلك إلى مسحة القسوة فيه (B.F.Smith,1971):

أيها الفرنسيون، أيها الفرنسيون

حبذا لو انتبهتم بدقة.

لأنه لن يُغفَر لكم

فرصاصاتنا سوف تزعق وتمرق

ناشرة الفزع والذعر بينكم

عندما نفعل ما نشاء بصورة موحشةٍ جداً.

ومن سن الحادية والعشرين عندما أحس أنه أكثر استقلالاً بعض الشيء لأنه بدأ في العثور على أصدقاء جدد وشخصيات أبوية جديدة، فقد أخذ يتصرف بكياسة نحو أبيه بطريقة تُظهر شعوره بالتفوق، على الرغم من أنه كان يصوغ

مواعظه له بالأشكال الملائمة على الدوام، أما تلطّفه بوعظ أخيه الأكبر غيبارد فقد أصبح متزايد القسوة.

وإنه لمن الضروري لكي نتتبّع نشأة سادية هملر أن نفهم أهمية علاقته بـ«غيبارد». [1] فقد كان غيبارد بالفعل نقيض هاينريش؛ إذ كان يأخذ الأمور بسهولة، وذا شعبية، وغير وجل، وجذاباً للفتيات. وعندما كان الاثنان في سن أصغر، بدا أن هاينريش معجب بغيبارد، ولكن هذا الإعجاب تحوّل إلى حسد مرير عندما نجح غيبارد في أمور كثيرة أخفق فيها هاينريش. فقد خاضِ الحرب، وارتقى في ميدان المعركة، ونال رتبة «مناصر الصليب الأسود». ووقع في حب فتاة جذابة وخطبها، في حين أن أخاه الأصغر، الذي لم ينل مجداً ولا حباً، كان مرتبكاً وضعيفاً وليست له شعبية. وحوّل هاينريش ولاءه من غيبارد إلى ابن ابنِ عمه لودڤيغ، الذي كانت لديه أسباب للشعور بالغيرة من غيبارد. وفي البدء اكتفى بنقد أخيه نقداً لاذعاً لافتقاره إلى الانضباط والقصد، ولأنه لم يكن ذا بطولية كافية، ولعدم مبالاته- وكما هو مألوف عنه، ينتقد الآخرين على العيوب الموجودة فيه شخصياً. ولكن وزير الشرطة المستقبلي يَظهر نابت الشعر تماماً في علاقته بغيبارد بعد أن نجح الأخير في التودّد إلى ابنة عم لهما بادية الجاذبية تُدعى پاولا. ولم تنسجم الفتاة مع فكرة هاينريش عن المخطوبة الحييّة المنكفئة والطاهرة، ولسوء الحظ، فقد كانت هناك مشكلة بين پاولا وغيبارد بسبب عمل طائش جرى الزعم بأنها قامت به في سن مبكرة. وكتب غيبارد إلى هاينريش أن يذهب إلى بيت پاولا وأن يساعدهم على حسم المسألة. ويُظهر هذا الطلب غير المألوف إلى أي حد قد نجح هاينريش في إخضاع أخيه الأكبر، وربما بتدبير اشترك فيه الأبوان. وذهب هاينريش ليرى، ولكن ما حدث مجهول. إلا أن الرسالة التي سوّدها لها، بعد أن قدّمت أربعة مواثيق وفاء، تُظهر لنا شيئاً من طبعه الإكراهي:

١- إن مصدري للبحث التالي في علاقة هاينريش بأخيه غيبارد هو الوصف الموجود في (B.F.Smith,1971).

سيكون من دواعي سروري أن أصدّق أنك ستتمسكين بهذه الأمور الأربعة، خصوصاً مادام غيبارد يحاول إقناعك مباشرة من خلال حضوره الشخصي. ولكن ذلك ليس كافياً. فمن المؤكد أن الرجل يجب أن يعرف عن عروسه، ولو كان غائباً سنواتٍ، ولايراها ولايسمع أحدهما أي شيء عن الآخر زمناً طويلاً (لايمكن أن تكون فيه الحال سهلة إلا في الحرب الرهيبة القادمة)، أنها هي نفسها لن تكون خافرة عهده في كلمة، ولانظرة، ولاقبلة، ولاإيماءة، ولافكرة... لديكِ اختبار عليك ويجب [الإبراز في الأصل] أن تكوني قادرة على الصمود له، وأنت بطريقة مخجلة لم تصمدي... فإذا كان من شأن اتحادكما أن يكون اتحاداً سعيداً لكما ولصحة الشعب das Volk الذي يجب أن يُبنى على أسَر أخلاقية سليمة- فعليك أن تسيطري على نفسك بقوة بربرية [الإبراز في الأصل]. ومادمت لاتعاملين نفسك بقوة وثبات، ولاتسيطرين على نفسك إلا إلى حد صغير فإن زوجك المستقبلي، كما سبق أن قلت، جيد جداً نحوك، ويمتلك فهماً ضئيلاً للناس ولايستطيع أن يتعلّم ذلك مادام هذا العمر لم يدعه يتعلمه، فلابد من أن يقوم شخص غيره بذلك. ومادام كلاكما قد فاتحني في هذا الأمر واستدرجني إليه، فإنني أشعر بأنني ملزَم بالقيام به.

وفي الشهور السبعة التالية تجنّب هاينريش التطفّل الصريح، حتى حصل في شباط 1924 على بعض المعلومات التي تفيد أنها ارتكبت «طيشاً» من جديد. وفي هذه المرة لم يُخبر أخاه مباشرة، بل روى القصة لأبويه وحاول أن يقنعهما أن شرف الأسرة يقتضي انتهاء الخِطبة. وأذعنت أمه ووافقت باكية، وفي آخر الأمر أقنع أباه كذلك؛ وعندئذ فقط جابَه غيبارد مباشرة. و«عندما وافق غيبارد على التعاون وسمح بإنهاء الخِطبة، شعر هاينريش بالانتصار وفي الوقت نفسه ازدرى أخاه لعدم

مقاومته. وقال، «كأنه [غيبارد] لم تكن له روح على الإطلاق». فهذا الشاب الذي له من العمر أربع وعشرون سنة قد نجح في تحطيم أبيه وأمه وأخيه الأكبر، وفي جعل نفسه الدكتاتور الفعلي لأسرته.

وكان فسخ الخِطبة أمراً بغيضاً جداً عند آل هملر، وفي الدرجة الأولى لأن أسرة پاولا قريبة منهم قرابة بعيدة. «ومع ذلك فكلما أبدى غيبارد أو أبوه أية معارضة لإنجاز القطيعة، كان هاينريش مستعداً لاستخدام المزيد من الضغط. وزار أصدقاء مشتركين ليشرح لهم لماذا يجب أن تنتهي الخِطبة وفي السياق يمزّق سمعة الفتاة إرباً إرباً. وعندما وصلت رسالة من پاولا، كان رده هو التشديد على ضرورة «الثبات على الموقف وألا يسمح المرء بأن تثنيه الشكوك». وفي هذه المرحلة اتخذت الرغبة في السيطرة على أخيه وأبويه ملامح القباحة السادية الخالصة. فأراد أن يقضي على سمعة الفتاة، ولكي يُذلّ أبويه وغيبارد وأسرة الفتاة أكثر من ذلك، أصرّ على أن كل الهدايا التي تمّ تبادلها يجب أن تعاد. وكانت رغبة الأب في إنهاء الخِطبة بموافقة الطرفين قد رفضها هاينريش، الذي انتصرت سياسته المتصلّبة ورَفَض في مآل الأمر كل حل وسط. وظفر هملر بالنصر الكلي وجعل كل شخص شقياً بكل معنى الكلمة.

وفي جل الأحوال، من شأن القصة أن تنتهي هنا، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى هاينريش هملر. فقد استخدم پوليساً سرياً خاصاً ليراقب سلوك پاولا وطلب إليه أن يجمع القصص «التي سمعتَها وتستطيع أن تثبتها!» وبعث إليه الپوليسُ السري بمجموعة من القصص التي تعرّض للشبهة والفضيحة. وانتهز هملر المناسبة لإذلال أسرة پاولا أكثر من ذلك بإعادته ما يقارب أكثر الهدايا التي تلقّاها من الأسرة والتي زعم أنه نسي إعادتها من قبل، ولم يُضف إليها سوى بطاقة زيارته.

جاءت حملته العنيفة بعد شهرين في رسالة إلى أصدقاء مشتركين. وهو يطلب إليهم أن يقولوا لپاولا أن تكفّ عن قول الأشياء القذرة عن آل هملر ويضيف إلى ذلك التحذير من أنه، ولو كان إنساناً لطيفاً، «*سأكون مختلفاً كل الاختلاف إذا أرغمني أي أحد على ذلك. وعندئذ، لن يوقفني أي إحساس زائف بالشفقة حتى يُطرد الخصم اجتماعياً وأخلاقياً من صفوف المجتمع*.» [الإبراز مضاف.]

كانت هذه قمة السيطرة القبيحة التي استطاع هملر أن يمارسها في ظل تلك الظروف. وعندما تمكّن بمكره استخدام الظروف السياسية لأغراضه الخاصة، كانت لديه الإمكانية للتعبير عن ساديته على المستوى التاريخي. ومع ذلك فإن زعيم الـ «إس. إس» الألماني كان يتكلم بمصطلحات لاتختلف في ماهيتها عن المصطلحات التي استخدمها هملر الشاب في تهديده لپاولا. وهذا ما يوضحه كلام هملر بعد ما يقرب من عشرين سنة (1943) حول المبادئ الأخلاقية في النظام الأسود:

يجب أن يكون لأحد المبادئ الإلزام القانوني المطلق بالنسبة إلى رجل الـ «إس. إس»، وهو أن يكون صادقاً ومحتشماً وموالياً ورفيقاً مخلصاً لأعضاء سلالتنا وليس لأحد سواهم. إن ما يحدث للروس أو التشيك أمر لايهمني بتاتاً. وأي أصل شريف تملكه الشعوب الأخرى سوف نأخذه منهم بسلب أطفالهم منهم إذا كان ذلك ضرورياً، وتنشئتهم بيننا. وسواء أكانت الأمم الأخرى تحيا في بحبوحة أم تفنى من الجوع، فإنها لاتهمني إلا لأننا نحتاج إلى عبيد لثقافتنا؛ وإلا فهي لاتهمني. ومسألة هل في عملية إنشاء خنادق للدبابات تسقط عشرة آلاف امرأة روسية أم لا، لاتهمني إلا من ناحية أن الخندق جاهز لألمانيا. ولن نكون قساة وعديمي الرأفة حيث لاتكون ضرورة لذلك.

إن السادي في هذا القول حر في التعبير عن نفسه تماماً. إنه سوف يسلب أطفال الناس إذا كان أصلهم شريفاً. وهو سوف يأخذ الأمم الأخرى «عبيداً لثقافتنا»، وهل تعيش أم تموت أمر لاأهمية له عنده. وختام الكلام هو الكلام

المراوغ المعهود في هملر والنازيين. فهو يؤكد لمستمعيه ولنفسه أنه لن يكون قاسياً وعديم الرأفة إلا إذا كان ذلك ضرورياً. وهذا هو التبرير الذي استخدمه في تهديده لپاولا: سأكون عديم الشفقة «إذا أرغمني أي أحد على ذلك».

وكان هملر رجلاً مذعوراً يحتاج إلى التبريرات دائماً ليزوّق ساديته. ولعله كان كذلك مضطراً إلى حماية نفسه من أن يجابَه بالدليل على ساديته. ويورد كارل ڤولف Karl Wolf أن هملر قد شهد إعداماً جماعياً في مدينة «منْسك» Minsk [عاصمة بيلوروسيا] في أواخر صيف 1941، وقد هزّه ذلك إلى حد ما. ولكنه قال، «ومع ذلك، أعتقد أنه من الصواب أن ننظر إلى هذا الإعدام. فمن يحكم في موضوع الحياة والموت عليه أن يعرف ماذا يشبه الموت وماذا يطلب من الآمرين بالإعدام أن يفعلوا» (K.Wolf,1961). وقد وقع الكثيرون من رجال الـ «إس. إس» مرضى بعد هذه الإعدامات الجماعية؛ وانتحر بعضهم، أو صاروا ذُهانيين، أو عانوا من ضرر ذهني شديد آخر.[1]

ولايمكن للمرء أن يتحدث عن طبع هملر السادي من دون البحث فيما وُصف في كثير من الأحيان بأنه لطفه. وقد سبق أن ذكرتُ أنه حاول أن يجعل نفسه شعبياً بزيارة إخوة الأخوية المرضى، ولكنه قام بأمور شبيهة بذلك في مناسبات أخرى كذلك. وقد أعطى امرأة مسنّة كعكة وأرغفة ودوّن في يومياته: «كم أتمنى لو أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك، ولكننا نحن أنفسنا مساكين» (ليس صحيحاً، لأن أسرته كانت من أسر الطبقة الوسطى الثرية وبعيدة عن أن تكون من المساكين.) وقد نظّم تبرعاً خيرياً مع أصدقائه وأعطى ريعه لأطفال ڤيينا، وتصرّف بطريقة أبوية مع

١- راجع ر. هوس R.Höss، وهو آمر في معسكر الاعتقال النازي في بلدة «أوشڤيتس» Auschwitz في پولونيا (quoted by J.Ackermann,1970). وانظر كذلك في خطاب هملر في أوكتوبر 1943 إلى كبار قادة الـ «إس. إس» حول «الانهيارات العصبية» بوصفها إحدى النتائج الممكنة لحملة الإبادة التي قام بها (Koblenz Nazi Archiv. NS 19 H.R.10).

رجال الـ «إس. إس»، كما علّق الكثيرون. ولكنني من الصورة الكلية لطبع هملر تكوّن لديّ الانطباع بأن هذه الأعمال الودية لم تكن تعبيرات عن ودية حقيقية. لقد كان بحاجة إلى التعويض عن افتقاره إلى الشعور وعن عدم اكتراثه البارد، وإلى إقناع نفسه والآخرين أنه لم يكن ما كان، أو لنعبّر عن ذلك بطريقة مختلفة، أنه كان يشعر بما لم يشعر به. كان مضطراً إلى إنكار القسوة والبرودة بإظهار اللطف والاهتمام. وحتى نفوره عن صيد الحيوانات، الذي وصفه بأنه جبن، ليس في الإمكان أن يكون بالغ الجدية مادام قد اقترح في إحدى رسائله أنه يجب تسهيل صيد الحيوانات الكبيرة لرجال الـ«إس. إس» مكافأةً لهم على حسن سلوكهم. لقد كان ودوداً للأطفال والحيوانات، ولكن يجب السماح بالتشكّك حتى في ذلك، لأنه يكاد لايوجد شيء فعله هذا الرجل لم يكن له قصد الارتقاء في مهنته. ولاريب أنه يمكن حتى لسادي مثل هملر أن تكون له بعض الخصال الإنسانية الإيجابية، كاللطف مع بعض الناس في بعض الأحوال؛ ومن شأن المرء أن يتوقع أن تكون لديه مثل هذه الخصال. وما يجعل الأمر من الصعب جداً تصديقه هو أن تكون في هملر برودة كاملة ومتابعة حصرية لأهدافه الأنانية.

ويوجد كذلك نمط حسن النية من السادية الذي تكون فيه السيطرة على الشخص الآخر ليس لها هدف إيذائه، بل المقصود منها العمل من أجل خيره.[1] وربما كان لدى هملر شيء من هذه السادية ذات النية الحسنة التي تترك الانطباع باللطف. (وفي رسائله إلى أبويه ربما كان لوعظه المتلطّف جانب حسن النية، كما في علاقته برجال الـ «إس. إس»). والمثال على ذلك هو رسالة هملر في / 16/ أيلول 1938 إلى ضابط كبير في الـ «إس. إس»، هو الكونت كوتولنسكي Kottulin-sky: «عزيزي كوتولنسكي، أنت مريض جداً، ولديك شكوى شديدة في قلبك. وباسم مصالح قلبك، أمنعك من التدخين في السنتين التاليتين. وبعد هاتين

١- راجع بحث السادية «حسنة النية» في E.Fromm (1941).

السنتين، سوف ترسل إليّ تقريراً طبياً عن صحتك؛ وبعد ذلك سأقرر هل سيرفَع منع التدخين أم يستمر. ليتوفقْ هتلر (quoted by Heil Hitler H. Heiber 1958).

ونجد لهجة معلم المدرسة نفسها في رسالة (في 30 أيلول1942) إلى رئيس أطباء الـ «إس. إس» ، غرافيتس Gravitz ، الذي كتب له تقريراً مخيباً للظن حول الفحوص الطبية لنزلاء معسكر الاعتقال.

يجب ألا تكون هذه الرسالة سبباً في أن تسأل نفسك ساعاتٍ هل سأفصلك من الخدمة بوصفك رئيساً للأطباء أم لا، فليس في نيتّها إلا أن تجعلك تكفّ الآن بعد سنوات عن عيبك الأساسي، وهو غرورك، وأن تباشر بعدُ بجدية وواقعية في معالجة كل مهماتك وكذلك أبغضها بشجاعة وأن تتخلّى في النهاية عما لديك من دافع ورأي مفاده أن المرء يمكن أن يضع الأمور في موضعها الصحيح بالكثير من الكلام والثرثرة. فإذا تعلّمتَ ذلك وحاولتَ إقناع نفسك، فسيكون كل شيء في نصابه وسأكون راضياً عنك وعن عملك من جديد. (Quoted by H.Heiber, 1958).

إنَ رسالة هملر إلى غرافيتس مثيرة للاهتمام لا لما فيها من نبرة الأَسْتَذة وحسب بل كذلك لأن هملر يعظ الدكتور عن العيوب التي من الواضح جداً أنها عيوبه- الغرور وعدم الشجاعة وكثرة الكلام. والمجموعة مليئة برسائل مشابهة يؤدي فيها دور الأب الصارم والحكيم. والكثيرون من الضباط الذين كُتبت لهم كانوا أعضاء في الطبقة الإقطاعية، ولعل المرء لايشرد كثيراً إذا افترض أن إظهار هملر لهم تفوّقه ومعاملتهم معاملة تلاميذ المدارس قد منحا هملر رضى خاصاً (وهذا لم يعد حسن النية.)

وكانت نهاية هملر على وفاق مع طبعه كما كانت حياته. فعندما غدا واضحاً أن ألمانيا قد خسرت الحرب، كان يُهيّئ المفاوضات مع القوى الغربية، من خلال وسطاء سويديين، المفاوضات التي من شأنها أن تتركه في دور قيادي، كما عَرَضَ

التنازلات فيما يتصل بمصير اليهود. وفي هذه المفاوضات تخلّى عن العقائد السياسية التي تعلّق بها بتشبّث شديد عقيدةً عقيدة. ولاشك أن الموالي هاينريش der treue Heinrich ، كما كان يُدعى، بمجرد مبادرته بها، قد ارتكب العمل الأخير في خيانته لوثنه هتلر. وكان اعتقاده بأن الحلفاء سوف يقبلون أن يكون «الفورر» Führer الألماني الجديد علامة من علامات ذكائه العادي وافتقاره إلى الحصافة السياسية، وكذلك من علامات تعاظمه النرجسي، الذي جعله يعتقد أنه الإنسان الأهم حتى في حالة انهزام ألمانيا. وأبى أن يقبل اقتراح الجنرال أولندورف Ohlendorf بأن يستسلم للحلفاء ويتحمل المسؤولية عن الـ «إس. إس». إن الرجل الذي كان يعظ بالولاء والمسؤولية يُظهر الآن، صادقاً مع طبعه، كامل عدم الولاء وعدم المسؤولية. وهرب بغمامة سوداء على عينه ومن دون شاربه، ومعه أوراق مزيفة، وبلباس عريف. وعندما جرى توقيفه وإحضاره إلى معسكر أسرى الحرب، من الواضح أن نرجسيته لم تستطع أن تتحمل أن يعامَل مثل آلاف الجنود المجهولين. وطلب أن يرى آمر المعسكر وقال له، «أنا هاينريش هملر.» وبعد بعض الوقت عضّ برشامة من السيانيد cyanide [وهو مركّب كيميائي شديد السُّمّيّة] كان يحملها في سنّه المجوّف. وكان قبل ما لايزيد عن بضع سنوات، في 1938 ، يقول في خطبة له، «لاأملك فهماً للشخص الذي يطرح عنه حياته كأنها قميص وسخ لأنه يعتقد أنه بهذه الطريقة سوف يتملّص من مصاعبه. إن شخصاً كهذا يجب أن يُدفن مثل حيوان» (J.Ackermann,1970).

وهكذا انغلقت دائرة حياته. كان عليه أن يحصل على السلطة المطلقة ليتغلّب على تجربة ضعفه وعجزه الجوهريين. وبعد أن حقّق هذا الهدف، حاول أن يتمسّك بهذه السلطة بخيانة وثنه. وعندما صار في معسكر الأسرى، بوصفه جندياً عادياً،

واحداً من مئات الآلاف، لم يستطع أن يتحمل تخفيضه إلى المتجرد من السلطة تماماً. وفضّل أن يموت على أن يرتّد إلى دور الإنسان الذي لاسلطة له والذي كان بالنسبة إليه دور الشخص الضعيف جسماً وعقلاً.

وفي الإجمال

إن هملر مثال على الطبع التسلّطي، السادي، الادخاري- الشرجي. كان ضعيفاً (وليس شخصاً يشعر بالضعف فقط)؛ وكان يجد بعض الإحساس بالأمن في الترتيب والتحذلق، وبالخضوع لصور الأب القوي، وفي مآل الأمر أظهر شغفاً بالسيطرة غير المحدودة على الآخرين سبيلاً إلى التغلّب على الإحساس بالعجز الجوهري والخجل والاضطراب. وكان شديد الحسد للناس الذين حبتهم الحياة بالمزيد من القوة واحترام الذات. وأفضى به العجز الجوهري والحسد الناجم عنه إلى الرغبة الحاقدة في إذلالهم والقضاء عليهم، سواء في ذلك مخطوبة أخيه غيبارد أو ضحاياه الآخرون. وقد كان بارداً وعديم الرحمة تماماً، مما جعله أكثر انعزالاً وأشد فزعاً.

وكان هملر كذلك انتهازياً خالصاً. وكانت عاطفته السادية يحكمها على الدوام ما يعتقد أنه مفيد له؛ وكان عديم الولاء وكذاباً عريقاً- لانحو الآخرين وحسب بل بالدرجة نفسها نحو نفسه. وكل فضيلة من الفضائل التي كان يعظ بها بصورة دائمة كان من اللافت للانتباه غيابها فيه. وقد وضع شعار الـ «إس. إس» وهو «الولاء شرفنا»، وخان هتلر. وكان يعظ بالقوة والثبات والشجاعة، ومع ذلك كان ضعيفاً وهشاً وجباناً. وكانت عبارة «الموالي هاينريش der treue Heinrich» كذبة حية. ولعل الشيء الحقيقي الوحيد الذي قاله حول نفسه في أي وقت كان الجملةَ التي كتبها لأبيه عندما كان في التدريب العسكري: «لاتخافوا عليّ لأنني

مكّار كالثعلب» (B.F.Smith 1971).[1]

وقد يظل السلوكي يتساءل أما كان هملر إنساناً طبيعياً إلى أن جعلت الظروف من مصلحته أن يتصرف بسادية.

وأعتقد أن تحليلنا قد أجاب عن هذا السؤال. فقد رأينا أن كل ظروف النشوء السادي قد قُدّمت في نشأته الباكرة. وتابعنا نشوء اضطرابه الباكر، وعدم رجولته، وجبنه، وإحساسه بالعجز، وهذه الصفات وحدها تشير إلى إمكانية التعويضات السادية. ثم إننا قد رأينا نشوء طبعه المفرط في الترتيب والمتحذلق والتسلّطي الادخاري- الشرجي النموذجي. ورأينا في آخر الأمر ساديته الخبيثة الصريحة في معاملته لمخطوبة أخيه، قبل زمن طويل من تولّيه أية سلطة. ولابد من أن نصل إلى النتيجة التي مفادها أن زعيم الـ «إس. إس» الألماني كان شخصاً سادياً قبل أن يكون زعيماً ألمانياً؛ وقد أعطاه المنصب الفرصة للتعبير عن ساديته على المسرح التاريخي؛ ولكن السادية كانت فيه من قبل.

١- إن هملر مثال جيد على التناقض بين الصورة والواقع عند الزعماء السياسيين: فهو سادي لايرحم وجبان يعتمد على صورة الرجل اللطيف والموالي والشجاع. وقد كان هتلر، «مخلّص» ألمانيا، الذي «أحب» بلده أكثر من أي شيء، المدمر القاسي لا لأعدائه وحسب بل لألمانيا نفسها أيضاً. وستالين، «الأب اللطيف لبلده»، كاد يدمّر بلده وأفسده أخلاقياً. وكان المثال البارز الآخر على التدليس هو موسوليني: هو، الذي أدّى دور الذكر العدواني الشجاع الذي كان شعاره «النعش في خطر»، كان ذا جبن شخصي استثنائي. وقد أخبرتني أنجليكا بلابانوف Angelica Blabanof، التي كانت مشاركة في تحرير «أفانتي في ميلانو» عندما كان موسوليني اشتراكياً بعدُ، أن الطبيب الذي أخذ منه دماً قال إنه نادراً ما رأى إنساناً تصرّف في حالته بالجبن الذي تصرّف به موسوليني. ثم إنه كان ينتظرها كل يوم بعد الظهر ليغادر مكتبه، حتى يستطيع أن يسير إلى البيت معها. وقد قال، «إنني أخاف من كل ظل وكل شجرة» (وفي ذلك الحين لم يكن ثمت خطر على أمنه من أي نوع.) وهناك أمثلة أخرى كثيرة على جبنه؛ وأحدها من سنواته الأخيرة عندما حُكم على صهره الكونت تشيانو Count Ciano بالإعدام ولم يستطع موسوليني- وهو الشخص الوحيد الذي كان في مستطاعه تخفيف الحكم- أن يصل في غضون الساعات الأربع والعشرين التي يمكن فيها الأمر بوقف التنفيذ.

وهذا السؤال يُفضي إلى سؤال آخر كثيراً ما يثار: ماذا كان من شأن هملر أن يكون لو لم يولد في زمن السلطة النازية، ومع ذلك كان له الطبع الذي كان طبعه حين تدخّل في خِطبة أخيه؟ وليس من بالغ الصعوبة العثور على الجواب. فمادام شخصاً شديد الترتيب وذا ذكاء عادي، فمن المحتمل أن يجد مكاناً له في نظام بيروقراطي، ولنقل معلّم مدرسة، أو موظفاً كتابياً في البريد، أو مستخدماً في مشروع تجاري ضخم. وبما أنه يَنشد فائدته من دون رحمة، فيمكن بإطرائه الماهر لرؤسائه ودسّه على زملائه أن يرتقي إلى منصب رفيع تماماً؛ ومن المحتمل ألا يصل إلى القمة أو المنصب الأعلى لأنه يفتقر إلى المخيلة التركيبية والحكم السديد. ومن شأنه أن ينفر منه زملاؤه نفوراً تاماً وأن يغدو الأثير عند أحد رؤسائه الأقوياء. ومن شأنه أن يجعل نفسه أداة فاعلة عند فورد، في أيام معاداة هنري فورد لنقابة العمال، ولكنه لن يكون رئيس دائرة جيد في شركة حديثة، لأن برودته ستجعله عديم الشعبية. وفي جنازته سوف يؤبّنه رئيسه والوزير بوصفه أباً وزوجاً حنوناً، ومواطناً مسؤولاً ستظل خدماته الإيثارية كخدمات الوكيل المالي عن الكنيسة مثلاً وإلهاماً على الدوام.

ويوجد الآلاف من الهمالرة Hammlers يعيشون بيننا. وبالحديث الاجتماعي، فإنهم لايقومون إلا بالأذى الطفيف في الحياة العادية، مع أنه على المرء ألا يستهين بعدد الناس الذين يؤذونهم ويجعلونهم أشقياء تماماً. ولكن عندما تهدّد قوى الدمار والكره بابتلاع الكيان السياسي كله، يصبح أمثال هؤلاء الناس خطرين إلى أقصى الحدود؛ فهؤلاء هم الأشخاص الذين يتوقون إلى خدمة الحكومة بوصفهم عملاء لها من أجل الإرهاب والتعذيب والقتل. ويرتكب الكثيرون من الناس الخطأ الشنيع في اعتقادهم أنهم يستطيعون بسهولة أن يتبيّنوا الهملر الكامن من بعيد. وأحد مقاصد الدراسات في علم الطباع هو إظهار أن الهملر الكامن يبدو مثل أي شخص سواه، إلا بالنسبة إلى الذين تعلّموا أن يقرؤوا

الطبع والذين هم غير مضطرين إلى الانتظار حتى تسمح الظروف بإظهار ألوان «الوحش الشاذ».

ما العوامل التي أدت إلى جعل هملر سادياً عديم الرحمة؟ إن الجواب البسيط يمكن العثور عليه بالرجوع إلى البحث السابق في العوامل التي من شأنها أن تُحدث الطبع الادخاري. ولن يكون ذلك جواباً مُرضياً لأن طبع هملر يقدم شكلاً متطرفاً وخبيثاً جداً من الطبع الادخاري، الذي هو أقل ظهوراً بكثير من مجرد المدّخر السادي على نحو طفيف. وإذا حاولنا البحث عن العوامل المسؤولة عن نشوء طبع «كلب صيد أوربا الضخم»، فعلينا أولاً أن نقف على علاقته بأبويه. كان متعلقاً بأمه التي شجّعت اتكاليته، وكان له بالأحرى أب تسلّطي، وليس ضعيفاً. ولكن ألا توجد الملايين التي لها الماضي الشخصي نفسه ولم تصبح همالرة؟ وبالفعل، فإن عاملاً أو عاملين لايمكن أن يفسّرا الطبع الخاص للشخص؛ ولايمكن إلا لنظام العوامل المترابطة الكلي أن يفسّر نشوء الطبع تفسيراً وافياً إلى هذا الحد أو ذلك. وقد رأينا عند هملر بعض العوامل الأخرى: ضعفه الجسدي وارتباكه، ولعله قد أحدثهما مرضه البدني وتكوينه الواهن؛ وإحساسه بالدونية الاجتماعية القائمة على وضعه الاجتماعي الهامشي، الذين يزيده الموقف الخضوعي والتبجيلي من الطبقة الأرستقراطية؛ وتهيّبه من النساء، الذي يمكن أن يكون سببه تعلّقه المفرط بأمه الذي جعله يشعر بالعجز عن مساعدة نفسه وبعدم الرجولة؛ ونرجسيته المفرطة وحسده لأخيه الأكبر، الذي كانت له كل الخصائص التي يفتقر هملر إليها. وهناك عوامل أخرى عديدة لم نُشر إليها، من جهةٍ لنقص المعلومات، التي من شأنها أن تمنحنا صورة أوفى. وعلينا كذلك أن نعتبر أنه قد تكون ثمت عوامل محدَّدة وراثياً، مع أنها ليست مصدر السادية، فهي مسؤولة عن الميل الطبيعي إليها. ولكن ربما علينا أن نفكر في التأثير المُمْرِض للمناخ الجاف والتافه والمتحذلق وغير الصادق في المعاملة

وغير الحي الذي عاشت فيه أسرة هملر أكثر مما نفكر في أي عامل آخر. فلم تكن ثمت قيم إلا المجاهرة غير الصادقة بالوطنية والصدق، ولم يكن ثمت أمل إلا التمكّن من التمسّك بوضعهم المتزعزع في السلّم الاجتماعي. ولم يكن هناك هواء نقي، روحياً أو عقلياً، يمكن أن يشجّع الصبي الصغير الضعيف على أن ينمو ويتفرع. ولم تكن هناك الأسرة وحدها. فقد كان آل هملر جزءاً من طبقة اجتماعية على الهامش الأدنى للنظام الإمبراطوري الذي كان يعاني من الامتعاض والعجز وانعدام الفرح. لقد كانت هذه هي التربة التي نما هملر عليها- وقد صار وضعه أرذل عندما أحبطت الثورة منزلته الاجتماعية وقيمه، وحين صار واضحاً له أكثر أنه ليس أمامه مستقبل على المستوى المهني.

الفصل الثاني عشر

العدوان الخبيث:
النكروفيليا

المفهوم التقليدي

كان مصطلح «النكروفيليا» necrophilia ، أي «محبة الموتى»[1]، لايُطلَق عموماً إلا على نوعين من الظواهر : (١) النكروفيليا الجنسية ، وهي رغبة الإنسان في الجماع الجنسي أو أي نوع آخر من الاتصال الجنسي مع جثة أنثى ، (٢) النكروفيليا غير الجنسية ، وهي الرغبة في الإمساك بالجثث أو الاقتراب منها أو التحديق إليها ، ولاسيما الرغبة في تقطيعها . ولكن المصطلح لم يكن يُطلق على **عاطفة راسخة في الطبع** ، التربة التي ينمو فيها تمظهرها الأشد صراحة وفظاظة . وإلقاء نظرة على بعض أمثلة النكروفيليا بالمعنى التقليدي سيجعل من الأسهل تحديد **الطبع النكروفيلي** الأقل وضوحاً .

---

١ - تعني الكلمة اليونانية necros «الجثث»، الموتى، ساكني العالم السفلي . وفي اللاتينية تعني الكلمة nex والكلمة necis الموت العنيف، جريمة القتل . ومن الواضح تماماً أن necros لاتشير إلى الموت بل إلى الميت، والجثة، والمقتول (الذي يتميز موته بوضوح من الموت الطبيعي) . وللموت معنيان مختلفان؛ فهو لايشير إلى الجثة بل إلى فعل الموت . وهو في اليونانية thanatos ، وفي اللاتينية mori, mors . والكلمتان die «يموت» و death «الموت» تعودان إلى الجذر الهندي -الجرماني dhou, dheu (وأنا مدين للدكتور إيڤان إيليتش Ivan Illich لتقديمه لي المادة الموسّعة حول اشتقاق هذين المفهومين، والتي لم أقتبس منها إلا المعلومات الأشد أهمية .

وغير الحي الذي عاشت فيه أسرة هملر أكثر مما نفكر في أي عامل آخر. فلم تكن ثمت قيم إلا المجاهرة غير الصادقة بالوطنية والصدق، ولم يكن ثمت أمل إلا التمكّن من التمسّك بوضعهم المتزعزع في السلّم الاجتماعي. ولم يكن هناك هواء نقي، روحياً أو عقلياً، يمكن أن يشجّع الصبي الصغير الضعيف على أن ينمو ويتفرع. ولم تكن هناك الأسرة وحدها. فقد كان آل هملر جزءاً من طبقة اجتماعية على الهامش الأدنى للنظام الإمبراطوري الذي كان يعاني من الامتعاض والعجز وانعدام الفرح. لقد كانت هذه هي التربة التي نما هملر عليها- وقد صار وضعه أرذل عندما أحبطت الثورة منزلته الاجتماعية وقيمه، وحين صار واضحاً له أكثر أنه ليس أمامه مستقبل على المستوى المهني.

الفصل الثاني عشر

العدوان الخبيث:
النكروفيليا

المفهوم التقليدي

كان مصطلح «النكروفيليا» necrophilia ، أي «محبة الموتى»[1]، لايُطلَق عموماً إلا على نوعين من الظواهر: (١) النكروفيليا الجنسية، وهي رغبة الإنسان في الجماع الجنسي أو أي نوع آخر من الاتصال الجنسي مع جثة أنثى، (٢) النكروفيليا غير الجنسية، وهي الرغبة في الإمساك بالجثث أو الاقتراب منها أو التحديق إليها، ولاسيما الرغبة في تقطيعها. ولكن المصطلح لم يكن يُطلق على **عاطفة** راسخة في **الطبع**، التربة التي ينمو فيها تمظهرها الأشد صراحة وفظاظة. وإلقاء نظرة على بعض أمثلة النكروفيليا بالمعنى التقليدي سيجعل من الأسهل تحديد **الطبع النكروفيلي** الأقل وضوحاً.

---

١ - تعني الكلمة اليونانية necros «الجثث»، الموتى، ساكني العالم السفلي. وفي اللاتينية تعني الكلمة nex والكلمة necis الموت العنيف، جريمة القتل. ومن الواضح تماماً أن necros لاتشير إلى الموت بل إلى الميت، والجثة، والمقتول (الذي يتميز موته بوضوح من الموت الطبيعي). وللموت معنيان مختلفان: فهو لايشير إلى الجثة بل إلى فعل الموت. وهو في اليونانية thanatos ، وفي اللاتينية mori, mors . والكلمتان die «يموت» و death «الموت» تعودان إلى الجذر الهندي -الجرماني dhou, dheu (وأنا مدين للدكتور إيفان إيليتش Ivan Illich لتقديمه لي المادة الموسّعة حول اشتقاق هذين المفهومين، والتي لم أقتبس منها إلا المعلومات الأشد أهمية.

والتقارير عن حالات النكروفيليا يمكن العثور عليها في عدد من الأعمال، ولاسيما الأعمال حول الانحرافات الجنسية وعلم الجريمة. وأكملُ المختارات يقدمها هـ. فون هنْتِغ H.von Hentig ، وهو باحث من أبرز الباحثين الألمان في علم الجريمة، وذلك في عمل يعالج هذا الموضوع حصراً. (وفي القانون الجنائي الألماني تشكل النكروفيليا جريمة، كما هو الأمر في القانون الجنائي للبلدان الأخرى.) وهو يستشهد بأمثلة على النكروفيليا: (١) أعمال الاتصال الجنسي بجثة أنثى (جماع، مداعبة باليد للأعضاء الجنسية)، (٢) الإهاجة التي تُحدثها رؤية جثة امرأة، (٣) الانجذابات إلى الجثث والقبور والأشياء التي لها صلة بالقبر، كالأزهار أو الصور[١]، (٤) أعمال تقطيع الجثة، (٥) اشتهاء لمس الجثث أو أي شيء جائف أو شم رائحتها (H.von Hentig,1964).

ويشارك فون هنْتِغ رأي المؤلفين الآخرين- أمثال ت. سپوري T.Spoerri (1959) ، الذي يستشهد به- أن النكروفيليا أكثر حدوثاً مما يُفترض عموماً. ولكن هذا الانحراف، ولأسباب عملية، يصادف إمكانات محدودة للإشباع. والناس الوحيدون الذين يجدون سهولة في الوصول إلى الجثث ولديهم فرصة التفريج عن هذا الانحراف هم حفّارو القبور والملازمون لـ «مَحْفَظ الجثث». ولذلك ليس من الممكن أن نجد أن معظم الأمثلة المقدّمة تعالج مجموعة من هؤلاء الناس. وحتماً، من الممكن كذلك أن يكون من شأن هذه الأعمال في حد ذاتها أن تجذب الأشخاص النكروفيليين. ولاشك أن القتلة لديهم كذلك فرصة ممارسة النكروفيليا، ولكن إذا أخذنا في الاعتبار أن من المألوف أن تكون جريمة القتل نادرة نسبياً، فلايمكن أن نتوقّع العثور على الكثير من الأمثلة في هذا الصنف، إلا في بعض الأحوال التي تُصنَّف بأنها «جريمة قتل بدافع الشهوة». وعلى أية حال، يستشهد فون هنْتِغ بعدد من الأمثلة التي عثر فيها الغرباء بالحفر على الجثث، وخطفوها، واستخدموها لإشباع شهوتهم النكروفيلية. والنتيجة التي لامناص منها هي أنه مادامت

---

١ - من المألوف في بعض البلدان إبراز صورة للراحل على القبر.

النكروفيليا منتشرة بين الذين يجدون الفرصة السهلة، فلابد من أن تكون موجودة كذلك، وعلى الأقل في الأخيولات أو يُعبَّر عنها بطرق أخرى، أقل وضوحاً، عند الكثيرين من الآخرين الذين يفتقرون إلى هذه الفرصة.

وهذا تاريخ حالة شخص ملازم لمكان حفظ الجثث في الحادية والعشرين من عمره يرويه ج. ب. دي ريفر J.P.de River. لقد وقع وهو في الثامنة عشرة من عمره في هوى فتاة جامعها مرة واحدة فقط، لأنها كانت في صحة سيئة (مرض السل الرئوي). ويقول: «لم أنسَ بسبب الموت حبيبتي، وكلما مارست العادة السرية، كنت أتصور أنني أجامع حبيبتي الميتة.» ويتابع دي ريفر تقريره:

كان عند وفاة محبوبته مضطرب الانفعالات من رؤيتها موضوعة في كفن أبيض فاجتاحته نوبة بكاء، وسمح لنفسه بالابتعاد عن ناحية التابوت بتردد كبير. وفي هذا الوقت أحس بدافع إلى أن يثب إلى التابوت ليكون معها، وأراد فعلاً أن يُدفَن حياً مع محبوبته. وعند الدفن هاج وماج، وفي ذلك الوقت اعتقد كل الناس، ومنهم أسرته، أن ذلك كان نتيجة الحزن الشديد لدى رؤيتها وهي تُوارى الثرى؛ ولكنه أخذ الآن يدرك أن ذلك كان فورة عاطفة وأنه قد طغى عليه دافع جنسي شديد لدى رؤية الراحلة. وفي ذلك الحين، كان قد أتّم سنته الأخيرة في المدرسة الثانوية، وحاول إقناع أمه بأن تسمح له بأن يدخل الكلية الطبية، ولكنه بسبب افتقاره إلى الموارد المالية لم يستطع تنفيذ ذلك. ومهما يكن، فإيحاء منه، سمحت له بالدخول في مدرسة الدفن والتحنيط، لأن المقرر التعليمي أرخص وأقصر.

ودرس «د. ف» في هذه المدرسة بجد ومواظبة، مدركاً أنه وجد في النهاية مهنة سيكون فيها في منتهى السعادة. وكان على الدوام شديد الاهتمام بأجساد الإناث في حجرة التحنيط، وفي كثير من المرات كانت لديه رغبة عارمة في القيام بفعل المواقعة الجنسية مع جثة أنثوية. وأدرك في مناسبات كثيرة أن

ذلك غلط وطرد الرغبة عنه مرات كثيرة إلى أن حدث ذات يوم، وهو موشك على إنهاء دراساته، عندما كان وحيداً في الغرفة مع جسم فتاة شابة، أن كان الدافع إلى القيام بالمجامعة الجنسية فوق جسد الضحية الميتة قوياً جداً وكانت الظروف مثالية فسمح لنفسه بالمضي. واستفاد من هذه الفرص وأظهر عوراته، ولامس بذكره فخذها، في الوقت الذي صار فيه شديد الاهتياج. وبفقدانه السيطرة على نفسه، وثب على الجسد وتواصل بفمه جنسياً مع الأجزاء الخصوصية من الجثة. ويقول إن ذلك قد سبّب له من الإثارة الجنسية ما بلغ حدّ القذف المنوي. ثم استولى عليه الندم والخوف الشديدان- وكان الخوف من أن يكتشفه ويطّلع على عمله زملاؤه الطلاب. وبُعيد ارتكاب هذا العمل، تخرج في المدرسة، وحصل على وظيفة ملازم لمحفَظ الجثث في مدينة في الغرب الأوسط. وبما أنه كان أصغر عضو في جماعة ملازمي مَحفَظ الجثث، فكثيراً ما كان يُطلب إليه أن يبقى وحده في مَحْفَظ الجثث في الليل. ويقول «د. ف»، «كنت مسروراً من فرصة بقائي وحيداً، حين أخذت أدرك أنني كنت مختلفاً عن الرجال الآخرين، في أنني أتوق إلى الانفراد بالموتى، مما يعطيني فرصة كبيرة في محاولة القيام بمجامعة إحدى الجثث- وهو شعور أخذت أدرك أنه موجود دائماً منذ وفاة حبيبتي.»

وانتهك حرمة الأعداد الكبيرة من جثث الإناث في السنتين اللتين ظل فيهما مرتبطاً بمكان حفظ الجثث، ممارساً شتى الانحرافات مع الجثث، التي تتفاوت أعمارها بين الطفلات الصغيرات والنساء الكهلات. وكان في العادة يبدأ بمصّ أثدائهن ويتواصل بفمه جنسياً مع أعضائهن الخاصة، وبعد هذه الأعمال كان يثيره كثيراً أن يزحف عليهن ويؤدي بجهد جبار فعل المجامعة. وكان يقوم بأعمال لها هذه الطبيعة أربع أو خمس مرات في الأسبوع على الأكثر، ويعتمد ذلك على وجود الجثث الأنثوية في المحفظ.

... وفي إحدى المرات، كان شديد التأثر بجثة فتاة في الخامسة عشرة من

عمرها إلى حد أنه حين كان وحده معها في الليلة الأولى بعد وفاتها، شرب بعض دمها. وهذا ما جعله شديد الهياج الجنسي فوضع أنبوباً مطاطياً في مجرى بولها وشرب البول من مثانتها. وفي هذه المرة أحسّ بدافع متزايد إلى المضيّ أكثر واعتقد أنه لو استطاع أن يفترسها- أن يأتي عليها كلها- أو حتى أن يمضغ جزءاً من جسدها، فإن ذلك سيمنحه إشباعاً عظيماً. وكان عاجزاً عن مقاومة هذه الرغبة، وحين قَلَب الجسد على وجهه، راح يعض لحم الردفين من الداخل قرب المعي المستقيم. ثم زحف إلى الجثة وقام بالمضاجعة اللوطية فوقها. (J.P.de River, 1956)

إن تاريخ الحالة هذا مثير للاهتمام بصورة خاصة لعدة أسباب. أولها وأوضحها، لأنها تجمع بين النكروفيليا والنكروفاجيا necrophagia (أكل الجيف) والشهوة الجنسية الشرجية. ويكمن الأمر الآخر الأقل وضوحاً في بدء الانحراف. وإذا كان المرء يعرف القصة حتى وفاة حبيبته فقط، فقد يكون ميالاً إلى تفسير سلوكه بأنه تعبير عن شدة حبه. ولكن بقية القصة تُلقي ضوءاً مختلفاً تماماً على البداية: فلا يمكن للمرء أن يفسّر رغباته النكروفيلية والنكروفاجية المختلطة بأن سببها حبه لمحبوبته. والمرء مضطر أن يفترض أن سلوكه «الحدادي» لم يكن تعبيراً عن الحب، بل العرَض الأول من أعَراض رغباته النكروفيلية. ثم يبدو كذلك أن عدم مجامعته لمحبوبته سوى مرة واحدة من الضعيف تبريره بمرضها. والأرجح أنه بسبب ميوله النكروفيلية كان لديه القليل من الرغبة في مجامعة امرأة حية.

ويقدّم دي ريفر تاريخ حالة آخر أقلّ تعقيداً لملازم نكروفيلي لـ «مَحْفَظ للجثث». والشخص المدروس رجل غير متزوج، في الثالثة والأربعين من عمره، وهو يقول:

في سن الحادية عشرة، عندما كنت حفاراً للقبور في ميلانو في إيطاليا، بدأت في العادة السرية، وكان من دأبي أن أقوم بذلك عندما أكون وحيداً ألامس أجساد النساء الشابات الميتات جميلات المنظر. وبعدئذ رحتُ أُنزّل قضيبي في الفتيات الميتات. وجئت إلى أمريكا وغادرت الساحل الشرقي بعد

مكوث قصير، وجئت إلى الساحل الغربي حيث حصلت على عمل غاسل أجساد في مَحْفَظ للجثث. وهناك استأنفت ممارستي لمجامعة الفتيات الميتات، أحياناً في التابوت أو على المنضدة التي تُغسَل الأجساد عليها.

ويستمر التقرير:

إنه يعترف باستعمال فمه في الأجزاء المستورة، ويمّص أثداء جثث الفتيات. وعندما سئل كم امرأة واقَعَ، قال:«ربما مئات، كما جرت عادتي منذ أن بلغت الحادية عشرة من العمر» (J.P.de River,1956)

والكتابات التي يستشهد بها فون هِنْتِغ تروي الكثير من الحالات المشابهة. والشكل المخفَّف جداً من النكروفيليا موجود عند الأفراد الذين يصبحون مهتاجين جنسياً بمنظر الجثث وفي بعض الأحيان يستمنون أمامها. ومن الصعب تقدير عدد أمثال هؤلاء الأشخاص لأنه نادراً ما يتمّ اكتشافهم.

ويَظهر الشكل الثاني من النكروفيليا غير مشوب بالجنس، في أعمال ذات شغف خاص بالتدمير. وكثيراً ما يكون هذا الدافع إلى التدمير قد سبق أن ظهر في الطفولة؛ وفي بعض الأحيان لايُسفر عن نفسه إلا في سن لاحقة. ويكتب فون هِنْتِغ بحساسية شديدة أن غاية التدميرية النكروفيلية هي «تفكيك البنى الحية» leben-dige Zusammenhänge . وتجد الرغبة في تفكيك ما هو حي أوضح تعابيرها في اشتهاء تقطيع الأجساد. والحالة النموذجية التي يوردها سپوري Spoerri هي حالة إنسان يذهب إلى المقبرة ليلاً مع كل الوسائل الضرورية، ويُخرج التابوت بالحفر، ويأخذ الجثة معه إلى مكان يستطيع أن يخفيها فيه؛ ثم يبتر السيقان والرأس ويفتح البطن (T.Spoerri,1959). وفي بعض الأحيان لايكون موضوع تقطيع الأوصال إنساناً بل حيواناً. ويروي فون هنتغ عن إنسان طعن ستاً وثلاثين بقرة وفرساً حتى الموت ثم بتر مختلف أجزاء أجسادها. ولكننا لانحتاج إلى أمثال هذه الكتب؛ فهناك تقارير صحفية كافية عن جرائم قتل تمّ فيها تقطيع الضحية أو التمثيل بها.

وغالباً ما تندرج هذه الحالات تحت صنف جريمة القتل، ولكن يرتكبها قتلة نكروفيليون يختلفون عن أكثر القتلة، الذين يكون حافزهم هو الكسب أو الحسد أو الانتقام. فالهدف الحقيقي للقتلة النكروفيليين ليس موت الضحية- الذي هو، ولاريب، شرط ضروري- بل فعل تقطيع الأوصال. وفي تجربتي السريرية رأيت الدليل الكافي على أن الرغبة في تقطيع الأوصال معهودة كثيراً في الطبع النكروفيلي. فمثلاً، رأيت (مباشرة أو من خلال الإشراف) عدة أشخاص قد عبّروا عن الرغبة في تقطيع الأوصال في الشكل المخفّف جداً؛ فهم يودون أن يجروا شخص امرأة عريانة، ثم أن يبتروا ذراعيها وساقيها ورأسها وما إلى ذلك. ولكن هذه «المسرحية» كانت في الواقع إشباعاً للصبوة الشديدة إلى تقطيع الأوصال المعبَّر عنها بطريقة آمنة وغير مؤذية.

وقد لاحظتُ عند الكثيرين من الناس النكروفيليين الآخرين أنهم كانوا يرون أحلاماً يشاهدون فيها أجزاء من الأجسام المقطّعة عائمة أو متمددة حولهم، أحياناً في النوم، وغالباً في الماء القذر، مع الغائط. والرغبة في تقطيع أوصال الأجساد، إذا ظهرت كثيراً في الأخيولات والأحلام، فذلك عامل من أوثق العوامل في تشخيص الطبع النكروفيلي.

وهناك أشكال من النكروفيليا الصريحة أقل شدة. وأحدُها اشتهاء الوجود بقرب الجثث أو المقابر أو أي شيء في حالة التفسّخ. ويتحدث هـ. ي. راوخ عن فتاة تشكو من دافع إلى أن تكون قريبة من الجثث، التي تصير في حضورها صلبة وعاجزة عن المغادرة برغم إراداتها (H.J.Rauch,1947). [1] ويتحدث ستيكل عن امرأة قالت: «كثيراً ما أفكر في المقابر وفي الطريقة التي تتفسّخ بها الجثث في القبر» (quoted by H.von Hentig, 1964).

١- تصف قصة حول هتلر لم يتم التحقق من صحتها مشهداً كان فيه غير قادر، برغم إرادته، على مغادرة منظر جثة جندي متفسّخة.

وهذا الاهتمام بالتفسّخ يعبَّر عنه بصورة مألوفة في اشتهاء شم رائحة شيء ما يتفسّخ. وهو شديد الوضوح في الحالة التالية لرجل في الثانية والثلاثين من عمره، عالي التعلّم، ويكاد يكون في حالة العمى الكلي. كان يفزع من الضجة، «ولكنه يهوى سماع صرخات النساء من الألم ويحب رائحة اللحم المتفسّخ. وكانت لديه صبوة إلى جثث النساء الطويلات البدينات ويريد أن يزحف إليهن.» وقد سأل جدته هل يستطيع أن يأخذ جثتها فيمابعد. «كان يود أن يغرق في تفسّخ بقاياها» (T.Spoerri,1959). ويتحدث فون هنتغ عن متنشّق Schnüffer تثيره رائحة الفضلات أو رائحة أي شيء منتن، وهو يعدّ هذه السمة تبدّياً للنكروفيليا. وبإضافة حالات الفتيشية fetishism النكروفيلية- التي تكون لموضوعاتها صلة بالقبور، كالعشب والأزهار والصور- نستطيع أن ننهي هذا الاستعراض الوجيز للممارسات النكروفيلية المذكورة في الكتابات حول هذا الموضوع.

الطبع النكروفيلي [1]

يدل مصطلح «النكروفيلي» على خصلة طبع وليس على عمل منحرف كما هو في المعنى التقليدي، وقد استخدمه الفيلسوف الإسباني ميغيل دي أونامونو Miguel de Unamuno سنة 1936 [2] بمناسبة كلام الجنرال القومي ميلان أستري Millán Astray في جامعة «سلمنكة» Salamanka، حيث كان أونامونو رئيس

---

١ - تجنّباً لكل أشكال سوء الفهم أود أن أؤكد في بدء هذا البحث أن التوصيف الآن لـ«الطبع النكروفيلي» الذي اكتمل نموه لايعني ضمناً أن الناس إما نكروفيليون وإما غير نكروفيليين. والطبع النكروفيلي هو الشكل المتطرف الذي تكون فيه النكروفيليا هي الخصلة المهيمنة. وفي الواقع، فإن جل الناس هم مزيج من الميول النكروفيلية والبيوفيلية biophilous [المحبة للحياة]، وإن النزاع بينهما كثيراً مايكون مصدراً للنمو الإنتاجي.

٢ - حسب كتاب:

R.A.Medvedev (Let History Judge, New York:A.A.Knopf, 1971)

يبدو أن لينين هو أول من استخدم مصطلح «النكروفيليا» tupolo zhestvo بهذا المعنى السيكولوجي (V.Lenin, Sochimeniia)

الجامعة عند بداية الحرب الأهلية الإسبانية. وكان شعار الجنرال الأثير «يحيا الموت!» !Viva la muerte وقد هتف أتباعه بذلك من مؤخرة القاعة. وعندما أنهى الجنرال كلامه، صعد أونامونو إلى المنبر وقال:

سمعت الآن بالضبط هتافاً نكروفيلياً لامعنى له: «يحيا الموت!» وأنا الذي أمضيت حياتي في تشكيل المفارقات التي أثارت غضب الآخرين الذي لايمكن فهمه، يجب أن أقول لكم، بوصفي خبيراً موثوقاً به، إن هذه المفارقة ذات الغرابة الشديدة منفّرة لي. إن الجنرال ميلان أستري كسيح. ولنقل ذلك من دون أدنى تخفيض للصوت. إنه غير صالح للحرب وهكذا كان ثربانتس. ولسوء الحظ يوجد الكثيرون من الكسحاء الآن في إسبانيا. وقريباً سيكون لدينا عدد أكثر منهم إذا لم يساعدنا الله. ويؤلمني أن أفكر في أن الجنرال ميلان أستري سوف يُملي أنموذج علم النفس الجماعي. وإن الأشلّ الذي تُعوزه عظمة ثربانتس الروحية من دأبه أن يَنشد الراحة المنحوسة في أن يسبّب في البتر والتشويه حوله. (M.de Unamuno,1936)

وعندئذ لم يعد في مستطاع ميلان أستري أن يتمالك نفسه. وصاح، «يسقط الذكاء! يحيا الموت!» وكان هناك ضجيج تأييد لهذه اللفتة من الكتائب Falangists. ولكن أونامونو تابع الكلام:

هذا هو معبد الفكر. وأنا كاهنه الكبير. وأنت الذي دنّستَ حَرَمه المقدس. أنت الذي ستفوز، لأن لديك أكثر مما يكفي من القوة الغاشمة. ولكنك لن تكون مقنعاً. لأنك لكي تُقنع من الضروري أن تقتنع. ولكي تقتنع تحتاج إلى ما تفتقر إليه: العقل والحق في الصراع الذي أرى أنه من العبث حثّك فيه على التفكير في إسبانيا. وقد اقتنعت بذلك. (M.de Unamuno,1936)[1]

---

١ – ظل أونامونو في الإقامة المنزلية الجبرية حتى وفاته بعد عدة أشهر. (H.Thomas,1961).

وقد أخذتُ عن أونامونو استخدام المصطلح وكنت أدرس ظاهرة النكروفيليا الراسخة في الطبع منذ زهاء العام 1961 .[1] وكنت قد توصّلت إلى مفهوماتي النظرية أساساً من ملاحظاتي للأشخاص في التحليل .[2] وقدّمت لي دراسة بعض الشخصيات التاريخية -كهتلر، مثلاً- وملاحظة الأفراد وملاحظة طبع الطبقات الاجتماعية وسلوكها معطيات إضافية حول تحليل الطبع النكروفيلي. ولكن كما أثّرت فيّ ملاحظاتي السريرية، أعتقد أن الدافع الحاسم قد جاء من نظرية فرويد في غريزتي الحياة والموت. وقد استقر في نفسي عميقاً مفهومه أن المجاهدة من أجل الحياة والمجاهدة من أجل التدمير هما القوتان الأساسيتان في داخل الإنسان؛ ولكنني لم أستطع الإخلاد إلى تفسير فرويد النظري. ومع أن فكرة فرويد قد أفضت بي إلى رؤية المعطيات السريرية على ضوء جديد وإلى إعادة صياغة مفهوم فرويد- ومن ثم إلى المحافظة عليه- على أساس نظري جديد قائم على معطيات سريرية تلتقي مع مكتشفات فرويد الباكرة في الطبع الشرجي، كما سأُظهر لاحقاً.

ويمكن توصيف النكروفيليا بمعناها في علم الطباع بأنها **الانجذاب العاطفي إلى كل ما هو ميت، ومتفسّخ، ومتعفّن، وسقيم؛ إنها الشغف بتحويل ما هو حي إلى شيء غير حي؛ وبالتدمير من أجل التدمير؛ والاهتمام الحصري بما هو ميكانيكي خالص. وهي الشغف بتفكيك كل البنى الحية.**

الأحلام النكروفيلية

إن الانجذاب إلى ما هو ميت ومتعفّن يمكن أن يلاحَظ على أوضح ما يكون في أحلام الأشخاص النكروفيليين.

الحلم (١): «أجد نفسي قاعداً في المرحاض؛ لديّ إسهال وأتغوّط بقوة

١- يظهر التقرير الأولي عن مكتشفاتي في (1964) E.Fromm .

٢- على أساس مراجعتي لتواريخ حالات الناس القديمة حللتُ وقدمتُ في حلقات البحث تواريخ حالات للمحللين النفسيين الأصغر سناً، أو للمحللين النفسيين الذين أشرفتُ على أعمالهم.

انفجارية يبدو معها كأن قنبلة قد تفجرّت ويمكن أن ينهار البيت. أود أن أستحم، ولكنني عندما أفتح حنفية الماء أكتشف أن الأنبوب مليء بالماء القذر: أرى الغائط يعوم في الماء مع ساق وذراع مصغّرتين.»

كان الحالم شخصاً شديد النكروفيليا وقد رأى عدداً من الأحلام المتشابهة. وعندما سأل المحلل الحالم ماذا كانت مشاعره حيال ما كان يجري في الحلم، ذكر أنه لم يكن يشعر أن الحالة مرعبة، بل كان يُربكه أن يروي الحلم للمحلل.

ويُظهر هذا الحلم عدة عناصر معهودة في النكروفيليا، أوضحها هو موضوع الأعضاء المفصولة عن الجسم. ثم هناك الصلة الوثيقة بين النكروفيليا والتعلق بالشرج (الذي سوف يُبحث فيه لاحقاً) وموضوع التدمير؛ وإذا ترجمنا الحلم من اللغة الرمزية إلى لغة واضحة، فإن الحالم يشعر أنه يريد أن يدمّر البناء كله بقوة نفضه للفضلات.

الحلم (٢): «أنا ذاهب لزيارة صديق لي؛ أسير في اتجاه داره، التي أعرفها جيداً. وأنا في درب هو نوع من المنظر الجاف الشبيه بالصحراء؛ فلانباتات أو أشجار. ويبدو أنني لاأزال أحاول العثور على دار الصديق، ولكن الدار الوحيدة التي على مرأى العين هي بناء غريب ليست له نوافذ من أي نوع. وأدخل في باب صغير؛ وعندما أغلقه أسمع ضجة غريبة، كأن الباب قد أُقفل، وليس أُطبق فقط. وأدير كُعبرة الباب ولاأتمكّن من فتحه. وبقلق شديد أسير إلى ممر شديد الضيق- وهو في الواقع شديد الانخفاض بحيث عليّ أن أزحف- وأجد نفسي في غرفة واسعة مظلمة بيضية الشكل. وتبدو مثل قبو كبير. وعندما ألفتُ الظلام ألفيتُ عدداً من الهياكل العظمية ممدَّدة على الأرض وعرفت أن هذا قبري. وأصحو على إحساس بالذعر.»

يكاد لايحتاج هذا الحلم إلى أي تفسير. فـ«القبو» قبر وهو في الوقت ذاته يرمز إلى الرحم. و«دار الصديق» رمز للحياة. والحالم بدلاً من أن يسير نحو الحياة،

لزيارة صديق، يسير نحو مَدْفن للأموات. والمنظر الشبيه بالصحراء والقبر رمزان للأموات. وهذا الحلم لايدل بحد ذاته على النكروفيليا بالضرورة؛ إذ يمكن ألا يكون سوى التعبير الرمزي عن الخوف من الموت. ولكن الأمر يختلف إذا كان المرء، كما هي الحال مع الحالم، يرى أحلاماً كثيرة فيها قبور وجثث محنّطة وهياكل عظمية؛ وبكلمات أخرى، عندما ينشغل مخيال حياته الحلمية برؤى من عالم الأموات.

الحلم (٣): هذا حلم قصير لامرأة تعاني من اكتئاب شديد: «إنني أتغوّط؛ ويستمر التغوّط ويستمر، حتى يتجاوز البراز مقعد المرحاض، ويأخذ في ملء الحمّام، ويعلو ويعلو- وأنا غارقة فيه[1]- وفي هذه اللحظة أستيقظ وأنا أشعر بالهول الذي يتعذّر التعبير عنه.» فبالنسبة إلى هذه المرأة تحولّت الحياة كلها إلى قَذَر؛ وهي لاتستطيع أن تُنتج إلا القذَر؛ وصار عالمها هو القذَر، وموتها هو الاتحاد النهائي مع القَذَر. ونحن نجد الموضوع نفسه في أسطورة ميداس؛ فكل شيء يلمسه يتحول إلى ذهب- ورمزياً، كما أظهر فرويد، إلى قَذَر أو غائط.[2]

الحلم (٤): الحلم التالي هو حلم ألبرت شبير (12 أيلول 1962) في إبان حياته في سجن شپانداو Spandau.

(هتلر سوف يأتي للتفتيش. وأنا، في الوقت الذي كنت فيه بعدُ وزيراً للدولة، أمسك بيديّ مكنسة طويلة للمساعدة على تكنيس المعمل وتنظيفه. وبعد التفتيش وجدت نفسي في سيارة هتلر، أحاول عبثاً أن أضع ذراعي في كمّ سترتي التي كنت قد خلعتها في أثناء التكنيس. وتنزل يدي في الجيب مرة بعد أخرى. وينتهي مشوارنا عند ساحة كبيرة محاطة بالمباني الحكومية. وعلى أحد الجانبين نُصب تذكاري للحرب. ويدنو منه هتلر ويضع إكليلاً من الأزهار. وندخل في

١- راجع المثال السابق حول الرغبة الشعورية عند أحد الرجال في الغرق في تفسّخ جدّته.

٢- راجع المادة الغنية حول القذر والغائط في J.G.Bourke (1913).

دهليز مرمري لأحد الأبنية الحكومية. ويقول هتلر لمساعده: «أين الأكاليل؟» ويقول المساعد لأحد الضباط: «كما تعلم، فهو الآن يضع أكاليل الزهور في كل مكان.» ويرتدي الضابط لباساً فاتح اللون يكاد يكون أبيض مصنوعاً من نوع من أنواع جلود القفّازات؛ ويرتدي فوق السترة، وكأنه غلام المذبح، ثوباً فضفاضاً مزداناً بالأشرطة والتطريزات. ويصل إكليل الأزهار. ويخطو هتلر نحو يمين القاعة حيث هناك نُصب تذكاري آخر كان على قاعدته الكثير من الأكاليل. ويجثو هتلر على ركبتيه، ويبدأ بالترنّم بلحن حزين على منوال الترانيم الغريغورية، التي تتكرر فيها العبارة المطوطة «يسوع مريم» مرة بعد أخرى. وتصطف اللوحات التذكارية الكثيرة الأخرى على جدران هذه القاعة المرمرية الطويلة ذات السقف المرتفع. ويضع هتلر بتعاقب متزايد السرعة إكليلاً بعد إكليل، يسلمّه إياه المساعدون المشغولون. وتصبح نبراته الحزينة رتيبة باطّراد، ويبدو صف اللوحات التذكارية لانهاية له.» [1]

وهذا الحلم مثير للاهتمام لأسباب عديدة. إنه أحد الأحلام التي يعبّر فيها الحالم عن تبصّره لشخص آخر وليس عن أحاسيسه ورغباته. [2] وتكون هذه التبصّرات أدقّ في بعض الأحيان من الانطباع الشعوري عند الحالم بالشخص الآخر. وشپير في هذه الحالة يعبّر بوضوح وبأسلوب شاپلني [*] عن رؤيته للطبع النكروفيلي عند هتلر. ويرى أنه إنسان يخصّص كل وقته لتقديم فروض الطاعة للموت، ولكن أعماله تؤدّى بطريقة آلية بالغة الغرابة، لاتترك مجالاً للمشاعر. ويصير وضع الإكليل طقساً منظّماً إلى حد السخافة. وإلى جانب ذلك، فإن الهتلر

---

١ - من اتصال شخصي مع ألبرت شپير Albert Speer.

٢ - لقد استشهدتُ بهذه الأحلام في كتابي «اللغة المنسية» (1951) The Forgotten Language.

* - شاپلني Chaplinesque: نسبة إلى الاسم الفني للممثل الكوميدي المعروف بـ«شارلي شاپلن»، واسمه الحقيقي هو السير تشارلز سبنسر تشاپلن (1889-1977) Sir Charles Spencer Chaplin. (المترجم)

نفسه، بعودته إلى معتقَد طفولته الديني، ينغمس كلياً في الترنّم بالنغمات الحزينة. وينتهي الحلم بالتشديد على رتابة شعيرته الحزينة وأسلوبها الآلي.

وفي بداية الحلم، يُحيي الحالم وضعاً من أوضاع الواقع، من الزمن الذي كان فيه بعدُ وزيراً للدولة وإنساناً شديد النشاط يقوم بالأمور بنفسه. ولعل القذر الذي يقوم بتكنيسه تعبير عن قذارة النظام النازي، والأرجح أن عجزه عن وضع ذراعه في كمّ السترة تعبير رمزي عن أنه لم يعد يستطيع المضيّ في المشاركة في هذا النظام؛ وهذا يشكّل العبور إلى الجزء الأساسي من الحلم الذي يدرك فيه أن كل ما هو متروك هو هذا الهتلر الميت والنكروفيلي الآلي الممل.

الحلم (٥): «لقد قمت باختراع عظيم، هو «المدمِّر الأكبر». إنه آلة، إذا ضُغط زر سري فيه لاأحد غيري يعرفه، يمكن تدمير الحياة كلها في أمريكا الشمالية في الساعة الأولى، وفي الساعة التالية كل الحياة على الأرض. وأنا وحدي، بمعرفتي صيغة المادة الكيميائية، أستطيع أن أنقذ نفسي. (المشهد الثاني). ضغطتُ الزر: ألاحظ أن الحياة لم تعد موجودة، وأنا وحدي، فأشعر بالانتعاش والنشاط.»

هذا الحلم تعبير عن التدميرية الخالصة في شخص نرجسي إلى أبعد حد، غير مرتبط بالآخرين وفي غير حاجة إلى أحد. كان هذا حلماً متكرراً عند هذا الشخص مع أحلام نكروفيلية أخرى. وكان يعاني من مرض عقلي شديد.

الحلم (٦): «إنني مدعو إلى حفلة مع عديد من الشابات والشبان. ونحن جميعاً نرقص. ولكن يجري أمر غريب؛ يصير الإيقاع أبطأ فأبطأ، ويبدو أنه لن يتحرك أحد بعد ذلك. وفي هذه اللحظة يدخل الغرفة شخصان [رجل وامرأة] أكبر من الحجم المألوف؛ ويبدو أن لديهما القدر الكبير من المعدّات في علبتين من الورق المقوّى. ويقتربان من أول راقصين؛ فيستلّ الرجل سكيناً ويطعن الفتى في ظهره، ومما يدعو إلى الاستغراب أنه لم يتدفّق الدم ولا يبدو أن الفتى يحسّ بأي ألم؛ وعندئذ يأخذ الرجل الطويل شيئاً لا أستطيع أن أراه، مثل علبة صغيرة،

ويضعه في مؤخرة الفتى؛ وهو شيء بالغ الضآلة. ثم يضع نوعاً من المفتاح الصغير، أو ربما الزر، في العلبة الصغيرة (ولكن على نحو يستطيع الفتى أن يلمسه) ويقوم بحركة وكأنه يبرم برغي ساعة. وعندما كان الرجل الطويل يقوم بذلك مع هذا الفتى، أدّت شريكته العمل نفسه مع الفتاة. وعندما فرغا كان الشاب والشابة يستمران في الرقص، ولكن بسرعة ونشاط. وقام الشخصان الطويلان بالعمل نفسه مع الأزواج التسعة الأخرى الموجودة، وبعد أن غادرا المكان بدأ أن كل شخص في حالة الهياج والسعادة.»

إن معنى الحلم واضح إلى حد ما عندما نترجمه من لغة رمزية إلى لغة واضحة. فالحالم يشعر أن الحياة تنضب ببطء، وأن طاقتها تُستنفد. ولكن الأداة الآلية الصغيرة يمكن أن تكون البديل. والأشخاص، كالساعات، يمكن برم براغيهم، وعندئذ سيبدون «أحياء» بشدة على الرغم من أنهم سيُصبحون في الواقع بشراً آليين.

والحالم شاب في التاسعة عشرة من عمره، «يدرس الهندسة ويستحوذ على ذهنه كل ما هو تكنولوجي. فإذا كان لم يرَ إلا هذا الحلم، فيمكن أن يُعتقد أنه تعبير عن اهتماماته التكنولوجية. ولكنه قد رأى الكثير من الأحلام التي توجد فيها الجوانب الأخرى من النكروفيليا. ولم يكن الحلم في ماهيته انعكاساً لاهتماماته المهنية؛ بل بالأحرى إن اهتماماته المهنيّة هي انعكاس لتوجّهه النكروفيلي.

الحلم (٧): إن هذا الحلم من أحلام صاحب مهنة ناجحٍ مثيرٌ للاهتمام بوجه خاص لأنه يوضح مسألة تتعلق بالصفة النكروفيلية في التقنية الحديثة التي سوف يتم البحث فيها لاحقاً.

«أقترب باتّئاد من مدخل مغارة كبيرة وأستطيع الآن أن أرى شيئاً ما فيها يؤثّر في نفسي تأثيراً عظيماً؛ وفي الداخل خنزيران مؤنسنان يشغّلان بأيديهما عربة نقل عتيقة وصغيرة من النوع الذي يُستخدم في المناجم؛ ويضعانها على السكّة الحديدية

التي تسير في داخل المغارة. وفي داخل العربة الصغيرة أرى بشراً عاديين؛ يبدو أنهم موتى، ولكنني أعلم أنهم نيام.

«ولاأعرف أهذا حلم آخر أم استمرار للحلم السابق- أعتقد أنني استيقظتُ، ولكنني لست على يقين من ذلك. والبداية هي نفسها. فأنا أدنو مرة أخرى من مدخل مغارة كبيرة؛ أترك ورائي الشمس والسماء الزرقاء. وأدخل في العمق وأرى في النهاية توهّجاً شديداً جداً؛ وعندما أصل إلى هناك أتعجّب من منظر مدينة حديثة غير عادية؛ فكل شيء مترع بالضياء الذي أعرف أنه اصطناعي - بوساطة الكهرباء. والمدينة مصنوعة بكاملها من الفولاذ والزجاج- المستقبل. أواصل السير وأدرك بغتة أنني لم أر أحداً- حيواناً أو شخصاً. وأجد نفسي الآن أمام آلة ضخمة، هي نوع من المحوِّل الكهربائي الهائل الحديث جداً، مربوط بحبال غليظة كثيرة العدد، مثل الحبال ذات التوتّر العالي؛ وهي تبدو كالخراطيم السوداء. وتأتيني الفكرة أن هذه الحبال ناقلة للدم؛ فأحسّ بالاهتياج الشديد، وأجد شيئاً في جيب بنطالي أتبيّنه على الفور؛ إنه سكين جيب صغيرة كان أبي قد أعطاني إياها عندما كنتُ في زهاء الحادية عشرة من العمر. وأقترب من الآلة وأقطع أحد الحبال بسكيني الصغيرة؛ وفجأة يطفر شيء وأتبلّل به بشدة. إنه الدم. وأستيقظ في قلق شديد يبلّلني العرق.»

وبعد أن روى الحالم حلمه أضاف: «لاأفهم الآلة والدم فهماً جيداً، ولكن الدم يحلّ هنا محل الكهرباء، بما أن كليهما طاقة. ولاأعرف لماذا فكرتُ في ذلك على هذا النحو؛ ربما لاعتقادي أن الآلة تأخذ الدم من البشر.»

كما هي الحال في حلم شبير، فإن هذا الحلم ليس حلم شخص نكروفيلي، بل حلم شخص بيوفيلي (مُحب للحياة) يتبيّن الصفة النكروفيلية في العالم

المعاصر. والمغارة، كما هي في جل الأحيان، رمز للموتى، كالقبر. والمغارة منجم، والناس الذين يعملون فيه خنازير، أو أموات (و«معرفة» أنهم ليسوا أمواتاً حقاً هي تصحيح من إدراك الواقع الذي يدخل أحياناً في التصورّ الحلمي.) والمعنى هو: إن هذا هو مكان البشر المنحطّين وأشباه الجثث. وهذا المشهد في القسم الأول من الحلم يمثّل مرحلة سابقة في النمو الصناعي. ويمثّل القسم الثاني عصر المستقبل كامل النمو والقائم على علم التحكّم. والمدينة الجميلة الحديثة ميتة؛ فليس فيها حيوانات، ولا أشخاص. والتقنية القوية تمتّص الحياة (الدم) من الإنسان وتحولها إلى كهرباء. وعندما يحاول الحالم أن يقطع الحبال الكهربائية (ربما لإتلافها)، يبلّله الدم الذي يطفر منها- وكأنه يرتكب جناية قتل. لقد كانت لدى الحالم في نومه رؤية للمجتمع الخاضع للتكنولوجيا خضوعاً كلياً بصفاء وإحساس فني يمكن أن نجدهما عند الشاعر وليم بليك William Blake أو في الرسم السريالي. ومع ذلك فهو عندما يستيقظ يعرف قليلاً مما «يعرفه» عندما لم يكن معرّضاً لضجيج الهراء المشترك.

الأعمال النكروفيلية «غير المقصودة»

إن الأحلام من أشد التعابير صراحة عن المجاهدات النكروفيلية، ولكنها ليست التعبير الوحيد على الإطلاق. ففي بعض الأحيان يمكن أن يعبَّر عن الميول النكروفيلية في الأعمال «التافهة»، الهامشية، غير المقصودة، التي هي «الأمراض النفسية في الحياة اليومية»، التي فسّرها فرويد بأنها تعبير عن المجاهدات المكبوتة. وهذا مثال مأخوذ من شخصية معقّدة جداً، هي شخصية ونستون تشرتشل. والحادثة هي التالية: كان الفريق الأول السير ألن ف. بروك Sir Alan F.Brooke، رئيس الأركان العسكرية الإمبراطورية، وتشرشل يتناولان الغداء معاً في أفريقيا

الشمالية في أثناء الحرب العالمية الثانية؛ وكان يوماً حاراً وهناك الكثير من الذباب. وقتل تشرشل ما استطاع أن يقتله منها، كما من المحتمل أن يفعل أكثر الناس. ولكنه فعل بعد ذلك فعلاً نابياً. (يذكر السير ألن إحساسه بالانصدام.) فقبيل انتهاء الغداء جمع كل الذبابات الميتة وصفّها صفاً فوق خُوان المائدة، متصرّفاً مثل صياد أرستقراطي يصفّ رجالُه كل الحيوانات التي تم اصطيادها، إرضاءً له (Viscount Alanbrooke,1957).[1]

وإذا كان من شأن المرء أن «يفسّر» سلوك تشرتشل بأنه مجرد «عادة»، فإن السؤال يظل: ماذا تعني هذه العادة غير المألوفة إلى حد ما؟ ومع أنها تبدو معبّرة عن نزوع نكروفيلي، فإن ذلك لايعني ضمناً وبالضرورة أن تشرتشل له طبع نكروفيلي، ولكنه من الممكن جداً أن تكون لديه مسحة نكروفيلية قوية. (إن طبع تشرتشل أشد تعقيداً من أن يناقَش في بضع صفحات.)

وقد ذكرت سلوك تشرتشل هذا لأنه موثّق جيداً ولأن شخصيته شهيرة. والتفصيلات السلوكية الهامشية المشابهة لذلك من الممكن أن تُلاحَظ في الكثيرين من الناس. ومن أكثرها حدوثاً عادة بعض الأشخاص في تحطيم الأشياء الصغيرة كأعواد الثقاب أو الأزهار وإتلافها؛ وبعض الأشخاص يؤذون أنفسهم بنَتف الجروح. ويعبَّر عن هذا النزوع بصورة أعنف عندما يسيء الناس إلى شيء جميل مثل مبنى أو قطعة أثاث- وفي الأحوال الأكثر تطرفاً عندما يقومون بتشريط لوحة فنية في متحف، أو إنزال الجروح بأنفسهم.

١- إن ذِكر طبيب تشرتشل، اللورد موران، للحادثة نفسها في يومياته (Lord Moran, 1956) يجعل المرء يفترض أنه لابد أن تشرتشل قد قام بذلك بصورة متكررة إلى حد ما.

والمثال الآخر الذي يوضح السلوك النكروفيلي يمكن أن نجده عند الناس- وعلى الخصوص طلبة الطب والأطباء- الذين ينجذبون إلى الهياكل العظمية انجذاباً خاصاً. وهذا الانجذاب تفسّره في العادة اهتماماتهم المهنية، ولكن التقرير التالي من المعلومات التحليلية النفسية يُظهر أن الأمر ليس كذلك على الدوام. إن طالباً طبياً كان لديه هيكل عظمي في غرفة نومه قد أخبر المحلل النفسي بعد بعض الوقت وبارتباك شديد أنه كثيراً ما يأخذ الهيكل العظمي إلى سريره، ويعانقه، وفي بعض الأحيان يقبّله. وقد أظهر الشخص نفسه عدداً من الخصال النكروفيلية الأخرى.

والتبّدي الآخر للطبع النكروفيلي هو الاقتناع بأن السبيل الوحيد إلى حل مشكلة أو صراع هو بالقوة والعنف. وليست المسألة المرتبطة بذلك هي هل يجب استخدام القوة في بعض الظروف؟ فالمعهود عن النكروفيلي هو أن القوة- وهي كما قالت سيمون ڤايل Simone Weil «القدرة على تحويل الإنسان إلى جثة»- هي الحلّ الأول والأخير لكل شيء؛ فعقدة العقد يجب أن تُقطَع دائماً وألا تُحلّ بصبر. ومن حيث الأساس فإن جوابهم عن مشكلة الحياة هو التدمير، وليس الجهد التعاطفي، أو الإنشاء، أو النموذج الذي يُحتذى. إن جوابهم هو جواب الملكة في **أليس في بلد العجائب**: «اقطعوا رؤوسهم!» وهم إذ يدفعهم هذا الدافع لا يرون الخيارات الأخرى التي لاتتطلّب التدمير، ولايتبينّون كم أثبتت القوة أنها عديمة الجدوى على المدى الطويل. ونحن نجد التعبير الكلاسيكي عن هذا الموقف في حكم الملك سليمان في دعوى امرأتين ادّعت كلتاهما أن الطفل طفلها. فعندما اقترح الملك تقسيم الطفل، فضّلت الأم الحقيقية أن تسمح للمرأة الأخرى بأن يكون لها الطفل، واختارت المرأة التي تزعم أنها أمه تقسيم الطفل. وقرارها هو القرار المعهود عن النكروفيلي الذي يستولي عليه هاجس التملّك.

والتعبير الأقل عنفاً إلى حد ما عن النكروفيليا هو الاهتمام الملحوظ بالمرض بكل أشكاله، وكذلك بالموت. والمثال على ذلك هو الأم المهتمة دائماً بمرض طفلها، وإخفاقاته، والتي تضع التكهّنات المظلمة عن المستقبل؛ وهي في الوقت نفسه لاتتأثّر بالتبدّل الإيجابي، ولاتستجيب لفرح الطفل أو حماسته، ولن تلاحظ أي شيء جديد ينمو في داخله. وهي لاتؤذيه بأية طريقة واضحة، ومع ذلك فقد تخنق فرحة حياته، وإيمانه بالنمو، وفي النهاية سوف تُعديه بتوجّهها النكروفيلي.

وأي امرئ لديه الفرصة للاستماع إلى محادثات الناس من كل الطبقات الاجتماعية التي من الطبقة الوسطى فما فوق سوف يُحدِث وقعاً في نفسه مدى تحدّثهم عن مرض الآخرين وموتهم. ومن المؤكد أن ثمت عدداً من العوامل المسؤولة عن ذلك. فبالنسبة إلى الكثيرين من الناس، وعلى الخصوص الذين ليست لديهم اهتمامات خارجية، فإن المرض والموت هما العنصران المثيران في حياتهم؛ وذلك أحد الموضوعات القليلة التي يمكن أن يتحدثوا عنها، إلى جانب الأحداث التي تقع في الأسرة. ولكن مع التسليم بكل ذلك، يوجد أشخاص كثيرون لاتكفي لهم هذه التفسيرات. ويمكن تبيّنهم مما يعتريهم من الانتعاش والهياج عندما يتحدثون عن المرض أو الأحداث الحزينة الأخرى كالموت، والورطات المالية، وهلم جرا. واهتمام الشخص النكروفيلي الخاص بالموتى كثيراً ما يظهر لافي محادثاته بل في الطريقة التي يقرأ بها الصحف. فهو الأشد اهتماماً بإعلانات الوفاة والنعي- ومن ثم يقرؤها أولاً؛ وهو كذلك يرغب في أن يتحدث عن الوفاة من جوانب متعدّدة: ممّ مات الناس؟ وفي أية ظروف؟ ومن مات مؤخراً؟ ومن هو من المحتمل أن يموت؟ وما إلى ذلك. وهو يرغب في الذهاب إلى قاعات التعزية والمقابر ولايفوّت في العادة فرصة للقيام بذلك حين يكون مناسباً من الوجهة الاجتماعية. ومن السهل أن نرى أن هذا الارتباط بالجنازات والمقابر هو مجرد شكل مخفّف من الاهتمام الأوضح والأكبر بأمكنة حفظ الموتى وبالقبور، ذلك الاهتمام الذي تمّ توصيفه آنفاً.

وخصلة الشخص النكروفيلي، الأقل سهولة في التعرّف بها هي النوع الخاص من عدم الحيوية في حديثه. وهذه هي مسألة عمّ يكون الحديث. والشخص النكروفيلي المطّلع وشديد الذكاء قد يتحدث عن أمور من شأنها أن تكون مثيرة للاهتمام جداً لو لم تكن بالطريقة التي يقدّم أفكاره بها. فهو يظل جافاً وبارداً ومتجافياً؛ وتقديمه للموضوع متفذلك وجامد. ومن جهة أخرى، فإن نمط الطبع المضاد، وهو الشخص المحب للحياة، قد يتحدث عن تجربة ليست في ذاتها مثيرة للاهتمام بوجه خاص، ولكن ثمت حياة في الطريقة التي يقدّمها بها؛ فهو مثير؛ وذلكم هو السبب في أن المرء يصغي إليه باهتمام وسرور. والشخص النكروفيلي لحاف مبلّل وقاتل للفرحة في الجماعة؛ وهو بالأحرى مملّ وليس منعشاً؛ وهو يُميت كل شيء ويجعل الناس يشعرون بالتعب، خلافاً للشخص البيوفيلي الذي يجعل الناس يشعرون بأنهم أكثر حيوية.

ثم إن البعد الآخر لردود الأفعال النكروفيلية هو الموقف من الماضي والمِلكية. فبالنسبة إلى الشخص النكروفيلي فإن الماضي وحده هو الذي يُعاش على أنه حقيقة، لاالحاضر ولاالمستقبل. فما كان، أي ما هو ميت، يحكم حياته: أي الأعراف والشرائع والمِلكية والتقاليد والممتلكات. وباختصار، **فإن الأشياء تحكم الإنسان؛ والتملّك يحكم الوجود والموتى يحكمون الأحياء**. وفي التفكير النكروفيلي- الشخصي والفلسفي والسياسي- فإن الماضي مقدس، وليس لشيء جديد قيمة، والتغيّر ذو الأثر الشديد جريمة بحق النظام «الطبيعي».[1]

١- بالنسبة إلى ماركس لم يكن رأس المال والعمل مجرد صنفين اقتصاديين. فقد كان رأس المال تجلياً للماضي، للعمل الذي تحوّل إلى أشياء وتكوّم؛ وكان العمل تجلياً لـ«الحياة»، للطاقة الإنسانية المستخدمة في الطبيعة في عملية تحويلها. وكان الخيار بين الرأسمالية والاشتراكية يعادل هذا: من (ماذا) سيحكم ماذا (من)؟ هل سيحكم ما هو ميت ما هو حي، أم سيحكم ما هو حي ما هو ميت؟ (cf.E.Fromm,1961,1968).

والجانب الآخر للنكروفيليا هو العلاقة باللون. فللشخص النكروفيلي عموماً استحباب للألوان القاتمة، التي تمتص الضوء، كالأسود أو البنّي، ونفور من الألوان المتألقة الساطعة [١] ويمكن أن يلاحظ المرء هذا التفضيل في ثيابهم أو في الألوان التي يختارونها إذا رسموا. ولاريب أنه في الأحوال التي تكون فيها الثياب القاتمة بالية لبعدها عن التقاليد لايكون للون أهمية في علاقته بالطبع.

وكما قد رأينا في المادة السريرية أعلاه، فإن الشخص النكروفيلي يتّصف بصلة خاصة بالروائح الكريهة -وفي الأصل برائحة اللحم المتفسّخ أو المنتن. وبالفعل فهذه هي حالة الكثيرين من هؤلاء الأشخاص، وهي تتبّدى في شكلين: (١) الاستمتاع الصريح بالروائح الكريهة؛ وأمثال هؤلاء الناس تجذبهم رائحة البراز أو البول أو التفسّخ، ويميلون إلى التردّد إلى المراحيض ذات الروائح الكريهة؛ (٢) والشكل الأكثر حدوثاً هو-كبت الرغبة في الاستمتاع بالروائح الكريهة؛ وهذا الشكل يُفضي إلى التشكّل الارتدادي للرغبة في التخلّص من الرائحة الكريهة التي هي غير موجودة في الواقع. (وهذا يشبه الإفراط في النظافة في الطبع الشرجي.) وسواء أكان الأشخاص النكروفيليون من هذا الطبع أم ذلك فإنهم مهتمون بالروائح الكريهة. وكما لاحظنا آنفاً، فإن افتتان هؤلاء الناس بالروائح الكريهة كثيراً مايجعلهم يظهرون بمظهر «الشمّامين» (H.von Hen-tig,1964). وليس من النادر أن تظهر هذه النزعة الشمّامية حتى في تعبيرهم الوجهي. ويعطي الكثيرون من الأفراد النكروفيليين الانطباع بشمّهم الدائم للرائحة الكريهة. وأي شخص يدرس صور هتلر الكثيرة، مثلاً، يمكن أن يكتشف بسهولة هذا التعبير الشمّام في وجهه. وليس هذا التعبير موجوداً على الدوام عند النكروفيليين، ولكنه عندما يوجد، يكون من أكثر مقاييس هذه العاطفة موثوقية. والعنصر المميز الآخر في التعبير الوجهي هو عجز النكروفيلي عن الضحك.

١- إن هذا التفضيل للون شبيه بالتفضيل الموجود عند الأشخاص المكتئبين.

فضحكه هو بالفعل نوع من ابتسام الاغتباط بالنفس؛ فهو جامد ويفتقر إلى الصفة المحرِّرة والمفرحة في الضحك الطبيعي. وفي الواقع فإنه ليس غياب القدرة على الضحك «الحر» هو وحده الصفة المميزة للنكروفيلي، بل كذلك الثبات وعدم التعبير في وجهه. ويمكن للمرء لدى مشاهدته للتلفزيون أن يلاحظ متحدثاً يظل عديم الحركة تماماً وهو يتحدث؛ ولايفتح فمه مبتسماً إلا عند بدء حديثه أو انتهائه عندما يعرف وفقاً للعادة الأمريكية، أنه يُتوقَّع منه أن يبتسم. وهؤلاء الأشخاص لايستطيعون أن يتحدثوا ويبتسموا في الوقت نفسه، لأنهم لايستطيعون أن يوجّهوا انتباههم إلا إلى أحد النشاطين؛ وليست ابتسامة عفوية بل مخطَّطاً لها، كالحركة التعبيرية غير العفوية عند ممثل هزيل. وكثيراً ما تكون البشرة دالة على النكروفيليين: إنها تعطي الانطباع بأنهم عديمو الحيوية، و«جافّون» و«شاحبون»؛ وعندما نحسّ في بعض الأحيان بأن لأحد الأشخاص وجهاً «قذراً»، فنحن لاندّعي أن الوجه غير مغسول، بل أنه مستجيب للصفة الخاصة في التعبير النكروفيلي.

اللغة النكروفيلية

تتميز لغة الشخص النكروفيلي باستعماله الدائم للكلمات التي تشير إلى الدمار وإلى الغائط والمراحيض. وبينما أصبح استخدام كلمة shit [خرا] واسع الانتشار اليوم، فإنه ليس من الصعب مع ذلك تمييز الناس الذين كلمتهم الأثيرة هي هذه الكلمة، بعيداً عن تكرارها الجاري بين الناس. ومن الأمثلة على ذلك رجل في الثانية والعشرين من عمره كان كل شيء بالنسبة إليه «خرائياً»: الحياة، والناس، والأفكار، والطبيعة. والشاب نفسه قال مفتخراً بنفسه: «أنا فنان الدمار.» وقد وجدنا أمثلة كثيرة على اللغة النكروفيلية عند تحليل الإجابات عن الاستبيان الموجّه إلى العمال والمستخدمين الألمان والمذكور سابقاً (في الفصل الثاني، الحاشية (٨)، والفصل الثامن، الحاشية ١٦). والإجابات عن أحد الأسئلة وهو «مارأيك في

استعمال النساء طلاء الشفاه والمكياج؟»[1] تزودنا بمثال توضيحي. وأجاب الكثيرون من الذين جرى معهم الاستبيان: «إنه عادة برجوازية» أو «غير طبيعية» أو «غير صحية». فقد أجابوا ببساطة على أساس الأيديولوجيا السائدة. ولكن الأقلية منهم قدّمت إجابات من نحو «إنه سامّ» أو «إنه يجعل النساء يبدون كالعاهرات». وكان استخدام هذه المصطلحات غير المسوَّغة واقعياً دالاً بشدة على بنية طبعهم؛ وقد أظهر المجيبون الذين استخدموا هذه الكلمات، ومن دون استثناء تقريباً، ميلاً تدميرياً في معظم إجاباتهم الأخرى.

ولاختبار صحة الفرضية حول النكروفيليا، عمدنا أنا ومايكل ماكوبي إلى وضع استبيان تفسيري يسير أساساً على الخطوط المستخدمة في دراسة فرانكفورت، ولكنه بالأحرى ذو أسئلة ثابتة، وليست خالية من التحديد الزمني أو الغرضي، وهي في كليتها اثنا عشر سؤالاً؛ يشير بعضها إلى المواقف المعهودة عن الطبع الادخاري- الشرجي، في حين يشير بعضها الآخر إلى الخصائص النكروفيلية. وإلى هذا الحد كنت أقوم بالتوصيف. واستخدم ماكوبي الاستبيان على عينّات من الناس في ست فئات مختلفة من السكان (بالنسبة إلى الطبقة، والعرق، والتعليم). والحيّز لا يسمح بالخوض في تفصيلات المنهج أو النتائج التي تمّ الحصول عليها. وحسبي أن أقول إن التحليل قد أثبت (١) وجود التناذر النكروفيلي، مؤيِّداً الأنموذج النظري؛ (٢) وأن محبة الحياة والنكروفيليا نزعتان يمكن قياسهما؛ (٣) وأن هاتين النزعتين متضايفتان في الواقع، وبصورة بالغة الأهمية، مع الهموم الاجتماعية- السياسية. وعلى أساس التحليل التفسيري للاستبيانات، حكمنا أن زهاء / ١٠/ إلى / ١٥/ في المائة من العينّات التي جرت

١- في أوائل الثلاثينيات كانت هذه مسألة خلافية بين هذا القطاع من السكان، مادام الكثيرون يرون أن استعمال المكياج عادة برجوازية غير طبيعية.

المقابلة معها تهيمن عليها النكروفيليا ... ولاحظ الذين أجروا المقابلات الجدب المرتبط بهؤلاء الناس وبيوتهم. فهم يعيشون في جو هامد لافرح فيه.

وسألت الدراسة المجيبين عدداً من الأسئلة التي تسمح بالربط بين آرائهم السياسية وطبعهم. وأنا أحيل القارئ إلى المعلومات الوفيرة الغزيرة في بحث ماكوبي؛ ولن أذكر الآن إلا مايلي:

وجدنا في كل العيّنات أن النزعات المعادية للحياة كانت بصورة بالغة الأهمية متضايفة مع المواقف السياسية المؤيدة للقوة العسكرية المتزايدة، وتفضّل استخدام القمع مع المارقين. وكانت الأفضليات التالية هي الأهم عند الأفراد الذين لديهم نزعات معادية للحياة: السيطرة الأشد على المشاغبين، وفرض العقوبات الأشد في قوانين مكافحة المخدّرات، والظفر في الحرب على فيتنام، والسيطرة على الجماعات التخريبية، وتقوية الشرطة، ومحاربة الشيوعية في كل أنحاء العالم. (M.Maccoby,1972)

الصلة بين النكروفيليا وعبادة التقنية

أظهر لويس ممفورد الصلة بين التدميرية و«الآلات الضخمة» المتمركزة حول السلطة كما وُجدت في «مابين النهرين» ومصر قبل زهاء خمسة آلاف سنة، وهي المجتمعات التي لها، كما أشار ممفورد، الكثير من الصلة المشتركة مع الآلات الضخمة في أوربا وأمريكا الشمالية اليوم. وهو يكتب:

من الناحية المفهومية، كانت الاستآلة * قبل خمسة آلاف سنة قد انفصلت عن وظائف ومقاصد إنسانية غير الزيادة المستمرة في النظام والسلطة وإمكانية التنبؤ، وفوق كل شيء، السيطرة. وبهذه الأيديولوجيا العلمية- الأولية سار مايوازيها من التنظيم القاسي والحطّ من النشاطات الإنسانية التي كانت مستقلة

*- الاستآلة mechanization : هي التزويد بالآلات أو استخدام الآلات أو إضفاء الآلية. (المترجم)

فيما مضى: فقد كان الظهور الأول لـ«الثقافة الجماهيرية» و«السيطرة الجماهيرية». وباستخدام الرمزية اللاذعة، فقد كانت المنتجات النهائية للآلة الضخمة هي القبور هائلة الحجم، التي تسكنها الجثث المحنّطة؛ في حين أن الدليل الأكبر على نجاعتها التقنية في مملكة آشور [=آشوريا]، كما يحدث مراراً وتكراراً في كل إمبراطورية توسّعية أخرى، هو قَفْر القرى والمدن المدمَّرة، والأتربة المسمومة: وهو الطراز الأولي للفظائع «المتمدّنة» اليوم. (L.Mumford,1967)

ولنبدأ بإنعام النظر في أبسط وأوضح الصفات المميِّزة للإنسان الصناعي المعاصر: اختناق اهتمامه بالناس والطبيعة والبنى الحية، مع اشتداد الانجذاب إلى المصنوعات الآلية غير الحية. والأمثلة موجودة بوفرة. ففي كل هذا العالم المصنَّع هناك رجال يشعرون باللطف نحو سياراتهم ويهتمون بها أكثر من شعورهم واهتمامهم بزوجاتهم. وهم فخورون بسيارتهم؛ ويرعونها بعناية وحنوّ؛ ويغسلونها (حتى الكثيرين من الذين يستطيعون دفع المال لتأدية هذا العمل)، وفي بعض البلدان يُطلق الكثيرون عليها اسماً للتحبّب؛ ويلاحظونها ويهتمون بأدنى أمارة على الخلل الوظيفي فيها. ومن المؤكد أن السيارة ليست موضوعاً جنسياً ولكنها موضوع للحب، وتبدو الحياة من دون سيارة لبعضهم أصعب على التحمل منها من دون امرأة. أليس هذا التعلّق بالسيارات من الأمور المستغربة بعض الشيء، أو حتى من الانحرافات؟

أو لنأخذ مثالاً آخر، هو التقاط الصور. إن أي امرئ واتته الفرصة ليراقب السيّاح- أو ربما ليراقب نفسه- يمكن أن يكتشف أن التقاط الصور قد صار بديلاً من الرؤية. ولاريب أن عليك أن تنظر لتوجيه العدسة؛ ثم تضغط الزر، ويُصيَّر الفيلم ويؤخذ إلى البيت. ولكن **المشاهدة** ليست **الرؤية**. فالرؤية وظيفة إنسانية، موهبة من أعظم المواهب التي يوهَب بها الإنسان؛ وهي تتطلّب النشاط، والانفتاح

الداخلي، والاهتمام، والصبر، والتركيز. وأخذ لقطة خاطفة snapshot (والتعبير العدواني له دلالته (*)) يعني في ماهيته تحويل فعل الرؤية إلى شيء- فالصورة سوف تتم إراءتها بعدئذ للأصدقاء دليلاً على «أنك كنتَ هناك». والحالة نفسها تنطبق على بعض عشّاق الموسيقى الذين ليس الاستماع إلى الموسيقى عندهم إلا تعلّة لاختبار الخصائص التقنية لما لديهم من أجهزة خاصة. لقد تحوّل الاستماع إلى الموسيقى عندهم إلى دراسة الناتج التقني الرفيع.

والمثال الآخر هو إنسان الأدوات الصناعية gadgeteer، وهو الشخص المنكّب على إحلال الأداة الصناعية «المعدّة للاستعمالات المختلفة» و«الموفرة للعمل» محل كل استخدام للجهد البشري. ومن هؤلاء يمكن أن نذكر موظفي المبيعات الذين يقومون حتى بأبسط جمع بوساطة الآلة، وكذلك الناس الذين يرفضون أن يسيروا مسافة ساحة مربعة، بل يركبون السيارة آلياً. ومن المحتمل أن الكثيرين منا يعرفون صانعي الأدوات للتشغيل البيتي الذين يصنعون بصورة آلية أدوات يجري تشغيلها بحيث أنه بمجرد ضغطة زر أو نقرة خفيفة على مفتاح كهربائي يمكن أن تنطلق نافورة، أو يدور باب وينفتح، أو يُبرزون للعيان اختراعات روب غولدبرغ Rube Goldberg الأقل عملية، والسخيفة في جل الأحيان.

ويجب أن يكون واضحاً أنني في حديثي عن هذا النوع من السلوك لاأقصد أن استخدام السيارة، أو التقاط الصورة، أو استخدام الأدوات الصناعية هو في ذاته إبانة للميول النكروفيلية. ولكن ذلك يتخذ هذه الصفة عندما يصبح بديلاً من الاهتمام بالحياة ومن ممارسة الوظائف الغنية الموهوبة للإنسان. وأنا لاأعني كذلك أن المهندس المهتم عاطفياً بإنشاء الآلات من كل الأنواع يُظهر، لهذا السبب، ميلاً نكروفيلياً. فقد يكون شخصاً إنتاجياً جيداً جداً ذا محبة كبيرة للحياة يعبّر عنها في

*- التعبير العدواني هنا لأن المصطلح الإنجليزي الدال على اللقطة الخاطفة snapshot مؤلف من كلمتين تدلان أصلاً على الطلقة (النارية) الخاطفة snap shot. (المترجم)

موقفه من الناس، ومن الطبيعة، ومن الفن، وفي أفكاره التقنية البنّاءة. بل إنني أشير إلى الأفراد الذين حلّ اهتمامهم بالأدوات المصنوعة محل اهتمامهم بما هو حي والذين يتعاملون مع الأمور التقنية بطريقة متفذلكة وغير حيوية.

وتصير الصفة النكروفيلية في هذه الظواهر محسوسة بصورة أوضح إذا تفحّصنا الدليل الأكثر مباشرة على التحام التقنية مع تدميرية عهدنا الجديد الذي يقدم الكثير من الأمثلة. وقد وجدت الصلة الظاهرة بين التدمير وعبادة التقنية أول تعابيرها الصريحة والبليغة عند ف. ت. مارتينيتّي F.T.Martinetti، مؤسس «المستقبلية الإيطالية» وزعيمها والفاشي مدى الحياة. وينادي بيانه المستقبلي الأول Futurist Manifesto (1909) بالمُثُل التي كانت ستجد تحقيقها الكامل في الاشتراكية القومية وفي الطرق المستخدمة في العمليات الحربية بدءاً بالحرب العالمية الثانية.[1] وقد مكّنته حساسيته الملحوظة بوصفه فناناً من التعبير عن ميل قوي يكاد لايكون بائناً في ذلك الحين:

١- ننوي أن نتغنّى بحب الخطر، وبعادة النشاط وعدم الخوف.

٢- ستكون الشجاعة، والجرأة إلى حد المخاطرة، والثورة هي العناصر الماهوية في شعرنا.

٣- لقد كان الأدب إلى الآن يمجّد السكينة المستغرقة في التأمل، والوجد، والنوم. ونحن ننوي أن نمجّد العمل العدواني، والأرق المحموم، ومشية المسابق، والوثبة المعنوية، واللكمة والصفعة.

٤- نحن نقول إن بهاء العالم قد أثراه جمال جديد: جمال السرعة. **فالسيارة المسابقة التي ازدانت غطوتها بأنبوبين كبيرين، مثل الأفاعي ذات النفس الانفجاري- السيارة التي تجأر ويبدو أنها تجري على قنبلة عنقودية- هي أجمل من «ظَفَر الساموسيين».**

١- يحاول ر. و. فلنت R.W.Flint (1971)، وهو محرر أعمال مارتينيتي أن يؤكد عدم ولاء مارتينيتّي الفاشي، ولكن حججه هي في رأيي غير مقنعة.

٥- سوف ننشد ترتيلة للإنسان وهو على العَجَلَة، الذي يقذف برمح روحه تجاه الأرض، على امتداد مدار فلكها.

٦- على الشاعر أن يبذل نفسه بحماسة شديدة وروعة وسخاء، لينفخ الحرارة الممتلئة حماسة في العناصر الأزلية.

٧- لاجمال إلا في الصراع. ولاعمل يمكن أن يكون آية في الروعة من دون طبع عدواني. ويجب أن نتصور أن الشعر هجوم عنيف على قوى مجهولة، لقهرها وجعلها تسجد أمام الإنسان.

٨- نحن نقف على النتوء الأخير للقرون -فلماذا علينا أن ننظر إلى الوراء، عندما نريد أن نحطّم الأبواب السرية للمستحيل؟ لقد مات الزمان والمكان بالأمس. ونحن نعيش الآن في المطلق، لأننا خلقنا السرعة الأبدية الموجودة في كل وجود.

٩- سوف نمجّد الحرب- علم الصحة الوحيد في العالم- والعسكرانية، والوطنية، والإشارةَ التدميرية لجالبي الحرية، والأفكار الجميلة التي تستحق الموت من أجلها، واحتقارَ المرأة.

١٠- سوف ندمّر المتاحف، والمكتبات، والأكاديميات من كل الأنواع، وسوف نحارب النزعة الأخلاقية المتشددة، والأنوثيّة، وكل جبن انتهازي ونفعي.

١١- سوف نتغنى بالحشود الكبيرة التي يثيرها العمل واللذة والشغب؛ وسوف نتغنّى بالتيارات متعدّدة الألوان ومتعددة الأصوات للثورة في العواصم الحديثة؛ وسوف نتغنى بالحرارة النابضة والليلية لمؤسسات صنع الأسلحة ومؤسسات بناء السفن التي تتوهج بالأقمار الكهربائية؛ وبالمصانع المعلّقة على السحب بخطوط منحنية من الدخان؛ وبالجسور التي تقطع الأنهار كمؤدي التمارين الرياضية العمالقة، والتي تلمع في الشمس، ببريق السكاكين؛ وبالبواخر المغامرة

لتي تتشمّم الأفق؛ وبالقاطرات غائرة الصدر وهي تصطك بالسكك مثل حوافر خيول فولاذية هائلة تكبحها مواد الأنابيب؛ وبالطيران الأنيق للطائرات التي تهذرم مراوحها في الريح كالرايات وتبدو مهلّلة مثل حشد متحمس R.W.Flint,1971 ؛) (والإبراز مضاف.

نرى الآن العناصر الماهوية للنكروفيليا: عبادة السرعة والآلة؛ والشعر بوصفه وسيلة للهجوم؛ وتمجيد الحرب؛ وتدمير الثقافة؛ وبغض النساء؛ والقاطرات والطائرات بوصفها قوة حية.

والبيان المستقبلي الثاني Futurist Manifesto(1916) يُظهر فكرة ديانة السرعة الجديدة:

السرعة، بما أن ماهيتها التركيب الحدسي لكل قوة في حركة، فهي في طبيعتها *طاهرة*. والبطء، بما أن ماهيته التحليل العقلي في دعة لكل استقصاء، فهو بطبيعته نجس. وبعد أن نقضي على الخير العتيق والشر العتيق، سوف نخلق خيراً جديداً، هو السرعة، وشراً جديداً، هو البطء.

السرعة= تركيب كل شجاعة في العمل. *العدواني والحربي*.

البطء= تحليل كل تدبير راكد. سلبي وسلامي...

وإذا كانت الصلاة تعني الاتصال بالألوهية، *فإن الجري بسرعة شديدة صلاة. قدسيّة العجلات والسكك الحديدية. وعلى المرء أن يركع فوق السكك ليصلي للسرعة الألوهية. وعلى المرء أن يركع أمام السكك الدوّارة لبوصلة حفظ الاتجاه والتوازن*. 20,000 *ثورة في الدقيقة، وهي أعلى سرعة بلغها الإنسان*.

***إن السُّكر من السرعات الكبيرة ليس إلا الفرح من إحساس المرء بالتحامه بالألوهية الوحيدة*. واللاعبون الرياضيون هم الفقهاء الأوائل في هذا الدين. *والتدمير الوشيك للدّور والمدن، يُخلي السبيل لأماكن اجتماع السيارات والطائرات*.** (R.W.Flint, 1971 ؛ والإبراز مضاف)

لقد قيل إن مارتينيتّي كان ثورياً، وإنه أحدث قطيعة مع الماضي، وإنه شَرَع الأبواب لرؤية عالم جديد للبشر الفوقيين النيتشويين، وإنه كان مع پيكاسو وأپولينير، أحد أهم القوى في الفن الحديث. ودعوني أردّ بأن ثوريته تضعه قريباً جداً من موسوليني، بل هو أقرب إلى هتلر. وإن هذا المزيج من المراسلات البلاغية للروح الثورية، وعبادة التقنية، والغايات التدميرية هي بالضبط مايميز النازية. ولعل موسوليني وهتلر كانا متمردين (وهتلر أكثر من موسوليني)، ولكنهما لم يكونا ثوريين. ولم تكن لديهما أفكار إبداعية أصيلة، ولم يُنجزا أي تغيير مهم يفيد الإنسان. كانا يفتقران إلى المعيار الماهوي للروح الثورية؛ وهو محبة الحياة، والرغبة في خدمة تفتّحها، ونموها، وعاطفة الاستقلال.[١]

وكان التحام التقنية بالتدميرية غير ملحوظ في الحرب العالمية الأولى. فقد كان فيها القليل من التدمير بالطائرة، ولم تكن الدبابة غير تطوير للأسلحة التقليدية. والحرب العالمية الثانية هي التي أحدثت تغيراً حاسماً: استخدام الطائرة للقتل الجماعي.[٢] وكاد الرجال الذين يُلقون القنابل لايدركون أنهم يقتلون أو يُحرقون حتى الموت آلاف البشر في بضع دقائق. وكان طاقم الطائرة فريقاً؛ فأحد الرجال يقود الطائرة، وغيره يسيّرها، وغيره يلقي القنابل. ولم يكونوا معنيين بالقتل ولامدركين أي عدو. بل كانوا معنيين بالاستعمال المناسب لآلتهم المعقّدة

١ - ليس هذا هو المجال لتحليل بعض الظواهر في الفن والأدب الحديثين لتحديد هل يُسفران عن عناصر نكروفيلية. وفي مجال الرسم والتصوير، فتلك مشكلة خارج مقدرتي؛ أما فيما يتعلق بالأدب، فهي أشد تعقيداً من أن تعالجَ باختصار، وأنا أخطط لمعالجة هذا الموضوع في كتاب لاحق.

٢ - كانت «معركة بريطانيا» في بدء الحرب تخاض بعدُ على الطراز العتيق؛ وكان الطيارون البريطانيون المقاتلون يشتبكون مع أعدائهم الألمان؛ وكانت طائرتهم أداة نقلهم الفردية؛ وكانت تدفعهم عاطفة إنقاذ بلدهم من الغزو الألماني. وكانت النتيجة تقررها براعتهم الشخصية، وشجاعتهم، وتصميمهم؛ ومن حيث المبدأ، لم يكن قتالهم مختلفاً عن قتال أبطال حرب طروادة.

على طول الخطوط الموضوعة في خطط منظّمة بعناية فائقة . وأما أن نتيجة أعمالهم هي أنه قد يُقتل أو يُحرق أو يُعطَب الآلاف من الناس وفي بعض الأحيان أكثر من مائة ألف شخص فلاريب أنهم يعرفونها عقلياً، ولكنهم يكادون لايفهمونها عاطفياً؛ ومن المفارقة أن ذلك، كما قد يبدو، ليس مما يهمّهم. ومن المحتمل أنه لهذا السبب لم يكونوا -أو لم يكن جلّهم على الأقل- يشعرون بالذنب حيال الأعمال التي تنتمي إلى أرهب ما يمكن أن ينجزه الإنسان.

إن التدمير الحربي الجوي الحديث يتبع مبدأ الإنتاج التقني الحديث، [1] الذي يغترب فيه العامل والمهندس على السواء عن نتاج عملهما. إنهما ينجزان المهمات التقنية وفقاً للخطة العامة للإدارة، ولكنهما في أغلب الأحيان لايريان النتاج حتى بعد انتهائه؛ ولو رأوه، فليس ذلك من اهتمامهم أو مسؤوليتهم. ولايُفترض أن يسألوا أنفسهم هل هو نتاج مفيد أوضار- فهذا شأن تقرره الإدارة؛ ولكن بمقدار مايتعلق الأمر بالإدارة فإن كلمة «مفيد» معناها ببساطة «مربح» وليست لها إشارة إلى الاستعمال الحقيقي للنتاج. وفي الحرب تعني كلمة «مربح» كل ما يخدم في إلحاق الهزيمة بالعدو، وكثيراً ما يكون القرار حول ما هو مربح بهذا المعنى قائماً على معطيات غامضة غموض تركيب فورد لـ«إدسل» Edsel. ويكفي بالنسبة إلى المهندس -وكذلك إلى الطيار- أن يعرف قرارات الإدارة، ولايُفترض أن يناقشها، ولاهو مهتم بذلك. وسواء أكانت المسألة مسألة قتل مائة ألف إنسان في «درسدن» أم «هيروشيما» أم تخريب ڤيتنام أرضاً وشعباً، فليس من واجبه أن يقلق بشأن التبرير العسكري والأخلاقي للأوامر؛ فمهمته الوحيدة هي أن يخدم آلته كما ينبغي.

وقد يعترض أحدهم على هذا التفسير بتأكيد أن الجنود يدينون دائماً بالطاعة العمياء للأوامر. وهذا صحيح بما فيه الكفاية، ولكن الاعتراض يتجاهل الاختلاف

١- لقد أشار لويس ممفورد إلى قطبي الحضارة، «العمل المنظَّم آلياً والتدمير المنظَّم آلياً» (L.Mumford,1967).

المهم بين جنود البر والطيارين قاذفي القنابل والصواريخ. فالجندي البري وثيق الصلة بالتدمير الذي تُحدثه أسلحته، ولكنه لايسبّب، بفعل مفرد، في القضاء على جماعات كبيرة من البشر لم يرها. وقُصارى ما يمكن أن يقول المرء هو أن التدريب العسكري التقليدي ومشاعر الواجب الوطني تزيد كذلك، في حالة الطيارين، الاستعداد لتنفيذ الأوامر من دون نقاش؛ ولكن لايبدو أن ذلك هو المسألة الرئيسة، كما هي الحال من دون ريب بالنسبة إلى الجندي الذي يحارب على البر. فهؤلاء الطيارون أناس تدرّبوا بشدة ولهم ذهنيات تقنية ولايحتاجون إلى هذا التحريض الإضافي لتأدية عملهم كما ينبغي ومن دون تردّد.

وحتى الجريمة الجماعية التي ارتكبها النازيون بحق اليهود قد جرى تنظيمها مثل عملية إنتاج، على الرغم من أن القتل الجماعي في غرف الغاز لايقتضي درجة عالية من الحِذق التقني. وكان في أحد طرفي العملية يتمّ اختيار الضحايا وفقاً لمعيار قدرتهم على القيام بالعمل النافع؛ والذين لايندرجون في هذا الصنف كانوا يساقون إلى الغرف ويقال لهم إن ذلك لغرض صحي؛ ثم يُطلق فيها الغاز؛ وكانت الملابس والأشياء النافعة الأخرى كالشعر والأسنان الذهبية تُنزع من الأجساد، وتُفرز و«يعاد تركيبها»، وتُحرَق الجثث. وكان الضحايا «يسيَّرون» بصورة منهجية وفعالة؛ ولم يكن المنفذون مضطرين إلى رؤية غُصص الموت؛ فقد شاركوا في برنامج «الفورر» Führer الاقتصادي- السياسي، ولكنهم كانوا بعيدين خطوة واحدة عن القتل الفوري والمباشر بأيديهم.[1]

ولاريب أن تقسية المرء قلبه لئلا يتأثّر بمصير البشر الذين رآهم واختارهم،

١ - أود أن أذكّر الذين يقولون إن هذه «الخطوة الواحدة» أقل من أن تهمّ، أن ملايين الناس المحترمين فيما عدا ذلك لايُظهرون رد فعل عندما ترتكب دولتهم أو حزبهم أعمال البطش على مبعدة خطوات كثيرة منهم. فعلى مبعدة كم من الخطوات كان الناس الذين استفادوا من الفظاعات التي ارتكبتها الإدارة البلجيكية بحق السود في بداية هذا القرن؟ ومن المؤكّد أن خطوة واحدة أقل من خمس خطوات، ولكنه مجرد اختلاف كمي.

والذين يجب قتلهم على مبعدة عدة مئات من الياردات في حدود الساعة يتطلّب تقسية أشدّ إحكاماً مما هي الحال مع طواقم الطائرات التي تلقي القنابل. ولكن على الرغم من هذا الاختلاف تظل الحقيقة هي أن في الحالتين عنصراً مشتركاً شديد الأهمية: هو إخضاع التدمير للتقنية، ومعه الابتعاد عن المعرفة العاطفية الكاملة عما يفعله المرء. وعندما ترسّخت هذه العملية تماماً لم يعد هناك حد للتدميرية لأنه لاأحد يدمّر: إنه يخدم الآلة لغرض مبرمَج- ومن ثم، ومن الواضح فهو عقلي.

وإذا كانت هذه الاعتبارات المتعلقة بالطبيعة البيروقراطية- التقنية للتدميرية الحديثة واسعة النطاق صحيحة، أفلا تؤدي إلى إنكار فرضيتي المركزية المتصلة بالطبيعة النكروفيلية لروح التقنية الكلية؟ أليس علينا أن نعترف بأن الإنسان التقني المعاصر لاتحرّضه عاطفة التدمير، بل الأنسب أن يوصف بأنه إنسان مغترب كلياً وتوجّهه توجّه عقلي، يشعر بالحب قليلاً ولكنه يشعر قليلاً بالرغبة في التدمير، وقد أصبح، بالمعنى الموجود في علم الطباع، إنساناً آلياً، ولكنه ليس مدمِّراً؟

ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال. ومن المؤكد أن الشغف بالتدمير هو التحريض المهيمن على مارينيتّي، وهتلر، وآلاف الأعضاء في الشرطة السرية النازية والستالينية، وحراس معسكرات الاعتقال، وأعضاء تنفيذ الغارات. ولكن أليس من المحتمل أنهم كانوا أنماطاً «قديمة الطراز»؟ وهل من المسوَّغ لنا أن نفسّر روح المجتمع «التقني- الألكتروني» بأنها نكروفيلية؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة نحتاج إلى إيضاح بعض المشكلات الأخرى التي أبقيتُها خارج هذا التقديم حتى الآن. والمشكلة الأولى هي الصلة بين الطبع الادّخاري- الشرجي والنكروفيليا.

لقد أوضحت المعطيات السريرية والأمثلة على أحلام النكروفيليين الحضور الملحوظ لخصال الطبع الشرجي. وكما رأينا، فإن الاهتمام بعملية اطراّح الفضلات وبالغائط هو التعبير الرمزي عن كل ما هو متفسّخ أو منتن، أي بكل ما هو ليس

بحي. ومهما يكن، فعندما يكون الشخص الادخاري- الشرجي «الطبيعي» مفتقراً إلى الحيوية، فهو ليس نكروفيلياً، وقد سار فرويد والمشتغلون معه خطوة أخرى؛ فاكتشفوا أن السادية هي في كثير من الأحيان نتاج ثانوي للطبع الشرجي. وليست هذه هي الحال دائماً، ولكن ذلك يحدث عند الناس الذين يكونون أشد عدوانية ونرجسية من الشخص الادخاري العادي. ولكن حتى الساديين يظلون مع الآخرين؛ وهم يريدون أن يسيطروا عليهم، لاأن يقضوا عليهم. وأولئك الذين ينعدم فيهم حتى هذا النوع المنحرف من الترابط، والذين يظلون أشد نرجسية وعدائية، هم النكروفيليون. وغايتهم تحويل كل ما هو حي إلى مادة ميتة؛ ويريدون أن يدمّروا كل شيء وكل شخص، حتى أنفسهم في الكثير من الأحيان؛ وعدوّهم هو الحياة نفسها.

وهذه الفرضية تشير إلى أن نشوء: الطبع الشرجي العادي ←الطبع السادي ← الطبع النكروفيلي الذي يحدّده ازدياد النرجسية، وعدم الترابط، والتدميرية (وفي هذه السلسلة توجد فروق دقيقة لاتُحصى بين القطبين) وأن التدميرية يمكن أن توصف بأنها **الشكل الخبيث من الطبع الشرجي**.

وإذا كانت هذه الفكرة عن الصلة الوثيقة بين الطبع الشرجي والنكروفيليا بسيطة كما وصفتُها في تقديم الترسيمة، فستكون محكمة إلى حد كاف لتكون مُرضية من الوجهة النظرية. ولكن الروابط ليست محكمة على الإطلاق. فالطبع الشرجي الذي كان نموذجياً في طبقة القرن التاسع عشر يصبح باطّراد أقل ظهوراً في أغلب الأحوال بين قطاع السكان المندمجين تماماً في أشكال الإنتاج الاقتصادي الأكثر تقدماً.[1] ومع أنه من المحتمل من الناحية الإحصائية ألاّ تكون ظاهرة الاغتراب التام قد وُجدت بعدُ عند أكثرية الشعب الأمريكي، فإنها خصيصة القطاع

١- إن الدراسات التي يضطلع بها م. ماكوبي M.Maccoby حول طبع المدراء في الولايات المتحدة في كتاب (Harvard Project on Technology Work and Character) -يصدر قريباً و«ي. ميلان» I.Milláneحول المدراء المكسيكيين Caracter Social y Desarnollo [Social character and Development] (National Autonomous University of Mexico; forthcoming) سوف تساعد بقسط كبير على دعم فرضيتي أو التشكيك فيها.

الأدلّ على الاتجاه الذي يسير فيه المجتمع الكلي. وفي الواقع، لايبدو طبع النمط الجديد للإنسان منطبقاً على أي صنف من الأصناف القديمة، كالطبع الفمي، أو الشرجي، أو التناسلي. وقد حاولت أن أفهم هذا النمط الجديد بوصفه «الطبع التسويقي» (E.Fromm,1947).

وعند الطبع التسويقي يتحول كل شيء إلى سلعة- لاالأشياء وحسب، بل الشخص ذاته، طاقته الجسدية، ومهاراته، ومعرفته، وآراؤه، ومشاعره، وحتى بسماته. وهذا النمط من الطبع هو من الوجهة التاريخية ظاهرة جديدة لأنه نتاج الرأسمالية مكتملة النمو والمتمحورة حول السوق- سوق السلع، وسوق العمل، وسوق الشخصية- والتي يقوم مبدؤها على جني الربح بالتبادل المحبَّذ.[1]

وينتمي الطبع الشرجي، شأن الطبع الفمي أو التناسلي، إلى فترة سبقت النشوء التام للاغتراب الكلي. وهذه الأنماط الطبْعية تكون ممكنة مادامت للمرء خبرة حسية حقيقية لجسمه ووظائف جسمه ومنتجاته. والإنسان القائم على علم التحكّم هو من الاغتراب بحيث لايعيش تجربة جسده إلا بوصفه وسيلة للنجاح. فعلى جسده أن يبدو شاباً ومعافى؛ وتجري خبرته نرجسياً على أنه أنفس ذخر في سوق الشخصية.

وعند هذه المسألة نعود إلى السؤال الذي أفضى إلى هذا الانعطاف. هل النكروفيليا هي الصفة المميزة للإنسان في النصف الثاني من القرن العشرين في الولايات المتحدة وغيرها من المجتمعات الرأسمالية أو القائمة على رأسمالية الدول المتقدّمة كثيراً؟

إن هذا النمط الجديد للإنسان ليس مهتماً، في النهاية، بالبراز أو الجثث؛ فهو في الواقع لديه رُهاب شديد من الجثث إلى حد أنه يجعلها تبدو أكثر حياة من

١- ليست هذه السوق حرة بصورة كلية في الرأسمالية المعاصرة أبداً. فسوق العمل تحدّدها العوامل الاجتماعية والسياسية إلى حد كبير، وسوق السلع يجري التلاعب فيها كثيراً.

الشخص حين كان يعيش (وهذا لا يبدو تشكّلاً ارتدادياً، بل هو بالأحرى جزء من التوجّه الكلي الذي يُنكر الواقع الطبيعي، الذي ليس من صنع الإنسان.) ولكنه يقوم بأمر أشدّ عنفاً بكثير. إنه يصرف اهتمامه عن الحياة والأشخاص والطبيعة والأفكار- وباختصار عن كل ما هو حي؛ ويحوّل الحياة كلها إلى أشياء، وفي جملتها نفسه وتجليات قدراته الإنسانية على العقل والرؤية والسماع والتذوّق والحب. وتصبح الدوافع الجنسية مهارة تقنية («آلة الحب»)، وتتسطّح المشاعر وفي بعض الأحيان يحلّ محلها الإفراط في تغليب العاطفة؛ ويحلّ «الهزل» أو الهياج محل الفرح، الذي هو التعبير عن الحيوية الشديدة؛ ويتوجّه كل مالدى المرء من الحب والرقة إلى الآلات والأدوات الصناعية. ويغدو العالم مجموع المنتَجات الصناعية التي لاحياة فيها؛ من الغذاء التركيبي إلى الأعضاء التركيبية، يصبح الإنسان كله جزءاً من الآلية الكلية التي يسيطر عليها وفي الوقت نفسه تسيطر عليه. وليست لديه خطة، ولا غاية في الحياة، إلا مايحدّد له منطق التقنية أن يفعله. ويطمح إلى أن يجعل البشر الآليين إنجازاً من أعظم إنجازات عقله التقني، ويؤكد لنا المختصون أن الإنسان الآلي من الصعب تمييزه من البشر الأحياء. ولايبدو هذا الإنجاز مدهشاً جداً عندما يكون الإنسان نفسه من الصعب تمييزه من الإنسان الآلي.

لقد أصبح عالمُ الحياة عالمَ «اللاحياة»؛ وصار الأشخاصُ «اللاأشخاصَ»، إنه عالم الموت. ولم يعد الموت يعبَّر عنه رمزياً بالروائح الكريهة للبراز أو الجثث. فرموزه الآن هي الآلات النظيفة المتألّقة؛ ولم يعد الناس ينجذبون إلى المراحيض ذات الروائح الكريهة، بل إلى بنيات الألومينيوم والزجاج.[1] ولكن الواقع خلف هذا العالم المضاد للتفسخ يصبح مرئياً بازدياد. فالإنسان، باسم التقدم، يحوّل العالم إلى مكان سائخ وسام (وليس هذا بالكلام الرمزي). إنه يلوّث الهواء والماء والتراب والحيوانات- ويلوّث نفسه. إنه يقوم بذلك إلى درجة جعلت من المشكوك

١- راجع الحلم / ٧/ الذي سبق ذكره في هذا الفصل.

فيه بقاء الأرض صالحة للحياة في غضون السنوات المائة اعتباراً من الآن. وهو يعرف الحقائق، ولكن على الرغم من المحتجّين، فإن الذين هم في موقع المسؤولية يستمرون في متابعة «التقدم» التقني وهم مستعدّون في عبادتهم لوثنهم للتضحية بالحياة كلها. وفي الأزمان القديمة كان الناس كذلك يضحوّن بالأطفال أو بأسرى الحرب، ولكن لم يسبق في التاريخ أن كان الإنسان راغباً في التضحية بالحياة كلها للإله «مولوخ»- حياته وحياة كل المتحدّرين منه. ولن يحدث سوى اختلاف ضئيل في حالة أنه يفعل ذلك قاصداً أم لا. فإذا لم تكن لديه معرفة بالخطر الممكن، فيمكن أن يُعفى من المسؤولية. ولكن العنصر النكروفيلي في طبعه هو الذي يمنعه من استخدام المعرفة التي لديه.

ويصحّ الأمر نفسه بالنسبة إلى التأهّب للحرب النووية. فالقوتان العظميان تزيدان باستمرار قدراتهما على تدمير بعضهما لبعض، وعلى الأقل على أجزاء كبيرة من الجنس البشري. ومع ذلك فإنهما لم يفعلا أي شيء جدي لاستئصال الخطر- وسيكون الشيء الجِدّي الوحيد هو تدمير كل الأسلحة النووية. وفي الواقع، فإن أولئك المسؤولين قد سبق أن كانوا على وشك استخدام الأسلحة النووية عدة مرات، وراهنوا على الخطر. والتفكير الاستراتيجي، ومنه مثلا، rman Kahn,s On Thermonuclear War (1960)، يثير السؤال حول هل يظل عدد خمسين مليوناً من الأموات «مقبولاً». ولا يمكن أن يكون موضع شك أن هذه هي روح النكروفيليا.

والظواهر التي يوجد سخط شديد عليها- كالإدمان على المخدّرات، والجريمة، والانحطاط الثقافي والروحي، واحتقار القيم الأخلاقية الحقيقية- مرتبطة كلها بتنامي الانجذاب إلى الموت والقذَر. كيف يمكن للمرء أن يتوقع ألا يكون الشبان، والفقراء، والذين لا أمل لهم منجذبين إلى التفسّخ عندما يروّج له الذين يوجهون سير المجتمع الحديث؟

وعلينا أن نستنتج أن عالم الخضوع الكلي للتكنولوجيا التي لاحياة فيها هو شكل آخر لعالم الموت والتفسّخ. وليست هذه الحقيقة شعورية عند معظم الناس، ولكنها باستخدام تعبيرات فرويد، عودات مكبوتة في أكثر الأحيان، ويصبح الافتتان بالموت والتفسّخ محسوسين في الطبع الشرجي الخبيث.

لقد درسنا إلى الآن الرابطة الشرجية -عديمة الحيوية- الآلية. ولكن الرابطة الأخرى التي من غير الممكن ألا تخطر في البال ونحن ندرس طبع الإنسان المغترب كلياً والخاضع لعلم التحكّم هي: خصائصه **الفصامية**. ولعل الخصلة الأدعى إلى الانتباه هي الانقسام بين الفكر -العاطفة- الإرادة (وقد كان هذا الانقسام هو الذي شجّع أويغن بلويلر E.Bleuler على اختيار اسم «الشيزوفرينيا» Schizophrenia [=الفُصام]- من الكلمة اليونانية scizo ومعناها الانقسام؛ و phren ومعناها النفس- لهذا النمط من المرض.) وفي وصفنا لإنسان علم التحكّم كنّا قد رأينا بعض الأمثلة التي توضح هذا الانقسام، في غياب العاطفة عند الطيار القاذف للقنابل والصواريخ، مثلاً، الممزوج بالمعرفة الواضحة أنه يقتل مائة ألف إنسان بضغطة زر. ولكننا لسنا مضطرين إلى الذهاب إلى أمثال هذه الأحوال المتطرفة لملاحظة هذه الظاهرة. وكنا قد وصفناها في تبدّياتها الأكثر عمومية. وإنسان علم التحكّم يكاد يكون موجّهاً بالعقل حصرياً: إنه إنسان **أحادي التفكير**. فمقاربته للعالم الكلي حوله -ولنفسه- مقاربة عقلية؛ وهو يريد أن يعرف ما هي الأشياء، وكيف تؤدي وظيفتها، وكيف يمكن تركيبها والاحتيال عليها. وهذه المقاربة قد غذّاها العلم، الذي أصبح مهيمناً منذ نهاية العصور الوسطى. وهذه هي الماهية الصميمية للتقدّم الحديث، وهي أساس السيطرة التقنية على العالم والاستهلاك الجماعي.

فهل في هذا التوجّه أي نذير بالشر؟ وبالفعل، قد يبدو أن هذا الجانب للتقدم ليس منذراً بالشر لولا بعض الحقائق التي تبعث على القلق. أولاً، إن هذا التوجّه «أحاديّ التفكير» لايقتصر وجوده على المنهمكين في العمل العلمي؛ فهو مشترك

في قسم هائل من السكان: في العمال الكتابيين، والباعة، والمهندسين، والأطباء، والمدراء، وبصورة خاصة في الكثير من المفكرين والفنانين [1] -وفي الواقع، يمكن أن يقدّر المرء أنه موجود في معظم السكان المدينيين. فهم جميعاً يقاربون العالم بوصفه كتلة ململمة من الأشياء التي يجب فهمها لتُستخدم بصورة مُجدية. ثانياً، وليس أقل أهمية، فإن هذه المقاربة الدماغية- العقلية تسير مع غياب الاستجابة العاطفية. ويمكن للمرء أن يقول إن المشاعر قد جفّت لاكُبتت، وبالنظر إلى أنها حية، فإنه لايُعتنى بها، وهي فجّة نسبياً؛ وهي تأخذ أشكال الشغف، كالشغف بالكسب، وإثبات التفوق على الآخرين، وبالتدمير، أو الاهتياج بالجنس والسرعة والضجة. ويجب أن يضاف عنصر آخر. إذ يتّصف الإنسان ذو التفكير الأحادي بملمح آخر مهم جداً: هو نوع من النرجسية يكون موضوعها بالنسبة إلى الشخص جسده ومهارته -وباختصار نفسه- بوصفها وسيلة للنجاح. والإنسان أحادي التفكير هو جزء من الآلات التي أنشأها إلى حد أن الآلات تكون موضوعاً لنرجسيته كما هي ذاته تماماً؛ وفي الواقع، يوجد بين الطرفين نوع من العلاقة التواكلية وهي: «اتحاد ذات فردية واحدة مع ذات أخرى (أو أية سلطة أخرى خارج الذات نفسها) على نحو يجعل كلاً منهما يفقد سلامة ذاته ويجعل كلاً منهما معتمداً على الآخر» (E.Fromm,1941). [2] وبالمعنى الرمزي لم تعد الطبيعة هي أم الإنسان التي تغذّيه وتحميه بل «الطبيعة الثانية» التي بناها، وهي الآلات.

١- إنها لحقيقة لافتة للنظر أن معظم العلماء المبدعين المعاصرين، أمثال أينشتاين وماكس بورن Max Born وهايزنبرغ Heisenberg وشرودينغر Schrodinger كانوا من أقل الأفراد اغتراباً وأحادية في التفكير. ولم يكن لاهتمامهم العلمي أية صفة فُصامية من صفات الأكثرية. والمعهود عنهم أن اهتماماتهم الفلسفية والأخلاقية والروحية قد خالطت شخصياتهم الكلية. وقد أثبتوا أن المقاربة العلمية بحد ذاتها لاتُفضي إلى الاغتراب؛ بل إن المناخ الاجتماعي هو الذي يمسخ المقاربة العلمية ويحولها إلى مقاربة فصامية.

٢- لقد استخدمت مارغريت س. مالر Margaret S.Mahler مصطلح «التواكل» في دراستها البارزة للعلاقة التواكلية بين الأم وطفلها (M.S.Mahler,1968).

والملمح الآخر في إنسان علم التحكّم- وهو ميله إلى التصرّف بطريقة رتيبة وغير عفوية ومقولبة- موجود في أعنف شكل له في الكثير من المقولبين الاستحواذيين الفصاميين. وأوجه الشبه بين المرضى الفصاميين والإنسان أحادي التفكير لافتة للانتباه؛ ولعل الأدعى إلى الانتباه هو الصورة التي يقدّمها صنف آخر غير متماثل مع مايُربط إلى الآن بالفصام، هو صنف «الأطفال المنسحبين من الواقع»، الذي يصفه أولاً ل. كانر (1944) L.Kanner ثم تتوسّع فيه م. س. مالر M.S.Mahler (1968). (وانظر كذلك في بحث ل. بندر [1942] L.Bender حول الأطفال الفصاميين.) وإذا اتّبعنا وصف مالر لتناذر الانسحاب من الواقع، فإن هذه هي أهم السمات: (١) فقدان التفريق الأصلي بين الحي والمادة التي لاحياة فيها، الذي يسميه فون موناكوف von Monakow **«التميز الأولي»** (M.S.Mahler,1968)؛ (2) التعلّق بالأشياء غير الحية، كالكرسي أو الدمية، ممزوجاً بالعجز عن التواصل مع شخص حي، ولاسيما أمهاتهم، اللواتي كثيراً مايذكرن أنهن «لايستطعن الوصول إلى أطفالهن»؛ (3) الدافع الاستحواذي إلى ملاحظة التماثل الذي يصفه كانر بأنه ملمح كلاسيكي في الانسحاب الطفلي من الواقع؛ (4) الرغبة الشديدة في أن يُترك وحده -«إن أكثر الملامح لفتاً للانتباه في الطفل المنسحب من الواقع هو صراعه واسع النطاق مع كل مطالبة بالاحتكاك الإنساني والاجتماعي» (M.S.Mahler,1968)؛ (5) استخدام اللغة (إذا تكلموا) لأغراض احتيالية، ولكن ليس بوصفها وسيلة للاتصال الشخصي المتبادل- «إن هؤلاء الأطفال المنسحبين من الواقع يأمرون، بالإشارات والإيماءات، البالغ بأن يؤدي دور الامتداد التنفيذي من النوع الآلي شبه الحي أو غير الحي، مثل مفتاح كهربائي أو طبقة من آلة» (M.S.Mahler,1968)؛ (6) تذكر مالر سمة أخرى لها أهمية خاصة بالنظر إلى تعنيفاتي السابقة على الأهمية المتناقصة للعقدة «الشرجية»

في الإنسان أحادي التفكير: «إن لمعظم الأطفال المنسحبين من الواقع تركيزاً منخفضاً نسبياً من طاقتهم النفسية على سطح جسمهم، مما يفسّر نقص حساسية الألم عندهم إلى حد كبير. وبالإضافة إلى النقص التركيزي في مركز الحِسّيات هناك الافتقار إلى ترتيب المراتب، وعدم الحساسية الجنسية بالنسبة إلى المناطق المختلفة من الجسم وتتابع هذه الحساسية» (M.S.Mahler,1968). [1]

وأنا أشير بوجه خاص إلى عدم التفريق بين الحي والمادة غير الحية، وعدم تواصلهم مع الآخرين، واستخدام اللغة للاحتيال لاللتواصل، واهتمامهم الراجح بالآلي وليس بالحي. وإذ تستوقف النظر أوجه الشبه هذه، فليس بوسع إلا الدراسات الموسّعة أن تثبت هل يوجد شكل من المرض الذهني عند البالغين يتوافق مع مرض الطفل المنسحب من الواقع. ولعله ليس من التفكير التأمّلي الشديد أن نفكر في الصلة بين أداء إنسان علم التحكّم والعمليات الفصامية. ولكن ذلك يشكل مشكلة صعبة للغاية، لعدة أسباب:

١ - تختلف تعريفات الفُصام اختلافاً هائلاً بين مختلف مدارس الطب النفسي. وهي تمتد من التعريف التقليدي للفُصام بأنه مرض له أسباب عضوية، إلى التعريفات المشتركة إلى حد ما في مدرسة أدولف ماير Adolf Meyer (سوليفان Sullivan -ليدز Lidz)، إلى مدرسة فروم- رايشمان Fromm- Reichmann وإلى مدرسة لانغ Laing الأكثر جذرية، الذي لايعرّف الفُصام بأنه مرض، بل بوصفه عملية سيكولوجية يجب أن تُفهم على أساس الاستجابة للعلاقات الشخصية المتبادلة الدقيقة والمعقّدة التي تجري منذ الطفولة الباكرة. ومهما أمكن اكتشاف

---

١ - إنني مدين بصورة خاصة لـ «دافيد شختر» David Schechter و«غرترود هونتسيكر- فروم» Gertrude Hunziker- Fromm ضمن من أنا مدين لهم؛ فإشراكهم لي في تجاربهم السريرية وآرائهم في الأطفال المنسحبين من الواقع كان ذا قيمة خاصة عندي لأنني لم أشتغل بنفسي مع الأطفال المنسحبين من الواقع.

تغيّرات بدنية، فمن دأب لانغ أن يفسّرها بأنها نتائج، وليست أسباباً للعمليات الشخصية المتبادلة.

٢- ليس الفُصام ظاهرة مُفردة، ولكن المصطلح يشمل عدداً من الأشكال المختلفة للاضطرابات، ولذلك فإن المرء يتحدث، منذ أويغن بلويلر عن فُصامات Schizophrenias، وليس عن فصام بوصفه كياناً مَرَضياً واحداً.

٣- إن البحث الدينامي في الفُصام حديث العهد نسبياً، وإلى أن يجري المزيد من العمل البحثي فإن معرفتنا بالفصام سوف تظل قاصرة جداً عن الوفاء بالغرض المطلوب.

وأحد جوانب المشكلة الذي أعتقد أنه بحاجة إلى المزيد من الإيضاح هو الصلة بين الفُصام والأنماط الأخرى من العمليات الذهانية، ولاسيما تلك التي تُدعى غالباً أحوال الاكتئاب ذاتية المنشأ. ومن المؤكد أنه حتى الباحث المتنوّر والمتقدم مثل أويغن بلويلر قد ميّز تمييزاً واضحاً بين الاكتئاب العصابي والفصام، ويبدو أنه لانكران أن العمليتين تتجليان عموماً في شكلين مختلفين [ولو أنه يبدو أن الحاجة إلى التصنيفات الممتزجة كثيراً- الجمع بين الملامح الفصامية والاكتئابية والبارانويائية- تجعل التمييز مشكوكاً فيه). والسؤال الذي ينشأ هو أليس المرضان الذهنيان شكلين مختلفين للعملية الجوهرية نفسها، ومن جهة أخرى أليست الاختلافات بين شتى أنواع الفصامات أكبر في بعض الأحيان مما هي بين بعض تبدّيات العمليات الاكتئابية والفصامية، على التوالي. وإذا كان الأمر كذلك، فليس علينا أن نقلق كثيراً بشأن التناقض الواضح بين افتراض العناصر الفصامية في الإنسان الحديث وتشخيص الاكتئاب المزمن الذي قمنا به فيما يتصل بتحليل

الضجر. ويمكن أن نفترض أن كل تصنيف من التصنيفين ليس وافياً تماماً- أو يمكن أن نصرف النظر عن التصنيفات. [1]

وسيكون من دواعي دهشتي ألاّ يقدّم إنسان علم التحكم أحاديُّ التفكير صورة لسير فُصام الحد الأدنى المزمن- باستخدام المصطلح من أجل التبسيط. فهو يعيش في جو لايقل إلا كمياً عما يُظهره لانغ والآخرون في تقديمهم للأسر الفصامية (المحدِثة للفصام).

وأعتقد أنه من المعقول أن نتحدث عن «المجتمع غير السوي» ومشكلة ما يحدث للإنسان السوي في مثل هذا المجتمع (E.Fromm,1955). فإذا أنتج مجتمع من المجتمعات أكثرية تعاني من الفصام الشديد، فإن ذلك سوف يضعضع وجوده. والشخص مكتمل الفُصام يتصف بأنه قد قطع كل العلاقات بالعالم الخارجي؛ إنه منسحب إلى عالمه الخاص، وأهم سبب يجعله يُعدّ مريضاً بشدة هو سبب اجتماعي؛ فهو لايؤدي وظيفته اجتماعياً؛ ولايستطيع أن يُعنى بنفسه كما ينبغي؛ ويحتاج إلى مساعدة الآخرين بطريقة أو بأخرى. (وهذا كذلك ليس صحيحاً كل الصحة، كما أظهرت التجارب في الأماكن التي يعمل فيها الفصاميون المزمنون أو يُعنَون فيها بأنفسهم، ولو أن ذلك يتم بمساعدة بعض الناس الذين يدبرون بعض الأوضاع المؤاتية أو على الأقل بعض المساعدات المالية من الدولة.)

١- على أساس مثل هذه التناقضات، يرفض الأطباء النفسيون المايريون [نسبة إلى أدولف ماير] ويرفض «لانغ» استخدام هذه النعوت التصنيفية رفضاً مطلقاً. وقد نجم هذا التغيّر عن المقاربة الجديدة للمرض الذهني إلى حد كبير. ومادام المرء يمكن أن يتعامل مع المريض بالمعالجة النفسية، فقد كانت المسألة الأساسية المهمة هي التصنيف التشخيصي، المفيد بالنسبة إلى قراره هل يضعه في مؤسسة للمرضى الذهنيين أم لا. ومنذ أن يبدأ المرء بمساعدة المريض بالعلاج الذي يوجّهه التحليل النفسي، تغدو التصنيفات غير مهمة، لأن اهتمام الطبيب النفسي مركّز على فهم العمليات التي تجري في المريض، وخبرته له بوصفه إنساناً ليس مختلفاً من حيث الأساس عن «الملاحظ المشارك». وهذا الموقف الجديد من المريض الذهاني يُعد تعبيراً عن المذهب الإنساني الجذري، الذي ينمو على الرغم من عملية إعدام الصفات الإنسانية وهي العملية السائدة.

والمجتمع، إذا لم نتحدث عن مجتمع ضخم ومعقد، لايمكن أن يديره أشخاص فصاميون. ومع ذلك يمكن أن يديره على مايرام أشخاص يعانون من فصام الحدّ الأدنى، وهم أشخاص قادرون تماماً على إدارة الأمور التي تُدار إذا كان المجتمع يؤدي وظيفته. وهؤلاء الناس لم يفقدوا القدرة على النظر إلى العالم «واقعياً»، شريطة أن نعني بذلك تصوّر الأمور عقلياً كما هم بحاجة إلى أن يتصورهم الآخرون ليتعاملوا معهم عاطفياً. وقد لايكونون قد فقدوا كلياً قدرتهم علي خبرة الأشياء شخصياً، أي ذاتياً، ومن قلوبهم. ويمكن للشخص مكتمل النمو أن يرى وردة، مثلاً، ويَخبرُها على أنها ناشرة للدفء أو ملتهبة (وإذا صاغ هذه الخبرة في كلمات فقد ندعوه شاعراً)، ولكنه يعلم كذلك أن الوردة- في مجال الواقع الفيزيائي- لاتُدفىء كما تُدفىء النار. والإنسان الحديث لايخبُر العالم إلا من حيث غاياته العملية. ولكن نقصه ليس أقل من نقص من يسمى الشخص المريض الذي لايستطيع أن يَخبرُ العالم «موضوعياً»، ولكنه احتفظ بالمقدرة الإنسانية الأخرى عن الخبرة الشخصية، الذاتية، الرمزية.

وأعتقد أن سپينوزا في كتابه «فلسفة الأخلاق»، أول من عبّر عن مفهوم «الجنون» الطبيعي:

تستحوذ على الكثيرين من الناس العاطفة نفسها باتّساق شديد. فتكون حواسّه كلها شديدة التأثّر بشيء إلى حد أنه يعتقد أن الشيء موجود ولو لم يكن موجوداً. وإذا حدث هذا الأمر عندما يكون الشخص مستيقظاً، يُعتقد أن الشخص مجنون... ولكن إذا لم يفكر الشخص *الجشع* إلا في المال والممتلكات، ولم يفكر *الطامح* إلا في الشهرة، فلايعتقد المرء أنهما مجنونان، بل مجرد أنهما مزعجان؛ ويكون لدى المرء احتقار لهما عموماً. ولكن الجشع والطموح وما إلى ذلك هي *بالفعل* من أشكال الجنون، على الرغم من أن المرء لايعتقد في العادة أنها «مرض». (B.de Spinoza,1927)

ويغدو التحول من القرن السابع عشر إلى عصرنا واضحاً في أن الموقف الذي يقول سپينوزا إنه «يكون لدى المرء احتقار ... [له] عموماً» لايُعَدّ اليوم محتقراً بل جديراً بالثناء.

وعلينا أن نتـــخـــذ خطوة أخـــرى. إن «أمـــراض الحـــالة الســـوية» (E.Fromm,1955) نادراً ما تتدهور إلى الأشكال الخطيرة من المرض الذهني لأن المجتمع يُنتج الترياق المضاد لهذا التدهور. وعندما تصبح السيرورات المرَضية محتذاة اجتماعياً، تفقد خصيصتها الفردية. بل على العكس، فإن الفرد المريض يجد نفسه في بيته مع كل الأفراد الآخرين المصابين بأمراض تشبه مرضه. والثقافة الكلية مرتصفة مع هذا النوع من الأحوال المرَضية وتدبّر الوسائل لتقديم الإشباعات التي تلائم الأحوال المرَضية. والنتيجة أن الفرد العادي لايعيش تجربة الانفصال والانعزال التي يشعر بها الشخص الفُصامي تماماً. وهو يستأنس بالذين يقاسون من التشوّه ذاته؛ وفي الواقع، فإن الشخص السوي تماماً هو الذي يشعر بالعزلة في المجتمع غير السوي- وقد يعاني كثيراً من العجز عن التواصل بحيث هو الذي قد يصبح ذُهانياً.

وفي سياق هذه الدراسة كان السؤال الحاسم هو هل اضطراب الحالة الشبيهة بالانسحاب أم اضطراب فُصام الحد الأدنى سوف يساعدنا على تفسير بعض العنف المنتشر اليوم. نكاد نكون اليوم في حالة التأمل الخالص، ونحن بحاجة إلى المزيد من الأبحاث والمعطيات الجديدة. ومن المؤكد أن في الانسحاب من الواقع يوجد قدر كبير من التدميرية، ولكننا لانعلم إلى الآن هل ينطبق هذا الصنف على موضوعنا. أما فيما يتعلق بالسيرورات الفُصامية، فمن شأن الجواب أن يكون واضحاً قبل خمسين سنة. فقد كان يُفترض عموماً أن المرضى الفصاميين عنيفون، وأنهم لهذا السبب بحاجة إلى أن يوضعوا في مؤسسات لايستطيعون الفرار منها. والتجارب مع الفُصاميين المزمنين الذين يعملون في المزارع أو بإدارتهم (كما رتّب

لانغ الأمر في لندن) قد أثبتت أن الشخص الفُصامي نادراً ما يكون عنيفاً، عندما يُترك في سلام. [١]

ولكن فُصامي الحد الأدنى «العادي» شخص لايُترك وحده. بل يتم دفعه واعتراضه، وتُخدش حساسياته عدة مرات في اليوم، ولذلك نستطيع بالفعل أن نفهم أن مرض الحالة السوية هذا يُحدث التدميرية في الكثير من الأفراد. وأقلّها، ولاريب، عند الذين هم متكيّفون مع النظام الاجتماعي على أفضل ما يكون التكيف، وأكثرها عند الذين لايكافؤون اجتماعياً وليست لهم مكانة ذات معنى بالنسبة إليهم في البنية الاجتماعية وهم: الفقراء والسود والشبان والعاطلون عن العمل.

وكل هذه التأملات حول الصلة بين سيرورات فصامي الحد الأدنى (والمنسحبين من الواقع) والتدميرية لابد أن تُترك غير محلولة في هذه المرحلة. وفي مآل الأمر سوف يُفضي البحث إلى مسألة هل توجد أية صلة بين بعض أنواع السيرورات الفُصامية والنكروفيليا. ولكن على أساس معرفتي وخبرتي لاأستطيع أن أمضي إلى أكثر من إثارة المسألة على أمل أن تثير الآخرين للمزيد من الدراسات. وعلينا أن نكون راضين أن نُعلن أن أجواء الحياة العائلية التي ثَبَت أنها محدِثة للفُصام تشبه الجو الاجتماعي الذي يُحدِث النكروفيليا شبهاً دقيقاً. ولكن لابد من إضافة كلمة. إن التوجّه أحادي التفكير عاجز عن تصوّر الأهداف التي

---

١ - إن صورة الأطفال المنسحبين من الواقع مختلفة بعض الشيء. فعندهم يبدو أن التدميرية الشديدة أكثر حدوثاً. ولتفسير الاختلاف يمكن أن يكون من المفيد أن نفكر في أن المريض الفُصامي قد قطع صلاته بالواقع الاجتماعي، ومن ثم فهو لايشعر أنه مهدَّد، وفي النتيجة غير ميّال إلى العنف، إذا تُرك وحيداً. أما الطفل المنسحب من الواقع فلايُترك وحيداً. ويحاول أبواه أن يجعلاه يلعب لعبة الحياة العادية ويقتحمان عالمه الخاص. وبالإضافة إلى ذلك، وبحكم عامل العمر، يُرغَم الطفل على المحافظة على روابطه مع أسرته ولايمكن أن يُطيق الانسحاب التام، إن جاز التعبير. وقد تُحدِث هذه الحالة كراهية شديدة وتدميرية تعلّل تكرار العنف عند الأطفال المنسحبين أكثر من العنف عند الأفراد الفصاميين البالغين إذا تُركوا وحدهم. ولاريب أن هذه التأملات افتراضية جداً وهي بحاجة إلى أن يؤيدها أو يرفضها المختصون في هذا المجال.

ترفد نمو أعضاء المجتمع وترفد بقاءه. والعقل مطلوب لصياغة هذه الأهداف، والعقل هو أكثر من مجرد الذكاء؛ وهو لاينشأ إلا عندما يتّحد الدماغ والقلب، أي يندمج الشعور مع التفكير، وعندما يكون كلاهما عقلياً (بالمعنى الذي سبق عرضه). وفقدان القدرة على التفكير على أساس الرؤى البنّاءة هو في ذاته تهديد خطير للبقاء.

وإذا توقّفنا هنا، فإن الصورة ستكون ناقصة وغير جدلية. وبالتزامن مع النمو النكروفيلي المتزايد، ينمو كذلك الاتجاه المعاكس، اتجاه محبة الحياة. وهو يتجلى في أشكال كثيرة: في الاحتجاج على إماتة الحياة، وهو احتجاج أناس من كل طبقات المجتمع ومن مختلف الأعمار، ولكنه يصدر بصورة خاصة عن الشباب. وثمت أمل في الاحتجاج المتصاعد على التلوّث والحرب؛ وفي الاهتمام المتزايد بنوعية الحياة؛ وفي موقف الكثيرين من المحترفين الشباب الذين يفضّلون العمل الذي له معنى وأهمية على الدخل المرتفع والجاه؛ وفي البحث واسع الانتشار عن القيم الروحية- مع أنه كثيراً ما يكون مضلّلاً وساذجاً. وهذا الاحتجاج يمكن أن نفهمه كذلك في الانجذاب إلى المخدّرات بين الشبان، على الرغم من محاولتهم المغلوط فيها لبلوغ حيوية أكبر باستخدام طرق المجتمع الاستهلاكي. وقد تجلّت النزعات المضادة للنكروفيليا كذلك في التحولات الإنسانية- السياسية التي حدثت فيما يتصل بحرب ڤييتنام. وتُظهر هذه الأحوال وأمثالها أن محبة الحياة ولو أنها يمكن أن تُكبت بعمق، فإن ما هو مكبوت ليس ميتاً. ومحبة الحياة خصيصة في الإنسان ممنوحة بيولوجياً بقوة شديدة بحيث يجب أن يفترض المرء أنها، بقطع النظر عن الأقلية الصغيرة، يمكن على الدوام أن تأتي إلى المقدمة، على الرغم من أنها لاتبرز إلا في الظروف الشخصية والتاريخية الخاصة. (ويمكن أن تحدث في العملية التحليلية النفسية، أيضاً.) وبالفعل، فإن وجود النزعات المضادة للنكروفيليا وازديادها هما الأمل الوحيد الذي لدينا أن ذلك الاختبار العظيم، الذي هو

«الإنسان العاقل» Homo sapiens ، لن يسقط . وأعتقد أنه ليس ثمت بلد فيه الفرص لإعادة تأكيد الحياة هذا أكبر مما هي في البلد الأكثر تقدّماً من الوجهة التقنية، وهو الولايات المتحدة، حيث ثبت أن الأمل في أن يأتي ازدياد «التقدم» بالسعادة هو وهم بالنسبة إلى معظم الناس الذين واتتهم الفرصة ليذوقوا طعم «الفردوس» الجديد. ولاأحد يدري هل سيحدث مثل هذا التغيرّ الجوهري. والقوى التي تعمل ضده هائلة ولاداعي إلى التفاؤل. ولكنني أعتقد أن ثمت مسوّغاً للأمل.

فرضية حول سفاح الحُرُم وعقدة أوديب

لاتزال معرفتنا حول الشروط التي تُسهم في نشوء النكروفيليا محدودة جداً ولن يلقي إلا المزيد من البحث المزيد من الضوء على هذه المشكلة. وقد يكون من المأمون أن نفترض أن كل بيئة عائلية نكروفيلية ضعيفة الحيوية سوف تكون في الكثير من الأحيان عاملاً مسهماً في تشكّل النكروفيليا. ومن المؤكد أن لانعدام الإثارة المنعشة، وغياب الأمل، والروح التدميرية للمجتمع في كليته أهمية حقيقية في تغذية النكروفيليا. وفي رأيي أن القول بأن العوامل الوراثية تؤدي دوراً في تشكيل النكروفيليا محتمل جداً.

وأود فيما يلي أن أقدّم فرضية تتعلق بما أعتقد أنه يمكن أن يكون الجذور الأولى للنكروفيليا، وهي فرضية تأمّلية ولو أنها قائمة على ملاحظة عدد من الحالات وتدعمها مادة كافية من مجالي الأسطورة والدين. وأعتقد أنها ذات أهمية كافية لتكون جديرة بالتقديم إذا تذكرنا صفتها التجريبية.

وتُفضي بنا هذه الفرضية إلى ظاهرة يبدو أنها، لدى الوهلة الأولى على الأقل، ذات صلة ضئيلة بالنكروفيليا: هي ظاهرة سفاح الحُرُم التي أصبحت مألوفة جداً من خلال مفهوم فرويد لعقدة أوديب. وعلينا أولاً أن نأخذ لمحة وجيزة عن المفهوم الفرويدي لكي نضع الأساس لمايلي.

وفقاً للمفهوم الكلاسيكي فإن صبياً صغيراً في الخامسة أو السادسة من العمر يختار أمه موضوعاً لرغباته الجنسية (القضيبية) («المرحلة القضيبية»). وحين نأخذ علماً بوضع الأسرة، نرى أن ذلك يجعل أباه مزاحماً مكروهاً. (إن المحللين النفسيين الأرثوذكسيين قد غالوا في تقدير كره الصبي الصغير للأب. والعبارات التي هي من قبيل: «عندما يموت أبي سأتزوج أمي»، والتي تُنسب إلى الصبيان الصغار وكثيراً مايُستشهد بها دليلاً على تمنياتهم موت الأب، يجب ألا تُفهم حرفياً، لأن الموت في هذا العمر لايُشعَر به بعدُ على أنه واقع تماماً، بل يُفهم منه على أنه مرادف لـ «الابتعاد». وعلاوةً، ومع وجود بعض التنافس مع الأب، فإن المصدر الأساسي للعداء العميق يكمن في التمرد على السلطة الأبوية القمعية. [E.Fromm,1951]. وفي رأيي أن إسهام «الكره الأوديبي» في التدميرية ضئيل نسبياً.) ومادام لايستطيع أن يتخلص من أبيه يصبح خائفاً منه- يخشى على الخصوص أن يُخصيه أبوه، يُخصي منافسه الصغير. وهذا «الخوف من الخصاء» يجعل الصبي يتخلى عن رغباته الجنسية نحو أمه.

وفي النشوء الطبيعي يكون الابن قادراً على تحويل اهتمامه إلى نساء أخريات، ولاسيما بعد أن يبلغ النمو الجنسي -التناسلي الكامل- في وقت البلوغ تقريباً. وهو يتغلّب على تنافسه مع أبيه بالتماثل معه وخصوصاً مع أوامره ونواهيه. وتنغلّ معايير الأب في ذات الابن وتصبح أناه الأعلى. وفي أحوال النشوء المرَضي لاينحلّ النزاع على هذا النحو. فلايتخلّى الابن عن ارتباطه الجنسي بأمه وفي حياته بعدئذ ينجذب إلى النساء اللواتي يؤدين الوظيفة التي كانت الأم تؤديها. وفي النتيجة يكون عاجزاً عن الوقوع في حب امرأة من سنّه ويظل خائفاً من تهديدات الأب أو بدائل الأب. وهو في العادة يتوقّع من بدائل الأم الخصائص التي أظهرتها له أمه فيما مضى: الحب غير المشروط، والحماية، والإعجاب، والأمن.

وهذا النمط من الرجال مفرطي التعلّق بالأم معروف جيداً؛ إنهم عطوفون

وبمعنى مقيّد للحب «محبون»، ولكنهم كذلك نرجسيون تماماً. وشعورهم بأنهم أكثر أهمية عند أمهم من أبيهم يجعلهم يحسّون بأنهم «مدهشون»، ومنذ أن يشبّوا لايحتاجون إلى القيام بأي عمل في الواقع لإثبات عظمتهم؛ فهم عظماء لأن الأم (أو بديلها)- ومادامت- تحبهم حصراً ومن دون شروط. وفي النتيجة يغلب عليهم أن يكونوا غيورين إلى أقصى حد- فهم يجب أن يحافظوا على وضعهم الفريد- وهم في الوقت ذاته مضطربون وقلقون كلما اضطروا إلى إنجاز مهمة حقيقية؛ ومع أنهم يمكن ألا يخفقوا، فإن إنجازهم الفعلي قد لايكون مساوياً حقاً لاقتناعهم النرجسي بتفوقهم على أي إنسان (في حين لديهم في الوقت نفسه إحساس لاشعوري ملّح بدونيتهم تجاه كل الناس). والنمط الذي وصفته الآن هو الحالة الأكثر تطرفاً. وهناك الكثيرون من الرجال المتعلقين بالأم يكون ارتباطهم بالأم أقل شدة، ويكون فيهم الوهم النرجسي بالإنجاز مرتبطاً بالمنجزات الواقعية.

وقد افترض فرويد أن ماهية الارتباط بالأم هي انجذاب الصبي الصغير إليها، وأن بغض الأب هو النتيجة المنطقية. وكان من شأن ملاحظاتي، عبر سنوات كثيرة، أن تؤكد اقتناعي بأن الارتباط الجنسي بالأم ليس على وجه العموم هو سبب الرابطة العاطفية الشديدة. ومع أن محدودية المجال لاتسمح بالبحث الكامل في هذا الاقتناع، فإن الملاحظات التالية قد تساعد على إيضاح أحد جوانبه على الأقل.

عند الولادة، وبعد الولادة بوقت قصير، يحدث ارتباط الوليد بالأم في إطار مرجعي نرجسي أساساً (مع أن الطفل سرعان ما يبدأ في إظهار بعض الاهتمام بموضوعات خارج نفسه وبعض الاستجابة لها). وبينما يكون للوليد من الناحية البدنية وجود مستقل، فهو من الناحية السيكولوجية يظل يعيش حياة «داخل الرحم» من بعض الوجوه وإلى حد ما. فهو يظل يعيش من خلال الأم: فهي تغذيه، وتُعنى به، وتثيره، وتمنحه الدفء- البدني والانفعالي- الذي هو شرط النمو الصحي. وفي عملية ازدياد النمو يغدو ارتباط الوليد بأمه أشد حرارة، وأكثر

شخصية إن جاز القول؛ وهي تتحول من كونها بيتًا شبيهاً بداخل الرحم إلى شخص يشعر الطفل نحوه بالعاطفة الدافئة. وفي هذه العملية يخترق الصبي الصغير الصَّدَفة النرجسية؛ ويحبّ أمه، ولو أن هذا الحب مازال يتصف بعدم المساواة والتبادل ويتلّون بالاعتماد الأصلي. وفي الفترة التي يبدأ فيها الصبي الصغير يستجيب جنسياً (في المرحلة القضيبية عند فرويد) فإن الإحساس العاطفي نحو الأم يؤدي كذلك إلى الرغبة الشهوانية والجنسية فيها. ومهما يكن، فالانجذاب الجنسي إلى الأم لايكون في العادة حصرياً. وكما يذكر فرويد نفسه، وعلى سبيل المثال في تاريخ حالة هانس الصغير (S.Freud 1909)، فإن انجذابهم الجنسي إلى أمهاتهم يمكن أن يلاحَظ في الصبيان الصغار الذين هم في زهاء الخامسة من العمر، ولكنهم في الوقت نفسه يكونون منجذبين بالقدر نفسه إلى الفتيات اللواتي من أعمارهم. وليس هذا بالمدهش؛ وإنها لحقيقة تمّ إثباتها جيداً وهي أن الدافع الجنسي في حد ذاته لايكون مرتبطاً حصراً بموضوع واحد، بل هو متقلّب إلى حد ما؛ وما يمكن أن يجعل العلاقة بشخص واحد شديدة ودائمة هو وظيفتها العاطفية. وفي تلك الأحوال التي يظل فيها التعلّق بالأم قوياً بعد البلوغ وطيلة الحياة، يكمن السبب في قوة الصلة العاطفية بها.

وبالفعل، فإن التعلّق بالأم ليس مجرد مشكلة نشوئية عند الطفل. ومن المؤكد أن الطفل يكون مرغماً على الاعتماد التواكلي على الأم لأسباب بيولوجية واضحة. ولكن الطفل، بينما هو قادر على أن يتولى أمر نفسه بدنياً، يجد نفسه كذلك في وضع المفتقر إلى العون وإلى القدرة وهو الوضع الذي له جذوره، كما أظهرنا من قبل، في شروط الوجود الإنساني. ونحن لانفهم قدرة عاطفة التشبّث بالأم إلا إذا رأينا جذوره لافي مجرد الاتكال الطفولي بل في «الوضع البشري». والصلة العاطفية بالأم شديدة جداً لأنها تمثّل إحدى الإجابات عن الوضع الوجودي: الرغبة في العودة إلى «الفردوس» حيث لم تنشأ الإدراكات الوجودية

بعد- حيث يستطيع الإنسان أن يعيش من دون إدراك ذاتي، ومن دون عمل، ومن دون معاناة، في انسجام مع الطبيعة، هو وزوجه. وبالبعد الجديد للإدراك (شجرة معرفة الخير والشر)، يأتي النزاع إلى الوجود ويُلعَن الإنسان- الذكر والأنثى. ويُطرد الإنسان من الفردوس ولايُسمح له بأن يعود. أليس مدهشاً أنه لم يفقد رغبته في العودة، ولو أنه «يعرف» أنه لايستطيع القيام بذلك مادام يحمل العبء في أنه إنسان؟

إن الجانب الجنسي في الانجذاب إلى الأم هو في ذاته علامة إيجابية. إنه يظهر أن الأم قد أصبحت شخصاً، امرأة، وأن الصبي هو الآن رجل صغير. وما نجده في بعض الأحوال من اشتداد الانجذاب الجنسي بصورة خاصة قد يُعدّ دفاعاً للحماية من ازدياد الاتكال الطفلي السلبي. وفي تلك الأحوال التي لاتُحلّ فيها الصلة السِّفاحية بالأم في زهاء سن البلوغ [1] وتدوم طيلة الحياة، فإننا نتعامل مع نشوء عُصابي؛ فسيبقى الطفل متكلاً على الأم أو بدائلها، وكثيراً ما تسبّب مثل هذا النشوء أمٌّ هي، لأسباب مختلفة- كعدم حبها لزوجها، أو فخرها النرجسي بابنها أو تملكها له- بالغة الجاذبية لصبيّها الصغير وبطرق شتى (التدليل، الإفراط في الحماية، الإفراط في الإعجاب، وهلم جرا) تغريه بأن يصبح شديد الانجذاب إليها. [2]

وهذه الصلة الإيروسية الدافئة والمشوبة بالجنس غالباً هي ما كانت في ذهن

١- إن لطقوس الابتداء وظيفة قطع هذه الصلة والإيذان بالانتقال إلى حياة البالغين.

٢- كان فرويد في احترامه لتقاليد الحياة البرجوازية، يبرّئ بصورة منتظمة آباء أطفاله المرضى من القيام بأي شيء يؤذي الطفل. فكان يُفترض أن كل شيء، بما في ذلك الرغبات في سفاح الحُرُم، إنما هو جزء من أخيولة الطفل الصغير من دون أية استثارة، راجع (E.Fromm (1970 b. وهذه الدراسة قائمة على البحث الذي قام به محللو المعهد المكسيكي للتحليل النفسي، وهم مجموعة تتألف، بالإضافة إلى المؤلف من الدكاترة F.Narváez Manzano, Victor F.Savedra Mancera, L.Santarelli Carmelo, J.Silva Garcia, and E.Zajur Dip.

فرويد عندما وصف «عقدة أوديب». ومع أن هذا النمط من التعلّق السفاحي بالحُرُم هو الأكثر حدوثاً، فهناك نوع آخر من التعلّق السفاحي بالحُرُم أقل حدوثاً وله خصائص مختلفة ويمكن أن ندعوه نوعاً خبيثاً. وإن هذا النمط من التعلّق السفاحي بالحُرُم هو، في ظني، ما يرتبط بالنكروفيليا- وفي الواقع قد يعدّ جذراً من أقدم جذورها.

وأنا أتحدث عن الأطفال الذين لاتظهر عندهم وشائج عاطفية تشدّهم إلى الأم لاختراق صَدَفَة الاكتفاء الذاتي المنسحب من الواقع. ونحن مطّلعون على الأشكال المتطرفة من مثل هذا الاكتفاء الذاتي في حالة الأطفال المنسحبين من الواقع. [1] وهؤلاء الأطفال لم يخرجوا من صَدَفَة نرجسيتهم؛ وهم لايَخبرون أمهم بوصفها موضوعاً للمحبة؛ ولايشكلون أي ارتباط عاطفي بالآخرين، بل بالأحرى، ينظرون إليهم وكأنهم أشياء غير حية، وهم كثيراً مايُظهرون اهتماماً خاصاً بالأشياء الآلية (الميكانيكية).

ويبدو أن الأطفال المنسحبين من الواقع يشكلون أحد قطبي السلسلة المتصلة- وفي القطب الآخر يمكن أن نحدّد الأطفال الذين تكون عاطفتهم نحو أمهم ونحو الآخرين تامة النمو. ويبدو من المعقول افتراضه أننا نجد في هذه السلسلة أطفالاً ليسوا منسحبين من الواقع، ولكنهم قريبون من ذلك، ويُظهرون خصال الأطفال المنسحبين بطريقة أقل عنفاً. والسؤال الذي ينشأ هو: ماذا يحدث للتعلق السفاحي بالأم في الأطفال المنسحبين من الواقع أو القريبين من ذلك.

إنه يبدو أن أمثال هؤلاء الأطفال لايظهرون مشاعر إيروسية دافئة، ومن ثم جنسية، نحو الأم، أو أن لديهم الرغبة في أي وقت في أن يكونوا بالقرب منها. ولايقعون فيما بعد في حب بدائل الأم. فالأم عندهم رمز: فهي بالأحرى طيف

1- cf.E.Bleuler (1951); H.S.Sullivan (1953); J.Gosliner (1955); L.Bender (1927); M.R.Green and D.E.Schecter (1957).

وليست شخصاً. وهي رمز للأرض والبيت والدم والعرق والأمة والتربة العميقة التي منها تبزغ الحياة وإليها تعود. ولكنها كذلك رمز للفوضى الشاملة والموت؛ وهي ليست الأم مانحة الحياة، بل الأم مانحة الموت؛ فعناقها موت، ورحمها قبر. والانجذاب إلى الأم- الموت لايمكن أن يكون عطفاً أو حباً؛ وهو ليس انجذاباً بالمعنى السيكولوجي الشائع الذي يدلّ على شيء سارّ أو دافئ، بل بالمعنى الذي يتحدث به المرء عن الانجذاب المغناطيسي أو الانجذاب إلى الجاذبية الأرضية. والشخص المرتبط بالأم بروابط سفاح الحُرُم الخبيثة يظل نرجسياً، بارداً، غير مستجيب؛ وهو منجذب إليها كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس؛ وهي المحيط الذي يود أن يغرق فيه[1]، والأرض التي يود أن يُدفَن فيها. ويبدو أن سبب هذا النشوء أن حالة العزلة النرجسية المطبِقة لاتطاق؛ وإذا لم يكن هناك سبيل إلى الارتباط بالأم أو بدائلها بالروابط الدافئة الممتعة، فلامناص من أن يصبح الارتباط بها وبالعالم بأسره هو رباط الاتحاد النهائي في الموت.

والدور المزدوج للأم بوصفها إلهة الخلق وإلهة الدمار موثَّق جيداً في الكثير من الأساطير والأفكار الدينية. فالتراب نفسه الذي يُصنَع منه الإنسان، وهو الرحم الذي تولد منه كل الأشجار والأعشاب، هو المكان الذي يُعاد إليه الجسد؛ فرحم الأرض الأم يصير القبر. والمثال الكلاسيكي على هذه الأم الإلهة ذات الوجهين هو الإلهة الهندية «كالي» Kali، مانحة الحياة والمدمرة. وتوجد كذلك ربات العصر الحجري الأخير اللواتي لهن ازدواجية الوجه نفسها. وسوف يستغرق حيزاً كبيراً أن نستشهد بالأمثلة الكثيرة الأخرى على الدور المزدوج للربات الأمهات. ولكن لابد من ذكر معلومة أخرى تقدّم الوظيفة المزدوجة للأم: إنها صورة الأم ذات الوجهين في الأحلام. وبينما من الممكن في الكثير من الأحلام أن تظهر الأم بوصفها شخصاً خيراً، كلي المحبة، فإنها في أحلام الكثيرين من الأشخاص يُرمَز إليها بحية خطرة، أو حيوان خطر سريع الانقضاض، كالأسد أو النمر أو الضبع. وقد وجدتُ سريرياً

---

١ - لقد رأيت عدداً من هذا النمط من المرضى بسفاح الحُرُم الذين يتوقون إلى أن يغرقوا في المحيط، وهو رمز متكرر للأم.

أن الخوف من الأم التدميرية أشد بكثير من الخوف من الأب المعاقِب المُخصي. ويبدو أن المرء يستطيع أن يتّقي الخطر القادم من الأب بالطاعة؛ ولكن لاحيلة للمرء يدافع بها عن نفسه في وجه الأم التدميرية؛ فلايمكن كسب محبتها، مادامت محبتها غير مشروطة؛ ولايمكن دفع بغضها، مادام لاتوجد «أسباب» له أيضاً. فمحبتها نعمة، وكراهيتها لعنة، ولايخضع أيهما لتأثير متلقّيهما.

وفي الختام يمكن أن يقال إن **نزعة سفاح الحُرُم غير الخبيثة هي في ذاتها مرحلة من مراحل النشوء عادية مؤقتة، أما نزعة سفاح الحُرُم الخبيثة فهي ظاهرة مَرَضية تحدث عندما تحول شروط معينة دون نشوء روابط سفاح الحُرُم غير الخبيثة**. وأنا أرى، افتراضياً، أن الثانية هي أحد الجذور الأولى للنكروفيليا، إذا لم تكن جذرها.

وهذا الانجذاب السفاحي إلى الموت، حيث يوجد، هو عاطفة على صراع مع كل الدوافع الأخرى التي تقاتل في سبيل حفظ الحياة. ومن ثم فهي تعمل في الظلام وهي في العادة لاشعورية تماماً. والشخص الذي له هذه النزعة السفاحية الخبيثة سوف يحاول أن يتصل بروابط أقل تدميرية، كالسيطرة السادية على الآخرين أو إشباع النرجسية بالحصول على الإعجاب غير المحدود... وإذا وفّرت له حياتُه حلولاً مُرضية نسبياً كالنجاح في العمل، والجاه، وما إلى ذلك، فقد لايُعبَّر عن التدميرية بصراحة بأية طريقة من الطرق الرئيسة. أما إذا كابد الإخفاق، مثلاً، فإن الميول الخبيثة سوف تأتي إلى المقدمة وصورة التدمير- تدمير نفسه والآخرين- سوف تكون لها السيادة العليا.

وعلى حين أننا نعرف قدراً كبيراً عن العوامل التي تسبّب نزعة سفاح الحُرُم غير الخبيثة، فنحن نعرف قليلاً عن الشروط المسؤولة عن الانسحاب الطفلي من الواقع، ومن ثم عن نزعة سفاح الحُرُم الخبيثة. ولايسعنا إلا أن نتأمل في اتجاهات مختلفة. ولايمكن أن نتجنّب افتراض أن العوامل الوراثية يجب أن تكون لها علاقة بالموضوع؛ ولاشك أنني لاأشير إلى الوحدات الوراثية (الجينات) المسؤولة عن هذا

النمط من سفاح الحُرُم، بل إلى الميل الطبيعي الموروث إلى البرودة التي هي من ثم مسؤولة عن إخفاقه في إظهار الارتباط الدافئ بالأم. ونتوقع أن نجد الشرط الثاني في طبع الأم. فإذا كانت هي نفسها شخصاً بارداً، رافضاً، نكروفيلياً، فستجعل من الصعب على الطفل أن يُظهر العلاقة العاطفية الدافئة بها. ولكن علينا أن نعتبر أننا لانستطيع أن ننظر إلى الأم والطفل في سيرورة تفاعلهما. والطفل الذي لديه ميل طبيعي قوي إلى الدفء فإنه إما أن يُحدث تغييراً في موقف الأم وإما أن يرتبط ارتباطاً دافئاً ببديل عن الأم: الجدة أو الجد، أو شقيقة كبيرة أو شقيق كبير، أو أي شخص آخر يمكن أن يكون موجوداً. ومن جهة أخرى، فإن الطفل البارد قد تؤثر فيه أو تغيّره أم ذات دفء واهتمام أكثر من العادي. ومن الصعب كذلك في بعض الأحيان تبيّن برودة الأم الجوهرية نحو الطفل عندما تكون مموّهة بالملامح التقليدية للأم الحلوة والمحبّة.

والإمكان الثالث هو التجارب الصادمة في السنوات الأولى من حياة الطفل التي تخلق كرهاً فاعلاً وامتعاضاً إلى درجة أن الطفل «يتجمد» وبذلك تنشأ عنده النزعة السفاحية الخبيثة. وينبغي أن يكون المرء متنبّهاً على الدوام لهذه الإمكانات. ولكن لدى البحث عن التجارب الصادمة لابد أن يكون واضحاً أنها يجب أن تكون استثنائية إلى حد ما. وفي الكتابات المستشهد بها آنفاً، يُقدَّم عدد من الفرضيات القيّمة حول نشوء الانسحاب من الواقع والفُصام الباكر وهي تؤكد الوظيفة الدفاعية للانسحاب من الواقع في وجه الأم التطفّلية.

وهذه الفرضية المتعلقة بنزعة سفاح الحُرُم الخبيثة ودورها بوصفه جذراً قديماً للنكروفيليا تحتاج إلى المزيد من الدراسة.[1] وسأقدّم في الفصل التالي، فصل تحليل هتلر، مثالاً على التعلّق السفاحي بالأم، الذي يمكن أن تفسَّر خصائصه على خير ما يكون على أساس هذه الفرضية.

---

١ - أنوي أن أنشر نصاً أطول وأكثر توثيقاً مما قُدِّم هنا بصورة إجمالية مختصرة.

علاقة غريزتي الحياة والموت عند فرويد بالبيوفيليا والنكروفيليا

قد يكون من المسعف لختام هذا البحث في النكروفيليا والبيوفيليا biophilia (محبة الحياة) تقديم مجمل موجز عن علاقة هذا المفهوم بمفهوم فرويد لغريزة الموت وغريزة الحياة (الإيروس Eros). إن سعي الإيروس يتجه إلى توحيد المواد العضوية في وحدات أكبر دائماً، في حين تحاول غريزة الموت عزل البنية الحية وتفكيكها. ولاتحتاج علاقة غريزة الموت بالنكروفيليا إلى مزيد من التوضيح. ولكن لشرح العلاقة بين غريزة الحياة والبيوفيليا من الضروري تقديم توضيح قصير للبيوفيليا.

إن البيوفيليا هي المحبة العاطفية للحياة ولكل ما هو حي؛ إنها الرغبة في المزيد من النمو، سواء في الشخص أو في النبات، أو الفكرة، أو الجماعة الاجتماعية. والشخص البيوفيلي يفضّل أن يبني على أن يحتفظ. وهو يفضّل أن يكون أكثر على أن يملك أكثر. وهو قادر على التساؤل، وهو يؤثِر أن يرى شيئاً جديداً على أن يجد تأكيداً للقديم. وهو يرى الكل وليس مجرد الأجزاء، والبنى وليس المجاميع. ويريد أن يصوغ ويؤثّر بالحب، والعقل، والمثال؛ لابالقوة، ولا بتقطيع الأشياء وفصل بعضها عن بعض، ولابالطريقة البيروقراطية في إدارة الناس كأنهم أشياء. ولأنه يستمتع بالحياة وكل تبدّياتها فهو ليس مستهلكاً عاطفياً لـ«الإثارة» المحزومة حديثاً.

والأخلاق البيوفيلية لها مبدؤها في الخير والشر. فالخير هو كل ما يخدم الحياة؛ والشر هو كل ما يخدم الموت. والخير هو إجلال للحياة، [1] وكل ما يزيد من الحياة ونموها وتفتّحها. والشر هو كل ما يخنق الحياة، ويضيّقها، ويقطّعها قطعاً.

ولايكمن الاختلاف بين مفهوم فرويد والمفهوم المقدَّم هنا في جوهرهما بل في أن لكلتا النزعتين في مفهوم فرويد المرتبةَ نفسها، إن جاز التعبير، فكلتاهما

١- هذه هي الفرضية الأساسية عند ألبرت شفايتسر Albert Schweizer وهو واحد من أكبر ممثلي محبة الحياة- سواء في كتاباته أو في شخصه.

ممنوحتان بيولوجياً. ومن جهة أخرى، تُفهم البيوفيليا بالرجوع إلى الدافع الطبيعي البيولوجي، أما النكروفيليا فتُفهم على أنها ظاهرة نفسية مَرَضية. وتظهر النكروفيليا بالضرورة نتيجة النمو المعرقَل، نتيجة «الشلل» النفسي. وهي نتيجة الحياة غير المعيشة، والإخفاق في الوصول إلى مرحلة معينة تتجاوز النرجسية وعدم الاكتراث. **إن التدميرية ليست مساوية للبيوفيليا بل هي البديل منها. وفي محبة الحياة أو محبة الموت يكمن الخيار الذي يواجه كل إنسان. وتنمو النكروفيليا عندما يعاق نمو البيوفيليا. والإنسان موهوب بيولوجياً بالقدرة على البيوفيليا، ولكنه من الوجهة السيكولوجية لديه الاستعداد للنكروفيليا بوصفها حلاً بديلاً.**

والضرورة النفسية لنمو النكروفيليا نتيجة للشلل يجب أن تُفهم بالرجوع إلى الوضع الوجودي، كما بحثت فيه آنفاً. وإذا لم يستطع الإنسان أن يبدع أي شيء أو يحرك أي شخص، وإذا لم يتمكن من الطلوع من سجن نرجسيته الكلية وعزلته، فهو لايستطيع أن ينجو من الإحساس الذي لايطاق بالعجز الحيوي وانعدام القيمة إلا بتأكيد نفسه بفعل تدمير الحياة التي لايستطيع أن يبدعها. وليس المطلوب الجهد، والصبر، والعناية؛ فكل ما هو ضروري بالنسبة إلى التدمير هو الذراعان القويتان، أو السكين، أو البندقية.[1]

١- كما هو ظاهر بالتفصيل الشديد في بحثي في نظرية فرويد في العدوان في «الملحق»، فإن فرويد في تحوله من المفهومات القديمة إلى التقاطب الجديد، الإيروس- غريزة الموت، قد بدّل فعلاً مفهومه الكلي للغريزة. فقد كان الدافع الجنسي في الصيغة القديمة مفهوماً فيزيولوجياً آلياً تثيره إهاجة المناطق المتعددة المهيجة للشهوة الجنسية، ويؤدي إشباعه إلى تخفيف التوتّر الناجم عن الإهاجة المتزايدة. وعلى العكس من ذلك، فإن غريزتي الموت والحياة، لاترتبطان بأية منطقة خاصة من مناطق الجسم؛ ويفتقران إلى الصفة المتعاقبة للتوتر ← إزالة التوتر ←التوتّر؛ ويجري تصورهما بالمصطلحات البيولوجية والفاعلية الحيوية. ولم يحاول فرويد أن يردم الفجوة بين هذين المفهومين؛ وتحافظ على وحدتهما على المستوى الدلالي هذه المعادلة: الحياة=الإيروس=الدافع الجنسي (الليبيدو). وفي الفرضية المعروضة هنا، فإن المرحلتين السابقة واللاحقة من نظرية فرويد من شأنهما أن تترابطا عبر افتراض أن النكروفيليا هي الشكل الخبيث للطبع الشرجي والبيوفيليا هي الشكل مكتمل النمو للطبع «التناسلي». وحتماً، على الإنسان ألآ ينسى أنني في استخدامي الطبع «الشرجي» (الادخاري) و«التناسلي» (الإنتاجي)، قد حافظت على الوصف السريري عند فرويد، ولكنني تخلّيت عن فكرة الجذور الفيزيولوجية لهاتين العاطفتين.

مبادئ سريرية/منهجية

سوف أختم هذا البحث في النكروفيليا ببعض الملاحظات السريرية والمنهجية العامة.

١- إن وجود خصلة أو خصلتين غير كافٍ لتشخيص الطبع النكروفيلي. وذلك لعدة أسباب. وفي بعض الأحيان فإن سلوكاً معيناً يبدو أنه يدل على النكروفيليا قد لايكون سمة طبع بل يكون ناجماً عن موروث ثقافي أو عوامل أخرى شبيهة بذلك.

٢- من جهة أخرى ليس من الضروري العثور على كل الملامح النكروفيلية المتميزة معاً للقيام بالتشخيص. فهناك عوامل كثيرة، شخصية وثقافية، مسؤولة عن هذا التفاوت؛ ثم إن بعض الخصال النكروفيلية قد لاتُكتشف في الناس الذين ينجحون في إخفائها.

٣- مما له أهمية خاصة أن نفهم أن الأقلية الضئيلة نسبياً هي وحدها النكروفيلية تماماً؛ ويمكن للمرء أن يعتبر أفرادها حالات مَرَضية شديدة ويبحث عن الميل الوراثي إلى هذا المرض. وكما يمكن أن يكون متوقّعاً على أسس بيولوجية، فإن الأكثرية الساحقة ليست خالية تماماً من بعض النزعات النكروفيلية، ولو كانت ضعيفة. وستكون منها نسبة مئوية معيّنة من الناس الذين تكون فيهم النكروفيليا مهيمنة إلى حد يسوّغ لنا أن ندعوهم أشخاصاً نكروفيليين. والعدد الأكبر بكثير هم الذين توجد فيهم الميول النكروفيلية مع الميول البيوفيلية بقوة كافية لخلق نزاع داخلي كثيراً ما يكون مثمراً جداً. والناتج من هذا التنازع على تحريض الشخص يعتمد على الكثير من المتغيرات. ويعتمد قبل كل شيء على الشدة الخاصة بكل ميل؛ ثانياً، على الأوضاع الاجتماعية التي من شأنها أن تقوي أحد التوجّهين الخاصين؛ ثم على الأحداث الخاصة في حياة الشخص التي يمكن أن تستميله إلى هذا الاتجاه أو ذلك. ثم يأتي الأشخاص الذين تهيمن عليهم البيوفيليا بحيث يمكن أن تُردع دوافعهم

النكروفيلية أو تُكبت بسهولة، أو تفيد في إنشاء حساسية ضد النزعات النكروفيلية في أنفسهم وفي الآخرين. وأخيراً توجد جماعة من الناس- وهي كذلك مجرد أقلية ضئيلة- لايوجد فيها أي أثر للنكروفيليا، وهم بيوفيليون أنقياء- يحرّضهم أشد الحب وأنقاه لكل ما هو حي. وألبرت شڤايتسر Albert Schweizer والبابا يوحنا الثالث والعشرون هم من الأمثلة الحديثة المعروفة على هذه الأقلية.

وبالتالي ليس ثمت حد ثابت بين التوجّه النكروفيلي والبيوفيلي. وكما هو الأمر في معظم سمات الطبع الأخرى، توجد اتحادات كثيرة كثرة الأفراد. ولكن ولكل الأغراض العملية، فإنه من الممكن تماماً أن نميز بين الأشخاص الذين تهيمن عليهم النكروفيليا والذين تهيمن عليهم البيوفيليا.

٤- بما أن معظم المناهج التي يمكن أن تُستخدم في اكتشاف الطبع النكروفيلي قد تمّ ذكرها الآن، فإن بوسعي أن أُجملها الآن بإيجاز شديد. إنها: (آ) الملاحظة الدقيقة لسلوك الشخص، ولاسيما منها ما هو غير مقصود، وفي جملتها التعبير الوجهي، واختيار الكلمات، بل كذلك فلسفته العامة، وأهم القرارات التي اتخذها المرء في حياته؛ (ب) دراسة الأحلام، والنكات، والأخيولات؛ (ج) تقويم معاملة الشخص للآخرين، وتأثيره فيهم، ومعرفة نوع الناس الذين يستحبّهم أو يمقتهم؛ (د) استخدام الاختبارات المتعلقة بالمرتسمات مثل اختبار بقعة الحبر عند رورشاخ Rorschach (لقد استخدم م. ماكوبي الاختبار لتشخيص النكروفيليا وتوصّل إلى نتائج مُرضية.)

٥- يكاد لايكون من الضروري أن نؤكد أن النكروفيليين بشدة أشخاص خطرون جداً. إنهم المبغضون، والعنصريون، والذين هم محبّذون للحرب، ولسفك الدماء، والتدمير. وهم خطرون لا إذا كانوا زعماء سياسيين وحسب، بل كذلك بوصفهم كتائب محتملة لزعيم دكتاتوري. إنهم يصيرون منفذي الإعدام، والإرهابيين، والمعذّبين، ولولاهم لما قام أي نظام إرهابي. ولكن النكروفيليين

بشدة أقل مهمون كذلك من الناحية السياسية؛ وبينما قد لايكونون من الموالين الأوائل، فهم ضروريون لوجود النظام الإرهابي لأنهم وإن لم يكونوا أكثرية يشكلّون أساساً متيناً لكسب السلطة والتمسك بها.

٦- إذا أخذنا في الاعتبار هذه الحقائق، ألن يكون من الأهمية الاجتماعية والسياسية الكبيرة بمكان أن نعرف نسبة السكان الذين يمكن أن يعدّوا نكروفيليين بصورة طاغية أو بيوفيليين بصورة طاغية؟ وأن نعرف لاالحدوث الخاص بكل جماعة وحسب بل كذلك كم يرتبط ذلك بالعمر، والجنس، والتعليم، والطبقة، والمهنة، والموقع الجغرافي؟ نحن ندرس الآراء السياسية، والأحكام القيمية، وما إلى ذلك، ونحصل على نتائج مُرضية بالنسبة إلى السكان الأمريكيين باستخدام تقنيات استخدام العيّنات. ولكن النتائج لاتقول لنا إلا ما هي **الآراء** التي لدى الشعب، وليس ما هو **طبعهم**- وبكلمات أخرى ما هي الاقتناعات **الفعالة** التي تحرّضهم. وإذا كنا سندرس عيّنة وافية بالقدر نفسه، ولكن بمنهج مختلف من شأنه أن يسمح لنا بتبيّن القوى اللاشعورية الدافعة والكبيرة وراء السلوك الظاهر والآراء البائنة، فمن شأننا، بالفعل أن نعرف قدراً أكبر عن شدة النشاط واتجاهه في الولايات المتحدة. ونحن يمكن حتى أن نحمي أنفسنا من بعض المفاجآت، التي عندما كانت تحدث، يُعلَن أنها غير قابلة للتفسير. أم أننا لانهتم إلا بالطاقة الضرورية للإنتاج المادي وليس بأشكال الطاقة **الإنسانية** التي هي في ذاتها عامل حاسم في السيرورة الاجتماعية؟

الفصل الثالث عشر

العدوان الخبيث: أدولف هتلر، حالة نكروفيليا سريرية

ملاحظات تمهيدية

تهدف الدراسة السِّيرية- النفسية التحليلية إلى الإجابة عن سؤالين: (١) ما هي القوى الدافعة التي تحرّض الشخص، الأهواء التي تُجبره أو تستميله إلى أن يسلك كما يسلك؟(٢) ما هي الشروط- الداخلية والخارجية- المسؤولة عن نشوء هذه العواطف الخاصة (خصال الطبع)؟ والتحليل التالي لهتلر لديه هذه الأهداف، ولكنه يختلف عن المنهج الفرويدي الكلاسيكي في بعض الأوجه المهمة.

وفي التحليل التالي لطبع هتلر ركّزتُ على النكروفيليا عند هتلر ولم أتناول إلا بالإيجاز الجوانب الأخرى مثل الطبع الاستغلالي وألمانيا بوصفها تمثيلاً رمزياً لشخص الأم.

وأحد الاختلافات التي سبق أن نوقشت ومن ثم لاتحتاج إلا أن تُذكَر باختصار يكمن في فكرة أن هذه العواطف ليست في الأكثر ذات طبيعة غريزية، أو على نحو أشد تخصيصاً، ذات طبيعة جنسية. ويكمن الاختلاف الآخر في الافتراض أننا حتى عندما لانعلم شيئاً عن طفولة الشخص، فإن تحليل أحلامه، وسلوكِه غير المقصود، وإيماءاتِه، ولغته، والسلوكِ الذي لايفسَّر تماماً من الوجهة العقلية يسمح للمرء بتشكيل صورة عن العواطف الأساسية واللاشعورية في

معظمها («مقاربة الشعاع السيني»). وتفسير هذه المعطيات يقتضي التدريب الخاص والبراعة في التحليل النفسي.

وأهم اختلاف هو الاختلاف التالي: إن المحللين الكلاسيكيين يفترضون أن نشوء الطبع ينتهي في سن خمس السنوات أو الست، وأنه لاتحدث بعدئذ تحولات جوهرية إلا بتدخّل المعالجة. وقد أفضت بي خبرتي إلى الاقتناع بعدئذ بأن هذا المفهوم غير منيع؛ فهو ميكانيكي ولايأخذ في الحسبان سيرورة العيش الكلية وسيرورة الطبع بوصفه نظاماً نامياً.

وعندما يولد الفرد لايكون من دون هوية على الإطلاق. فهو لايولد وله مجرد الخصائص الطبيعية المزاجية المحدَّدة وراثياً وغيرها من الميول الموروثة التي لها صلة ببعض خصال الطبع أكثر من غيرها، ولكن حوادث ما قبل الولادة والولادة نفسها تشكل خصائص طبيعية إضافية. إن كل ذلك يكوّن وجه الفرد، إن جاز التعبير. ثم يدخل في اتصال مع نوع خاص من البيئة- تشمل الأبوين وغيرهما من الناس المهمين حوله- تلك البيئة التي يستجيب لها ومن شأن النشوء الإضافي لطبعه أن يتأثّر بها. وعندما يبلغ الوليد ثمانية عشر شهراً من العمر يتشكل طبعه بصورة أكثر تحديداً ورسوخاً بكثير مما كان عند الولادة. ومع ذلك فإن طبعه لم يكتمل، ويمكن أن يتجه نشوؤه في اتجاهات متعددة، اعتماداً على التأثيرات التي تؤثّر فيه. ولنقل إنه في سن السادسة يكون طبعه أكثر تحدّداً وثباتاً بعدُ، ولكنه لاتُعوزه القدرة على التبدل، شريطة أن تحدث ظروف جديدة مهمة يمكن أن تثير هذا التبدل. وإذا تحدثنا بصورة أشد عمومية، فإن تشكّل الطبع وثباته يجب أن يُفهما على أساس المقياس الانزلاقي؛ ويبدأ الفرد الحياة بصفات تستميله إلى أن يسير في اتجاهات معيّنة، ولكن شخصيته تكون بعدُ قابلة للتكيّف بصورة كافية لتسمح للطبع بأن ينمو في اتجاهات مختلفة في الإطار المعيّن. وكل خطوة في الحياة تقلّص عدد النتائج المقبلة الممكنة. وكلما ثبت الطبع، كان لابد من أن يشتد تأثير العوامل الجديدة إذا

كان من شأنها أن تُحدِث تغييرات أساسية في اتجاه التطور الكلي لنظام الشخص. وفي مآل الأمر، تغدو حرية التغيّر في أدنى حدودها بحيث يبدو أنه لايكون إلا من شأن معجزة أن تُحدِث تغييراً.

ولايعني هذا ضمناً أن الطفولة الباكرة ليست من حيث القاعدة أشد تأثيراً من الأحداث اللاحقة. ولكن برغم أنها **تستميل أكثر**، فإنها لا**تحدّد** الشخص تحديداً كاملاً. وللتعويض عن الحد الأعلى لقابلية التأثر في سن باكرة، لابد أن تكون الأحداث اللاحقة أكثر شدّة وإثارة. والانطباع بأن الطبع لايتبدّل قائم إلى حد كبير على أن حياة أكثر الناس مصنوعة من أشياء جاهزة وغير عفوية بحيث لايحدث شيء جديد حقاً، ولايكون للأحداث اللاحقة إلا تأكيد الأحداث الباكرة.

إن عدد الإمكانات لنشوء الطبع في اتجاهات مختلفة يكون في نسبة عكسية مع الثبات الذي اتخذه نظام الطبع. ولكن نظام الطبع من حيث المبدأ لايكون ثابتاً تماماً إلى حد أنه لايمكن أن تحدث تطورات جديدة نتيجة تجارب غير عادية، مع أن حدوث ذلك، إذا تحدثنا إحصائياً، ليس مرجّحاً.

والجانب العملي لهذه الاعتبارات النظرية هو أن المرء لايمكن أن يتوقع أن يجد الطبع كما هو في سن العشرين، فرضاً، تكراراً للطبع كما كان في سن الخامسة؛ وعلى نحو أكثر تخصيصاً، إذا أخذنا هتلر مثالاً، فإن المرء لايمكن أن يتوقّع أن يجد نظام طبع نكروفيلي كامل النمو في طفولته، ولكن يمكن أن يتوقّع العثور على بعض الجذور النكروفيلية المفضية إلى نشوء الطبع النكروفيلي المكتمل بوصفها أمراً من الأمور الممكنة المتعدّدة. ولكن لن ينشأ نظام الطبع على نحو تصبح فيه النكروفيليا نتيجة لاتتبدّل (تقريباً) إلا بعد حصول عدد كبير من الأحداث الداخلية والخارجية، وعندئذ نستطيع أنْ نكتشفها في أشكال عديدة ظاهرة ومستترة. وسأعمد إلى إظهار هذه الجذور الباكرة في تحليل طبع هتلر وكيف ازدادت شروط نشأة النكروفيليا في مراحل مختلفة من نشوئه، حتى كادت في نهاية الأمر لاتترك مجالاً فيه لأي شيء آخر.

أرومة هتلر وسنواته الباكرة [1]

كلارا هتلر

إن أهم تأثير في الطفل هو طبع أبويه، لاهذه الحادثة المفردة أو تلك. أما الذين يعتقدون بالطبيعة التبسيطية وهي أن النشوء الرديء للطفل يتناسب تقريباً مع «رداءة» الأبوين، فإن دراسة الطبع عند أبوي هتلر، كما تُظهر المعلومات المعروفة، تقدم مفاجأة لهم: إذ يبدو أن الأب والأم على السواء شخصان مستقران حسنا النية.

ويبدو أن «كلارا» Klara، أم هتلر، كانت امرأة تعاطفية جيدة التكيّف. كانت فتاة ريفية بسيطة غير متعلمة اشتغلت خادمة في منزل ألويس هتلر Alois Hitler، الذي كان عمها وزوجها المقبل. وصارت كلارا عشيقة ألويس وحبلت منه في الوقت الذي توفيت فيه زوجته. وتزوّجت الأرمل ألويس في ٧ كانون الثاني، ١٨٨٥؛ وكانت في الرابعة والعشرين من العمر وهو في السابعة والأربعين.

وكانت تتحمل المسؤولية والمشقة في العمل؛ وعلى الرغم من الزواج الذي لم يكن سعيداً جداً، لم تكن تتذمر. وكانت تؤدي واجباتها بإنسانية وضمير حي.

تمحورت حياتها على مهمتي المحافظة على بيتها والعناية بزوجها وأطفال الأسرة. وكانت مدبرة منزل مثالية، تحافظ على البيت ناصعاً لاتشوبه شائبة

---

١ - لدى وصفي لأبوي هتلر وله وليداً وطفلاً وشاباً تابعتُ على الأغلب أهم عملين يعالجان سنواته الباكرة، وهما الكتابان الممتازان اللذان ألفهما «ب. ف. سميث (1967) B.F.Smith و«ف. مازر» W.Maser (1971). وقد استخدمت كذلك كتاب أ. كوبيتسك A.Kubizek 1954 وكتاب هتلر A.Hitler (1943). وكتاب هتلر يخدم الأغراض الدعائية إلى حد كبير ويحتوي على الأكاذيب الكثيرة، وسوف يُستخدم كتاب كوبيتسك، صديق شباب هتلر والمعجب به في شبابهما وعندما كان هتلر في السلطة، ببعض الحذر. ومازر، مع أنه مؤرخ، كثيراً ما يكون غير موثوق به في استخدام مصادره. وكتاب سميث هو المصدر الأكثر موضوعية وموثوقية بالنسبة إلى شباب هتلر.

وتؤدي واجباتها بدقة. ولم يكن لشيء أن يصرفها عن كدحها المنزلي الدائري، ولا حتى توقّع «الكلام العَرَضي» القصير. فكانت الأهمية كلها لبيتها وتعزيز مصلحة الأسرة؛ وكانت بالتدبير الحريص قادرة على زيادة ممتلكات الأسرة، مما سرّها كثيراً. وكان الأولاد أشد أهمية حتى من البيت. وكان كل من عرف كلارا يُقر بأن حياتها كانت تتمحور في حبها وإخلاصها للأولاد. وكانت التهمة الخطيرة الوحيدة التي وُجّهت إليها في أي وقت هي أنها بسبب هذا الحب والتفاني كانت مسرفة في مداراة ابنها فشجّعته بذلك على الإحساس بالفرادة. ولم يشارك الأولاد في هذا الرأي. وكان أولادها وأولاد زوجها الذين عاشوا بعد الطفولة الأولى يحبون أمهم ويحترمونها. (B.F.Smith,1967)

إن الاتّهام بأنها كانت مسرفة في مداراة ابنها فشجّعته بذلك على الإحساس بالفرادة في نفسه (اقرأ النرجسية) ليس غريباً كما يعتقد سميث- ثم إن ذلك صحيح على الأرجح. ولكن فترة التدليل المفرط لم تدم إلا إلى الزمن الذي أتمّ فيه هتلر مدة طفولته الأولى ودخل المدرسة. ومن المحتمل أن هذا التبدّل في موقفها قد أحدثه، أو على الأقل سهّله، إنجابها ابناً آخر في الوقت الذي كان هتلر عمره خمس سنوات. غير أن موقفها الكلي في بقية حياتها يُثبت أن ولادة طفل جديد لم يكن حادثة جارحة كما يرغب بعض المحللين في أن يعتقدوا؛ ولعلها توقّفت عن إفساد أدولف بالتدليل، ولكنها لم تتجاهله فجأة. كانت مدركة بصورة متزايدة ضرورة أن يترعرع، وأن يتكيّف مع الواقع، وكما سنرى، فقد بذلت كل ما في وسعها لترفد هذه السيرورة.

وهذه الصورة عن الأم المسؤولة والمحبّة تثير بعض الأسئلة المهمة بالنظر إلى فرضية طفولة هتلر شبه المنسحبة من الواقع و«حالة سفاح الحُرُم الخبيثة» عنده. كيف يمكن أن يفسَّر نشوء هتلر الباكر في ظل هذه الظروف؟ يمكننا أن نفكر في عدة

إمكانات هي: (١) أن هتلر كان من الناحية التكوينية شديد البرودة والتنحي عن الناس بحيث كان التوجّه القريب من الانسحاب من الواقع موجوداً فيه على الرغم من الأم الدافئة والمحبّة. (٢) من المحتمل أن تعلّقها المفرط بابنها، وهذا مالدينا دليل عليه، كان هذا الطفل الخجول يشعر بأنه تطفّل شديد يستجيب له بالمزيد من الانسحاب العنيف.[١] ونحن ليست لدينا معرفة كافية عن شخصية كلارا لنتيقّن من مسألة أي شرطٍ من هذه الشروط كانت له الغَلَبَة، ولكنها شروط متوافقة مع صورة سلوك كلارا كما يمكن أن ننشئها من المعلومات التي لدينا.

والأمر الممكن الآخر هو أنها كانت شخصاً حزيناً، ويحثّها الإحساس بالواجب ولكنها تنقل لابنها القليل من الدفء والفرح. وهي بعد كل ذلك لم تكن تعيش حياة سعيدة. وكان يُتوقَّع منها، كما هو مألوف في الطبقة الوسطى الألمانية-النمساوية أن تحبل بالأطفال، وتُعنى بالمنزل، وتجعل نفسها تابعة لزوجها التسلّطي. وكان من شأن عمرها، وعدم تعليمها، ووضعها الاجتماعي الراقي، وميلها الأناني- ولو أنه ليس من النوع القبيح، أن يزيد من شدة هذا الموقف التقليدي. وهكذا ربما قد صارت امرأة حزينة، خائبة، مكتئبة نتيجة للظروف وليس على أساس طبعها. وأخيراً من الممكن أنه كان تحت موقفها المهتم موقف فُصامي ومنسحب عميق المستقر. ولكن هذا الأمر هو الأقل احتمالاً بين الممكنات. وعلى أية حال، ليست لدينا تفصيلات ملموسة كافية عن شخصيتها لنقرر أية فرضية من هذه الفرضيات هي الصحيحة على الأرجح.

ألويس هتلر

كان ألويس هتلر شخصاً أقل تعاطفية بكثير. وقد وُلد بوصفه طفلاً غير شرعي، وكان باستخدامه كنية أمه، شيكلغروبر Schicklgruber (التي بدلّها بعد

١- كما تمت الإشارة من قبل، فإن التطفّل بوصفه شرطاً للانسحاب من الواقع قد وُجده كذلك دارسو الطفل المنسحب من الواقع.

ذلك بوقت طويل وجعلها هتلر)، وبدئه بموارد مالية هزيلة، إنساناً عصامياً حقاً. ونجح من خلال العمل الشاق والانضباط في أن يرتفع من موظف وضيع في مصلحة الرسوم الجمركية النمساوية- المجرية إلى وظيفة رفيعة نسبياً- هي «وظيفة الجامع الأعلى للرسوم الجمركية»- التي من الواضح أنها منحته مكانة العضو المحترم في الطبقة الوسطى. وكان اقتصادياً وأفلح في توفير مال كاف لامتلاك دار ومزرعة وأن يخلّف لأسرته ضيعة معمورة وفرت مع فندقه العائلي معيشة مريحة من الناحية المالية. ومما لاريب فيه أنه كان إنساناً أنانياً يُظهر اهتماماً ضئيلاً بمشاعر زوجته، ولكن من الواضح أنه لم يكن في هذه الناحية شديد الاختلاف عن العضو العادي في طبقته الاجتماعية.

كان ألويس هتلر رجلاً أحب الحياة، ولاسيما في صورة النساء والخمر. ولايعني ذلك أنه كان مطاردَ نساء، ولكنه لم يكن مرتبطاً بتقييدات طبقته الوسطى النمساوية. ويضاف إلى ذلك أنه كان يستمتع بكأس خمرته ويمكن أنه قد أكثر في بعض الأحيان من احتساء الكؤوس، ولكنه لم يكن خِمّيراً كما جرت الإشارة في مقالات كثيرة. إلا أن أبرز تجلّيات طبيعته المحبّة للحياة كان اهتمامه العميق والدائم بالنحل وتربية النحل. فكان من دأبه أن يُمضي جلّ وقته الخالي مع خلايا النحل بسرور عظيم، وهذا هو الاهتمام الجِدّي الفعال الوحيد الذي كان له خارج عمله. وكان حلم حياته أن يمتلك مزرعة يستطيع فيها أن يربّي النحل على نطاق أوسع. وقد حقق في آخر الأمر هذا الحلم؛ ومع أنه قد تبيّن له أن المزرعة التي اشتراها كبيرة جداً، فقد امتلك قبيل نهاية عمره المساحة المناسبة واستمتع بها استمتاعاً كبيراً.

وقد وُصف ألويس هتلر في بعض الأحيان بأنه مستبّد وحشي- وأفترض أن ذلك الوصف قد وُجد لأن من شأنه أن يكون أفضل انسلاكاً في التفسير التبسيطي لطبع ابنه. ولم يكن طاغية، بل تسلّطياً آمن بالواجب والمسؤولية واعتقد أن عليه أن يقرر مصير ابنه مادام ابنه لم يبلغ سن الرشد بعد. ووفقاً للبيّنة التي لدينا، فإنه لم

يضرب ابنه قطّ؛ بل كان يوبّخه، ويتجادل معه، ويحاول أن يجعله يرى ما هو خير له، ولم يكن شخصاً مرعباً يصيب ابنه بالفزع. وكما سنرى بعدئذ، فإن تنامي عدم المسؤولية وتجنّب الواقع عند ابنه قد جعل لزاماً على الأب أن يوبّخه ويؤدّبه أكثر من كل شيء. وهناك معلومات كثيرة تُظهر أن ألويس لم يكن عديم المراعاة لمشاعر الناس أو متغطرساً معهم، ولم يكن متعصّباً أبداً، وأنه على العموم كان متسامحاً إلى حدما. وينسجم موقفه السياسي مع هذا الوصف: كان معارضاً للكهنوت وليبرالياً، وله اهتمام شديد بالسياسة. وكانت آخر كلماته قبيل وفاته بالنوبة القلبية وهو يقرأ الصحيفة تعبيراً غاضباً ضد «أولئك السود» كما كان يدعو الكهنوتيين الرجعيين.

فكيف يمكن أن نفسّر أن هذين الشخصين سليمي القلب، والمستقرين، والطبيعيين جداً، وغير التدميريين بالتأكيد قد أنجبا «غول» المستقبل، **أدولف هتلر**؟[1]

---

١ - هناك محاولتان تحليليتان نفسيتان لتعليل نزعة الشر عند هتلر: (١) التحليل الأرثوذكسي التقليدي الذي قام به و. سي. لانجر (1967) W.C.Langer، الذي كُتب أصلاً سنة 1943 بوصفه تقريراً لدائرة الخدمات الاستراتيجية وصنّف بأنه «سري»؛ (٢) دراسة ج. بروس (1972) J.Brosse. وكان في تحليل لانجر بعض الأمور المفيدة، ولاسيما في زمن كانت فيه المعلومات عن حياة هتلر نادرة، مع أن إطاره المرجعي النظري قد أعاقه إلى حد كبير. ويؤكد لانجر أن تعلّق هتلر الباكر بأمه قد أفضى به إلى تشكّل عقدة أوديب شديدة بوجه خاص (أي الرغبة في التخلّص من الأب)، وعلاوةً، أن هتلر لابد قد لاحظ أبويه في أثناء المجامعة ولابد أنه قد صار ساخطاً على أبيه وأمه على السواء، على أبيه لـ«قسوته الوحشية»، وعلى أمه لـ«خيانتها». ومادام يُفترض أن يصاب كل الصبيان بعقدة أوديب وأن يشاهدوا مجامعة آبائهم (وخصوصاً في تلك الطبقات التي تعيش في مساحة أصغر مما تعيش فيها الطبقة الوسطى)، فمن الصعب أن نرى لماذا يجب أن يفسِّر وضع شامل عملياً طبعاً خاصاً، ناهيك عن طبع شاذ مثل طبع هتلر.

والدراسة التحليلية النفسية التي قام بها ج. بروس تحتوي على مادة أوفر وهي شديدة الحساسية؛ فقد أدرك بروس بوضوح كره هتلر للحياة وفي هذه الناحية توصّل إلى نتائج شبيهة بالنتائج الموجودة في هذا الكتاب. والعنصر الوحيد الذي يسيء إلى كتاب بروس هو حاجته إلى وضع مكتشفاته في قوالب على أساس النظرية اللبيدية. وهو يسير خطوة واحدة تتجاوز نظرية عقدة أوديب التقليدية و«المشهد الأولي». فالقوة اللاشعورية العميقة الدافعة في هتلر «كانت تكمن في جريمة الأم القضيبية، أي ليس =

من الطفولة الباكرة إلى سن السادسة (1889-1895)

يبدو أن الصبي الصغير كان بؤبؤ عين أمه. كانت تدلّله، ولاتوبّخه، بل تعجب به؛ فهو لايمكن أن يرتكب خطأً. وقد تركَّز عليه كل اهتمامها وحنّوها. ومن المحتمل جداً أن موقفها قد أنشأ نرجسيته وسلبيته. وكان مدهشاً من دون أن يضطر إلى بذل أي مجهود، مادامت أمه معجبة به مهما كان الأمر؛ ولم يكن عليه أن يبذل أي جهد لأن الأم تتعهد برعاية كل رغباته. وكان بالتالي مهيمناً عليها وتثور نوبات غضبه حين يشعر بالإحباط. ولكن تعلّقها المفرط به، وكما أسلفنا، من الممكن أنه كان يشعر بأنه تطفّل يتصرف حياله بالانسحاب المتزايد، واضعاً بذلك الأساس لموقفه الباكر شبه المنسحب من الواقع. وكانت هذه المجموعة من الأمور البارزة يزيد منها أن أباه لم يكن يُمضي الكثير من الوقت في البيت بسبب الخصوصيات المتعلّقة بأوضاع عمله. وكان التأثير المتوازن للسلطة الذكرية غائباً مهما كانت جودته. ولعل سلبية الصبي الصغير واتكاليته قد زادهما اعتلال صحي كان من شأنه، بالتالي، أن يزيد الاهتمام الذي توليه إياه أمه.

وبلغت هذه المرحلة نهايتها عندما أدرك هتلر السادسة من العمر. وقد اتّسمت نهايتها بعدة أمور واقعة.

=الأب وحده بل الأم كذلك- جريمة الأب والأم وهما متحدان في الفعل الجنسي ... وما يريد أن يحوله إلى لاشيء ليس ميلاده بمقدار ما هو حَبَله، أي بكلمات أخرى، «المشهد الأولي»، المشهد الأصلي، وهو مجامعة أبويه؛ وليس المشهد الذي استطاع الطفل أن يراه، بل المشهد الذي حدث قبله قطعاً... في الوقت الذي كان موجوداً فيه في الخيال وبطريقة استعراض الماضي، والذي كان فيه حتى وجوده محتملاً بدرجة معيّنة، مادام مرتبطاً بحبله ... وليس كره الحياة إلا هذا: كره الفعل الذي به وهبه أبواه الحياة ...» (J.Brosse,1972؛ وهذا الشاهد من ترجمتي وكذلك الشواهد الأخرى المأخوذة من بروس). إن لهذا التصور مزاياه بوصفه تصويراً رمزياً، سريالياً للكره الكلي للحياة. ولكننا إذا نظرنا إليه على أنه تحليل فعلي للسبب الذي جعل هتلر يكره الحياة وجدناه يصل إلى حدّ السخف.

وكنت قد حاولت التحليل الوجيز لطبع هتلر بناء على مفهوم الطبع التسلّطي- السادومازوخي، ولكن من دون معالجة تاريخ طفولة هتلر (E.Fromm,1941). وأعتقد أن ما كتبته حينئذ لايزال صحيحاً، إلا أن سادية هتلر ثانوية بالمقارنة مع ما فيه من النكروفيليا، وهو الموضوع الذي تتم معالجته في التحليل التالي.

كان أوضحها، ولاسيما من وجهة النظر التحليلية النفسية الكلاسيكية، هو ميلاد شقيق له عندما كان في الخامسة من العمر، الأمر الذي نحّى أدولف عن موقعه موضوعاً أساسياً لتفاني الأم. وفعلياً، كثيراً ما يكون لمثل هذه الحادثة تأثير صحي لاصادم؛ فمن شأنه أن يُنقص أسباب الاتكال على الأم والسلبية الناجمة عن ذلك. وعلى النقيض من الرَّوسم، يُظهر الدليل أن هتلر الصغير بدلاً من أن يعاني لوعات الحسد فقد استمتع تماماً بالعام الذي جاء بعد ولادة شقيقه.[1] وكان المسؤول عن ذلك إلى حد كبير هو أن أباه قد قبل منصباً جديداً في لِنْتس Linz، في حين أن الأسرة، ومن الواضح بسبب خشيتها أن تنقل الرضيع، قد تخلّفت عنه في پاساو Passau سنة كاملة.

عاش هتلر سنة بكاملها في فردوس طفل عمره خمس سنوات يلعب الألعاب ويتهاوش مع أطفال الجيران. ويبدو أن الحروب والمعارك المصغّرة بين رعاة البقر والهنود الحمر كانت ألعابه الأثيرة، وسوف تستمر في أن تكون أهم تسلياته سنوات كثيرة. ولما كانت پاساو في ألمانيا- على الجانب الألماني من الحدود النمساوية- الألمانية، حيث يجري التفتيش الجمركي النمساوي- كانت الألعاب الحربية تضع الفرنسيين ضد الألمان حسب روح 1870، ومع ذلك لم تكن هناك أهمية خاصة لجنسية الضحايا. كانت أوربا مليئة بالصبيان الصغار البطوليين الذين يقتلون الجماعات القومية والأقوامية على السواء. وكان هذا العام من القتال الطفولي مهماً في حياة هتلر لالأنه جرت تمضيته على الأرض الألمانية فأضاف مسحة بالفارية إلى كلامه، بل لأنه كان عام الفرار إلى الحرية التامة تقريباً. وبدأ في البيت يُثبت موجوديته أكثر ومن المحتمل أنه كان يُظهر

١- لاشك أنه يمكن الحِجاج أن الدليل لايُرينا الإحباط والاستياء اللاشعوريين. ولكن بما أن المرء لايستطيع أن يكتشف أية علامة من علامات ذلك، فإن هذه المحاجّة لاقيمة لها. إن أساسها الوحيد هو الافتراض الدوغمائي وهو أن ميلاد الشقيق لابد أن يكون له مثل هذا التأثير. وهذا يؤدي إلى التفكير الدائري الذي يسلّم فيه المرء بما تقتضيه النظرية على أنه حقيقة، ثم يزعم أن النظرية تؤكدها الحقائق الواقعة.

أولى علامات استحواذ الغضب عليه عندما لايصل إلى الوجهة التي يريدها. وخارج اللعب، ومن دون حد للعمل أو التخيّل، كان الحاكم الأعلى.
(B.F.Smith,1967)

وانقضت هذه الحياة الفردوسية فجأة عندما تقاعد الأب من مصلحة الرسوم الجمركية وانتقلت الأسرة إلى هافلد Hafeld، قرب لامباش Lambach، وكان على ابن السنوات الست أن يدخل المدرسة. وأدولف «وجد حياته تقتصر فجأة على دائرة ضيقة من النشاطات التي تتطلّب المسؤولية والانضباط. وكان في أول مرة مرغماً على الامتثال بمثابرة وانتظام» (B.F.Smith,1967).

فماذا يمكن أن نقول حول نشوء طبع الطفل في نهاية هذه المرحلة الأولى من حياته؟

هذه هي المرحلة التي ينشأ فيها تماماً، وفقاً للنظرية الفرويدية، كلا جانبي عقدة أوديب: الانجذاب الجنسي إلى الأم والعداء نحو الأب. ويبدو أن المعطيات تؤكد الافتراض الفرويدي: فقد كان هتلر الصغير عميق التعلّق بالأم ومناوئاً للأب. ولكنه أخفق في أن يحلّ عقدة أوديب من خلال التماثل مع الأب عبر تشكّل الأنا الأعلى والتغلّب على تعلّقه بالأم؛ فبإحساسه بأنها خائنة بولادة مزاحم له تنّحى عنها.

ولكن أسئلة كبيرة تنشأ فيما يتعلق بالتفسير الفرويدي. فإن كان ميلاد شقيق أدولف عندما كان في الخامسة صادماً بشدة، ومفضياً إلى قطع الرابطة مع الأم واستبدال محبتها بالامتعاض والبغض، فلماذا كان العام الذي تلا هذه الحادثة عاماً سعيداً إلى هذا الحد- وفي الواقع من المحتمل أنه أسعد فترة في طفولته؟ فهل نستطيع حقاً أن نفسّر كرهه لأبيه بأنه نتيجة المزاحمة الأوديبية إذا أخذنا في الاعتبار أن علاقة أمه بزوجها يبدو أنها كانت قليلة القوة والدفء؟ أليس الأحرى أن يفسَّر الكره بأنه العداء للأب الذي يتطلّب الانضباط والمسؤولية؟

يبدو أن هذه الأسئلة سوف تجد الجواب في فرضية حالة سفاح الحُرُم الخبيثة المدروسة آنفاً. ومن شأن هذه الفرضية أن تُفضي إلى افتراض أن تعلّق هتلر بأمه لم يكن تعلّقاً دافئاً وعاطفياً؛ وأنه ظل بارداً ولم يخترق صَدَفته النرجسية؛ وأنها لم تتخذ دور شخص حقيقي بالنسبة إليه، بل دور رمز لقدرة الأرض غير الشخصية، وللدم، والقدر- والموت. ومهما يكن، وعلى الرغم من برودته، فقد كان مرتبطاً تواكلياً بشخص الأم وترميزاتها، ذلك الارتباط الذي آخر أهدافه هو الاتحاد مع الأم في الموت. وإذا كان الأمر كذلك، تمكّن المرء من أن يفهم لماذا لم تكن ولادة الأخ سبباً لانسحابه من الأم. وفي الحقيقة، لايستطيع المرء حتى أن يقول إنه انسحب منها، إذا كان صحيحاً أنه لم يشعر عاطفياً بالقرب منها. والأهم من ذلك أن المرء يستطيع أن يفهم أن بداية النشوء النكروفيلي الظاهر اللاحق عند هتلر موجودة في حالة سفاح الحُرُم الخبيثة التي تتصف بها علاقته الباكرة بأمه. ومن شأن هذه الفرضية أن تفسّر كذلك لماذا لم يقع هتلر بعدئذ في حب شخصيات أمومية، ولماذا كانت صلته بأمه الحقيقية بوصفها شخصاً يعبَّر عنها بالصلة بالدم، والتراب، والعرق، وفي آخر الأمر بالفوضى الشاملة والموت. وصارت ألمانيا هي الرمز المحوري للأم. وكان تعلّقه بألمانيا- الأم الأساس لكرهه للسم (مرض السفلس واليهود) الذي عليه أن ينقذها منه، ولكن على المستوى الأعمق، الأساس لرغبته المكبوتة طويلاً في القضاء على ألمانيا- الأم؛ ويبدو أن نهايته تثبت صحة الفرضية المتعلّقة بحالة سفاح الحُرُم الخبيثة.

إن علاقة هتلر بأمه وبالشخصيات الأمومية مختلفة تماماً عما نجده عند معظم الرجال «المتعلّقين بالأم» فعند هؤلاء الرجال تكون الصلة أدفأ بكثير، وأقوى بكثير، ويمكن أن يقول المرء إنها حقيقية أكثر؛ ولدى هؤلاء الرجال رغبة قوية في أن يكونوا قريبين من الأم، وفي أن يقولوا لها كل شيء؛ وهم محبون لها حقاً (إذا تقيّد

«الحب» تماماً بطبيعتة الطفلية). ثم إنهم في الحياة يميلون إلى الوقوع في حب شخصيات أمومية، أي أنهم شديدو الانجذاب إليها إلى حد إقامة علاقات غرامية معها أو الزواج منها. (ومسألة هل كان جذر هذا الانجذاب جنسياً أم كان الانجذاب الجنسي تجلياً ثانوياً للانجذاب العاطفي الأصلي مسألة لانتيجة لها عندئذ.) ولكن هتلر لم يكن منجذباً إلى أمه على هذا النحو، وعلى الأقل لم يكن كذلك بعد سن الخامسة ومن المحتمل أنه لم يكن كذلك قبل ذلك؛ وفي طفولته كان يستمد اللذة حصراً في تركه البيت ليلعب لعبة الجنود أو الهنود الحمر مع الصبيان الآخرين. وكان لديه اهتمام ضئيل بها، ولم يكن يعبأ بها.

وكانت أمه مدركة لذلك. ويورد كوبيتسك أنها قالت له: إن ابنها لايتحمل المسؤولية ويبدّد ميراثه القليل؛ وأن لديها مسؤوليات كثيرة تجاه ابنتها الصغيرة، «ولكن أدولف لايفكر في ذلك؛ إنه يمضي في دربه كأنه وحيد في العالم». إن هذه الحالة من عدم مراعاة مشاعر أمه وعدم الاهتمام بها قد ميّزت كذلك رد فعله على مرضها. فعلى الرغم من أن التشخيص قد حدّد إصابتها بالسرطان ومن أنه قد أجريت لها عملية جراحية في كانون الثاني / 1907/ وتوفيت من هذا المرض في كانون الأول من العام نفسه، فقد سافر إلى ڤيينا في أيلول من تلك السنة. وحاولت الأم، من اهتمامها به، أن تقلّل من سوء ماشعرت به أمامه، وقَبِل ذلك، ولم يقم بمحاولة لاكتشاف كيف كانت في الحقيقة عند زيارته لها في لنتس Linz -وهي رحلة لاتقدم مشكلة بمقدار مايتعلق الأمر بالوقت أو المال- وقلّما كتب إليها من ڤيينا ليجعلها تعرف كيف كان، فسبّب لها بذلك قدراً كبيراً من القلق. ووفقاً لسميث فإنه لم يأت إلى البيت إلا بعد أن أُبلغ بوفاتها. وحسب تقرير كوبيتسك، فإنه عندما أوهنها المرض تماماً، طلبت إليه أنْ يأتي ويعتني بها لعدم وجود شخص سواه. فجاء في نهاية تشرين الثاني وأخذ يرعاها زهاء ثلاثة أسابيع حتى وفاتها. ويُبدي كوبيتسك ملاحظة حول مسألة كم كان مندهشاً أن يرى صديقه ينظّف الأرض ويطبخ من أجل أمه. وبلغ بهتلر أن ذهب بعيداً في اهتمامه بحسن حال

أخته البالغة من العمر إحدى عشرة سنة حتى جعلها تَعدُ أمها أن تعمل بجد في المدرسة. ويصف كوبيتسك موقف هتلر من أمه بلغة بالغة العاطفية، محاولاً أن يُظهر كم كان يحبها بعمق. ولكن شهادته في هذه الناحية لايوثَق بها كثيراً: كان من دأب هتلر، كما هو دائماً، أن يحاول أن يؤلف معظم هذه المناسبة ليُحدِث انطباعاً حسناً؛ ولم يستطع أن يرفض مناشدة أمه، وثلاثة الأسابيع لم تكن مدة طويلة كافية لتأدية دور الابن المحب. ووصف هذه اللطف ومراعاة الشعور مغاير لسلوك هتلر الكلي نحو أمه، ولذلك فإن تصوير كوبيتسك ليس مقنعاً جداً.[١]

ويبدو أن أم هتلر لم تصبح بالنسبة إليه شخصاً يرتبط به بمحبة أو برقّة. كانت رمزاً للربة الحامية والمعجبة، ولكنها كانت كذلك رمزاً للموت والفوضى الشاملة. وفي الوقت ذاته كانت موضوعاً لسيطرته السادية، وتثير فيه غضباً عميقاً وعنيفاً عندما لاتكون ملزِمة تماماً.

الطفولة. من سن السادسة إلى الحادية عشرة (1895-1900)

كان التحول من الطفولة الباكرة إلى الطفولة اللاحقة فجائياً. فقد تقاعد ألويس هتلر من مصلحة الرسوم الجمركية ومن ثم كان لديه الوقت الذي أراد لينذر نفسه لأسرته وعلى الأخص لتربية ابنه. كان قد اشترى داراً وتسعة فدادين في

---

١ - بما أن كوبيتسك كان معجباً بهتلر عندما كانا صغيرين وبعدئذ، عندما كان هتلر في السلطة، فمن المحال القول هل الوقائع التي يوردها صحيحة، إلا عندما تؤيدها المصادر الأخرى؛ و«انطباعاته» متحيزة كثيراً لصالح هتلر. ويقدّم مازر وصفاً حتى أشد توهّجاً للطف هتلر المحب نحو أمه ويأسه عند وفاتها. ووصف مازر قائم على مذكرة كتبها للسلطات النازية طبيب يهودي، هو الدكتور إ. بلوخ E.Bloch، الذي كان يعالج أم هتلر، وذلك بعد إحدى وثلاثين سنة في 1938. ومع كل ماتستحقّه ذاكرة الدكتور بلوخ من الاحترام، فإن التصريح الذي يكتبه يهودي للنازيين في ألمانيا، سنة 1938، من الصعب أن يُعد غير متحيّز، بل هو بالأحرى يُحرضه السعي لنيل الحظوة بالتملّق؛ وهذا يمكن فهمه إنسانياً، ولكنه يحرم الوثيقة من أية قيمة بوصفها مصدراً تاريخياً. وإن انعدام حتى الشك عند المؤرخ مازر في صحة تصريح مازر يُعدّ مثالاً على العيوب الخطيرة في منهجه في استخدام المصادر، التي سوف تكون لديّ الفرصة لذكر بعضها فيما بعد.

هافلد، قرب لامباش. وكان على هتلر الصغير أن يدخل في مدرسة ريفية صغيرة في فشلام Fischlam قرب هافلد، حيث قام بذلك على مايرام. وكان يمتثل لمطالب أبيه، ظاهرياً على الأقل، ولكن كما يكتب سميث: «كانت ثمت تحفظات. وكان قادراً بعدُ على الاحتيال على أمه إلى حد ما، ومن الممكن أن يتفجّر غضبه ضد أي شخص.» ولابد أن الصبي الصغير كان يشعر بأن هذا النوع من الحياة ليس مُرضياً، مع أنه لم تكن ثمت صدامات عنيفة مع أبيه. ولكن أدولف استطاع أن يجد لنفسه فسحة في الحياة يستطيع فيها أن ينسى كل التنظيم القاسي وكان ما شعر به هو انعدام الحرية. وكانت هذه الفسحة هي الاستمرار في الاهتمام بلعبة الهنود والجنود مع الصبيان الآخرين. وفي هذه السن المبكرة كانت «الحرية» تعني لهتلر انعدام المسؤولية، وعدم الإكراه، والأهم من ذلك، «التحرر من الواقع»؛ وكانت تعني كذلك السيطرة على العصابات. وإذا تفحّص المرء معنى هذه الألعاب ووظيفتها بالنسبة إلى هتلر، فإنه يكتشف أنها التعبير الأول عن الخصلتين اللتين تنموان فيه بتزايد وهو يترعرع: الحاجة إلى السيطرة، والواقعية القاصرة. ووصفياً تبدو هذه الألعاب عديمة الأذى وطبيعية جداً في هذه السن؛ وسنرى لاحقاً أنها ليست كذلك عندما نرى أنه ظل مدمناً عليها حتى السن التي كان الصبيان الطبيعيون ينصرفون فيها عن هذه التمضية للوقت في تسلية مقتبل العمر.

وحدثت بعض التغيّرات في الأسرة في السنوات التالية. فقد غادر البيت أكبر أبناء ألويس وهو في سن الرابعة عشرة، مما أزعج أباه كثيراً، ولذلك فإن على أدولف الآن أن يأخذ دور الابن الأكبر. وباع ألويس المزرعة وانتقل إلى بلدة لامباش. وتابع أدولف تعليمه المدرسي في المدرسة الابتدائية الحديثة نسبياً في لامباش، وفيها كذلك تعلّم بصورة جيدة جداً وتجنّب أية مجابهة جدية مع أبيه كثير الغضب والاستياء.

وفي 1893 انتقلت الأسرة من جديد، وفي هذه المرة إلى دار في ليوندنغ -Le

onding في ضواحي لنتس، ودخل أدولف في مدرسته الابتدائية الثالثة، في لنتس. ويبدو أن ألويس قد شعر بأنه أكثر رضى في هذا المكان الجديد منه في أي مكان من قبل. واستطاع أن يُعنى بالنحل في نصف الفدّان من الأرض وأن يتحدث في السياسة في الحانة. ومع ذلك ظل تسلّطياً صارماً ولم يدع مجالاً للشكوك حول من بيده السلطة. وإن يوزف مايرهوفر Josef Mayerhofer ، وهو أفضل صديق له، قد قال عنه فيما بعد:

«كان صارماً مع أفراد أسرته، ولم تكن لديه مُلاينة من حيث مقدار مايعنيهم الأمر، ولم يكن لزوجته شيء يدعوها إلى الابتسام.» وأكّد مايرهوفر، مع ذلك، أن الخشونة الظاهرية كانت في جانب منها مخادعة وأن الأطفال لم تكن تساء معاملتهم جسدياً. «لم يمّسه قطّ [أدولف]. فلا أعتقد أنه [قد ضربه] ولكنه كثيراً ما كان يوبّخه ويصرخ في وجهه. وقد تعوّد أن يقول [ذلك الولد الصغير الهزيل! سأضربه بعنف مع ذلك!] ولكن نباحه كان أسوأ من عضّه. ومع ذلك كان الصبي يقف خاشعاً له.» (B.F.Smith,1968)

ليست هذه هي صورة الطاغية الوحشي، بل صورة أب تسلّطي، نائي الجانب بعض الشيء ويخشاه الابن؛ وكانت هذه الخشية مصدراً من مصادر رضوخية هتلر، وهي التي سنسمع عنها المزيد فيما بعد. ولكن على المرء ألا يفهم صفة مهابة الأب هذه خارج السياق؛ فالابن الذي لم يكن يصرّ كثيراً على أن يُترك وحده وعلى أن يكون غير مسؤول من الممكن أنه قد وصل إلى علاقة ودية مع هذا الأب، الذي كان في النهاية، حسن النية ولم يكن رجلاً تدميرياً على الإطلاق. والرَّوْسم حول «الكره الموجّه ضد الأب التسلّطي» يجري في بعض الأحيان تكلّف استعماله كثيراً كما هي الحال فيما يتعلق بعقدة أوديپ.

وإجمالاً فقد مضت سنوات المدرسة الابتدائية الخمس على نحو أفضل بكثير مما يمكن أن يتوقع المرء. وكان هذا ناجماً عن العوامل التي سبق ذكرها وعن الظروف

الواقعية في المدرسة. وكان على الأرجح فوق الذكاء المتوسط للأولاد الآخرين، ويعامله معلموه معاملة جيدة بسبب خلفيته العائلية المتفوقة، وحصل على أعلى الدرجات من دون أن يضطر إلى بذل الكثير من الجهد. وهكذا لم تكن الدراسة تحدياً حقاً ولم تشوّش بصورة خطيرة نظامه المتوازن بصورة رائعة والقائم على التسوية بين التمرد والتكيّف.

وفي نهاية هذه المرحلة لم يُرَ تدهور لافت للانتباه بالمقارنة مع بدايتها، ومع ذلك كانت فيها ملامح منذرة بالخطر: فإنه لم ينجح في التغلّب على نرجسيته الباكرة؛ ولم يتقدم إلى الاقتراب من الواقع؛ ولم تنشأ لديه أية ميول نشيطة وبدلاً من ذلك بنى لنفسه مجالاً سحرياً للحرية والسلطة. ولم تساعده السنوات الأولى في المدرسة على أن ينمو متجاوزاً ما كان عليه عندما دخل المدرسة. بل ظل فيه نزاع مكشوف صغير، وكان يبدو على السطح قد تكيّف تكيفاً جيداً بصورة كافية.

ما قبل المراهقة والمراهقة: من سن الحادية عشرة إلى السابعة عشرة (1900-1906)

إن دخول هتلر في المدرسة الثانوية (Realschule) والسنوات التي أعقبتها حتى وفاة أبيه قد أحدثت تحوّلاً حاسماً إلى الأسوأ وعززت شروط نشوئه الخبيث.

والأحداث الحاسمة في السنوات الثلاث التالية حتى وفاة أبيه سنة 1903 هي: (١) إخفاقه في المدرسة الثانوية، (٢) النزاع مع أبيه الذي أصرّ أن يصبح موظفاً حكومياً، (٣) استغراقه المتزايد حتى نسيان نفسه في العالم الأخيولي لألعابه.

ويقدم هتلر نفسه، في كتابه «كفاحي» Mein Kampf صورة معقولة وتخدم نفسها بنفسها عن هذه الأحداث: إنه، الإنسانَ الحرَّ والمستقلَّ، لم يستطع أن

يتحمل أن يكون بيروقراطياً، بل أراد أن يصبح فناناً؛ وتمرَّد على المدرسة، وقام بعمل رديء ليجعل أباه يمنحه الإذن بأن يصبح فناناً.

وإذا تفحّصنا المعلومات المعروفة بعناية، فإن الصورة التي تنبثق هي العكس: (١) لقد كان عمله الدراسي في المدرسة رديئاً لعدد من الأسباب التي سوف يتمّ البحث فيها وشيكاً. (٢) كانت فكرته عن صيرورته فناناً في ماهيتها تبريراً عقلياً لعجزه عن أي نوع من العمل والجهد المنضبطين. (٣) لم يكن نزاعه مع أبيه متمحوراً حول رفضه أن يصير موظفاً حكومياً وحسب، بل كان ناجماً عن رفضه كل متطلبات الواقع.

أما الإخفاق فلا يمكن أن يكون هناك أي شك حوله، مادام شديد الأثر إلى حد ما. وكان قد درس في السنة الأولى دراسة بالغة الرداءة بحيث اضطر إلى إعادة السنة بكاملها. وفي السنوات التالية كان عليه أن يخوض امتحانات إكمالية في بعض الموضوعات لكي يُسمَح له بالانتقال إلى الصف التالي، وبلغ به الأمر في نهاية السنة الثالثة أنه لم يتمّ انتقاله في «لنتس» إلا على شرط أن يترك المدرسة. وفي النتيجة دخل في المدرسة الثانوية في «شتاير» Steyr، ولكنه في نهاية السنة الرابعة، وهو في شتاير، قرر ألا يتابع مسلكه المدرسي سنة أخرى حتى التخرج من الدراسة الثانوية. وجرت في نهاية سنته المدرسية الأخيرة حادثة رمزية بالنسبة إلى مسلكه في المدرسة الثانوية. فبعد أن تسلّم وثيقته المدرسية ذهب مع رفاق صفّه لاحتساء الخمرة، واكتشف لدى عودته إلى البيت أنه أضاع وثيقته. وكان بعدُ يتساءل أي عذر يستطيع أن ينتحله، عندما تمّ استدعاؤه ليراه مدير المدرسة؛ فقد تم العثور على الوثيقة في أحد الشوارع؛ وكان قد استخدمها ورقة مرحاض! وحتى إن سلّمنا بأنه من المحتمل أنه كان مخموراً إلى هذا الحد أو ذلك، فإن هذا السلوك يعبّر رمزياً عن شدة مقته واحتقاره للمدرسة.

وبعض الأسباب في إخفاق هتلر في المدرسة الثانوية أوضح من غيرها.

وأشدها وضوحاً هو أنه في المدرسة الابتدائية كان في وضع متفوق. فبما أنه كان فوق المتوسط في الذكاء وموهوباً ومتحدثاً جيداً، لم يكن عليه أن يبذل مجهوداً كبيراً ليكون متفوقاً على رفاق صفّه وينال الدرجات الممتازة. واختلف الوضع في المدرسة الثانوية. فكان فيها متوسّطُ الذكاء أعلى مما كان في المدرسة الابتدائية. وكان معلموه أفضل تعلّماً بكثير ويتطلّبون منه أكثر مما تطلّبه معلّمو المدرسة الابتدائية؛ ولم يكونوا متأثرين بخلفيته الاجتماعية، مادامت لم تكن واضحة في التركيب الاجتماعي لطلاب المدرسة الثانوية. وباختصار، فلكي يُفلح المرء في المدرسة الثانوية عليه أن يعمل حقاً؛ ولم يكن مقدار الجد مرهقاً، ولكنه كان مقداراً أكبر مما كان هتلر الصغير متعوداً، أو راغباً، أو قادراً أن يقوم به. ولابد أن الوضع الجديد كان صادماً لهذا الصبي النرجسي إلى أقصى الحدود، وهو الذي استطاع في المدرسة الابتدائية أن «ينجح من دون سعي». إن ذلك قد تحدّى طريقته في السلوك وأثبت أن الواقع لايمكن التعامل معه على النحو السابق.

وهذه الحالة من الإخفاق في المدرسة الثانوية بعد سنوات النجاح في المدرسة الابتدائية ليست نادرة؛ إذ كثيراً ماتحثّ الطفل على تغيير سلوكه، للتغلّب على موقفه الطفلي - إلى حد ما على الأقل - وعلى أن يتعلّم بذل المجهود. أما عند هتلر فلم يكن للحالة مثل هذا التأثير. وعلى العكس، بدلاً من أن يتخذ خطوة نحو الواقع ازداد انسحابه إلى عالم الأخيولة وابتعاده عن الصلة الحميمة بالناس.

فهل سبّب إخفاقه أن أكثر الموضوعات التي تتناولها المدرسة لم تكن تثير اهتمامه، وكان من دأبه أن يبذل المجهود الشاق في الأمور التي تهمّه؛ والقول بأنه لم تكن هذه هي الحال يدل عليه أنه لم يبذل حتى الجهد الكافي لنيل درجة مرموقة في تاريخ ألمانيا، وهو الموضوع الذي سبّب حماسته وأهاجه بشدة. (كانت العلامات الجيدة الوحيدة هي التي نالها بالرسم - ولكنه مادام موهوباً في الفن، فلايحتاج إلى بذل الكثير من الجهد.) وهذه الفرضية يؤكدها بمنتهى الوضوح أنه

كان في حياته بعدئذ عاجزاً عن بذل جهد متواصل حتى في المجال الذي قد يكون المجال الوحيد الذي أثار اهتمامه- وهو الهندسة. وسوف نتناول فيما بعد موضوع عجز هتلر عن العمل المنتظم، إلا تحت تأثير الحاجات الأشد ضغطاً أو بدافع من أهوائه. وهو موضوع لايُذكر الآن إلا لتأكيد أن إخفاقه في المدرسة الثانوية لايمكن أن تفسّره ميوله الفنية.

وفي غضون هذه السنوات في المدرسة الثانوية كان هتلر يزداد انسحابه من الواقع. ولم يكن لديه اهتمام حقيقي بأي شخص- أمه، أو أبيه، أو أشقائه. وكان يتعامل معهم كما يجعله اهتمامه بأن يُترك وحده يرى ذلك مناسباً، ولكنه كان بعيداً عنهم عاطفياً. وكان اهتمامه القوي والعاطفي الوحيد بألعابه الحربية مع الصبيان الآخرين، الذين كان قائدهم أو منظّمهم. وبينما كانت هذه الألعاب مناسبة تماماً لصبي في التاسعة، أو العاشرة، أو الحادية عشرة، فقد كانت غريبة بالنسبة إلى فتى في المدرسة الثانوية. وليس غريباً عنه المشهد الذي حدث في طقس تثبيته في الكنيسة المسيحية بعد تعميده وهو في سن الخامسة عشرة. فقد تلطّف أحد أقربائه بإعداد حفلة صغيرة على شرف من جرى تثبيته، ولكن هتلر، كان ساخطاً وغير ودي، وحالما استطاع فرّ منه ليلعب لعبة الحرب مع الصبيان الآخرين.

وكانت لهذه الألعاب عدة وظائف. فقد منحته الرضى بأنه القائد وأكّدت اقتناعه بأنه يستطيع بقدرته الإقناعية أن يجعل الآخرين يتبعونه؛ وزادت نرجسيته، والأهم، أنها محورت حياته حول الأخيولة، فعززّت بذلك عملية انسحابه من الواقع، من الأشخاص الحقيقيين، والإنجاز الحقيقي، والمعرفة الحقيقية. وكان التعبير الآخر عن هذا الانجذاب إلى الأخيولة هو اهتمامه الحماسي بروايات «كارل ماي» Karl May. وكان ماي كاتباً ألمانياً كتب الكثير من القصص الساحرة عن هنود أمريكا الشمالية والتي لها لون الواقع، مع أن المؤلف لم يرَ الهنود الحمر قط. وفعلاً فقد قرأ جميع الفتيان في ألمانيا والنمسا قصص ماي؛ وكانت لها شعبيتها كما كانت

قصص جيمس فنيمور كوپر James Fenimore Cooper في الولايات المتحدة. وكانت حماسة هتلر لكتابات ماي عادية تماماً لمن كان في السنوات الأخيرة من المدرسة الابتدائية، ولكن سميث يكتب:

لقد اتخذت نغمات إضافية أكثر خطورة في السنوات اللاحقة. لأن هتلر لم يتخلَّ عن كارل ماي. وقد قرأه في مراهقته وعندما كان شاباً في عشرينياته. وحتى وهو مستشار الرايخ، فقد واصل افتتانه به، وإعادة قراءة السلسلة كلها حول الغرب الأمريكي. ثم إنه لم يحاول أن يموّه أو يخفي استمتاعه بكتب ماي وإعجابه بها. وفي «أحاديث المائدة» [H.Picker,1963] يشيد بذكر ماي ويصف كيف كان يستمتع بأعماله. وقد تحدّث عنه مع كل شخص تقريباً- مع رئيس الصحافة عنده، وأمين سره، وخادمه، ورفاق حزبه القدامى.
(B.F.Smith,1967)

على أن تفسيري لهذه الواقعة يختلف عن تفسير سميث. إذ يعتقد سميث أنه مادام افتتان طفولة هتلر بروايات ماي كان تجربة سعيدة إلى هذا الحد فقد كان «ترحيلاً مُرضياً إلى الفترة التي أخفقت فيها توافقاته الباكرة مع الواقع في حل تحديات المراهقة». وبينما قد يكون هذا صحيحاً إلى حد ما، فأعتقد أنه لايلامس المسألة الأساسية. فروايات ماي يجب ربطها بألعاب هتلر الحربية وهي تعبير عن حياته الأخيولية. ومع أنه لمن المناسب بصورة كافية في سن معيّنة أن تستمر في فتنته فهي تشير إلى أنها تمثّل فراراً من الواقع وتجلّياً لموقفه النرجسي المتمركز حول موضوع واحد هو: هتلر، القائد، المحارب، الظافر. ومن المؤكد أن الدليل على ذلك ليس كافياً ليكون مقنعاً. ولكن إذا ربط المرء سلوك هتلر في سنوات حداثته هذه مع المعلومات المستمدة من حياته اللاحقة فإن النموذج الذي يظهر هو: نموذج الشخص المنسحب شديد النرجسية الذي تكون عنده الأخيولة أشد حقيقية من الواقع. وعندما نرى هتلر الصغير وهو مأخوذ كثيراً بالحياة الأخيولية، فإن السؤال الذي ينشأ هو: كيف استطاع هذا الحالم المنسحب في جعل نفسه سيد أوربا- ولو

في مجرد حين من الزمان؟ إن الإجابة عن هذا السؤال يجب أن تنتظر حتى نتقدم أكثر في تحليل نشوء هتلر اللاحق.

ومهما كان السبب في إخفاق هتلر في المدرسة الثانوية Realschule، فيمكن أن يكون ثمت شك ضئيل حول النتائج الانفعالية بالنسبة إلى هتلر. إنه صبي، تعجب به أمه، ناجح في المدرسة الابتدائية، وزعيم عصابات الصبيان، الذي كانت كل النجاحات التي لم يظفر بها بالنسبة إليه تأكيداً لاقتناعه النرجسي بامتلاكه المواهب البارزة. وكان من العسير أن يجد نفسه مع أي انتقال في حالة إخفاق؛ ولم يكن لديه سبيل إلى إخفاء إخفاقه عن أبيه وأمه؛ ولابد أن نرجسيته قد جُرحت جرحًا بليغًا، وتأذى كبرياؤه. ولو استطاع أن يتبيّن أن إخفاقه قد سببّه عجزه عن العمل الشاق، لكان بالإمكان أن يتغلّب على نتائجه، مادام ليس هناك شك أنه كان أكثر موهبة مما يكفي ليكون ناجحًا في المدرسة الثانوية.[1] ولكن نرجسيته التي لاتُمسّ جعلت هذه البصيرة مستحيلة. وفي النتيجة، وبما أنه لم يكن قادراً على تغيير الواقع، كان عليه أن يزيّفه ويرفضه. وكان يزيفّه باتّهام معلميه وأبيه بأنهم سبب إخفاقه وبزعمه أن إخفاقه كان تعبيراً عن شغفه بالحرية والاستقلال. ورَفَضَه بخلقه رمزَ «الفنان»؛ وكان الحلم بأن يصبح فنانًا هو الواقع بالنسبة إليه، ومع ذلك فإن عدم عمله بجدية لتحقيق غايته يُسفر عن الصفة الأُخيولية في هذه الفكرة. وكان الإخفاق في المدرسة أولى هزائم هتلر ومهاناته، وتبعها عدد من الهزائم الأخرى؛ ومن المأمون أن نفترض أن ذلك لابد قد قوّى احتقاره لأي شخص كان سببًا في هزيمته أو شاهداً عليها وقوّى امتعاضه من ذلك الشخص؛ ومن الممكن جداً

١ - قال ذلك معلّمه، إ. هويمر E.Huemer، حول تلميذه السابق عندما كان شاهداً على هتلر بعد القومة الناجحة في مونيخ: «كان هتلر موهوبًا قطعًا، ولو من جهة واحدة، ولكنه كان لديه القليل من السيطرة على الذات؛ وكان على أقل القليل كذلك يُعدّ عنيداً، يابس الرأس، ومجادلاً وضيق الصدر، وحتمًا كان من الصعب عليه أن يتكيّف مع إطار النظام المدرسي. وكذلك لم يكن كثير الاجتهاد؛ وإلا لكان أنجح بكثير، إذا أخذنا في الاعتبار مواهبه التي لاتُنكَر» (W.Masters,1971).

أن يكون هذا الامتعاض قد شكل بداية النكروفيليا عنده إذا لم تكن لدينا مسوّغات للاعتقاد بأن جذورها قد سبق أن وُجدت في رغبته السفاحية الخبيثة.

ولم يكن لوفاة والد هتلر عندما كان في الرابعة عشرة من عمره تأثير محسوس فيه. وإذا كان صحيحًا، كما كتب هتلر بعدئذ، أن إخفاق هتلر في المدرسة قد أحدثه أصلاً نزاعه مع أبيه، فمتى مات المستبّد الوحشي والمزاحم، فإن ساعة التحرر تكون قد حانت. فمن شأنه آنئذ أن يشعر بالحرية، ويضع المخططات الواقعية لمستقبله، ويبذل الجهد الجهيد لتحقيقها- وأن يوجّه عاطفته إلى أمه مرة أخرى. ولكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. واستمر بالطريقة التي كان يعيش بها من قبل، وكما يعبّر سميث عن ذلك، فقد كان «أكثر قليلاً من تركيبة من الألعاب والأحلام اللذيذة»، ولم يستطع أن يعثر على سبيل إلى الخروج من هذه الحالة الذهنية.

وعلينا أن نلقي نظرة أخرى على نزاع أدولف مع أبيه منذ دخوله في المدرسة الثانوية Realschule . فقد قرر ألويس هتلر أن عليه أن يذهب بانتظام إلى المدرسة الثانوية؛ ومع أن هتلر أظهر القليل من الاهتمام بهذا النهج، فقد قبله. وقد نشأ النزاع الحقيقي، كما أورد في كتابه «كفاحي»، عندما أصرّ أبوه على أن يصبح موظفًا حكوميًا. وكانت الرغبة طبيعية تمامًا، مادام الأب قد تأثّر بنجاحه في هذا المضمار واعتقد أن ذلك سيكون أفضل مهنة لابنه. وعندما أبدى هتلر اقتراحًا معارضًا، وهو أنه يريد أن يصبح فنانًا، رسامًا، ما كان للأب، حسب قول هتلر، إلا أن يقول: «لا، لن تصبح مادمتُ حيًا.» وعندئذ هدّد هتلر بالتوقف عن الدراسة كليًا، وعندما لم يستسلم الأب، «حولتُ تهديدي بصمت إلى واقع» (A.Hitler,1943). وهذا هو تفسير هتلر لإخفاقه في المدرسة، ولكنه جاوز حد التوافق مع الحقيقة.

إنه يتفق مع صورة هتلر عن نفسه بوصفه رجلاً صلبًا وراسخ العزم والثبات تمكن في غضون العام ١٩٢٤ (عندما كُتب كتابه «كفاحي» Mein Kampf) من أن يصعد دربًا طويلاً ومن دأبه أن يستمر حتى النصر النهائي . وهو في الحين ذاته الأساس لصورة الفنان الخائب الذي دخل في السياسة ومعه الحل لإنقاذ ألمانيا. والأهم أنه يبيّن كيف أنه يجب ألايُلام على علاماته الرديئة في المدرسة الثانوية وعلى نضجه البطيء، في حين أنه يجعل مراهقته تبدو بطولية في الوقت ذاته- وهي مهمة صعبة على أي كاتب سيرة ذي وعي سياسي. وفي الواقع، فقد خدم مقصد من صار «الفورر» Führer لاحقًا بصورة جيدة جدًا إلى حد أنه يمكن للمرء أن يسأل بحق ألم يختلق الحدث برمّته. (B.F.Smith,1967)

إن رغبة الأب في أن يصبح ابنه موظفًا حكوميًا من الممكن جدًا أن تكون حقيقية؛ ومن جهة أخرى فإن الأب لم يتخذ إجراءات عنيفة لإرغام ابنه. ولم يقم هتلر بما قام به أخوه الأكبر وهو في الرابعة عشرة من العمر- أي إظهار استقلاله وتحدي أبيه باتخاذه الخطوة العنيفة وهي مغادرة البيت. بل على العكس، فقد تكيّف مع الوضع ولم يقم إلا بالمزيد من الانسحاب إلى داخل ذاته.

ولكي نفهم النزاع علينا أن نقدّر وضع الأب. فلابد أنه لاحظ، كما لاحظت الأم، أن ابنه ليس لديه إحساس بالمسؤولية، ولايريد أن يعمل، ويُظهر عدم الاكتراث. وبما أنه إنسان ذكي وجيد السريرة، فلابد أن اهتمامه لاينصبّ كثيراً على أن يصبح ابنه موظفًا حكوميًا، بل على أن يصير **شخصًا مهمًا**. ويجب أن يكون قد شعر بأن تخطيطه ليصبح فنانًا كان عذراً للمزيد من الانجراف على غير هدى وانعدام المسؤولية. فلو أن ابنه قدّم اقتراحًا معارضًا- أنه يريد أن يدرس الهندسة، مثلاً- وأثبت جدّيته بالحصول على العلامات الجيدة في المدرسة، لكان من الممكن أن تكون استجابة الأب مختلفة. ولكن هتلر لم يعرض أي اقتراح يُظهر لأبيه أنه جدّي. ولم يطلب حتى السماح له بأخذ دروس الرسم إذا أدّى واجبه المدرسي على

نحو جيد. والقول بأنه ليس تحدّيه لأبيه هو الذي جعله بالغ الرداءة في المدرسة تُثبته بوضوح استجابته لأمه في محاولتها إعادته إلى الواقع. إذ بعد وفاة أبيه، وتركه المدرسة الثانوية Realschule ، قرر أن يمكث في البيت.

يقرأ ويرسم ويحلم. وإذ استقر بصورة مريحة في الشقّة الكائنة في شارع هومبولت Humboldtstrasse [حيث انتقلت أمه آنئذ]، استطاع أن يمتّع نفسه. وكان يتحمل وجود پاولا الصغيرة [أخته التي تصغره بخمس سنوات] وأمه في ملاذه لأنه لم يستطع أن يبتعد عنهما من دون اتّخاذ القرار المقزّز وهو ترك البيت والذهاب إلى العمل. ومهما يكن، لم يكن يُسمَح لهما بالتدخّل، مع أن أمه كانت تدفع له الأوراق النقدية وأخته تنظّف وراءه. (B.F.Smith,1967)

ومن الواضح أن كلارا كانت قلقة حوله وتنصحه بأن يكون أكثر جدّية. ولم تُصرّ على مهنة الموظف الحكومي، ولكنها حاولت أن تساعده على أن ينشئ اهتمامًا جدّيًا بشيء ما. وأرسلته إلى مدرسة للفن في مونيخ. وبقي فيها بضعة أشهر، ولكن ذلك كان كل شيء. وكان هتلر يهوى ارتداء الثياب الأنيقة، وأمه «تدفع ثمن الثياب التي تحوله إلى شخص فاخر المظهر بعض الشيء، ربما على أمل أن ينفع ذلك في أن يكون جسراً لآفاق اجتماعية أرحب. وإذا كانت هذه خطتها، فقد أخفقت تمامًا. فلم تنفع الثياب إلا في أن تكون رموزاً للاستقلال والعزلة المكتفية بذاتها» (B.F.Smith,1967).

وقامت كلارا بمحاولة أخرى لإنعاش اهتمام هتلر. أعطته المال ليزور ڤيينا عدة أسابيع. وأرسل إليها بعض البطاقات البريدية التي تهرف بما للأبنية من «فخامة جبارة» و«سمو» و«عظمة». على أن تهجئته واستعماله للنقط والفواصل كانا أقل بكثير من المستوى الذي يتوقّعه المرء فيمن هو في السابعة عشرة من عمره وأتم أربع سنوات في المدرسة الثانوية. وسمحت له أمه بأخذ دروس في الموسيقى (وكان أبوه قد اقترح قبل عدة سنوات أن يأخذ دروسًا في الغناء)، فأخذ هتلر الدروس- زهاء

أربعة أشهر، انتهت عند بداية العام ١٩٠٧. وتوقّف لأنه نفر من التدرّب على السلّم الموسيقي، مع أن الدروس يمكن أن تتوقف على أية حال لأن هجمة المرض الخطير على أمه قد أرغمت الأسرة على تقليص النفقات.

وإن استجابته لمحاولات أمه غير التسلّطية على الإطلاق- التي تكاد تكون علاجية نفسية- لإثارة اهتمامه بشيء حقيقي تُظهر أن رد فعله السلبي على أبيه لم يكن مجرد تحدّ لطلبه أن يصبح موظفًا حكوميًا، بل كان استجابة صبي منسحب ومنساق على غير هدى ضد إنسان كان يمثّل الواقع والمسؤولية. وكان هذا هو لبّ النزاع- لم يكن مجرد نفور من الوظيفة الحكومية، وكانت المزاحمة الأوديبية حتى أقل من ذلك.

إن نزوع هتلر إلى التبطّل وتحاشي العمل الشاق- أو حتى العمل الذي ليس شاقًا جدًا- يتطلّب التفسير. إنه سوف يساعدنا على أن نتذكر الملاحظة التي تم إثباتها بصورة جيدة وهي أن هذا النوع من السلوك كثيراً ما يوجد بين الأطفال المتعلّقين بالأم. فتوقّعهم اللاشعوري في كثير من الأحيان هو أن الأم سوف تفعل كل شيء من أجلهم، كما كانت عندما كانوا أطفالاً صغاراً. وهم يشعرون أنهم غير مضطرين إلى بذل أي جهد فعال، وليس عليهم أن يلتزموا بالنظام: فبوسعهم أن يتركوا أشياءهم مرمية حولهم متوقّعين أن تنظّف وترتّب في أعقابهم. وهم يعيشون في نوع من «الفردوس» حيث لايُتوقَّع منهم أي شيء وكل شيء متوافر لهم. وأعتقد أن هذا التفسير يصدق على حالة هتلر كذلك. وفي تقديري أن ذلك لايناقض فرضية الطبع البارد وغير الشخصي في علاقته بالأم، فهي تؤدي وظيفة الأم من حيث هي، ولو أنها لاتُحَبّ ولايُعتنى بها بطريقة شخصية.

إن وصف كسل هتلر في المدرسة، وعجزه عن العمل الجِدّي، ورفضه الاستمرار في دراساته سوف يوحي لعدد غير قليل من القراء بالسؤال: مااللافت للنظر في ذلك؟ يوجد اليوم عدد كبير من طلاب المدرسة الثانوية الذين لايتابعون

دراساتهم، ويشتكي الكثيرون منهم من الطبيعة المتحذلقة والعقيمة في الدراسة المدرسية، ولديهم خطط لحياة حرة لاتخمعها السلطات الأبوية وغيرها. ومع ذلك فهم ليسوا أفراداً نكروفيليين؛ بل على العكس يمثّل الكثيرون منهم نمط الشخصية المحب للحياة بصدق، والمستقل، والصريح. وقد يصل الأمر ببعض القراء أن يسألوا أليس وصفي لإخفاق هتلر مكتوباً بروح شديدة المحافظة.

وعلى اعتراضات كهذه أود أن أرد: (١) توجد حتمًا أنواع كثيرة من الطلاب المنقطعين عن الدراسة، ولايمكن أن يقال حولهم قول عام؛ بل إن كل نمط مختلف من المنقطعين عن الدراسة لايمكن أن يعالجَ إلا على نحو خاص. (٢) خلافًا لهذه الأيام، فقد كان المنقطعون عن الدراسة عندما كان هتلر مراهقًا نادرين للغاية؛ ومن ثم لم يكن هناك نموذج يُحتذى يجعل من السهل للفرد أن يصبح طالبًا منقطعًا. (٣) والسبب الأشد حسماً من الأسباب السابقة هو السبب الذي ينطبق على هتلر بصورة خاصة: إنه لم يكن غير مهتم بموضوعاته المدرسية وحسب؛ بل كان غير مهتم بأي شيء. إنه لم يبذل جهداً كبيراً في أي شيء- سواء في ذلك الحين أو بعدئذ. (وسوف نرى ذلك في انعدام مجهوده في دراسة الهندسة.) وإذا كان كسولاً فليس لأنه كان مغتبطاً بالتمتّع بالحياة من دون أن يكون مهتماً ببلوغ غاية على نحو خاص. بل على العكس كان مترعاً بطموح ملتهب إلى السلطة؛ وبما أنه ذو طاقة حيوية غير عادية، فقد كان متوتراً وغير قادر تقريباً على أي استمتاع هادئ. وهذا لاينطبق على صورة معظم المنقطعين عن الدراسة؛ وأولئك المنقطعون عن الدراسة الذين ينطبقون على صورة هتلر، إذا أظهروا في الوقت نفسه رغبة متأجّجة في السلطة وانعداماً تاماً للعاطفة نحو أي شخص، يشكّلون مشكلة خطيرة وفي الواقع، خطراً جسيماً.

أما الاعتراض المحتمل المتعلق بأنني «محافظ» في موقفي عندما ألحّ على أن انعدام القدرة على العمل وانعدام المسؤولية صفتان سلبيتان، فإن ذلك يُفضي بنا إلى

التفكرّ في مسألة عصيبة في الراديكالية الشبابية اليوم. وهي أنه أمر واحد بالنسبة إلى الشخص ألايكون مهتماً ببعض الأشياء أو أن يفضّل أشياء معيّنة أو أن يرفض المدرسة برمّتها. ولكن تجنّب المسؤولية والمجهود الجدي يشكل إخفاقًا معينًا في عملية النمو، وهذه حقيقة لايبدّلها إلقاء اللوم على المجتمع. وأي شخص يعتقد أن التبطّل يؤهل المرء ليكون ثوريًا مخطئ بكل معنى الكلمة. فبذل المجهود، والإخلاص، والتركيز أمور من ماهية الشخص مكتمل النمو، ومنها كذلك الثورية؛ والشبان الذين يعتقدون بخلاف ذلك يمكن أن يُحسنوا صنعاً بالتفكير في شخصيات ماركس، وإنجلس، ولينين، وروزا لوكسمبورغ، وماوتسي تونغ- لقد كان كل منهم يشترك مع الآخرين في الصفتين الحيويتين القدرة على بذل المجهود والإحساس بالمسؤولية.

ڤيينا (1907-1913)

في مستهلّ العام ١٩٠٧ جعلت أم هتلر من الممكن له ماليا أن ينتقل إلى ڤيينا ليدرس في أكاديمية الفنون. وكان هتلر بهذا الانتقال مستقلاً في آخر الأمر؛ متحرراً من ضغط أبيه؛ واستطاع أن يخطّط ويتصرف كما يشاء. ولم يكن عليه حتى أن يتغلّب على المشكلات المالية، مادام الميراث من أبيه والمرتّب التقاعدي الذي كانت تدفعه الدولة لأيتام الموظفين الموتى قد سمح له أن يعيش حياة مريحة بعض الشيء.[1] وبقي في ڤيينا من ١٩٠٧ إلى ١٩١٣، من أواخر المراهقة إلى بواكير الرجولة.

فماذا جعل من نفسه في هذه المرحلة الحاسمة؟

ولنبدأ بأنه جعل الوضع في ڤيينا أيسر بالنسبة إليه بإقناعه رفيق سنواته الأخيرة في «لنتس»، وهو أ. كوبيتسك A.Kubizek ، بأن يلتحق به. وكان

١- إن إعراب هتلر عن فقره في كتابه «كفاحي» Mein Kampf هو في جوهره غير صحيح.

كوبيتسك هو الأكثر شوقاً إلى الذهاب؛ ولكن الانتصار على والد كوبيتسك، الذي كان يقف بثبات ضد خطط ابنه الفنية، ليس بالأمر اليسير، وكان ذلك أحد أقدم البراهين على القدرات الإقناعية عند هتلر. وكان كوبيتسك، شأن هتلر، معجباً بحرارة بموسيقى ڤاغنر، وبسبب هذه الحماسة المشتركة كانا يلتقيان في دار الأوپرا في لنتس وأصبحا صديقين وفيين. وكان كوبيتسك يعمل صانعًا مبتدئًا في مخزن أبيه للتنجيد، ولكن كانت لديه، أيضًا، أحلام كبيرة: فقد أراد كذلك أن يصبح فناناً، موسيقياً. وكان أكثر مسؤولية وجدِّية من هتلر، ولكن شخصيته أقل تأثيراً من هتلر. وهكذا سرعان ما صار تحت تأثير هتلر المهيمن. ومارس هتلر معه قدرته على التأثير في الناس؛ وتلقّى من صديقه الإعجاب التام فتلقّى بذلك تأكيداً مستمراً لنرجسيته. وفي الكثير من النواحي فإن صداقته زوّدت هتلر بالبديل من الاغتباط الذي كانت الألعاب مع عصابات الصبيان تمنحه إياه: أن يكون القائد ومحطّ الإعجاب.

وذهب هتلر بُعيد وصوله إلى ڤيينا إلى أكاديمية الفنون وتسجّل في الامتحان السنوي. ومن الواضح أنه لم يكن لديه شك في أنه سوف يُقبَل. إلا أنه قد خاب، فقد رُفض في القسم الثاني من الامتحان، بعد أن اجتاز القسم الأول. (W.Maser,1971). وكما كتب هتلر في «كفاحي»: «عندما تسلّمت الرفض صدمني صدمة مفاجأة تامة.» وأورد أن أحد أساتذته في أكاديمية الفنون قد أخبره أنه على ما يبدو أكثر موهبة في الهندسة منه في الرسم. ولكن حتى لو كان الخبر صحيحاً، لكان هتلر قد تابَعَه. وكان من الممكن إدخاله في مدرسة الهندسة لو واظب على المدرسة الثانوية سنة أخرى؛ ولكن ليس هناك دليل على أنه قد فكّر جدِّيًا في ذلك. ولكن ماأورده هتلر في «كفاحي» غير صادق. وكتب أنه مادام لايحمل شهادة الدراسة الثانوية، فإن تحقيق رغبته في أن يصبح مهندساً كان «مستحيلاً من الوجهة المادية». ثم استمر في التفاخر: «أردت أن أصير مهندساً

ولكن العقبات لاتوجد للاستسلام لها بل لإحباطها. وكنت عاقد العزم على التغلّب على هذه العقبات ... » والحقائق الواقعة هي النقيض تماماً:

منعته شخصيته وطريقته في الحياة من معرفة أخطائه ومن قبول أن رفض الأخطاء دلالة على حاجته إلى التغيّر. وقوّى نزعتَه الهروبية تصنّعُه الاجتماعي، وازدراؤه للعمل الذي بدا له قذراً أو مُحطاً للقدر أو متعباً. وكان شاباً مشوّشاً ومتعاظماً ومُطلقاً العنان لنفسه منذ أمد طويل فلايود أن يعمل عملاً لايسرّه ولايحترم أي شخص سوى نفسه وأسلوب الحياة الذي يستمتع به. وكان حله لمشكلة رفض الأكاديمية له هو العودة إلى «شتومبرغاسه» Stumpergasse والمكوث فيها كأن شيئاً لم يحدث. وفي هذا الملاذ، استأنف ماسمّاه بعظمة «دراساته»، راسماً وقارئاً، مع نزهات حول البلدة أو إلى دار الأوبرا.
(B.F.Smith,1967)

وادّعى لكل شخص أنه قد تمّ تسجيله طالباً للفن في الأكاديمية، وكذب بهذا الخصوص حتى على كوبيتسك بعد أن وصل إليه في ڤيينا. وعندما ارتاب كوبيتسك في آخر الأمر لأنه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن يتأخّر صديقه في النوم صباحاً ويظل طالباً، أنبأه هتلر بالحقيقة في انفجار عنيف بالغضب على الأساتذة في أكاديمية الفن. ووعد بأنه سوف يُريهم، وأنه سيدرس الهندسة بنفسه. وكان منهجه في «الدراسة» هو السير في الشوارع، والنظر إلى المباني الفخمة، والعودة إلى البيت، ورسم مالانهاية له من الرسوم التخطيطية وواجهات الأبنية. وكان الاعتقاد بأنه على هذا النحو سيصير مهندساً من أعراض افتقاره إلى الواقعية. وتحدّث مع كوبيتسك عن مخطّطاته في إعادة بناء ڤيينا كلها أو في كتابة أوپرا؛ وذهب إلى المجلس النيابي للاستماع إلى مناقشات النواب؛ وطلب مرة ثانية قبوله في أكاديمية الفنون، وفي هذه المرة لم يُسمَح له حتى بالاختبار الأول.

أمضى أكثر من سنة في ڤيينا، لايقوم بأي عمل جدّي، مخفقاً في الامتحان مرتين، ويزعم مع ذلك أنه في سبيله إلى أن يصير فناناً كبيراً. ولكن على الرغم من

ادعائه، لابد أنه قد شعر أن هذا العام قد أوصله إلى الهزيمة. وكانت هذه الهزيمة أشد مرارة من هزيمته في المدرسة الثانوية التي يستطيع أن يفسّرها بفكرة أنه ينوي أن يكون فناناً. فعندما أخفق في أن يكون فناناً لم يعد مثل هذا التفسير ميسوراً. لقد رُفض في المجال الذي كان على يقين من أنه سيكون فيه عظيماً؛ ولم يتُرك له شيء إلا إلقاء اللوم على الأساتذة، والمجتمع، والعالم قاطبة. ولابد أن نرجسيته قد دفعته إلى مزيد من الانسحاب من الواقع- حتى أكثر من انسحابه في وقت إخفاقه الأول- ليحميها من أن تتحطّم.[1]

وفي هذه الآونة بدأت عملية انسحاب تام تقريباً من الناس وجدت أبلغ تعبير لها في أنه قطع العلاقة الحميمة الوحيدة التي لديه: علاقته بكوبيتسكِ. فغادر الغرفة التي يشتركان فيها، والتي كان يُفترض أن يعود إليها كوبيتسك بعد زيارته لبيته، من دون أن يترك عنوانه الجديد. وظل كوبيتسِك منقطع الصلة به حتى الزمن الذي صار فيه هتلر مستشار الرايخ.

وبالتدريج انقضت المرحلة اللذيذة من التبطّل والتحدث والمسير والرسم الإجمالي السريع. وكان لدى هتلر مال قد بقي من أجل مدة أقل من سنة، شريطة أن يقتصد. ولما لم يكن لديه مستمعون يتحدث إليهم، بدأ يقرأ أكثر. وكانت في

١- إن مازر، في محاولته إيجاد أكثر ما يمكن من جدِّية هتلر فيما يتصل بدراسة الفن، يورد أن هتلر قد أخذ دروساً من نحّات، هو أستاذ المدرسة الثانوية، پانهولتسر Panholzer. ولكن الدليل الوحيد الذي يقدّمه على هذا القول هو رسالة كتبتها أم مالكة أرض هتلر إلى أستاذ التصميم المسرحي، رولر Rol-ler، طالبة إليه أن يرى هتلر وينصحه. ولايقتبس مازر شاهداً يُري ماذا كانت نتيجة الزيارة- إذا تمت في أي وقت. ولايذكر إلا أن هتلر بعد ثلاثين سنة قد سمّى پانهولتسر معلمه (ووفقاً للبناء الصرفي الصحيح لجملة مازر فهو يجب أن يُقرأ رولر). وهذا مثال من الأمثلة الكثيرة التي يستخدم فيها مازر قولاً قاله هتلر حول نفسه بوصفه دليلاً كافياً. ولكن كيف استطاع مازر أن يعرف أن هتلر اضطر إلى العمل «بطريقة منضبطة ومنتظمة» في مَشْغَل پانهولتسر يظل لغزاً، وكذلك لماذا لابد للرسّام والمهندس المبتدئ من أن يريد أخذ التعليمات من نحات. (W.Maser,1971)

النمسا في ذلك الحين تجمعات سياسيّة وأيديولوجية كثيرة متمحورة حول القومية الألمانية، والنزعة العرقية، و«الاشتراكية القومية» (في بوهيميا)، ومعاداة السامية. وقد نشرت كل جماعة من هذه الجماعات كرّاساتها، تبشر بأيديولوجيتها التي كانت خاصة، وتقدّم الحل. وقرأ هتلر هذه الكرّاسات بنهم واكتسب المادة الخام التي أنشأ منها نوعه الخاص من مبدأ التمييز العنصري، و«الاشتراكية». وهكذا، وبينما كان في هذه المرحلة غير مستعد لمهنة الفنان، فقد وضع الأسس لمهنته المستقبلية الحقيقية، الزعيم السياسي.

في خريف ١٩٠٩ نَفَد ماله فانسلّ من مسكنه من دون أن يدفع الإيّجار المدين به. وبدأت في هذه الآونة أسوأ فترة. فكان ينام على المقاعد العامة الطويلة، وأحياناً في الفنادق الرخيصة، وانضم إلى صفوف الصعاليك المتسكّعين ابتغاء التسوّل أو السرقة، يقضي الليالي في مأوى المعدِمين الذين كانت تدعمهم جمعية خيرية. إن الشاب الذي جاء إلى ڤيينا قبل سنتين ونصف السنة وهو مقتنع أنه سيصير فناناً عظيماً قد انحطّ وصار صُعلوكاً متشرداً، يتوق إلى نيل قصعة من الحساء الساخن، فاقداً لأي نوع من الآمال ولايبذل أي مجهود لدعم نفسه. وبالفعل، وكما يكتب سميث، فإن دخوله بيت المشردين «كان إعلاناً عن هزيمة تامة».

ولم تكن هذه الهزيمة هزيمة لهتلر الفنان وحسب، بل كذلك لهتلر البرجوازي المتكبّر وحَسَن الملبس الذي لم يكن لديه شيء إلا احتقار الطبقات الدنيا. وهاقد أصبح متسولاً، مدحوراً؛ وصار ينتمي إلى حثالة المجتمع. وكان من شأن ذلك أن يكون إذلالاً شديداً حتى لعضو في الطبقة الوسطى أقل نرجسية. ومادام ثابتاً في مكانه إلى حد كاف لئلا يتضعضع، فلابد أن هذا الوضع قد قوّاه. فالأسوأ قد حدث، وظهر متصلّباً مخشوشناً، ونرجسيته سالمة؛ وكان كل شيء يعتمد على إزالة الإهانة بأخذ الثأر مِن كل «أعدائه» وتخصيص حياته لهدف إثبات أن صورته الذاتية النرجسية لم تكن أُخيولة بل واقعاً.

وهذه السيرورة يمكن فهمها على نحو أفضل إذا تذكّرنا الملاحظات السريرية التي ذكرناها آنفاً حول الأشخاص النرجسيين الذين يخيبون. وهم في العادة لايتعافون. فمادام عالمهم الداخلي الذاتي والخارجي الموضوعي قد تمزّق، فقد يصبحون ذُهانيين أو يعانون من الاضطرابات الذهنية الشديدة؛ وإذا كانوا محظوظين فقد يجدون كوّة في الواقع- عملاً خفيفًا مثلاً، يسمح لهم بالتشبّث بأخيولتهم النرجسية حين يلومون العالم ويتخبّطون في حياتهم من دون كارثة كبيرة. ولكن هناك نتيجة أخرى لاتتيّسر إلا لمن لديهم مواهب خاصة؛ فهم يمكن أن يحاولوا أن يغيّروا الواقع على النحو الذي تثبت أُخيولاتهم المتفخّمة أنها حقيقية. وهذا الأمر لايقتضي مجرد الموهبة بل كذلك الظروف التاريخية التي تجعل ذلك ممكناً. وهذا الحل يتيّسر في أكثر الأحيان للزعماء السياسيين في فترات الأزمة الاجتماعية؛ وإذا كانت لديهم موهبة مناشدة الجماهير الغفيرة وكانوا من الفطنة إلى حد يكفي لتنظيمها، فإنهم يمكن أن يجعلوا الواقع مطابقاً لحلمهم. وكثيراً مايُنقذ الديماغوجي [الذي يهوّش الجماهير] سلامته بصوغ أفكار كانت تبدو «جنونية» قبل أن تبدو الآن «سليمة». وهو في كفاحه السياسي لايدفعه الشغف بالسلطة وحسب، بل كذلك الحاجة إلى إنقاذ سلامته الذهنية.

وعلينا الآن أن نعود إلى حيث تركنا هتلر في أيأس مرحلة في حياته وأشقاها. لم تدم هذه المرحلة طويلاً جداً-ربما شهرين- ولم يعمل في أي وقت في أي عمل يدوي، كما يزعم في كتابه «**كفاحي**». وبعد مدة وجيزة بدأت ظروفه تتحسّن عندما صادقه متسول جوال قديم، هو «هانيش» Hanisch ؛ وكان هانيش شخصاً دنيئاً ذا نظرة سياسية شبيهة بنظرة هتلر وله اهتمام بالرسم.[1] والأهم هو أنه كانت لديه فكرة عملية يستطيع بها كلاهما أن يتجنّب الفاقة. فلو طلب هتلر من

١- إن النص التالي قائم أساساً على كتاب سميث B.F.Smith (1967) .

أسرته مبلغاً صغيراً لشراء مواد الرسم، لكان بالإمكان أن يرسم بطاقات بريدية ويلونها وبإمكان هانيش أن يبيعها. واتّبع هتلر نصيحته؛ وبالكرونات الخمسين التي تلقّاها اشترى المواد اللازمة للرسم واشترى معطفاً كان في أمسّ الحاجة إليه وانتقل مع هانيش إلى «بيت الذكور» Männerheim ، وهو فندق فئة حسنة السيرة من الرجال تمكّن فيه من استخدام القاعة المشتركة الكبرى للرسم فيها. وسار كل شيء على مايرام. فكان هتلر يرسم البطاقات البريدية وهانيش يطوف بها في الشارع؛ ثم أحضر الألوان المائية والزيتية ورسم رسوماً أكبر، باعها هانيش لصانعي الإطارات وتجار الفن. ولم تكن هناك إلا مشكلة واحدة: لم يكن هتلر دؤوباً على الرسم. وما كاد يحصل على قليل من المال حتى كفّ عن الرسم وأخذ يُمضي الوقت في التحدّث في السياسة مع نزلاء البيت الآخرين. ومع ذلك كان لديه دخل ثابت ولو كان قليلاً. وفي آخر الأمر حدث شجار مع هانيش الذي اتّهمه هتلر ببيع لوحة من دون إعطائه حصته من ثمن القطعة (٥٠ في المائة). وأبلغ الشرطة بسرقة هانيش، فجرى توقيف هانيش. ثم واصل هتلر العمل على حسابه، يرسم ويبيع أعماله (وخصوصاً لتاجرين يهوديين من تجار الفن). ويبدو أنه قد عمل في هذا الوقت بصورة أكثر انتظاماً؛ وأصبح رجل أعمال صغير؛ وعاش باقتصاد ووفرّ القليل من المال. ومن الصعب أن يقول المرء إنه أصبح «رسّاماً» أو «فناناً» مادام مايقوم به يعتمد على الأغلب على النَّسْخ من الصور الفوتوغرافية وتكرار تلك الصور التي ثبت أن لها طلباً في السوق. وظل في «بيت الذكور»؛ ولكن وضعه في ذلك الفندق قد تغير. فقد صار ساكناً **دائماً**، وهذا يعني أنه انتسب إلى جماعة «الدائمين» الصغيرة التي كانت تنظر إلى «العابرين» على أنهم أدنى منهم، والتي شكّلت نخبة محترمة ضمن نظام الفندق.

ومن المحتمل أن هناك عدة أسباب لقراره البقاء في «بيت الذكور». والاحتمال الأضعف هو أنه الأرخص، كما يؤكد مازر. فمقابل خمسة عشر كروناً

في الشهر يدفعها في ذلك البيت كان يستطيع أن يجد غرفة خاصة تفي بالحاجة. ولكنْ هناك عددٌ من الأسباب السيكولوجية التي تطلّ بنفسها. فقد كان هتلر، شأن الكثيرين من الأشخاص غير المرتبطين، خائفاً من أن يكون وحده. وللتعويض عن وحدته الداخلية كان بحاجة إلى الاتصال السطحي بالآخرين. وكان الأهم من ذلك حاجته إلى جماعة من المستمعين يستطيع أن يؤثّر فيها؛ وكان ذلك متوافراً بصورة جيدة في «بيت الذكور»، الذين كان معظم المستأجرين فيه حوشيين من الأنماط الهامشية، أخفقوا على نحو ما في تحقيق حياة أكثر طبيعية. ومن الواضح أن هتلر كان متفوقاً عليهم في الذكاء والقوة. وكانت لهم الوظيفة التي كانت لكوبيتسك لعصابات الصبيان. وأتاحوا له الفرصة لممارسة قدرته على التأثير في الآخرين وإحداث وَقْع فيهم، ومن ثم لتأكيد شعوره بالسلطة. وعندما كان يقعد ويرسم كان من دَيْدنَه أن يقطع رسمه ويبدأ بإلقاء الخطب السياسية العنيفة، التي هي إلى حد كبير جداً بالأسلوب الذي عُرِف به فيما بعد. وأصبح «بيت الذكور» عنده مدرسة تدريب على مهنة الديماغوجي السياسي.

وينشأ سؤال حاسم عندما نفكر في وجود هتلر في ذلك الحين: ألم يكتسب القدرة على العمل الثابت، متحولاً من متسكّع كسول إلى رجل أعمال صغير مُفلح إلى حد ما؟ ألم يجد نفسه ويحقق توازناً ذهنياً صحيحاً؟

قد يبدو على السطح كأن الأمر كذلك. ولعلها كانت حالة نضج، ولكن هل يستطيع المرء أن يدعوها حالة طبيعية؟ إذا كانت كذلك فإن التحليل المفصّل لنشوئه الانفعالي ليس ضرورياً تماماً. وسيكون كافياً أن يقال إن هتلر بعد بعض الصعوبات المتعلقة بحالة طبعه في حداثته قد أصبح، بعد سن الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، إنساناً جيد التكيّف وصحيحاً ذهنياً.

ولكن إذا تفحّص المرء الوضع بدقة أشد وجد أن هذا التفسير غير منيع فههنا إنسان ذو حيوية غير عادية، وشغف متّقد بالعظمة والسلطة، وله الاعتقاد الراسخ بأنه سيصبح أكبر رسّام أو مهندس. فماذا كان الواقع؟

لقد أخفق في هذا الهدف تماماً؛ وأصبح رجل أعمال صغير، وكانت قدرته تكمن في التأثير في جماعة صغيرة من الحوشيين المنعزلين الذين كان يخطب فيهم باستمرار، من دون أن ينجح حتى في إيجاد أتباع له بينهم. ولعل هتلر لو كان إنساناً أصغر ذا حيوية أقل وجنوح نحو العظمة أقل، لسرّه الحل، ولرضي بتحقيق الوجود البرجوازي الصغير لفنان تجاري. ولكن تصورّ هتلر على ذلك النحو تصور يكاد ينافي العقل. ولم يكن ثمت إلا تغيّر واحد: قد علّمته أشهر الفقر الشديد أن يعمل- عملاً عادياً كما كان عمله. ولكن طبعه فيما عدا ذلك لم يتغيّر- إلا، ربما، بمعنى أنه أصبح محفوراً بصورة أعمق. وظل إنساناً نرجسياً إلى أقصى حد من دون أي اهتمام بأي أحد أو أي شيء، يعيش في جو نصف الأخيولة أو نصف الحقيقة، مع الرغبة اللاهبة في الظفر، ومن دون أي هدف، أو مخطّط أو مفهوم واقعي حول مسألة كيف يحقق مطامحه.

مونيخ

أصبح انعدام الهدف هذا واضحاً في قراره المفاجئ أن يقطع إقامته في «بيت الذكور» وينتقل إلى مونيخ ويتسجّل هناك في أكاديمية الفنون. وكان لايعرف شيئاً تقريباً عن الوضع في مونيخ؛ وكان أقل شيء هو أن يستعلم هل هناك سوق للوحاته كما كان الأمر في ڤيينا. وسافر إلى هناك بمجرد أن وفّر قليلاً من المال ليساعده في غضون الأشهر الأولى. وتبين أن قراره كان مغلوطاً فيه. ولم يتحقق حلمه بأن يُقبل في الأكاديمية الفنية في مونيخ. ولم توجد إلا سوق صغيرة للوحاته، ووفقاً لسميث كان مرغماً على التجوال منادياً بصوره في صالات البيرة وأن يبيعها من باب إلى باب. ووفقاً لـ«مازر»، فإن إعلان ضريبة دخل هتلر يُظهر أنه كان يكسب مائة مارك في الشهر، وهذا يعادل دخله في ڤيينا. ولكن تبقى الحقيقة هي أنه ظل في مونيخ كذلك فناناً تجارياً يعتمد على نَسْخ الأعمال على الأغلب. وخاب حلم هتلر بأن يصبح رساماً عظيماً بصورة قطعية، وبموهبته الصغيرة وعدم تدرّبه لم تكن هناك صلة حتى بين أفضل مايتُوقَّع من عمله في الرسم وآماله الكبيرة.

أليس من المدهش أن اندلاع الحرب العالمية الأولى كان نعمة له وأنه شكر السماء لهذا الحدث الذي أزال بضربة واحدة ضرورة أن يقرر مايفعله بحياته؟ فقد نشبت الحرب في المرحلة التي لم يعد يستطيع فيها أن يتجنّب الإدراك الكامل لإخفاقه بوصفه فناناً، وأحلّت محل إحساسه بالذل الشعور بالفخر بأنه «بطل». وكان هتلر جندياً مطيعاً، ومع أنه لم يرتق (إلا بصورة ثانوية)، فقد أُنعم عليه بوسام لشجاعته، واحترمه رؤساؤه. ولم يعد منبوذاً، بل كان بطلاً يقاتل في سبيل ألمانيا، من أجل وجودها ومجدها، ومن أجل قيم الحركة القومية. كان يستطيع أن ينغمس في مجاهداته من أجل التدمير والظفر- ولكن الحرب كانت آنئذ حقيقة، ولم تعد الحربَ الأُخيولية عند الصبيان الصغار؛ ولعله كان هو نفسه أصدق في هذه السنوات الأربع مما كان في أي وقت مضى. كان إنساناً مسؤولاً ومنضبطاً، ومختلفاً تماماً عن المتبطّل في أيام ڤيينا. وانتهت الحرب بما بدا له أنه آخر خيباته: الهزيمة والثورة. ويمكن أن تظل الهزيمة ممكنة التحمل أكثر، ولكن لم تكن الثورة كذلك. فقد هاجم الثوريون كل ما هو مقدس في المذهب القومي الرجعي عند هتلر، وانتصروا؛ وكانوا سادة اليوم، وخصوصاً في مونيخ، حيث أحدثوا «جمهورية اشتراكية» Räte Republik عاشت قليلاً.

وانتصار الثوريين قد أعطى لتدميرية هتلر شكلها النهائي الذي لايُمحى. وكانت الثورة هجوماً عليه، على قيمه، وعلى آماله، وعلى جنوحه إلى العظمة الذي كان فيه هو وألمانيا شيئاً واحداً. وكان هوانه أكبر مادام بعض القادة الثوريين من اليهود، الذين كان يعدّهم أكبر أعدائه منذ سنوات كثيرة، والذين جعلوه المشاهد منكود الحظ لدمار مثله القومية البرجوازية الصغيرة. وهذا الذل الأخير لايمكن أن يزول إلا بالقضاء على كل ما اعتقد أنهم مسؤولون عن ذلك. وكان كرهه وظمؤه إلى الانتقام موجَّهين كذلك ضد قوى الحلفاء الظافرة التي أرغمت ألمانيا على قبول «معاهدة ڤرساي» ولكن بدرجة أقلّ مما هما موجَّهان ضد الثوريين، ولاسيما منهم اليهود.

وقد نمت خيبات هتلر على مراحل: بوصفه طالباً في المدرسة الثانوية، وخارجاً من الطبقة الوسطى في ڤيينا، ومرفوضاً من الأكاديمية الفنية. وسببّت كل خيبة لنرجسيته جرحاً أخطر وإذلالاً أعمق من الإذلال السابق؛ وبالدرجة التي نمت خيباته، نما كذلك انغماسه في الأُخيولة، واستياؤه، ورغبته في الانتقام، ونمت عنده النكروفيليا التي من المرجّح أن تكون جذورها الباكرة قدنشأت في رغبته السفاحية الخبيثة في الحرُم. وكانت بداية الحرب تبدو نهاية لفترة الخيبات، ولكنها انتهت إلى إذلال جديد: هزيمة الجيوش الألمانية وانتصار الثوريين. وفي هذه المرة وجد هتلر الفرصة لتحويل هزيمته ومذلّته الشخصية إلى هزيمة ومذلّة قومية واجتماعية، مكّنته بذلك من نسيان خيباته الشخصية. وفي هذه المرة هو لم يُخفق ولم يُذلّ، بل ألمانيا؛ وبالثأر لألمانيا وإنقاذها سوف يثأر لنفسه، وبإزالته عار ألمانيا سوف يزيل عاره. وكان هدفه في ذلك الحين هو أن يصير ديماغوجياً عظيماً، ولم يعد أن يصير فناناً كبيراً؛ ووجد المجال الذي لديه فيه موهبة حقيقية، ومن ثم، فرصة حقيقية للنجاح.

وليست لدينا مادة مفصّلة تفصيلاً كافياً حتى هذه الفترة لإثبات وجود ميوله النكروفيلية القوية الظاهرة في سلوكه. ولم نرَ إلا الأساس الطباعي الذي سهّل نمو مثل هذه الميول: الرغبة السفاحية الخبيثة في الحرُم، والنرجسية، والبرودة، وعدم الاهتمام، والانغماس الذاتي، وعدم الواقعية، وهي الميول التي أدّت بالضرورة إلى صنوف الإخفاق والهوان. ومن ١٩١٨ وما بعد، ومادامت هناك مادة وافية متوافرة حول حياة هتلر، يمكن أن نتبيّن تبدّيات النكروفيليا عنده بوضوح متزايد.

تعليق على المنهجية

قد يعترض بعض القراء ويسألون: هل نحن بحاجة إلى أن نُثبت نكروفيليا هتلر؟ أليست تدميريته حقيقة واقعة لاريب فيها.

من المؤكد أنه ليس علينا أن نثبت واقع **أعمال** هتلر التدميرية الخارقة للعادة. ولكن الأعمال التدميرية ليست بالضرورة تبدّيات لطبع تدميري نكروفيلي. هل كان نابليون نكروفيلياً لأنه لم يتردّد في التضحية بحيوات جنوده في سبيل طموحه الشخصي وغروره؟ وهل كان القادة السياسيون والعسكريون الذين أمروا طوال التاريخ بالتدمير واسع النطاق كلهم نكروفيليين؟ ومن المؤكد أن أي امرئ يأمر بالتدمير أو يتغاضى عنه ينّم عن أنه قد قسّى قلبه. ومع ذلك، واعتماداً على التحريضات والظروف، فإنه حتى الجنرال أو الزعيم السياسي غير النكروفيلي يمكن أن يأمر بالتدمير الشديد. والمسألة المثارة في هذا الكتاب ليست معنيّة بـ «**السلوك**» بل بـ «**الطبع**». وبصورة أكثر تحديداً: ليست المسألة هل **سلك** هتلر سلوكاً تدميرياً، بل هل كان يحرّضه شغف شديد بالتدمير، شغف بالتدمير هو جزء من **طبعه**. وهذا أمر يجب إثباته، لاالتسليم به. وعلى الدراسة السيكولوجية أن تبذل كل جهدها لتكون موضوعية، ولاسيما في حالة شخص مثل أدولف هتلر. وحتى لو أن هتلر قد توفي في سنة ١٩٣٣، أي في وقت سابق لارتكابه الفعلي أعمال التدمير المكشوفة واسعة النطاق، فإنه يمكن على الأرجح أن يشخّص بأنه شخص نكروفيلي على أساس التحليل المفصَّل لشخصيته الكلية. والتصاعد التدريجي للتدمير الذي نشأ ابتداءً بفتح بولونيا وانتهاءً بأوامره بتدمير معظم ألمانيا وسكانها ليس من شأنه إلا أن يكون التأكيد النهائي للتشخيص الطباعي السابق. ومن جهة أخرى، ولو أننا لم نعرف شيئاً عن ماضيه حتى سنة ١٩٣٣، فإن التفصيلات الكثيرة في سلوكه اللاحق تسوّغ تشخيص النكروفيليا الشديدة، ولاتقتصر على الدلالة على أنه قد كان، على أساس النظرية السلوكية، إنساناً قد سبّب في الكثير من التدمير. ولاريب أن هذا التمييز بين السلوك والقوى المحرضة لامعنى له من وجهة النظر السلوكية؛ ولكن إذا أراد المرء أن يفهم ديناميات الشخص الكلي، ولاسيما قطاعه اللاشعوري، فالتمييز

أساسي. وفي حالة هتلر فإن استخدام المنهج التحليلي النفسي له أشد الأهمية لأنه كان يكبت عاطفته النكروفيلية إلى درجة غير عادية وبطرق مختلفة كثيرة.

تدميرية هتلر [١]

كانت موضوعات التدمير عند هتلر هي المدن والناس. وكان الباني الكبير، والمخطِّط المتحمس لـ«ڤيينا» جديدة، و«لنتس» جديدة و«برلين» جديدة، هو في الوقت نفسه من أراد أن يدمّر باريس، وأن يهدم لينينغراد ويسوّيها بالأرض، وأن يدكّ في آخر الأمر كل مدن ألمانيا. وهذه النيّات موثّقة جيداً. ويذكر شپير أن هتلر في ذروة نجاحه قد أبدى له ملاحظة، بعد أن زار باريس التي تمّ فتحها مؤخراً، قائلاً: «ألم تكن باريس جميلة؟ ... في الماضي كثيراً ما كنت أفكر في مسألة أليس علينا تدمير باريس. ولكن عندما ننهزم في برلين، فإن باريس يجب ألا تكون إلا ظلاً. فلماذا يجب أن ندمرها؟» (A.Speer,1970). وفي النهاية، ولاريب، قد أمر هتلر بأن تدمَّر باريس- وهو أمر لم ينفّذه آمر باريس الألماني.

١- استخدمتُ من الكتابات الضخمة وذات المجلدات حول هتلر ومرحلته من ١٩١٤إلى ١٩٤٦ بصورة أساسية كتابي شپير (1970) A.Speer و«مازر» (1971) W.Maser، والثاني مع بعض الحذر، كما جرت الإشارة آنفاً فيما يتعلق بإشاراته إلى حداثة هتلر. وأنا مدين بقدر كبير من المعلومات والبصيرة لألبرت شپير كذلك من خلال الاتصالات الشخصية الكثيرة. (وقد ندم شپير بصدق على مشاركته السابقة في النظام النازي، وأنا أصدّق قوله إنه صار إنساناً مختلفاً تماماً.) والمصدران الإضافيان القيّمان هما:

P.E.Schram (1965) and H..Krausnick et al. (1968)

وهما مهمان لأن كليهما يستشهد بمصادر مهمة، وبكتاب هتلر «أحاديث المائدة» (H.Picker, 1965) مع مقدمة من «شرام» Schramm، وهي مصدر ممتاز وقد استفدت كذلك من E.Hanfstaengl (1970)، ولكن بحذر شديد. وكانت الاستفادة ضئيلة من كتاب هتلر «كفاحي» Mein Kampf (1943) بوصفه مصدراً تاريخياً. وجرى الرجوع كذلك إلى الكثير من الكتب الأخرى، وتمّ في النص الاستشهاد ببعض هذه الكتب.

وكان أقصى تعبير له عن هوسه بتدمير المباني والمدن هو مرسوم «الأرض المحروقة» الذي أصدره بالنسبة إلى ألمانيا في أيلول ١٩٤٤ ، وأمر فيه أنه قبل أن يحتل العدو الأرض الألمانية

يجب أن يدمَّر كل شيء، وببساطة كل شيء أساسي للمحافظة على الحياة: قيود البطاقات التموينية، وملفّات الزواج، ومكاتب تسجيل الإقامة، وسجلات الحسابات المصرفية. وبالإضافة إلى ذلك يجب القضاء على الموارد الغذائية، وإحراق المزارع، وقتل المواشي. ويجب ألا تصان حتى الأعمال الفنية التي كفتها القنابل شرها. ويجب أن تنهدّ النصب التذكارية، والقصور والكنائس، والمسارح ودور الأوبرا. (A.Speer, 1970)

وكان هذا يعني كذلك، ولاريب، أنه لن يكون هناك ماء ولاكهرباء ولامرافق صحية- أي الأوبئة والأمراض والموت للملايين الذين لايستطيعون الهروب. وبالنسبة إلى شپير، وهو ليس مدمِّراً نكروفيلياً بل هو بانٍ بيوفيلي، فقد شقّ هذا الأمر هوة سحيقة بينه وبين هتلر. وإن شپير، في بحثه عن العون من الجنرالات والمسؤولين الحزبيين الذين لم يكن يدفعهم اشتهاء هتلر للتدمير، قد جازف بحياته لتعطيل هذه الأوامر. وبفضل جهوده وجهود عدد من الآخرين وبسبب عدد من الظروف الأخرى كذلك، لم تُنفّذ سياسة هتلر في الأرض المحروقة.

ويستحق شغف هتلر بتدمير المباني والمدن اهتماماً خاصاً لصلته بشغفه بالبناء. وقد يذهب المرء بعيداً إلى حد القول إن مخططاته لإعادة بناء المدن لم تكن غير تعلّة في أول الأمر لتدميرها. ولكنني أعتقد أنه سيكون من الخطأ تفسير اهتمامه بالهندسة المعمارية بأنه ليس إلا غطاء لرغبته في التدمير. فمن الراجح أن اهتمامه بالهندسة المعمارية كان صادقاً، وأنه كما سنرى بعدئذ، الشيء الوحيد في الحياة-إلى جانب السلطة والنصر والتدمير- الذي اهتم به بصدق.

وتدميرية هتلر من الممكن أن تبين كذلك في مخططاته لمستقبل البولونيين بعد انتصاره عليهم. فيجب أن يُخْصَوا ثقافياً؛ وأن يقتصر التعليم على معرفة إشارات المرور، والقليل من اللغة الألمانية، وبالنسبة إلى الجغرافيا، أن برلين عاصمة ألمانيا؛ أما علم الحساب فزائد عن الحاجة. ويجب ألا تكون هناك رعاية طبية؛ وأن تكون مستويات العيش منخفضة؛ وكان كل ما يصلحون له هو أن يكونوا عمالاً رخيصي الأجر وعبيداً مطيعين (H.Picker,1965).

وكان **أصحاب العاهات** من الناس هم **الأهداف** البشرية الأولى التي يجب قتلها. وقد سبق لهتلر أن كتب في «كفاحي»: «إن أصحاب العاهات [يجب] أن يُمنعوا من التناسل وكذلك ذريتهم... لأنه إذا دعت الضرورة، فإن المريض بمرض عضال سوف يُعزَل عن بقية الناس من دون شفقة- وهو إجراء بربري بالنسبة إلى تعيس الحظ الذي يصاب بذلك، ولكنه نعمة بالنسبة إلى إخوته البشر وأجياله القادمة» (A.Hitler,1943). وقد ترجم هذه الأفكار إلى عمل بقتل أصحاب العاهات بدلاً من مجرد عزلهم. والتجلّي الباكر الآخر لتدميريته هو جناية القتل الغادرة بحق إرنست روم Ernest Röhm (الذي شوهد يثرثر معه بودية قبل بضعة أيام فقط من موت روم) وغيره من قادة جيش الخلاص لمجرد أسباب ذات قصد سياسي (لطمأنة أرباب الصناعة والجنرالات باستئصال قادة الجناح «المعادي للرأسمالية» في الحركة).

والتعبير الآخر عن انغماس هتلر في أُخيولات التدمير غير المحدود هو الملاحظات على الإجراءات التي سوف يتخذها إذا حدث عصيان، مثل العصيان الذي نشب سنة ١٩١٨. إنه سوف يقتل على الفور كل قادة التيارات السياسية المعارضة، وكذلك زعماء الكاثوليكية السياسية، ونزلاء معسكرات الاعتقال كافة. وتصوّر أنه على هذا النحو سوف يقتل عدة مئات من آلاف الناس. (H.Picker,1965)

وكان من شأن البولونيين والروس واليهود أن يكونوا أكثر ضحايا التدمير الجسدي. وليقتصر حديثنا على القضاء على اليهود فقط؛ والوقائع معروفة أكثر من أن تحتاج إلى التفصيل هنا. ولكن يجب أن يلاحَظ أن مذبحتهم المنتظمة لم تبدأ إلا مع اندلاع الحرب العالمية الثانية. وليس ثمت دليل مقنع على أن هتلر قد اعتزم إبادة اليهود عموماً حتى قبيل ذلك، مع أنه ربما احتفظ بأفكاره سراً؛ فحتى ذلك الحين، كانت السياسة هي دعم هجرة كل اليهود من ألمانيا، وبلغ الأمر بالحكومة النازية أن بذلت الجهود لتسهيل هذه الهجرة. ولكنه في / ٣٠/ كانون الثاني قال لوزير الخارجية التشيكوسلوفاكي تشالكوفسكي Chalkovsky بصراحة تامة: «نحن سوف نقضي على اليهود. وهم لن ينجوا من عواقب مافعلوه في / ٩/ نوفمبر ١٩١٨. لقد جاء يوم تصفية الحساب» (H.Kraunsick et al.,1968) .[١]

وقد صرّح تصريحًا أقل صراحة أمام مجلس النواب Reichstag في اليوم نفسه: «إذا نجح المموّلون العالميون اليهود في داخل أوربا وخارجها في توريط الأمم في حرب أخرى، فلن تكون النتيجة هي البلشفية العالمية ومن ثم النصر لليهودية، بل ستكون نهاية اليهود في أوربا.»[٢]

وقول تشالكوفسكي مثير للاهتمام بوجه خاص من وجهة نظر سيكولوجية. فهنا لم يقدّم هتلر أي تفسير تبريري، من نحو أن اليهود خطرون على ألمانيا، ولكنه يتكشّف عن باعث من بواعثه الحقيقية، وهو الانتقام من «جريمة» الثورية التي

١- إن هذا الشاهد والشواهد الأخرى المأخوذة من اللغة الألمانية هي من ترجمتي.

٢- من ملاحظات مكتوبة بخطّ كبير موظفي هتلر سابقاً ولاحقاً القنصل العام المساعد فريتس ڤيدمان Fritz Wiedeman (المتقاعد). وكانت أقوال هتلر قد قيلت في اليوم نفسه تقريباً عندما أمر غورنغ Goreing «مكتب الرايخ المركزي» بأن يترأس أيخمان Eichmann هجرة اليهود. وكان قد سبق لأيخمان أن أوجد منهاجاً لطرد اليهود. ويشير كراونسيك H.Kraunsick et al. (1968) إلى أن هتلر ربما كان ينفر من هذا الحل الأقل تطرفاً، ولكنه وافق عليه «لأنه بالنسبة إلى ذلك الحين كان السبيل العملي الوحيد».

ارتكبها عدد قليل من اليهود قبل عشرين سنة. وقد نمّت على الصفة السادية في كرهه لليهود «بعض الملاحظات التي قالها حول اليهود لأقرب زملائه بعد الاجتماع الحزبي الحاشد: «أخرجوهم من كل المهن وأدخلوهم في حي اليهود؛ وسيّجوا عليهم في مكان ما حيث يمكن أن يهلكوا كما يستحقون في حين ينظر إليهم الشعب الألماني على النحو الذي ينظر به الناس إلى الحيوانات الوحشية» (H.Kraunsick et . al.,1968)

وكان هتلر يعتقد بأن اليهود يسمّمون الدم الآري والروح الآرية. ولكي نفهم كيف يرتبط هذا الاعتقاد بالعقدة النكروفيلية الكلية علينا أن نتناول اهتماماً من اهتمامات هتلر المختلفة في الظاهر تماماً: إنه السِّفلس Syphlis . وقد تحدّث في «كفاحي» عن أن السِّفلس من أهم المسائل الخطيرة في الأمة. كتب:

وُجد منذ سنوات كثيرة وهو يسمّم صحة الجسد القومي، ويسير بمحاذاة التلويث السياسي والأخلاقي والمعنوي للشعب. وكان السِّفلس، ولاسيما في المدن الكبيرة، يبدأ في الانتشار باطّراد، في حين يجني مرض السل الرئوي حصاده من الموت في جميع أرجاء البلد تقريباً. (A.Hitler, 1943)

لم يكن ذلك صحيحاً؛ فلم يشكل السل الرئوي ولا السِّفلس تهديداً كبيراً بالنسب التي يعزوها هتلر إليهما. ولكنها أخيولة نموذجية عند النكروفيلي: الخوف من القذَر ومن السم ومن خطورة أن يتلوث بهما. إنها تعبير عن الموقف النكروفيلي الذي يَخبُر به العالم الخارجي بوصفه قذراً وساماً، وهي في الوقت ذاته دفاع عن الذات في وجه ذلك العالم. والأرجح أن جذور كرهه لليهود كانت في هذه العقدة: اليهود أجانب؛ والأجانب سامّون (كالسِّفلس)؛ ومن ثم ينبغي استئصال الأجانب. ورؤية أن اليهود يسمّمون لاالدم وحسب بل الروح كذلك هي مجرد توسيع إضافي للفكرة الأصلية.[1]

١- راجع البحث في ألمانيا بوصفها رمزاً للأم في قسم «من الطفولة الباكرة إلى سن السادسة» من هذا الفصل.

وكلمـا أحس بأن النصـر مـشكوك فـيـه، ازداد تقـديره لمزايا هتلر المدمِّر واسـتـخدامـه له: فـمقـابل كل خطوة نحـو الهـزيمة كـان لابد من أن تموت مئـات الضحايا. وفي آخر الأمر آن الأوان للقضاء على الألمان أنفسهم. وكان هتلر في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٢، أي قبل ستالينغراد بأكثر من سنة، قد قال، «إذا كان الشعب الألماني ليس مستعداً للقتال في سبيل بقائه Selbstbehauptung، حسناً، فإن الألمان يجب أن يزولوا dann soll es verschwinden» (H.Picker,1965). وعندما أصبحت الهزيمة أمرًا لامفر منه، أمر بأن يبدأ دمار ألمانيا الذي هدّد به- دمار ترابها، وأبنيتها، ومصانعها وأعمالها الفنية. وعندما أوشك الروس أن يستولوا على غرفة هتلر المحصّنة تحت الأرض، حانت لحظة الخاتمة الكبرى للتدمير. فكان يجب أن يموت كلبه معه، وخليلته إيفا براون Eva Braun، التي جاءت إلى الملجأ خلافًا لأوامره لتموت معه، يجب أن تموت هناك أيضًا. وهتلر، الذي تأثّر كثيراً بعمل الآنسة براون Fraulein Braun الدال على الولاء، كافأها بعقد قران قانوني؛ فمن الواضح أن الموت بالنسبة إليه كان العمل الوحيد الذي يمكن لامرأة أن تثبت به أنها تحبه. وظل غوبلز كذلك مخلصاً للرجل الذي باعه روحه؛ فقد أمر بأن تموت زوجته وأولاده الستة الصغار معه. وككل أم طبيعية، لم تكن زوجة غوبلز تريد أن يُقتل أطفالها، للأسباب الدعائية الواهية التي قدّمها زوجها وهي أتفه الأسباب، ولكن لم يكن لديها خيار؛ وعندما زارها شپير آخر مرة، جعل غوبلز من المتعذّر أن تتكلم معه وحدها، ولو دقيقة. وكل ما استطاعت أن تقوله هو أنها سعيدة أن ابنها الأكبر (من زواج سابق) لم يكن هناك أيضاً.[1] وكان لابد أن تتلازم هزيمة هتلر ووفاته مع وفاة القريبين منه، ووفاة الألمان، ودمار العالم إذا كان يملك إلى ذلك سبيلاً. فكان يجب أن يكون الدمار الكلي الخلفية لدماره.

ولنعد إلى السؤال وهو هل يمكن للمرء أن يفسّر أعمال هتلر بأنه تسوّغها

١- من اتصال شخصي مع أ. شپير A.Speer.

الأسباب التقليدية عند الدولة: هل كان يختلف بشرياً عن أي رجل دولة أو جنرال آخر يبدأ حرباً ويُصدر الأوامر التي يُقتل بموجبها ملايين الأشخاص. إن هتلر كان من بعض الوجوه مثل الكثيرين من الزعماء «العاديين» من ذوي السلطات الكبيرة، ومن الرياء أن نعلن أن سياسته الحربية فريدة، إزاء ما هو مدوَّن أنّ زعماء الأمم القوية الأخرى قد قاموا به. والخاص في حالة هتلر هو عدم التناسب بين التدمير الذي أمر به والأسباب الواقعية لذلك. فأعماله من قتل الملايين الكثيرة من البولونيين والروس وسواهم إلى الأمر النهائي بالقضاء على الألمان كافة، لايمكن أن تُفسّر بأن باعثها استراتيجي، وإنما هي نتيجة هوى إنسان نكروفيلي في أعماقه. وهذه الحقيقة يجري طمسها أحياناً بصبّ التأكيد الكلي على قضاء هتلر على اليهود، وهو تأكيد يتغافل عن أن اليهود لم يكونوا إلا ضحية من الضحايا الكثيرة التي أراد هتلر القضاء عليها. ومن المؤكد أن هتلر كان كارهاً لليهود، ولكن ما يساوي ذلك صحة أن هتلر كان كارهاً للألمان. وكان كارهاً للجنس البشري، وكارهاً للحياة نفسها. وسيغدو ذلك أوضح عندما ننظر إلى هتلر على أساس التبّديات النكروفيلية الأخرى التي عولجت بوجه عام في البحث السابق في النكروفيليا.

ولننظر أولاً إلى بعض التعابير العفوية عن توجّهه النكروفيلي. إذ يورد شپير رد فعل هتلر على المشهد الأخير في شريط الأخبار السينمائي حول قذف وارسو بالقنابل.

أظلمت السماءَ سحبُ الدخان: مالت الطائرات المنقضّة وقذفت بقنابلها نحو هدفها؛ واستطعنا أن نراقب المرور السريع للقنابل المنعتقة، وانبساط الطائرات بعد انقضاضها والسحاب المتصاعد من الانفجارات الممتدة على نحو هائل. وزادت الحركة البطيئة من تأثير عرض الفيلم. كان هتلر مسحوراً. وانتهى الفيلم بمونتاج يُظهر طائرة تنقضّ على الخطوط المرسومة للجزر البريطانية. وتلا ذلك اندلاع اللهب، وتطايرت الجزيرة في الهواء ممزّقة. وكانت حماسة هتلر

لاحدود لها. وهتف، مستطار اللب، «ذلك ما سوف يحدث لهم! وبتلك الطريقة سوف نبيدهم!» (A.Speer,1970)

ويورد هانفستانغل محادثة جرت في منتصف العشرينيات وحاول فيها أن يُقنع هتلر بزيارة إنجلترا؛ وأخبر هتلر عن المناظر المثيرة للاهتمام هنالك وذكر له هنري الثامن. فأجاب هتلر: «ست زوجات-إم م، ست زوجات - ليس سيئاً، واثنتان منهن تخلّص منهما على مَسْطبة الإعدام. علينا حقاً أن نزور إنجلترا ونذهب إلى البرج لنشاهد المكان الذي أعدمتا فيه. وسيكون ذلك مفيداً.» (E.Hanfstaengl,1970). وبالفعل، فإن مكان الإعدام هذا قد أثار اهتمامه أكثر من بقية إنجلترا.

وليس غريباً عن هتلر كذلك رد فعله على فيلم «فريدريك الملك» Fredericus Rex سنة ١٩٢٣. وفي هذا الفيلم يريد أبو فريدريك أن يُعدم كلا ابنيه لمحاولتهما الفرار من البلد. وكان هتلر يردّد وهو بعدُ في المسرح ومن جديد وهو في الطريق إلى البيت، «هو [الابن] يجب أن يُقتل كذلك- رائع. هذا يعني: اقطعوا رأس كل من يُذنب بحق الدولة، ولو كان ابنه». ومضى يقول إن هذا النهج يجب أن يُطبّق على الفرنسيين (الذين احتلوا في ذلك الحين منطقة الرور Ruhr النفسية) وختم كلامه: «ماذا يهمّ لو هلكت اثنتا عشرة مدينة من مدننا على الراين والرور بالنار ولو فقد مئات الآلاف من الناس حيواتهم!» (E.Hanfstaengl,1970).

والمعهود في توجّهه النكروفيلي بعض النكات التي كثيراً ما يرددها. وعندما التزم هتلر بالغذاء النباتي، كان يُقدّم لضيوفه غداء معتاد. ويورد شپير: «إذا كان هناك حساء لحم، كنت أستطيع أن أثق بأنه سيتحدث عن «شاي الجثة» وفيما يتصل بسرطان النهر الصغير كان يعرض قصة عن جدة ميتة ألقى أقاربها جسدها في الجدول المائي لإغواء حيوانات النهر القشرية؛ وبالنسبة إلى سمك الجِرّي فإن أفضل وسيلة لتسمينه واصطياده هو استخدام الهرر الميتة» (A.Speer,1970).

وينمّ وجه هتلر كذلك عن التعبير الشمّام المذكور لدى البحث في النكروفيليا، وكأنه يشمّ رائحة كريهة باستمرار؛ وهذا واضح تماماً من عدد كبير من الصور الفوتوغرافية. ولم تكن ضحكته حرة، بل كانت نوعاً من ابتسام الاغتباط بالذات، كما يمكن للمرء أن يتبيّن ذلك من الصور الفوتوغرافية أيضاً. وهذه السمة قابلة للملاحظة بصورة خاصة في ذروة نجاحه، بعد استسلام فرنسا وهو في عربة السكك الحديدية في كومبيين Compiegne . وكما صُوِّر في الشريط الإخباري في ذلك الحين، فإنه بعد أن غادر العربة أدّى «رقصة» قصيرة، وضرب فخذيه وبطنه بيديه، وافترّ عن ابتسامة قبيحة من ابتسامات الاغتباط بالذات، وكأنه الآن قد ابتلع فرنسا.»[1]

وكانت الخصلة الأخرى من خصال هتلر النكروفيلية هي الضجر. وكانت محادثاته عند المائدة أبلغ تبدّلهذا الشكل من الجمود. ففي أوبسالتسبرغ -Obelsalz berg ، وبعد تناول غداء ما بعد الظهيرة كان يسير وصحبه إلى صالة الشاي حيث يُقدَّم الشاي والقهوة والكاتو. وهنا، عند مائدة القهوة، كان هتلر مولعاً على نحو خاص بالانسياق إلى المونولوغات التي لانهاية لها. وكانت الموضوعات في الغالب مألوفة من أصحابه، الذين كانوا لذلك يستمعون وهم ساهون، مع أنهم يدّعون الانتباه. ومن حين إلى حين كان هتلر ينام في أثناء أحد مونولوغاته. فيستمر الأصحاب في تناقل أطراف الحديث همساً، آملين أن يستيقظ في الوقت المناسب لوجبة المساء (A.Speer,1970). وبعدئذ كانوا يعودون إلى الدار ويُقدَّم العشاء بعد ساعتين. وبعد العشاء يُعرض فيلمان، يتبعه أحياناً حديث تافه عنهما.

من الساعة الواحدة فما بعد، كان بعض أفراد الصحبة، وعلى الرغم من جهودهم المبذولة لضبط أنفسهم، لايستطيعون بعدُ كبح تثاؤباتهم. ولكن المناسبة الاجتماعية كانت تطول إلى حد الإملال في فراغ رتيب مضنٍ ساعة أخرى أو أكثر، إلى أن تتبادل إيفا براون في النهاية بضع كلمات مع هتلر

١- إن هذا تجلٍّ ناطق لطبعه «الفمي - السادي»، الاستغلالي.

ويُسمح بالصعود إلى الطابق العلوي.[١] وكان هتلر يقف بعد مايقرب من ربع ساعة ليودّع أصحابه بصيغة «طابت ليلتكم». وكثيراً ما كان الذين يقفون، متحررين، يتبعون تلك الساعات المخدِرة بحفلة بهيجة بالشمبانيا والكونياك. (A.Speer,1970)[٢]

إن تدميرية هتلر يمكن أن تتبين من خلال أبرز تبدّياتها، التي ذكرت بعضها، ولكن لم يتبيّنْها ملايين الألمان أو رجال الدولة أو السياسيون في كل أنحاء العالم. وعلى العكس، كان يُعدّ وطنياً عظيماً تحرّضه محبة بلده؛ ويُعدّ المخلّص الذي سيحرر ألمانيا من معاهدة ڤرساي ومن الكارثة الاقتصادية الفادحة؛ والباني العظيم الذي سيبني ألمانيا جديدة مزدهرة. كيف لم يستطع الألمان والعالم أن يروا المدمِّر الكبير خلف قناع الباني؟

توجد أسباب كثيرة. كان هتلر كذاباً وممثلاً من الطراز الأول. وكان يدّعي رغبته في السلام ويُصرّ بعد كل نجاح أن ذلك كان آخر مطلوب يطلبه؛ وقد كان ينقل ذلك بصورة مقنعة سواء بكلماته أو بصوته المسيطرَ عليه كثيراً. ولكنه لم يخدع إلا أعداءه المستقبليين. وعلى سبيل المثال، فقد أعلن في أحد أحاديثه مع الجنرالات أنه: «لدى الإنسان حاسة لاكتشاف الجمال. فكم يكون العالم غنياً بالنسبة إلى من يستفيد من هذه الحاسة... يجب أن تكون للجمال سلطة على الرجال... [بعد نهاية الحرب] وأنا أود أن أنذر نفسي لأفكاري خمس سنوات أو عشر سنوات، ولتدوينها. الحروب تأتي وتذهب. ولاتبقى إلا قيم الثقافة...» وهو يريد أن يخلق عهداً جديداً للتسامح ويتّهم اليهود بإدخال التعصّب في المسيحية (H.Picker,1965).

١- يذكر شپير أن المحادثات في أثناء الوجبات في برلين لم تكن أقل تفاهة وإضجاراً، وأن هتلر «لم يحاول حتى أن يستر الإعادات المتكررة التي كانت تُربك المستمعين كثيراً.» (A.Speer,1970)

٢- في «أحاديث المائدة» مع الجنرالات في مقر الرئاسة في 1941-1942 من الواضح أن هتلر قد بذل جهداً أكبر وحاول التأثير في ضيوفه بسعة الاطّلاع والمعرفة. وتتألف هذه الأحاديث من مونولوغات لانهاية لها تمتد إلى كل الموضوعات الممكنة. وكان فيها الهتلر نفسه الذي كان يحاضر في الحوشيين المنعزلين في «بيت الذكور» Männerheim. ولكن مستمعيه في هذه المرة يتألفون من قادة الجيش الألماني؛ وقد ازدادت ثقته بنفسه كثيراً واتسع مجال معرفته (ولو لم يتعمق) مع سنوات المزيد من القراءة. ومع ذلك لم يكن التغيّر بعد التمحيص النهائي إلا تغيراً سطحياً.

من المحتمل أن هتلر لم يكن يكذب حتى شعورياً عندما تكلّم هكذا؛ بل كان يتخذ الدور القديم لـ«الفنان» و«الكاتب» فقط، لعدم اعترافه بإخفاقه في هذين المجالين. إلا أن تفوّهات من هذا النوع لها وظيفة أهم بكثير، وظيفة مرتبطة بصميم بنية طبع هتلر: هي كبت إدراكه لتدميريته. أولاً في التبريرات: كان أي تدمير يأمر به يبرره بأنه ليس إلا من أجل الأمة الألمانية ونموّها وبهائها: إنه دفاع في وجه الأعداء الذين أرادوا تدمير ألمانيا (اليهود والروس وأخيراً إنجلترا وأمريكا)؛ وكان يعمل باسم قانون البقاء البيولوجي («إذا كنت أؤمن بوصية إلهية، فلايمكن إلا أن تكون الوصية بحفظ النوع»[H.Picker,1965]. وبكلمات أخرى، عندما كان هتلر يُصدر أوامره لم يكن مدركاً إلا «واجبه» ونياته النبيلة؛ وهي تتطلّب الأعمال التدميرية، ولكنه كان يكبت إدراك أنه يشتهي التدمير. وهكذا كان يتحاشى مواجهة نفسه مع تحريضاته الحقيقية.

ولكن الشكل الأجدى من أشكال الكبت هو التشكّلات الارتدادية. وهي شكل للتعامل مع المجاهَدات المكبوتة مُثبَت سريرياً؛ فالشخص يُنكر وجودها بإظهار السمات التي هي على النقيض تماماً. وكان أحد الأمثلة على هذه التشكّلات الارتدادية نباتياً. ولايعني ذلك أن المذهب النباتي كله له هذه الوظيفة، ولكن وجودها في حالة هتلر يدل عليه أنه توقّف عن أكل اللحم بعد انتحار ابنة أخته غير الشقيقة «غيلي راوبال» Geli Raubal، التي كانت خليلته. ويُظهر سلوكُه كله في ذلك الحين أنه أحس بذنب عظيم من جراء انتحارها. وحتى لو نبذنا الشبهة الموجودة في الكتابات حول الموضوع وهي أنه قد قتلها فعلاً في سورة غضبه بسبب افتتانها بفنان يهودي على أساس أن هذه الشبهة لابرهان عليها، فإنه يمكن أن يُلام

على انتحارها. فقد احتفظ بها مثل أسيرة، وكان مفرط الغيرة، وبدأ في مغازلة حثيثة لإيفا براون. وبعد وفاة غيلي وقع في حالة اكتئاب، وشرع في نوع من الطقس الحِدادي (ظلت غرفتها كما هي ولم يتحرك فيها شيء مادام يعيش في مونيخ، وكان يزورها في عيد من أعياد الميلاد). وكان امتناعه عن أكل اللحم تكفيراً عن ذنبه وبرهاناً على عجزه عن القتل. ومن المرجّح أنه كان لنفوره من الصيد الوظيفة نفسها.

وأكثر تبدّيات هذا التشكّل الارتدادي تميّزاً يمكن أن نراه في الوقائع التالية التي يوردها مازر (W.Maser,1971). إن هتلر لم ينخرط في أي قتال مع الخصوم السياسيين في السنوات التي سبقت استيلاءه على السلطة. ولم يحدث إلا مرة واحدة أن لامس خصماً سياسياً. ولم يكن حاضراً في جريمة قتل أو إعدام. (وعندما سأل روم Röhm قبل أن يُقتل هل سوف يأتي «الفورر» نفسه ويطلق النار عليه، كان يعرف عمّ يتكلم.) وحين قُتل بعض رفاقه في محاولة الانقلاب في مونيخ (٩ تشرين الثاني ١٩٢٣)، شن حملة على أفكار الانتحار وأخذ يشكو من ارتعاش ذراعه اليسرى، وهي حالة عادت إليه بعد الهزيمة في ستالينغراد. وكان من المحال بالنسبة إلى الجنرالات إقناعه بزيارة الجبهة. «كان عدد غير قليل من العسكريين والأشخاص الآخرين على اقتناع راسخ بأنه كان يتهرّب من أمثال هذه الزيارات لأنه لم يكن يستطيع أن يتحمل رؤية الجنود القتلى والجرحى»(W.Maser,1971).[1] ولم يكن سبب هذا السلوك افتقاره إلى الشجاعة الطبيعية، فقد برهن عليها في الحرب العالمية الأولى بصورة وافية، أو مشاعره الرقيقة تجاه الجنود الألمان، الذين كان شعوره نحوهم ضعيفاً كشعوره نحو

١- يؤكد شبير كذلك قول مازر وذلك في اتصال شخصي معه.

أي شخص غيرهم (W.Maser,1971) .[1] والرأي عندي أن رد الفعل الرُّهابي هذا على رؤية الجثث هو رد فعل دفاعي ضد إدراك تدميريته . مادام قد أصدر الأوامر ووقّعها فقط ، فإنه قد تكلم وكتب فقط . وبكلمات أخرى «هو» لم يُرِق الدماء مادام يتحاشى رؤية الجثث في الواقع ويحمي نفسه من الإدراك العاطفي لشغفه بالتدمير . وردّ الفعل الرُّهابي هذا هو في أساسه تلك الآليّة التي هي في صميم الإفراط الإكراهي إلى حد ما في النظافة عند هتلر ، والتي يذكرها شپير .[2] وهذا العَرَض في شكله الخفيف الموجود عند هتلر ، وكذلك في الشكل الحاد للإكراه الاغتسالي مكتمل النمو ، له في العادة وظيفة هي : غسل القذر والدم اللذين يلتصقان رمزياً بيدي المرء (أو بجسمه كله) ؛ ويكون إدراك القذَر والدم مكبوتاً ؛ وما هو شعوري إنما هو الحاجة إلى «النظافة» . ورفضُ رؤية الجثث شبيه بهذا الإكراه ؛ وكلاهما يفيد في إنكار التدميرية .

ولم يعد هتلر قادراً ، قبيل نهاية حياته ، عندما شعر بدنّو هزيمته النهائية ، على الاستمرار في كبت تدميريته . والمثال البليغ هو رد فعله على مشهد الأجسام الميتة لقادة ثورة الجنرالات المحبَطة سنة 1944 . فالرجل الذي لم يكن في مقدوره أن يرى الجثث أصدر الأوامر بعرض الفيلم المأخوذ عن تعذيب الجنرالات وإعدامهم وعن الجثث المعلّقة وهي في ملابس السجن بكلاليب اللحم . ووضعَ صورة لهذا المشهد على منضدته .[3] وكان تهديده بتدمير ألمانيا في حالة الهزيمة يجب عندئذ أن يُترجَم إلى واقع ؛ وليس مما يناسب هتلر أن تُستثنى ألمانيا .

الجوانب الأخرى في شخصية هتلر

لايمكن أن نفهم هتلر أو أي شخص غيره برؤية عاطفة واحدة فقط من

١- قول مازر مبني على شهادة الجنرال ف . ڤارليمونت (1964) W.Warlimont .

٢- من اتصال شخصي مع أ . شپير A.Speer .

٣- من اتصال شخصي مع أ . شپير A.Speer .

عواطفه، ولو كانت أهمها. فلفهم هذا الإنسان، الذي تدفعه التدميرية، والذي نجح في أن يكون أقوى رجل في أوربا، يُعْجَب به الألمان الكثيرون (وأعداد غير قليلة من الشعوب الأخرى)، علينا أن نفهم بنية طبعه الكلية، ومواهبه وقدراته الخاصة، والوضع الاجتماعي الذي أدى وظيفته فيه.

إن هتلر، بالإضافة إلى النكروفيليا، يمثّل صورة السادية، ولو أن هذه الصورة تظللّها شدة اشتهائه للتدمير الواضح. ولما كنت قد حللت الطبع السادي- المازوخي والتسلّطي عند هتلر في عمل سابق (E.Fromm,1941)، فبوسعي أن أختصر كثيراً الآن. لقد كان هتلر، في كتاباته وخطبه على السواء، يعبّر عن صبوته إلى السيطرة على الضعفاء. وقد عبّر عن مزيّة الملتقيات العامة في الليل على هذا النحو:

يبدو أن قوة إرادة الناس في الصباح أو حتى في النهار تتمرد بأقصى الطاقة على أية محاولة لفرض إرادة أخرى أو رأي آخر عليهم. ولكنهم في الليل يرضخون بسهولة أشد للقوة المسيطرة في الإرادة الأقوى. لأن كل ملتقى من أمثال هذه الملتقيات يمثّل بحق مباراة في المصارعة بين قوتين متعارضتين. والموهبة الخطابية الفذّة ذات الطبيعة العدائية المتحكمة سوف تنجح الآن في كسب الناس من ذوي الإرادة الجديدة الذين هم أنفسهم قد عانوا من ضعف قوة مقاومتهم في أشد الأحوال طبيعيةً بسهولة أكثر مما ينجح الناس الذين لاتزال لديهم السيطرة الكاملة على طاقة أذهانهم وقوة إرادتهم. (A.Hitler 1943)

وفي الوقت نفسه فإن موقفه الرضوخي قد جعله يشعر أنه يعمل باسم سلطة أعلى، وهي «العناية الإلهية»، أو القانون البيولوجي. وفي جملة واحدة قدّم هتلر التعبير عن كلا جانبيه السادي والنكروفيلي: «مايريدون [الجماهير] هو انتصار الأقوى أو مَحقْ الأضعف أو استسلامه غير المشروط» (A.Hitler,1943). والسادي يتطلّب الاستسلام؛ ووحده النكروفيلي يتطلّب المحق. وكلمة «أو» تربط

الجانبين السادي والنكروفيلي في طبع هتلر، ولكننا نعرف من المدوّنات أن الرغبة في المحق كانت أقوى عنده من الرغبة في الاستسلام.

وكانت الخصال الثلاث الأخرى ذات الصلة الوثيقة بعضها ببعض هي نرجسيته، وموقفه المنسحب، وافتقاره إلى الشعور بالمحبة أو الدفء أو الحنوّ.

ونرجسيته [1] هي أسهل خصلة يمكن تبيّنها في الصورة. وهو يُظهر كل الأعراض النموذجية في الشخص ذي النرجسية المفرطة: فهو لايهتم إلا بنفسه، برغباته، بفكره، بأمنياته؛ وكان يتحدث إلى ما لانهاية عن أفكاره، وماضيه، ومخططاته؛ ولايكون العالم حقيقياً عنده إلا بمقدار مايكون موضوعاً لتدابيره ورغباته؛ ولايهمه الناس الآخرون إلا بمقدار مايخدمونه أو يمكن استخدامهم؛ وهو على الدوام يعرف كل شيء معرفة أفضل من أي شخص سواه. وهذا اليقين في أفكار المرء ومخططاته هو الصفة النموذجية في النرجسية الشديدة.

وكان هتلر يتوصّل إلى نتائجه على أساس انفعالي في الدرجة الأولى، وليس نتيجة لتفحّص المعرفة. وعنده فإن الأيديولوجيا تحل محل الوقائع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومتى اعتقد بأيديولوجيا لأنها تروق لانفعالاته، اعتقد بأن الوقائع التي تنادي بها الأيديولوجيا حقيقة. هذا لايعني أنه أهمل أمور الواقع إهمالاً كلياً؛ فإلى حد ما كان ملاحظاً فطيناً وقد قوّم بعض أمور الواقع تقويماً أفضل من تقويم الكثير من الناس الأقل نرجسية. ولكن هذه القدرة، التي سوف أناقشها بعدئذ، لاتستبعد افتقاره إلى الواقعية في الأمور الجوهرية المتعلقة بمعتقداته وقراراته التي تشكلّت على أساس نرجسي إلى حد بعيد.

ويورد هانفستانغل مثالاً ناطقاً يوضح نرجسية هتلر: فقد أمر غوبلز بتسجيل شريط لبعض خطب هتلر. وكان من دأب غوبلز تشغيل هذه التسجيلات كلما

١- راجع البحث في النرجسية في الفصل التاسع.

زاره؛ فكان هتلر «يلقي بنفسه على مقعد وافر الحشو ويستمتع بصوته في حالة شبيهة بالغيبوبة in einer Art von Volnarkose مثل الشاب اليوناني الذي كان عاشقاً لنفسه بصورة مأساوية ولقي حتفه في الماء في إعجابه بصورته على السطح الأملس» (E.Hanfstaengl,1970) . ويتحدث پ . إ . شرام P.E.Schramm عن «عبادة الأنا عند هتلر . وكان يهيمن عليه، وفقاً لـ [الجنرال] ألفرد يودل Alfred Jodl «اقتناع يكاد يكون صوفياً بمعصوميته بوصفه قائداً للأمة وللحرب» (H.Picker,1965) . ويكتب شپير عن «جنون العظمة» عند هتلر كما يظهر في مخططاته العمرانية . فيجب أن يكون قصره أكبر مقر بني في أي وقت، وأن يكون حجمه أضعاف مقر المستشار زمن بسمارك مائة وخمسين مرة (A.Speer,1970) .

ويتصل بنرجسية هتلر انعدام اهتمامه تماماً بأي **شخص** أو أي **شيء**، إلا ما كان ذا منفعة له، ونأيه البارد عن أي شخص . ويتوافق مع نرجسيته المطلقة افتقاره المطلق إلى محبة أي شخص أو رقة قلبه نحوه أو تعاطفه معه . ولايمكن أن يجد المرء في تاريخه الكلي شخصاً يستطيع أن يدعوه صديقه؛ وكوبيتسك وشپير قريبان من هذا الوصف أكثر من أي شخص سواهما، ومع ذلك لايمكن أن يُطلق عليهما «صديقين» على الإطلاق . وبما أن كوبيتسك كان من العمر نفسه، فقد أدى دور المستمع والمعجَب والصاحب؛ ولكن هتلر لم يكن صريحاً معه البتة . وكانت علاقته بشپير مختلفة؛ ومن المحتمل أن شپير كان يمثّل لهتلر صورة نفسه بوصفه مهندساً معمارياً؛ وهو، هتلر، من شأنه أن يكون بانياً عظيماً عبر وسيط هو شپير . ويبدو أنه كانت لديه حتى بعض العاطفة الصادقة نحو شپير- وهي الحالة الوحيدة التي نجد فيها ذلك، ربما باستثناء حالة كوبيتسك- وأظن أن السبب الوحيد لهذه الظاهرة النادرة قد يكون أن الهندسة المعمارية هي الميدان الوحيد الذي كان لهتلر فيه اهتمام حقيقي بشيء خارج نفسه، المجال الوحيد الذي كان يحيا فيه . ومع ذلك لم يكن شپير صديقه؛ وكما يعبّر عن ذلك بإيجاز في محاكمة نورمبورغ: «لو كان

لهتلر أي صديق، لكنت صديقه.» والواقع أن هتلر لم يكن له أصدقاء؛ بل كان على الدوام منعزلاً كتوماً، سواء وهو رسّام للبطاقات البريدية في ڤيينا أو بوصفه زعيماً (فورر Führer) للرايخ. ويلفت شپير النظر إلى «عجزه عن إقامة صلات إنسانية». وكان هتلر مدركاً لعزلته التامة. ويورد شپير قول هتلر له إنه بعد تقاعده في النهاية (تقاعد هتلر) سرعان ما يُنسى:

سوف يَتجه الناس إلى خلَفه بالسرعة الكافية ما إن يصبح واضحاً أن السلطة صارت بيديه... وسوف يتخلّى عنه كل شخص. وتابع وهو يتلهّى بهذه الفكرة، وبقدر كبير من الإشفاق على الذات:«ربما زارني أحد زملائي السابقين من حين إلى آخر. ولكنني لاأتكل على ذلك. وبالإضافة إلى الآنسة براون Fräulein Braun، لن آخذ أحداً معي. الآنسةبراون وكلبي. سأكون منعزلاً. فمن أجل ماذا سوف يمكث أي شخص معي طوعاً أية مدة من الوقت؟ لن يحفل بي أحد بعد ذلك. كلهم سوف يُهرعون إلى خَلَفي. وربما حضروا في إحدى المناسبات إليّ بمناسبة يوم ميلادي.» (A.Speer,1970)

إن هتلر في هذه المشاعر لم يعبّر عن فكرة أنه لاأحد لديه عاطفة نحوه وحسب، بل كذلك عن الاقتناع بأن السبب الوحيد للارتباط به هو سلطته؛ وصديقاه هما كلبه والمرأة التي لم يحبها ولم يحترمها، بل سيطر عليها سيطرة تامة.

وكان هتلر بارداً ومنعدم الشفقة. وذلك مالاحظه أناس حساسون أمثال «هـ. راوشنغ» (1940) H.Rausching و«شپير» Speer . ويقدّم الثاني مثالاً ناطقاً؛ فقد حاول هو و«غوبلز» أن يقنعا هتلر بزيارة المدن المقذوفة بالقنابل، لأغراض دعائية. «ولكن هتلر كان يزيح بانتظام أي اقتراح كهذا. وفي أثناء انتقالاته بالسيارة من محطة «ستِتِّن Stettin إلى مقر المستشارية، أو إلى شقّته في شارع پرتسرغنتر Prizergenterstrasse في مونيخ، أخذ يأمر سائقه بسلوك أقصر الطرق، في حين كان من قبل يحب الطرقات المنعرجة الطويلة. وبما أنني قد اصطحبته عدة مرات في

أمثال هذه الانتقالات بالسيارة، فقد رأيت أنه كان يلاحظ بغياب للانفعال مناطق الهدم التي تجتازها سيارته» (A.Speer,1970) . وكان المخلوق الحي الوحيد «الذي أثار أية خلجة في شعور هتلر الإنساني» هو كلبه (A.Speer,1970) .

وقد خدَع الكثير من الناس الآخرين الأقلّ حساسية؛ فما اعتقدوا أنه دفء كان في الواقع هياجًا، يَظهر عندما يتحدث هتلر عن موضوعاته الأثيرة أو عندما يكون في حالة حاقدة أو تدميرية. ولم أستطع أن أجد في كل الكتابات عن هتلر أي مثال أبدى فيه أية شفقة نحو أي إنسان؛ وحتماً ليست نحو أعدائه، ولكنها ليست نحو الجنود المقاتلين ولا في آخر الأمر نحو المدنيين الألمان. ولم تكن قراراته التكتيكية في الحرب- وفي الدرجة الأولى إصراره على عدم التراجع (في معركة ستالينغراد، مثلاً) تتأثر بالاهتمام بعدد الجنود الذين سيُضحّى بهم؛ فلم يكونوا إلا عدداً كبيراً من «البنادق والمدافع».

ويقول شپير مجملاً: «كان هتلر يفتقر إلى ألطف فضائل الإنسان: فكانت رقة القلب والشعر والمحبّة غريبة عن طبيعته. وعلى السطح كان يُظهر الملاطفة والافتتان والهدوء وسلامة السريرة وضبط النفس. ومن الواضح أنه كانت لهذه القشرة الخارجية وظيفة ستر الخصال المهيمنة حقاً بطبقة كاملة وإن تكن رقيقة» (خاتمة أ. شپير موجودة في J.Brosse,1972) .

العلاقات بالنساء

تُظهر علاقات هتلر بالنساء ماتُظهره علاقاته بالرجال من الافتقار إلى الحب أو رقة القلب أو الحنّو. ومن شأن هذا القول أن يبدو مناقضاً لفكرة أن هتلر كان شديد التعلّق بأمه؛ ولكننا إذا افترضنا أن الرغبة السفاحية عند هتلر كانت باردة وغير شخصية، سنكون متأهبّين لنجد أن علاقاته بالنساء في حياته اللاحقة كانت باردة وغير شخصية أيضاً.

ويمكن من حيث الأساس أن نميّز في النساء اللواتي اهتم بهن هتلر بين صنفين، يتميز كل منهما في الدرجة الأولى بوضع اجتماعي خاص: (١) النساء المحترمات، المتميزات بثرائهن أو مكانتهن الاجتماعية، أو بأنهن ممثلات ناجحات، (٢) النساء اللواتي كنّ «أدنى» منه اجتماعياً، كابنة أخته غير الشقيقة غيلي راوبال Geli Raubal، وخليلته سنوات كثيرة، إيفا براون Eva Braun. وكانت تصرفاته ومشاعره نحو الفئة الأولى مختلفة تماماً عن تصرفاته ومشاعره نحو الفئة الثانية.

وكان من نساء الفئة الأولى عدد من السيدات الكهلات والثريات في مونيخ اللواتي صادقنه وقدّمن الهدايا الكبيرة إليه وإلى الحزب. والأهم من ذلك أنهن أدخلنه في حياة الطبقة العليا وعاداتها. وقَبِل هداياهن وعبادتهن له بتفضّل، ولكنه لم يقع في حب أية شخصية من هذه الشخصيات الأمومية ولم ينجذب جنسياً إليهن.

وكان مع النساء الأعلى منه من الناحية الاجتماعية حييّاً وخجولاً بعض الشيء على الدوام. فافتتانه وهو في مقتبل العمر بـ«ستيفاني» Stephanie، وهي فتاة يافعة وظريفة من الطبقة العليا في «لنتس»، هو الطراز البدئي لهذا الموقف؛ وكان مسحوراً بها، وإذا تابعنا تقرير كوبيتسك، فقد كان يسير بجانب منزلها ويحاول أن يراها في المماشي، ومع ذلك لم يجرؤ أن يكلمها أو يحاول أن يجعل شخصاً ثالثاً يقدّمه إليها. وفي آخر الأمر كتب إليها رسالة يعبّر فيها عن رغبته في الزواج بها في وقت لاحق، عندما يصبح شخصاً مهماً، ولكنه لم يوقّع الرسالة. وهذا السلوك، الذي يحمل طابع الافتقار إلى الواقعية، يمكن أن يُعزى برمّته إلى حداثة سنّه، ولكنه وفقاً للأخبار الكثيرة الأخرى، كالأخبار التي نقلها هانفستانغل وشپير، كان يبدي الخجل نفسه من النساء في السنوات اللاحقة. ويبدو أن موقفه من النساء المرغوب فيهن اللواتي أُعجب بهن قد ظل موقف الإعجاب البعيد. وكان في مونيخ يرغب في النظر إلى النساء حسانِ المرأى؛ وعندما وصل إلى السلطة كان

يودّ أن يحيط نفسه بالنساء الجميلات، ولاسيما ممثلات السينما، ولكن ليس هناك دليل على أنه قد وقع في حب أية امرأة منهن. وإزاء هؤلاء النساء «كان هتلر بالأحرى يتصرف تصرّف خريج صف الرقص في الرقصة الختامية. فيُسفر عن توق خجول إلى ألا يصدر عنه خطأ، ويقدّم عدداً كافياً من التحيات، ويرحّب بهن ويودعهن بالتقبيل النمساوي لليد» (A.Speer,1970).

وهناك نسوة لم يكن يُعجَب بهن أو يحترمهن، أمثال «غيلي راوبال» و«إيفا براون»، ولكنهن خضعن له. ويبدو أنه مع هذا الطراز من النساء كان على الأغلب يقوم بالعلاقات الجنسية.

وكانت حياة هتلر الجنسية عرضة للكثير من الظن. وكثيراً ما جرى الزعم بأنه لوطي، ولكن لادليل على ذلك، ولايبدو من المحتمل أنه كان كذلك.[1] ومن جهة أخرى ليس هناك دليل على أن علاقاته الجنسية كانت طبيعية، أو حتى أنه كان مقتدراً من الناحية الجنسية. وأكثر المعلومات عن حياة هتلر الجنسية تأتي من هانفستانغل، الذي سنحت له فرص كثيرة لملاحظته في مونيخ وبرلين في العشرينيات وأوائل الثلاثينيات.[2]

ويورد هانفستانغل عبارة قالتها غيلي راوبال لأحد الأصدقاء: «إن خالي غولٌ. لاأحد يتصور ماذا يطلب مني!» وهذه العبارة تؤيدها بعض الشيء قصة

١- راجع: W.Maser (1971). وإن «ي. بروسه» J.Brosse (1972)، مع أنه يعترف بأنه لايوجد دليل مباشر على ذلك، يبني زعمه بأن لدى هتلر ميولاً جنسية مثلية قوية كامنة على الحجة الملتوية وهي أن هذا من المرجّح لأن هتلر كانت لديه ميول پارانويائية، وتفكيره قائم على الافتراض الفرويدي بالصلة الوثيقة بين «الپارانويا» Paranoia والجنسية المثلية اللاشعورية.

٢- لسوء الحظ ليس هانفستانغل شاهداً يوثَق به. وسيرته الذاتية هي إلى حد كبير خدمة ذاتية؛ يقدم نفسه فيها على أنه إنسان حاول أن يمارس تأثيراً جيداً في هتلر، وأنه بعد قطيعته مع هتلر، أصبح «مرشداً» للرئيس روزفلت- وهو زعم مبالغ فيه إلى حد ما. ومع ذلك، فإن تصويره لعلاقات هتلر بالنساء يمكن أن نمنحها صِدقيّة أساسية، مادام هذا الموضوع لايفيد في رفع قامته السياسية.

أخرى يذكرها هانفستانغل، رواها له ف. شڤارتس F.Schwartz ، الذي كان أمين صندوق الحزب في العشرينيات. ووفقاً لشڤارتس، فإن هتلر قد ابتزّه رجل حظي بامتلاك رسوم تخطيطية خلاعية كان هتلر قد رسمها لـ«غيلي»، تُظهرها في مواقف «تأبى أن تتخذها أية امرأة تحترف اتخاذ الوضعيات المختلفة أمام الفنان». وأصدر هتلر أوامره بتسديد المال للرجل، ولكنه لم يسمح بتمزيق الرسوم؛ وكان ينبغي أن تُحفَظ عنده في أمان في «البيت البني». ولاأحد يعلم ماذا كانت تصور هذه الرسوم، ولكن من المأمون أن نفترض أنها لم تكن مجرد رسوم لـ«غيلي» وهي عارية، مادام ذلك في مونيخ في العشرينيات لايمكن أن يضع هتلر موضع الريبة والظن إلى حد كاف لابتزازه. ومن المحتمل أن تكون هذه الرسوم تصور وضعاً أو موقفاً منحرفاً، وأن رغبات هتلر الجنسية كانت شاذة إلى حد ما؛ أما مسألة هل كان عاجزاً تماماً عن تأدية الفعل الجنسي الطبيعي، كما يزعم هانفستانغل، فهي تتجاوز حدود مانعرفه. ولكن من المحتمل أن الاهتمامات الجنسية عند رجل بارد وخجول وسادي وتدميري مثل هتلر كانت ذات طبيعة منحرفة في الدرجة الأولى. وبما أنه ليست لدينا المعلومات، فليس من المفيد كثيراً أن نحاول إنشاء صورة مفصّلة عن أذواقه الجنسية. وأعتقد أن أكثر مايمكن أن يخمنه المرء هو أن رغباته الجنسية قد كانت إلى حد كبير شرجية- سادية ومختلسة للنظر مع النمط الأدنى من النساء، وكانت مازوخية مع النساء اللواتي يُعجب بهن.

كذلك ليست لدينا بيّنة تتعلق بعلاقاته الجنسية بإيفا براون، ولكننا نعرف قدراً أكبر من علاقته العاطفية بها. فواضح أنه كان يعاملها من دون أية مراعاة لمشاعرها. وهداياه لها في عيد ميلادها هي مجرد مثال؛ فقد كان يقول لمساعده أن يشتري لها حلّة رخيصة وحُليّاً زهيدة الثمن والأزهار اللازمة.[1] «كان هتلر يُبدي على العموم القليل من مراعاة مشاعرها وكان في حضورها يبسط الكلام عن موقفه من النساء وكأنها غير موجودة: «إن الرجل ذا الذكاء الشديد يجب أن يقترن بامرأة بدائية وغبية» (A.Speer,1970).

ويمكن أن نحصل على تبصّر أكثر لموقف هتلر من إيفا براون من يومياتها. ومن الصعب فك رموز خطّها في جانب منه، ولكن لعله يُقرأ كما يلي:

١١آذار ١٩٣٥. لا أتمنى إلا شيئاً واحداً- وهو أن أمرض بشدة وألاّ أعلم أي شيء عنه مدة أسبوع على الأقل. لماذا لم يحدث لي شيء؟ لماذا عليّ أن أعاني كل هذا؟ آه لو أنني لم أقابله أبداً. إنني يائسة. وأشتري المساحيق المنوّمة من جديد، وأدخل في حالة شبه حلمية ولاأفكر في ذلك كثيراً بعد ذلك.

لماذا لم ينل مني الشيطان؟ أنا على يقين أن ذلك سيكون ساراً له أكثر مما هو الآن.

انتظرت ثلاث ساعات أمام الـ«كارلتون» Carlton وكان عليّ أن أراقبه وهو يُحضر الأزهار... ويأخذها إلى الغداء [ملاحظة أضيفت فيما بعد، في ١٦ آذار:] تخيل جنوني.

لايستخدمني إلا لبعض الأغراض، ولايمكن في غير ذلك. [أُضيفَ بعد ذلك:] هراء!

عندما يقول إنه مولع بي er hat mich lieb لايعني ذلك إلا لحظةً، تماماً مثل وعوده التي لايحافظ عليها.

١نيسان، ١٩٣٥. في الليلة الماضية دعانا إلى «فير يارستسمايتن» Jahres-zeiten [مطعم في مونيخ]. وكان عليّ أن أقعد ثلاث ساعات بجانبه ولاأستطيع أن أقول له كلمة واحدة. وعند الوداع أعطاني مغلّفاً فيه مال، كما سبق في إحدى المرات. كم سيكون جميلاً لو أنه كتب معه تحية أو كلمة لطيفة: كان من شأن ذلك أن يسرّني كثيراً. ولكنه لايفكر في أمور كهذه.

٢٨أيار، ١٩٣٥. أرسلت الآن رسالة إليه هي بالنسبة إليّ حاسمة، هل هو ...[الخط لايُقرأ].

حسناً، سنرى. إذا لم أتلَّق منه جواباً في الساعة /10/ من هذه الليلة، فسأتناول ببساطة حبوبي الخمسة والعشرين وبهدوء... سأنام.

هل ذلك... حبه كما أكّد لي في كثير من الأحيان، إذا لم تكن لديه كلمة لطيفة لي في ثلاثة أشهر؟

يا إلهي اللطيف بعباده، إنني أخشى ألا يجيبني هذا اليوم. آه لو ساعدني أحد، فكل شيء رهيب وميؤوس منه. ربما وصلته رسالتي في وقت غير مناسب. أيمكن ألا أكتب إليه أبداً؟ وإذا أمكن، فالشك أشد رهبة في تحمله من النهاية المفاجئة.

قد حسمت أمر القطع الخمس والثلاثين [الحبوب المنوّمة]؛ وفي هذه المرة ستكون مسألة «موت محقَّق» حقاً. آه لو أنه على الأقل جعل أحد الأشخاص يتصل بي هاتفياً. (Eva Braun,1935)

وفي اليوميات نفسها تشكو من أنها في مناسبة عيد ميلادها لم يُعطها أي شيء من الأشياء التي أرادتها (وهي كلب صغير وثياب)، بل اكتفى بأن جعل أحد الأشخاص يُحضر لها الأزهار؛ واشترت لنفسها حُلْية بقيمة اثني عشر دولاراً تقريباً، آملة أنه سيحب أن يراها عليها.

وثمت معلومات عن سلوك هتلر المازوخي نحو النساء اللواتي أُعجب بهن. ويتحدث هانفستانغل عن حادثة من هذا القبيل فيما يتصل بموقف هتلر من زوجته (زوجة هانفستانغل). فعند زيارة هتلر لبيت هانفستانغل، وحينما تركه هانفستانغل بضع دقائق، جثا هتلر على ركبتيه أمام السيدة هانفستانغل، ودعا نفسه عبدها، وتأسف بشدة على القدر الذي تأخّر كثيراً في إعطائه التجربة الحلوة المرة في لقائها. والأمر الأساسي في هذا الخبر، وهو أن سلوك هتلر المازوخي تؤيده وثيقة تمكّن

و. سي. لانجر (1972) W.C.Langer من نبشها. فالممثلة السينمائية رنيه مولر René Muller، قد سارّت مخرج أفلامها أ. تسايسلر A.Zeissler، بما حدث في المساء الذي قضته في مقر المستشارية:

كانت على يقين أنه سيقوم بمجامعتها؛ وتعرّى كلاهما وكانا في الظاهر متأهبين للفراش عندما خرّ هتلر على الأرض ورجاها أن ترفسه. فتأبّت، ولكنه توسّل إليها وحكم على نفسه بأنه غيرجدير بها، وانهال على رأسه بكل أنواع الاتّهامات، وانبطح على وجهه تذللاً بطريقة مؤلمة. وبالنسبة إليها أصبح المشهد لايُحتمل، فاستجابت لرغباته ورَفَسَته. فأثاره ذلك بقوة، والتمس منها المزيد والمزيد، قائلاً دائماً إن ذلك كان أفضل حتى مما يستحق وإنه غير جدير بأن يكون معها في الحجرة نفسها. وعندما واصلت رفسه اشتد هياجه أكثر فأكثر.

(A. Zeissler, 1943)

وانتحرت رنيه مولر بعد ذلك بفترة قصيرة.

وهناك عدد من نساء الطبقة العليا الأخريات اللواتي يقال إنهن على علاقة حب بهتلر؛ ولكن ليس هناك الدليل الكافي لإثبات أنه كانت له علاقات جنسية معهن. ومن اللافت للنظر أن عدداً ليس بقليل من النساء اللواتي كنّ على علاقة حميمة بهتلر قد انتحرن أو حاولن الانتحار: «غيلي راوبال» و«إيفا براون» (مرتين) و«رنيه مولر» و«أونيتي ميتفورد» Unity Mitford، وبضع حالات أخرى مشكوك فيها أكثر يستشهد بها مازر. ولا يستطيع المرء منع نفسه من الظن أن تدميرية هتلر لم تكن خالية من التأثير فيهن.

ومهما كانت طبيعة انحراف هتلر، فإن التفصيلات لاتهم، ولاتفسر حياتُه الجنسية أيَّ شيء عنه أكثر مما سبق أن عرفناه. وفي الواقع، فإن صدقية المعلومات النادرة عن حياته الجنسية تعتمد في الدرجة الأولى على معرفة طبعه.

القدرات الطبيعية والمواهب

لقد أظهر لنا تحليل هتلر على أساس علم الطباع أنه شخص منسحب، مفرط النرجسية، غير مرتبط، وغير منتظم، وسادي-مازوخي، ونكروفيلي. ومن المؤكد أن هذه الصفات لاتفسّر لنا نجاحه، إلا إذا كان ذا قدرات طبيعية ومواهب جليلة الشأن.

فماذا كانت؟

كانت أعظم مواهب هتلر هي قدرته على التأثير في الناس، وإحداث وَقْع فيهم، وإقناعهم. ورأينا أنه كانت لديه هذه القدرة حتى عندما كان طفلاً. كان يدركها ويمارسها في دوره قائداً لعصابات الصبيان في الألعاب الحربية؛ ثم في علاقته بكوبيتسك، أول أتباعه الحقيقيين؛ وبعدئذ مع نزلاء «بيت الذكور» في ڤيينا. وبُعيد الثورة، في ١٩١٩، أرسله رؤساؤه العسكريون بمهمة لهداية الجنود إلى تصحيح أفكارهم ولإثارة بغضهم للثوريين. والتقى الجماعة الصغيرة التي لايُعتّد بها من «حزب العمال الاشتراكيين» (الذي يضم خمسين عضواً) ونجح في غضون سنة في أن يصبح زعيم الحزب غير منازَع، وسمّاه باسم جديد هو «حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي» وبدّل دستوره، وصار مقبولاً أنه واحد من أكثر الخطباء شعبية في مونيخ.

ومتعدّدة هي أسباب هذه القدرة على التأثير في الناس- التي هي، حتماً، الموهبة الأساسية عند كل الديماغوجيين.

وعلى المرء أن يفكر أولاً فيما دُعي في الكثير من الأحيان **مغناطيسيته**، التي نشأت أصلاً في عينيه، وفقاً لأكثر الملاحظين. (H.Picker,1965; W.Maser,1971 ;A:Speer,1970) . ويوجد عدد من التقارير التي تُظهر أنه حتى

الأشخاص المتحاملين عليه كانوا يصبحون من المهتدين عندما ينظر إليهم مباشرة. ويقدم الأستاذ أ. فون مولر، الذي أعطى مقرراً تعليمياً للجنود الذين يتدربون على العمل الاستخباري في مونيخ، الصورة التالية عن لقائه الأول مع هتلر:

عند نهاية محاضرتي لاحظت مجموعة صغيرة جعلتني أتوقّف. كان أفراد المجموعة يقفون كأنه قد نوّمهم مغناطيسياً رجل في وسطهم كان يكلمهم بصوت حلْقي غريب من دون توقف، وبإهاجة متزايدة؛ وتملكني الإحساس الغريب بأنه قد سبّب هياجهم، وفي الوقت نفسه أن هياجهم قد أعطى صوته طاقته. ورأيت وجهاً شاحباً نحيفاً... له شارب مقصوص وعينان كبيرتان بصورة بارزة، زرقاوان فاتحتان، وباردتان في حماسة، ومتألقتان (W.Maser,1971).

وهناك أخبار كثيرة تذكر الخصائص المغناطيسية في عيني هتلر. وبما أنني لم أره إلا في الصور التي لم تعطني إلا الانطباع الأشد قصوراً عن هذه الخصيصة الغريبة، فلايسعني إلا أن أكوّن رأياً تأملياً حولها. ولكن هذا التأمل تيّسره الملاحظة التي تلاحَظ بكثرة وهي أن النرجسيين- ولاسيما المتعصبين- يُسفرون في الكثير من الأحيان عن تألق خاص في أعينهم يخلع عليهم مظهر التوقّد الشديد، والاهتمام بالآخرة، والإخلاص. وفي الواقع، ليس من السهل في بعض الأحيان التمييز بين التعبير في عيني إنسان متفان للغاية وتقي كالقديسين وفي عيني إنسان شديد النرجسية، وحتى من أنصاف المجانين في بعض الأحيان. والصفة المميزة الوحيدة هي وجود الدفء أو غيابه، وتتفق كل الأخبار على أن عيني هتلر كانتا باردتين، وأن تعبيره الوجهي كله كان بارداً، وأنه كان فيه غياب للدفء أو الحنو. وبينما يمكن أن يكون لهذه السمة تأثير سلبي- كما تؤثّر في الكثيرين في الواقع- فكثيراً ماتزيد القدرة المغناطيسية. والقسوة الباردة وانعدام الإنسانية يُحدثان الخوف؛ والمرء يفضّل أن يُعجَب على أن يخاف. وكلمة «المهابة» awe تتصف بهذا المزيج من

الأحاسيس ؛ فالكلمة awe تعني شيئاً رهيباً (كما في كلمة Awful) كما تعني شيئاً يدعو إلى الإعجاب (كما حين تشعر بمهابة شخص ما in aw of somebody)[1]

وكان العامل الآخر في تأثير هتلر في النفوس هو نرجسيته واليقين الذي لايهتز والذي كان هتلر ، شأن النرجسيين الكثيرين ، يشعر به حيال أفكاره. ولكي نفهم هذه الظاهرة علينا أن نرى أنه ، بمقدار ما يتعلق الأمر بمعرفتنا ، لاشيء يقيني إلا الموت. ولكن القول إنه لاشيء لايعني أن كل شيء مسألة تخمين. فمن التخمين عن معرفة ، إلى الفرضية ، إلى النظرية ، يوجد اقتراب متزايد من اليقين يتوسّطه العقل ، والملاحظة الواقعية ، والتفكير النقدي ، والتخيّل. وبالنسبة إلى من لديه هذه القدرات ، فإن عدم اليقين النسبي مقبول جداً لأنه نتيجة الاستخدام الفعال لملكاته ، في حين أن اليقين مضجر لأنه ميت. ولكنه بالنسبة إلى الذين تُعوزهم هذه الملكات ، وخصوصاً في زمن كان فيه الكثير من عدم اليقين الاجتماعي والسياسي كما كان في ألمانيا في العشرينيات ، فإن المتعصّب الذي يدّعي اليقين يصبح الشخص الأشد جاذبية ، الشخص القريب من المخلّص.

وكان العامل المتّصل الذي سهّل تأثير هتلرهو قدرته على الإفراط في التبسيط. فخطبته لاتضبطها تحرّجات فكرية أو أخلاقية. إذ كان ينخب الأمور التي تخدم فرضيته ، ويربط الأجزاء ، ويؤلف حجة معقولة في الظاهر ، معقولة على الأقل بالنسبة إلى العقول غير النقدية. وكان ممثلاً من طراز رفيع ، يُظهر قدرة لافتة للنظر على محاكاة كلام شتى أنواع الناس وإيماءاتهم.[2] وكانت لديه السيطرة الكاملة على صوته ، يتلاعب به بصورة واعية لإحداث التأثير المرغوب فيه. فعندما يكلّم الطلاب يستطيع أن يكون هادئاً ومعقولاً. وكان يعرف النبرة المناسبة للتحدّث

---

١ - إن الكلمة العبرية نوَره norah لها المعنى المزدوج نفسه ؛ فهي تُستخدم على أنها صفة لله وتمثّل موقفاً ممعناً في القدم يكون فيه الله رهيباً وسامياً في الوقت ذاته.

٢ - من اتصال شخصي مع أ. شبير A.Speer .

مع خلّص أصحابه المونيخيين الخشنين وغير المتعلمين، أو مع أمير ألماني، أو مع جنرالاته. واستطاع أن يخلق مشهداً غاضباً عندما أراد أن يسحق الوزراء التشيكوسلوفاكيين أو البولونيين لكي يجعلهم يستسلمون، واستطاع أن يكون المضيف المثالي والوَدود لـ«نيڤيل تشامبرلين» Nevill Chamberlain .

ولايمكن للمرء أن يتحدث عن موهبة هتلر في التأثير في الآخرين من دون أن يذكر نوبات الغضب عنده. فتلك الانفجارات الاتفاقية قد أسهمت إلى حد بعيد في الرَّوْسم عن هتلر، وخصوصاً خارج ألمانيا، ذلك الروسم الذي يقدّمه على أنه شخص دائم الغضب والصراخ، وعاجز عن ضبط النفس، وهذه الصورة ليست صحيحة على الإطلاق. فقد كان هتلر عموماً مهذباً ولطيفاً ومنضبطاً؛ وكانت نوبات الغضب، ولو لم تكن نادرة، هي الاستثناء، ولكنها يمكن أن تكون في أقصى الشدة. وكانت انفجارات الغضب هذه تحدث في نوعين من المناسبات. أولاً، في خطبه، وخصوصاً قبيل الختام. وكان هذا الغضب صادقاً تماماً لأنه كانت تغذّيه عاطفته الصادقة جداً نحو البغض والتدمير، التي كان يعبّر عنها تعبيراً كاملاً وغير مكبوح عند مرحلة معينة في خطبه. وقد كان الصدق البالغ في كرهه هو الذي جعله شديد التأثير والعدوى. ولكن إذا كانت هذه التعابير الخطابية صادقة، فإنها لم تكن غير منضبطة. كان هتلر يعرف جيداً متى يحين الوقت لإطلاقها وسَوْطِ انفعالات المستمعين بها، وعندئذ فقط يفتح مسارب كرهه.

ويبدو أن انفجارات الغضب في المحادثات ذات طبيعة أخرى، وليست مختلفة عن تلك النوبات التي كان ينفجر بها وهو طفل، عندما يشعر بالإحباط.[1] وقد قارنها شپير بنوبات الغضب عند طفل عمره ست سنوات، وهو العمر الذي

---

١ - يجب أن نترك السؤال مفتوحاً حول هل كانت انفجارات الغضب نتيجة عوامل عضوية فيزيولوجية- عصبية أم أن تلك العوامل قد خفّضت الحد الأقصى لاحتماله الغضب.

كان في جوانب كثيرة «العمر الانفعالي» لهتلر. وقد استخدم هتلر هذه الانفجارات لتخويف الناس، ولكنها مكّنته كذلك من السيطرة عليهم عندما كان يشعر أنه من المناسب القيام بذلك.

والمثال التوضيحي الجيد يوفّره لنا مشهد يصفه أحد أبرز قادة الجيش الألماني، هو الجنرال هاينتس غودريان Heinz Guderian :

«بوجه غاضب أحمر، وقبضتين مرفوعتين، وقف الرجل المرتعش [هتلر] أمامي، فاقداً زمام السيطرة على نفسه من الغيظ وفاقداً كل سكينة fassungslos ... وصرخ بصوت يتصاعد ارتفاعه، وكان وجهاً مشوّهاً.» وعندما لم يتأثر غودريان بهذا المنظر وأصرّ على رأيه الأصلي الذي أحنقه كثيراً، تبدّل هتلر فجأة، وابتسم بلطف لغودريان: «أرجو أن تتابع تقريرك؛ اليوم ربح المعركة الجنرال أركان الحرب.» (A.Bullock,1965) .

وتقويم شپير لانفجارات هتلر تؤيده تقارير كثيرة أخرى موجودة في الكتابات حول هذا الموضوع:

بعد مفاوضات مثيرة كان هتلر مستعداً للهزء بنقيض آرائه. وفي إحدى المرات وصف زيارة «شوشنغ» Schuschingg لـ«أوبرسالتسبرغ» في ١٢ شباط ١٩٣٩. وبفورة غضب جعل المستشار النمساوي يدرك خطورة الوضع، وقال، وأخيراً أرغمته على الاستسلام. ومن المحتمل أن الكثير من هذه المشاهد الهستيرية المذكورة قد تمّ تدبيره بعناية. وعموماً فقد كان ضبط النفس أحد أبرز خصائص هتلر. وفي تلك الأيام الباكرة لم يفقد سيطرته على نفسه إلا مرات قليلة جداً، بحضوري على الأقل. (A.Speer,1970)

وكان من مواهب هتلر الأخرى اللافتة للانتباه ذاكرته غير العادية. ويقدّم پ. إ. شرام وصفاً ناطقاً لها:

كانت القدرة التي أذهلت كل شخص مرة بعد مرة– وفي جملتهم مَنْ لم يكونوا مسحورين به– هي ذاكرته الجبارة؛ فهي ذاكرة يمكن أن تحتفظ بدقة حتى

بالتفصيلات التافهة، مثل الشخصيات في روايات كارل ماي، ومؤلفي الكتب التي قرأها مرة واحدة، حتى طراز السيارة التي امتطاها سنة ١٩١٥. وكان يتذكر التواريخ في عمله السياسي بدقة، وكذلك الفنادق التي نزل فيها، والشوارع التي سار عليها. (H.Picker,1965)

ويُظهر عدد من التقارير قدرة هتلر على تذكّر الأشخاص والتفصيلات التقنية- العيار الدقيق لأي نمط من البنادق ومداه، وعدد الغوّاصات في البحر والموانئ الوطنية، والكثير من التفصيلات الأخرى غير المهمة عسكرياً. ولاعجب أن جنرالاته كثيراً مايكونون مأخوذين بشمولية معرفته، التي كانت في الحقيقة عمل الذاكرة العظيم في الدرجة الأولى.

وهذا الأمر يُفضي بنا إلى مسألة بالغة الأهمية، هي **سعة اطلاع هتلر ومعرفته**، ولهذه المسألة أهمية خاصة اليوم حيث يزداد الميل إلى استعادة صورة هتلر، والإعجاب الذي لايخفّ بعظمة هتلر والذي يُعبَّر عنه في عدد من الكتب الحديثة التي ألّفها نازيون سابقون.[1]

ويتخذ مازر موقفاً متناقضاً إلى حد ما. وهو يحذّر القارئ من أن العبارات الكثيرة التي قالها هتلر حول سعة معرفته مشكوك في قيمتها في غياب الدليل الموضوعي. (وعلى سبيل المثال، زعم هتلر أنه يقرأ كتاباً خطير الشأن كل ليلة، وأنه منذ كان في الثانية والعشرين درس بجدية تاريخ العالم؛ تاريخ الفن، والثقافة، والهندسة المعمارية، والعلم السياسي.) وعلى الرغم من هذا التحذير الأولي يجزم مازر، من دون الاستشهاد بالمصادر، أنه وفقاً لأخبار ثابتة من شهود عيان، أن هتلر قد بدأ في أواخر سنواته المدرسية بدراسة الأعمال المتقدمة في العلم والفن، ولكنه

1- cf.H.S.Ziegler (1965),also H.S.Ziegler,ed.(1970)

ووفقاً لتقارير كثيرة يمكن أن يتوقع المرء ظهور عدد غير قليل من الكتب والمقالات في ألمانيا، وإنجلترا، والولايات المتحدة في المستقبل القريب تحاول أن تقدم صورة محسَّنة ومجدَّدة لهتلر، الزعيم العظيم.

كان مطلعاً أتمّ الاطلاع على تلك الفروع من التاريخ التي زعم هو نفسه أنه تمكّن منها. كم يمكن أن يكون مثل هذا التقويم لمعرفة هتلر غير نقدي من مثال بليغ واحد: إذ يكتب مازر أن ملاحظات هتلر في «أحاديث المائدة» Zwiegespräche لاتؤكد إلا «ما أثبته هتلر على نحو مقنع من قبل، في أحاديثه العامة والخاصة على السواء: معرفته الكبيرة بالكتاب المقدس والتلمود» (W.Maser,1971). والتلمود كتاب ضخم وعويص ولايمكن إلا لمن خصّص سنوات لدراسته أن تكون لديه «معرفة كبيرة» به. والحقائق بسيطة: فالكتابات المعادية للسامية التي كان هتلر مطّلعاً عليها تماماً تستشهد بعدد من جمل «التلمود»، وفي بعض الأحيان تحرّفها أو تنزعها من السياق لتثبيت الطبيعة المشؤومة لليهود. وكان هتلر يتذكّر هذه الجمل ويخدع مستمعيه ويحملهم على الاعتقاد بأنه قد تمكّن من كل الكتابات. وأن يكون قد خدع مستمعيه أمر يمكن فهمه؛ ومايؤسف له أنه يمكن أن يخدع مؤرخاً بعد ثلاثين سنة.

وبالفعل كان هتلر يمكن أن يتكلم بذلاقة وبادعاء المعرفة عن كل شيء تحت الشمس تقريباً، كما يمكن أن يقتنع بسهولة أي امرئ يقرأ «أحاديث المائدة» Table Talks (H.Picker,1965). كان يتفتّق في الكلام حول علم المستحاثات، والأنثروبولوجيا، وكل جانب من جوانب التاريخ، والفلسفة، والدين، وسيكولوجية النساء، والبيولوجيا.

فماذا يُظهر التفحّص النقدي لسعة اطلاع هتلر ومعرفته؟

في المدرسة لم يكن قادراً على بذل الجهد للقيام بالقراءة الجِدّية، حتى في موضوعات مثل التاريخ الذي استولى على اهتمامه. وفي سنواته الڤييناوية أمضى معظم الوقت يسير في الشوارع، وينظر إلى المباني، ويرسم، ويتكلم. والقدرة على الدراسة المثابرة والقراءة الجادّة المتعنّية يمكن أن تكون قد انبثقت بعد الحرب، ولكن ليس ثمت دليل على ذلك إلا مايزعمه هتلر. (يُفترض أنه قد حمل مجلّد شوپنهور معه في أثناء الحرب. فكم قرأ منه لانعلم.) ومن جهة أخرى، فإن

تفحّص «أحاديث المائدة»، وخطبه، وكتابه «كفاحي» توحي فعلاً بأنه لابد قد كان قارئاً نهماً لايُشفى غليله وذا قدرة هائلة على لملمة الأقوال والاحتفاظ بها، واستخدامها كلما أمكن ذلك لتأكيد تحيزاته.

وبقراءة «كفاحي» بشيء من الموضوعية فإن هذا الكتاب لايَظهر عملَ إنسان لديه أية معرفة متينة، بل كراسةً دعائية صيغت بحِذق وعدم أمانة. وبالنسبة إلى خطبه، ومع أنها كانت هائلة التأثير، فقد كانت خطب ديماغوجي مهيّج للرعاع، لاخطبَ ذاتِ جيدة التعلّم (أو بطريقة أخرى) إنسانٍ حسن التعلّم. ويُظهره كتاب «أحاديث المائدة» في أعلى مستوياته التحادثية. ولكنه كذلك يكشف عن أنه رجل موهوب جداً، نصف متعلّم، ليس لديه أساس سليم في أي شيء، ويستطرد ويتنقّل من مجال معرفي إلى مجال آخر، ومع ذلك، وبمساعدة ذاكرته العجيبة، ينجح في دمج نتف المعلومات التي لملمها في القراءة المعلوماتية التي قام بها وتوحيد النّتف في كلٍّ متماسكٍ تقريباً. وكان يغلط في بعض الأحيان غلطات فاحشة تُظهر افتقاره إلى المعرفة الأساسية، ولكن يبدو على العموم أنه قد أحدث وَقْعاً في مستمعيه، مع أنه ليسِ في كلهم على الأرجح.

(لدى محاولة المرء تحديد التأثير الذي كان لـ«أحاديث المائدة» في ضيوف هتلر، عليه أن يتذكر أنه في حين أن الناس الذين استمعوا إليه كانوا على درجة جيدة من التعلّم وأذكياء، فإن بعضهم كانوا مسحورين به ولذلك كانوا مستعدّين للتغاضي عن الافتقار إلى الأساس في استطراداته. ولعلهم كانوا متأثّرين كذلك بالمدى الواسع للغاية من الموضوعات التي كان هتلر يتكلم بها بهذه الثقة بالنفس؛ وكان من الصعب عليهم، وقد نشؤوا في تراث الأمانة الفكرية، أن يصدّقوا أنه كان يقعد في هذا المكان رجل مضلِّل إلى حد كبير.»

ويشير الدليل إلى أن هتلر، مع استثناءات نادرة، لم يكن يقرأ ما يتحدى مقدماته المتعصّبة المتحيزة أو ما يتطلّب الفكر النقدي والموضوعي. ووفقاً لطبعه لم

يكن حافزه على القراءة هو المعرفة بل الذخيرة لشغفه بإقناع الآخرين- وإقناع نفسه. وأراد أن يتهيّج بكل شيء يقرؤه؛ فبحث عن الإشباع الانفعالي المباشر من خلال تأكيد انحرافاته. وكما أنه لم يكن مهتماً بالموسيقى عبر باخ أو موتسارت، بل بأوبرات ڤاغنر فقط، لم يكن مهتماً بالكتب التي تقتضي المشاركة والجلَد ولها جمال الحقيقة. وكان يلتهم الصفحات المطبوعة، ولكن بطريقة متلقية ونهمة تماماً. والقليل من الكتب الجادة في أي ميدان يمكن أن يُقرأ بهذه الطريقة؛ والمادة المناسبة لهذا النوع من القراءة هي الكراسات السياسية والكتب العلمية- الزائفة، مثل تلك الكتب التي كتبها حول العرق «غوبينو» Gobineau أو تشامبرلين Chamberlain وكذلك الكتب المبسّطة لعامة الناس حول الداروينية، وغيرها من الكتب التي لايصعب فهمها على هتلر كثيراً ومنها يمكن أن يلملم ما يلائمه. ولعله قرأ كذلك كتباً في موضوعات تهمّه بصدق، كالهندسة المعمارية والتاريخ العسكري، ولكننا لانعلم إلى أي حد. وعلى العموم، يمكن أن يُفترض أن هتلر قد قرأ الكتابات الشعبية (ومنها الكراسات)، التي وجد فيها اقتباسات من مصادر أكثر جدية؛ واحتفظ بهذه الكتب واقتبس منها بالتالي وكأنه كان يقرأ الكتب الأصلية. وليست المشكلة الحقيقية هي كم كتاباً قرأ هتلر، بل هل اكتسب الصفة الأساسية في الإنسان جيد التعلّم- أي القدرة على الموضوعية والعقل في استيعاب المعرفة. وكثيراً ما قيل إن هتلر كان «ذاتي التعلّم»، ولكن هذا المصطلح مضلِّل: إذ لم يكن هتلر **متعلماً ذاتياً** بل **نصف متعلّم**، والنصف الذي كان ينقصه هو معرفة ما هي المعرفة.

ويتجلى افتقار هتلر الأساسي إلى التعليم بطريقة أخرى كذلك. وحتماً كانت لديه إمكانية دعوة الباحثين في أي مجال لكي يتعلّم ويزيد معرفته. ولكن وفقاً لتقارير شرام وكذلك شپير، فقد كان يتجنّب القيام بذلك كلياً.[1] وكان يشعر

١- في إحدى المناسبات برّر تمنّعه هذا بقوله لشپير إن الباحثين الألمان لايريدون على الأرجح رؤيته. وللأسف، لم يكن هذا صحيحاً، ولابد أن هتلر كان يعرف ذلك.

بعدم الراحة مع الناس المساوين له- أو الأعلى منه- في أية ناحية، كما يحدث مراراً في حالة الأشخاص النرجسيين والتسلّطيين. فكان يضطر إلى أن يكون في وضع يؤدي فيه دور الشخص المعصوم عن الخطأ؛ وإذا لم يكن ذلك ممكناً، فإن نقاشاً من هذا القبيل من شأنه أن يهدّد الصرح الكلي لمعرفته المتضخّمة، كما من شأن كتاب جدي أن يفعل ذلك.

والاستثناء الوحيد من تحاشي هتلر للمختصّين نجده في علاقته بالمهندسين المعماريين، ولاسيما الأستاذ پ. ل. تروست P.L.Troost. ولم يكن تروست خانعاً لهتلر؛ فمثلاً، عندما كان هتلر يأتي إلى شقّة تروست، لم يكن يذهب للقائه في الدرج، ولا يصحبه في النزول إلى أسفل الدرج عندما كان يغادره أبداً. ومع ذلك لم يكن إعجاب هتلر بتروست ينقص. ولم يكن متغطرساً أو مماحكاً، بل كان يتصرف نحو تروست تصرف الطالب (A.Speer,1970). وحتى في صورة فوتوغرافية منشورة في كتاب شپير يمكن أن يتبيّن المرء موقف هتلر الخجول تقريباً من الأستاذ. وأفترض أن هتلر تصرف نحو تروست كما تصرّف بسبب اهتمامه بالهندسة المعمارية، وهو الاهتمام الذي سبق أن شدّدت عليه.

وكان ذوق هتلر في الموسيقى والرسم، مثل ذوقه في التاريخ والفلسفة، يكاد يتحدّد بأهوائه حصراً. وكان يرى كل مساء بعد العشاء في «أوبرسالتسبرغ» Ober-salzberg فيلمين؛ وكانت أفلامه الأثيرة هي الأوپريتات operettas والأعمال الموسيقية؛ وليست الرحلات السينمائية، أو الأفلام المصورة عن الطبيعة، أو الأفلام التعليمية (A.Speer,1970). وقد سبق أن ذكرت أن أفلاماً مثل «فريدريك الملك» كانت تمتّعه. وفي الموسيقى كان يهتم اهتماماً يكاد يكون حصرياً بالأوپريتات والموسيقى الڤاغنرية، التي كانت انفعاليتها نوعاً من المنشّط له. وكثيراً ما كان هانفستانغل يعزف له عدة دقائق من موسيقى ڤاغنر، وخصوصاً عندما يشعر بهبوط المعنويات أو الاكتئاب، وكان هتلر يستجيب لذلك استجابته لعقار منشّط.

ولايوجد أي دليل على أن من كان رساماً ذات حين لديه أي اهتمام جدّي بالرسم. فكان يفضّل أن ينظر إلى خارج المتحف، إلى هندسته المعمارية، بدلاً من أن يدخل فيه وينظر إلى اللوحات. ويقدم هانفستانغل وصفاً حياً لزيارة «متحف القيصر فريدريش» في برلين في بواكير العشرينيات. وكانت اللوحة الأولى التي توقف هتلر أمامها هي لوحة رامبرانت «الرجل ذو الخوذة الذهبية». فقال للابن الشاب لأحد أعضاء الحزب الذي أخذ على نفسه هذه الزيارة: «أليست هذه اللوحة فريدة؟ تعبيره [تعبير رامبرانت] البطولي الباسل. قتال بكل مافي الكلمة من معنى. هنا يرى المرء أن رامبرانت كان، في النهاية، آرياً وجرمانياً، ولوأنه أخذ في بعض الأحيان نماذجه من الحي اليهودي.»

وكان هتلر «الرسّام» ينسخ على الأغلب البطاقات البريدية والمنقوشات القديمة؛ وكانت الموضوعات هي واجهة الأبنية إلى حد بعيد («الرسم الهندسي»)، ولكن كذلك المناظر الطبيعية والصور الشخصية والرسوم التوضيحية للإعلانات. وكان المبدأ الذي يرشده هو حصراً سهولة الرواج، وكان من دأبه، كما رأينا، أن يكرر بعض الرسوم التخطيطية وذات الألوان المائية عندما تكون مطلوبة. وكانت رسومه وتصاويره تُظهر الصفة التي يمكن أن يتوقعها المرء من إنسان يرسم هكذا. كانت لطيفة، ولكنها غير مفعمة بالحيوية وتفتقر إلى التعبير الشخصي. ويبدو أن رسومه الهندسية هي أفضل أعماله. ولكنها حتى عندما لم ينسخ، كما حدث في أثناء الحرب، كان لها أسلوب شديد الضبط ومتئد ومتفذلك، فلايمكن أن تشعر فيها بدافع شخصي. مع أنها «منفَّذة جيداً» (A.Speer,1970). حتى إن هتلر نفسه قد اعترف بعدئذ أن حافزه على الرسم كان مجرد جني الرزق، وأنه لم يكن سوى «رسام صغير» ein kleiner Maler. وقد قال لصاحبه المصور الفوتوغرافي هوفمان Hoffmann سنة 1944، «لاأريد أن أصير رساماً. ولم أرسم إلا لأتمكّن من العيش

والدراسة» (W.Maser,1971) . وقد يستنتج المرء أنه كان فناناً تجارياً، ناسخاً له موهبة في الرسم؛ ولم تكن لديه الموهبة ليغدو فناناً عظيماً.[١]

ويتعزّز الانطباع بافتقار هتلر إلى الأصالة عندما ينظر المرء إلى أكثر من مائة رسم كان شپير يمتلكها. ومع أنني لست كفءاً لأحكم في الفن، أعتقد أنه لايمكن لأي شخص ذي حساسية سيكولوجية أن تفوته ملاحظة الحذلقة المفرطة والطابع غير الحيوي لهذه الرسوم. وتوجد، مثلاً، تفصيلة صغيرة لرسم تخطيطي لداخل مسرح كان هتلر قد كررها مرات كثيرة، من دون أي تغيير فعلياً؛ وتوجد تكرارات مماثلة لرسم نصب عمودي رباعي الأضلاع هرمي الرأس. وفي بعض الأحيان يمكن أن يرى المرء العدوان في ضربات الريشة، في حين تفتقر الصور الأخرى إلى أي تعبير شخصي. ومن الشائق جداً أن تتخلّل هذه الرسوم (المرسومة بين ١٩٢٥و١٩٤٠) لوحات غير فنية للغواصات والدبّابات، والمعدّات العسكرية الأخرى.[٢]

والقول بأن هتلر كان لديه اهتمام ضئيل بالرسم يجب ألا يجعلنا نفترض أن

١- إن مازر، لكي يصنع جلّ موهبة هتلر بوصفه رسّاماً، يفسّر طريقة هتلر في النسخ على النحو التالي: «لم ينسخ هتلر لأنه يفتقر إلى الموهبة ... ولكن لأنه كان أكسل من أن يخرج ويرسم» (W,Maser,1971) . وهذا القول مثال على ميل مازر إلى رفع مكانة هتلر، وخصوصاً مادام من الواضح أن هذا الأمر خطأ- في ناحية واحدة على الأقل: فالنشاط الوحيد الذي كان هتلر **يحبه هو الخروج**، ولو للسير في الشوارع. والمثال الآخر على تحيّز مازر لصالح رسم هتلر هو قوله إن الدكتور بلوخ Dr.Bloch (الطبيب اليهودي الذي عالج أم هتلر)، في احتفاظه برسوم الألوان المائية التي أعطاه هتلر إياها «من المؤكد أنه لم يحتفظ [بها] إلى مابعد 1938 لأن أدولف وكلارا هتلر كانا مريضين حتى العام 1907 ». إن مازر يعني بذلك ضمناً أن احتفاظ الدكتور بالرسوم يدل على أن للرسوم قيمة فنية. ولكن لماذا لايكون الدكتور قد احتفظ بها لمجرد أن آل هتلر كانوا في إحدى المرات من المرضى الذين عالجهم؟ إنه لن يكون الطبيب الأول الذي احتفظ بتذكارات من مرضاه تعبيراً عن عرفانهم بجميله- وبعد 1933 فإن أي تذكار من هتلر كان بالتأكيد ذخراً عظيماً بالنسبة إلى إنسان في وضع بلوخ.

٢- إنني مدين للسيد شپير لإراءتي هذه الرسوم؛ إنها مفتاح لطبع هتلر المتحذلق، غير المفعم بالحياة.

اهتمامه بالهندسة لم يكن صادقاً. إن هذا الاهتمام له الأهمية الكبيرة في فهم شخصية هتلر، لأنه يبدو الاهتمام الحقيقي الوحيد في حياته. وأعني بذلك الاهتمام الذي لم يكن نرجسياً في المقام الأول، ولم يكن تبدياً للتدميرية، ولم يكن مزيفاً. ولاريب أنه ليس من السهل الحكم كم هي صادقة اهتمامات الإنسان الذي تعوّد كثيراً أن يكذب حول نفسه. ومع ذلك أعتقد أن ثمت معطيات كافية لإثبات أصالة اهتماماته الهندسية. والحقيقة الأهم في هذا الشأن هي حماسة هتلر المستديمة لمناقشة المخططات الهندسية، التي يذكرها شپير بصورة ناطقة؛ ويمكن للمرء أن يرى أنه هنا كان يحرّضه اهتمام حقيقي بشيء غير نفسه. ولم يكن يحاضر بل يطرح الأسئلة وينهمك في نقاش حقيقي. وأعتقد أنه في اهتمامه بالهندسة المعمارية كان الإنسانُ التدميري، عديمُ الإحساس، الذي تدفعه السلطة يأتي إلى الحياة، ولو أنه في كل مرة كان التأثير الكلي لطبعه يترك شپير منهكاً. ولاأقصد أن أقول إن هتلر كان إنساناً متبدلاً حين يتكلم عن الهندسة المعمارية، بل إنها كانت الحالة الوحيدة التي كان فيها «الغول» أقرب إلى الإنسان.

ولاتعني هذه الاعتبارات أن هتلر كان مصيباً في ادعائه أن الظروف الخارجية قد أجبرته على التخلي عن تخطيطه أن يصبح مهندساً. فقد رأينا أنه كان عليه أن يعمل قليلاً نسبياً لتحقيق هذه الغاية، ولكنه لم يبذل الجهد لأنه كان يدفعه اشتهاؤه القدرة على كل شيء والتدمير أكثر مما تحثّه محبته للهندسة. وافتراض أصالة اهتماماته الهندسية لاينفي صفة جنون العظمة في اهتمامه أو ذوقه الرديء. وكما يلاحظ شبير، فإن تفضيله كان للبهرجة الجديدة [= الباروكية الجديدة] في ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته، والتحول إلى أشكالها المنحطة التي أضفى القيصر ڤلهلم الثاني عليها صفة الشعبية. وليس بالمدهش أن يكون ذوقه رديئاً في الهندسة رداءته في المجالات الأخرى. فلايمكن أن ينفصل الذوق عن الطبع؛ فإن شخصاً شديد القسوة وبدائياً وعديم الإحساس مثل هتلر، أعمى عن كل شيء إلا مايمكن أن

يكون مفيداً له، من الصعب إفلاته من امتلاك ذوق رديء. ومع ذلك أعتقد أنه من المهم أن نلاحظ أن اهتمام هتلر بالهندسة كان العنصر البنّاء الوحيد في طبعه- ولعله الجسر الوحيد الذي كان يصله بالحياة.

الطلاء الخارجي

إن فهم شخصية هتلر يتطلب تبيُّن أن الطلاء الخارجي الذي كان يستر جوهر هذا الإنسان المندفع بلا هوادة هو الإنسان اللطيف، الكيّس، المنضبط، الخجول تقريباً. وكانت كياسته تظهر بصورة خاصة مع النساء، فلايفوته أن يُحضر أو يرسل إليهن الأزهار في الفرص المناسبة؛ وكان يقدّم إليهن البسكويت الحلو والشاي؛ وكان لايقعد حتى يترأس أمناء سره الجلسة. ويقدّم شرام، في مقدّمته لـ«أحاديث المائدة»، صورة حية للتأثير الذي كان يخلّفه هتلر في محيطه: «كانت حلقة الأصدقاء الحميمين تحسب أن «الرئيس» شديد الاهتمام بحسن حال من حَوله، يشاركهم أفراحهم وأتراحهم. ومن ذلك، مثلاً، أنه كان قبل أعياد ميلادهم يقلّب أوجه النظر حول أية هدية من شأنها أن تُحدث سروراً خاصاً...» والدكتور هـ. بيكر، الشاب الذي كان حتى انضمامه إلى جماعة مائدة هتلر

لايَخبُر هتلر إلا عن بعد بوصفه «رجل الدولة»، كان عميق التأثّر بالإنسانية التي كان هتلر يُشعّها ضمن الحلقة الضيقة، ومحبة الخير التي يبديها للأصغر منه، واستعداده للضحك... أجل، إن هتلر، الرجل الذي لاأسرة عنده أو أصدقاء، كان في حلقته «رفيقاً» جيداً، وقد عرف ماتعنيه الرفقة في الحرب العالمية الأولى، واحتفظ بهذه المعرفة في حياته اللاحقة. وكان الناس الذين حوله يعرفون كذلك كم كان شديد الاستجابة للنساء الحسان الأنيقات. ويعرفون ولوعه بالأطفال؛ ويلاحظون كم كان متعلقاً بالكلاب وكم يصبح مطمئناً عندما يستطيع أن يدرس سلوك هذه الحيوانات. (H.Picker, 1965)

وقد استطاع هتلر أن يمثّل هذا الدور المتعلّق بالرجل الودود، اللطيف،

الناعم، المراعي لشعور الآخرين بصورة جيدة جداً؛ لالمجرد أنه كان ممثلاً بارعاً بل كذلك لأنه أحبّ الدور. وكان مما له قيمة كبيرة عنده أن يخدع أقرب حلقة إليه لئلا ترى عمق تدميريته، وفي المقام الأول، أن يخدع نفسه.[1]

من يستطيع أن يعرف هل كان يوجد أي عنصر أصيل من اللطف أو الإرادة الطيبة في سلوك هتلر؟ علينا أن نفترض وجوده، لأن هناك أناساً قليلين مفقودة فيهم كل آثار اللطف والعاطفة. ولكن بقية مارأيناه من طبعه تجعلنا نفترض أن جلّ هذا اللطف لم يكن إلا طلاء خارجياً. واهتمام هتلر بأعياد الميلاد، مثلاً، يعارضه سلوكه نحو إيفا براون، التي لم يكن ينوي أن يُحدث وَقْعاً فيها بأنه «جنتلمان». أما ضحك هتلر- فمن الواضح أن پيكر لم يكن حساساً بما فيه الكفاية ليلاحظ صفته الخاصة. وفيما يتعلق بموقف هتلر الأخوي بين الرفاق في الحرب، كما يدوّن پيكر- يستشهد هانفستانغل بتقرير كتبه الضابط الرائس لهتلر يقول فيه إنه على الرغم من أن هتلر كان جندياً متحمساً وقائماً بالواجب، «كان مستبعَداً من الترقية الإضافية بسبب موقفه المتعجرف من رفاقه وبسبب لحسه البصاق ومهانة نفسه أمام رؤسائه» (E.Hanfstaengl,1970). أما محبته للأطفال- وهي سمة يلبسها ويتباهى بها جلّ السياسيين- فإن شپير يشك في أنها حقيقية.[2] وفيما يتصل بعاطفته نحو الكلاب- فإن شرام يكشف طبيعة هذه العاطفة: يكتب إن هتلر قد أمر بإنشاء مسلك حواجز شبيه بتلك المسالك التي تُستخدم لتدريب الجنود المشاة، يكون فيه على الكلاب أن تُثبت شجاعتها وذكاءها. وراح ضابط صف تولى العناية بالكلاب يُظهر لشرام كم حافظتْ على اتّباع الأوامر المتناوبة بين «الأعلى» و«الأسفل». ويعلّق شرام: «لقد تكوّن لديّ الانطباع بأنني أراقب آلة لاكلباً، وتساءلت ألم يكن هتلر في تدريب

١- يلاحظ شرام Schramm أن هتلر لم يأت في «أحاديث المائدة» على أي ذكر لأوامره الرهيبة التي أصدرها في أثناء الفترة التي تمت فيها محادثات المائدة هذه.

٢- من اتصال شخصي مع أ. شپير A.Speer .

الكلاب تهيمن عليه النيّة في أن يقضي على الإرادة عند هذا الحيوان» (H.Picker,1965) .

ويكتب شرام إن هتلر كان لديه وجهان: وجه ودود، ووجه مريع- وإن كليهما كان صادقاً. وكثيراً ما يعبَّر عن الفكرة نفسها عندما يتحدث الناس عن شخصية «جكل وهايد»*، ويَعنون ضمناً أن كليهما صادق. ولكن هذه الرؤية لايمكن الدفاع عنها سيكولوجياً، ولاسيما منذ ظهور فرويد. فالانقسام الحقيقي هو بين الصميم اللاشعوري لبنية الطبع والدور الذي يمثّله الشخص، ويشمل التبريرات، والتعويضات، والدفاعات الأخرى التي تستر الواقع الأساسي. وحتى بقطع النظر عن فرويد، فإن هذه الرؤية ساذجة إلى درجة خطرة. فمن لم يصادف أناساً لايَخدعون بمجرد الكلمات- وهو الخداع الأقل- بل بسلوكهم الكلي، وعاداتهم، ونبرة صوتهم، وحركاتهم التعبيرية؟ إن الكثيرين من الأفراد لديهم الكفاية من البراعة لتقديم الأداء الجيد إلى حد معقول للطبع الذين يزعمون أنه طبعهم؛ وهم بارعون كثيراً في تمثيل الدور بحيث يخدعون في بعض الأحيان حتى الناس الذين ليسوا بسيطين سيكولوجياً على الإطلاق. وهتلر بافتقاره إلى أي مركز في داخل نفسه، وأية مبادئ صادقة، أو قيم، أو اقتناعات، يمكن أن يمثّل دور الجنتلمان اللطيف من دون أن يكون نفسه مدركاً أنه يمثل دوراً.

وقد أحبّ هتلر هذا الدور، لالمجرد الخداع؛ فقد كانت محبته له مرتبطة بخلفيته الاجتماعية. وأنا لاأشير كثيراً إلى أن أباه كان طفلاً غير شرعي وأن أمه كانت غير متعلمة، بل إلى حالته الاجتماعية الغريبة. فقد عاش أبوه بسبب مهنته من جهة، ولأسباب شخصية من جهة أخرى، مع أسرته في أزمان مختلفة في

---

*- «جكل وهايد» Jekyl and Hide : شخص له شخصيتان تتعاقبان (إحداهما خيّرة والأخرى شريرة). وقد أُخذت التسمية من بطل قصة الكاتب الاسكوتلاندي روبرت لويس ستيفنسون (1850-1894) الذي استطاع أن يحول نفسه من الدكتور جكل المحترم إلى السيد هايد الشرير بتناوله لشراب سحري. (المترجم)

خمس مدن مختلفة. وإلى جانب هذا، فإن دوره بوصفه موظفاً جمركياً إمبراطورياً قد فصله اجتماعياً إلى حد ما عن الطبقة الوسطى المحلية، مع أنه كان من حيث الدخل والوضع الاجتماعي نظيراً لها. وهكذا لم تندمج أسرة هتلر تمام الاندماج في مجتمع الطبقة الوسطى في الأمكنة المختلفة التي عاشت فيها. ويضاف إلى ذلك أن أفراد الأسرة وإن كانوا في حالة مادية حسنة فإنهم من الناحية الثقافية كانوا في أدنى مستوى للحياة البرجوازية. وقد جاء الأب من خلفية اجتماعية هابطة، ولم يكن يهتم إلا بالسياسة والنحل، وأمضى الكثير من وقته الخالي في الحانة؛ وكانت أمه غير متعلمة ولاتهتم إلا بأسرتها. ولابد أن هتلر بوصفه طموحاً ومزهواً بنفسه قد شعر بفقدان الطمأنينة الاجتماعية، وأراد أن يُعدّ من مستويات الطبقة الوسطى الأكثر ترفاً وازدهاراً. وحتى في «النتس» كان لديه شوق إلى ارتداء الثياب الأنيقة، وحتى في مسيراته كان شديد العناية بملبسه ويحمل عصاً. ويذكر مازر أن هتلر كانت لديه في مونيخ (ربطة بيضاء) لحلة من الثياب وأن ثيابه كانت على الدوام نظيفة ومرتّبة وغير متهرئّه. وفيما بعد، تولّت البزّة النظامية أمر العناية بمشكلة الثياب، ولكن أسلوب حياته كان يُقصد أن يَكون أسلوب عضو في البرجوازية جيدة التربية. وقد كشفت الأزهار، وذوقه في تزيين المنزل، ومسلكه العام المحاولة الاضطرارية بعض الشيء لإثبات أنه قد «وصل». فكان هتلرُ «ا**الجنتلمانَ البرجوازي**» الحقيقي؛ **البرجوازي الجديد** nouveau riche التائق إلى إظهار أنه جنتلمان.[1] وقد كره الطبقات الدنيا لأن عليه أن يبرهن أنه لاينتسب إليها. وكان هتلر إنساناً مجتثّ الجذور؛ وفي الدرجة الأولى لالأنه كان نمساوياً يتصنّع أنه ألماني، بل لأنه لم تكن له جذور في أية طبقة اجتماعية. فلم يكن ينتمي إلى الطبقة العاملة؛ ولم يكن ينتمي إلى الطبقة البرجوازية. كان منعزلاً من الناحية الاجتماعية، وليس على المستوى السيكولوجي فقط. وكانت الجذور الوحيدة التي استطاع أن يعيش خبرتها هي الجذور الأقدم- جذور العرق والدم.

١- إن شخصية المسيو فيردو Monsieur Verdoux التي مثّلها شارلي شابلن، شخصية الزوج اللطيف من الطبقة الوسطى الذي يكسب رزقه بقتل النساء الغنيّات، تقدم بعض التشابه.

ولم يكن إعجاب هتلر بالطبقات العليا ظاهرة نادرة على الإطلاق؛ ونحن نجد الموقف نفسه - المكبوت بعمق غالباً - بين زعماء اشتراكيين أمثال «رامزي ماكدونالد Ramsay MacDonald . وقد جاء أمثال هؤلاء الناس من الطبقة الوسطى الدنيا، وكانت صبوتهم العميقة هي أن «تستقبلهم» الطبقة العليا، طبقة أرباب الصناعة والجنرالات. وكان هتلر أقل تواضعاً؛ وقد أراد أن يرغم من يمارسون السلطة الحقيقية على أن يتقاسموها معه؛ وبالمعنى الأكثر رسمية فقد أراد حتى أن يطيعوه. وكان هتلر، المتمرد، وزعيم حزب العمال مشغوفاً بالثراء وبأسلوب حياتهم، على الرغم من كل تلفّظاته ضدهم قبل أن يأتي إلى السلطة. وكان هتلر اللطيف المراعي لمشاعر الآخرين دوراً؛ أما رغبته في «الانتماء» وإلى أن يكون الجنتلمان فقد كانت صادقة. وكان هتلر إنساناً عجيباً غريباً: إنساناً تدفعه عاطفة التدمير، إنساناً عديم الشفقة، بركاناً من العواطف الممعنة في القدم - يحاول أن يظهر بمظهر الشخص الدمث، المراعي لشعور الآخرين، وحتى الجنتلمان الذي لايؤذي. ولاعجب أنه استطاع أن يخدع الكثيرين الذين لأسباب مختلفة لم يكترثوا بأن يُخدعوا.

والرمز الغريب للامتزاج بين البرجوازي الصحيح والقاتل هو زواجه بـ «إيفا براون» في الجورة المحصنّة تحت الأرض، قُبيل وفاتهما. وكان الزواج الرسمي هو الوسام الأعلى الذي يمكن لهتلر، البرجوازي الصغير، أن يمنحه لخليلته وهو الإنجاز الأكبر بالنسبة إليها، التي كانت قيمها في كليتها هي المعايير البرجوازية التقليدية. وكان كل شيء صحيحاً جداً؛ وكان يجب أن يوجد الموظف المختص ليُجيز الاحتفال بالزواج؛ وهذا يستغرق ساعات كثيرة، لأنه من الصعب البحث عن مكان قاضٍ للصلح في ذلك الجزء من برلين الذي لم تحتلّه القوات العسكرية السوفييتية بعد. ولكن الزعيم الأعلى لم يشعر أنه يستطيع أن يغيّر قواعد هذا الإجراء البيروقراطي بتعيين أحد الحاضرين قاضياً للصلح. فكان من الضروري

الانتظار ساعات حتى يصل الموظف المختص. وتم إجراء احتفال الزواج، وقُدّمت الشمبانيا. وكان هتلر «الجنتلمان» يتصرف التصرف السديد- ولكنه جعل من الواضح أنه لايمكن إلا للموت الوشيك أن يزحزحه عن إثبات شرعية علاقته بخليلته. (وكان بقليل من إعمال الفكر، إذا لم نتحدث عن العاطفة، يستطيع القيام بهذه الحركة قبل عدة أسابيع.) وكان هتلر والقاتل يؤديان وظيفتهما كما كانا من قبل. وحتى زواجه بإيفا لم يمنعه من تنفيذ الإعدام بزوج أختها لعدم ولائه المزعوم. وكان قبل ذلك بمدة قصيرة، قد حكم بالموت على طبيبه، الدكتور كارل برانت Karl Brandt، الموالي له منذ العام ١٩٣٤، بوساطة محكمة عسكرية مؤلفة من غوبلز، والجنرال برغر Berger من الـ«إس. إس.» SS، وقائد الشباب، أكسمان Axmann، مع هتلر بوصفه «جهة الادعاء الحكومية» والسلطة العليا على السواء. وكان السبب في حكم الإعدام الذي ألحّ عليه هتلر هو أن برانت قد ترك أسرته في «تورينغيا» لـ«يتدفق عليها الأمريكيون» بدلاً من أن يأتي بها إلى أوبرسالتسبرغ؛ وكانت التهمة هي أن برانت كان يستخدم زوجته جاسوسة للأمريكيين. (أنقذ هملر حياة برانت الذي كان في ذلك الحين يحاول التودّد للأمريكيين.)

وكان الطلاء الخارجي ذخراً مهماً كذلك بصرف النظر عن الأسباب الشخصية والاجتماعية. فقد ساعده على أن يخدع الزعماء الصناعيين والعسكريين والقوميين السياسيين في ألمانيا، وكذلك الكثير من سياسيي البلدان الأجنبية الذين يمكن أن ينفروا من قسوته الوحشية وتدميريته. ومن المؤكد أن الكثيرين لم ينخدعوا بمظهره الخارجي، ولكن الأكثر منهم بكثير قد انخدعوا، وهكذا خلق المناخ الذي سمح لهتلر بمتابعة طريقه إلى التدمير.

عيوب الإرادة والواقعية

كان هتلر نفسه يعدّ إرادته الصلبة أكبر مصادر قوته. ويعتمد سداد رأيه على مايعنيه المرء بـ«الإرادة». وإذا نظرنا إلى سير عمله، بدا أن اللمحة الأولى تشير إلى أنه كان، بالفعل، إنسانا ذا إرادة قوية خارقة للعادة. كانت غايته أن يكون عظيماً،

ومع أنه انطلق بوصفه نكرة، ففي غضون عشرين سنة فقط حقق كل أهدافه التي تتجاوز حتى أي شيء حلم به. ألا يتطلّب تحقيق هذه الأهداف إرادة خارقة للعادة؟

على أن هذه الفكرة تصبح مشكوكاً فيها إذا تذكّرنا كم كانت واهية قوة الإرادة التي أظهرها عندما كان طفلاً وشاباً. فقد رأينا أنه كان متبطّلاً، وغير منتظم، وغير مريد أن يبذل أي مجهود. وليس هذا مانتوقع أن نجده في شخص مزوّد بقوة إرادة شديدة. والحقيقة هي أن ما دعاه هتلر «الإرادة» كان عواطفَه التي ألهبته ودفعته بقسوة إلى نشدان تحقيقها. وكانت إرادته فجّة وغير محدودة مثل إرادة طفل في السادسة من عمره، كما قال شپير. وطفل السادسة الذي لايتوصّل إلى تفاهم ويعتمد على فورة الغضب عندما يُحبَط قد يقال إنه قوي «الإرادة»؛ ولكن سيكون الأصح أن يقال إنه مندفع بدوافعه وعاجز عن قبول الإحباط. وعندما كان هتلر لايرى فرصة لتحقيق هدفه، كان يتلبّث، ويتسكّع، ولايعمل إلا ما يسد الرمق. ولم تكن لديه في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى أدنى فكرة، ولاأي شبْه مخطط لتحقيق هدفه. ولولا الوضع السياسي بعد الحرب، لكان من المحتمل أن يستمر في التسكّع، وقد يحصل على مهن صغيرة، ولو أن ذلك سيكون بالغ الصعوبة بالنسبة إليه لافتقاره إلى الانتظام. ولعل أفضل فرصة للعمل أن تكون مهنة بائع سلعة مشكوك فيها ويعتمد نجاحها على الإقناع القوي في الدرجة الأولى. ولكن انتظاره قد كوفئ؛ فقد أصبحت رغباته الأخيولية وموهبته العظيمة في الإقناع مرتبطة بالواقع الاجتماعي والسياسي. واستأجره ضباط الجيش الرجعيون لاليتجسّس على الجنود الآخرين وحسب، بل لهدايتهم إلى الأفكار العسكرانية الرجعية. ومن هذه البدايات الصغيرة صار هتلر البائع الأكبر للسلعة التي يطلبها كثيراً «الرجال الصغار» الخائبون المحبَطون والتي في بادئ الأمر اهتم الجيش اهتماماً نشيطاً ببيعها ثم اهتمت الجماعات القوية- وهي الأيديولوجيا القومية العسكرانية المعادية للشيوعية. وعندما أثبت نجاحه في هذه المهنة، فإن قطاعات غير قليلة من المصرفيين وأرباب الصناعات قد دعمته مالياً إلى حد أنه تمكّن من الاستيلاء على السلطة.

ويظهر ضعف إرادة هتلر في تردّده وشكه حين كان عليه أن يتّخذ قراراً، وهذه حقيقة علّق عليها كثير من المعلقين. وكان لديه ما هو موجود عند الكثيرين من الذين تُعوزهم الإرادة القوية من الميل إلى ترك الأحداث تصل إلى مرحلة يستغني فيها عن اتخاذ قرار لأن القرار يُفرض عليه؛ ولكن ذلك لايحدث من تلقاء ذاته. كان يشعل النار، ويضيّق سبل التراجع أكثر فأكثر. ويصل بالوضع الكلي إلى مرحلة الغليان حيث يكون عليه أن يتصرّف كما تصرّف. وبتقنية خداع الذات، كان يريح نفسه من عناء اتخاذ القرار. وكان «قراره» هو بالفعل الخضوع للأمر الواقع الذي لامفر منه، ولكنه «أمر واقع» من صنعه. وحسبُنا تقديم مثال واحد: يبدو من المشكوك فيه أنه أراد في الأصل أن يفتح پولونيا، التي كان لديه تعاطف كبير مع زعيمها الرجعي، الكولونيل «بك» Beck. ولكن حين رفض «بك» مطالب هتلر المعتدلة نسبياً، أجّج هتلر الوضع مع پولونيا إلى حد لايترك نتيجة إلا الحرب.

ومتى قرر هتلر قراراً في سير ما، تابعه بتصميم لايهتز وبما يمكن للمرء أن يدعوه «الإرادة الحديدية» للظفر. ولكي نفهم هذا التناقض الظاهر علينا أن نتفحّص، ولو باختصار، مفهوم الإرادة. أولاً، علينا أن نميّز بين «الإرادة العقلية» و«الإرادة غير العقلية». وأنا أفهم من الإرادة العقلية السعي الحثيث لبلوغ هدف مرغوب فيه عقلياً؛ وهذا يقتضي الواقعية، والانتظام، والجلَد، والتغلّب على الانغماس الذاتي. وأعني بالإرادة غير العقلية المجاهدة العاطفية، التي تغذّيها طاقة العواطف غير العقلية التي تفتقر إلى الخصائص المطلوبة للإرادة العقلية.[1] والإرادة غير العقلية تشبه نهراً يفجّر سداً؛ إنها قوية، ولكن الإنسان ليس سيد هذه الإرادة؛ إنه مدفوع بها، مُجبَر عليها، عبد لها. وكانت إرادة هتلر قوية بالفعل، قوية إذا فهمنا أنها إرادة غير عقلية. ولكن إرادته العقلية كانت ضعيفة.

وبالإضافة إلى ضعف إرادة هتلر، فإن الصفة الأخرى التي من شأنها أن

١-راجع البحث في العواطف العقلية وغير العقلية في الفصل العاشر.

تفسد المواهب الأخرى التي ساعدته على الوصول هي: إحساسه القاصر بالواقع.

إن اتصال هتلر، الرديء بالواقع، كما قد رأينا، واضح من قبل في استغراقه في ألعاب الصبيان الحربية حتى سن السادسة عشرة. وكان هذا العالم الأخيولي أكثر حقيقية بالنسبة إليه من العالم الحقيقي بكثير. وكان لمخططه أن يكون فناناً علاقة واهية بالواقع- كان في الأكثر حلم يقظة- وكان نشاطه بوصفه فناناً تجارياً لاينسجم مع رؤيته أبداً. ولم يكن الناس كذلك حقيقيين تماماً بالنسبة إليه؛ فجميعهم أدوات، وظل من دون صلة ولو أنه كان حاكماً داهية في الكثير من الأحيان.[1]

ومع ذلك فعلى الرغم من أن هتلر لم يفهم الواقع تماماً، فإنه لم يعش حصراً في عالم الأخيولة. فكان عالمه مزيجاً خاصاً من الواقع والأخيولة لم يكن فيه شيء حقيقي كلياً ولاشيء غير حقيقي كلياً. وفي بعض الأحوال، ولاسيما حينما يستبصر بواعث خصومه، يكون لديه إدراك للواقع لافت للنظر. فلايتأثر بما قاله الناس، بل بما يتبيّن له أنها بواعثهم الحقيقية- الصريحة أو حتى التي هي ليست شعورية تماماً. والمثال الجيد على ذلك تقديره السلوك السياسي البريطاني-الفرنسي. ويمكن أن يقال إن نصر هتلر هو بمعنى من المعاني قد بدأ بعدم إرادة «بريطانيا العظمى» اتّباع قرار «عصبة الأمم» فيما يتصل بمحاصرة إيطاليا بعد أن بدأ موسوليني هجومه على أثيوبيا، في ١٩٣٥-١٩٣٦. فقد استمرت إيطاليا تحت كل أنواع الذرائع في تلقّي النفط، الذي كانت له ضرورة ماسة في تسيير الحرب،

١- يعبّر شبير عن افتقار هتلر إلى الصلة بالواقع في صياغة مختلفة قليلاً وحدسية كثيراً: «كان ثمت شيء وهمي يتعلّق به. ولكن ربما كان ذلك صفة دائمة لديه. وعندما أعود بنظري إلى الماضي أتساءل أحياناً هل عدم الملموسية هذا، هل هذه الوهمية لم تكن تميّزه منذ الشباب الباكر حتى لحظة انتحاره. ويبدو لي في بعض الأحيان أن نوبات العنف يمكن أن تعتريه بمنتهى القوة لأنه لم تكن لديه انفعالات إنسانية تقاومها. ولم يكن يسمح لأحد على الإطلاق أن يقترب من كيانه الداخلي لأن ذلك الصميم كان عديم الحياة، خاوياً» (A.Speer,1970).

في حين كانت أثيوبيا تلقى أشد الصعوبات حتى في الحصول على الأسلحة من الخارج. وكانت الحادثة التالية التي جرأت هتلر هي طريقة سير الحرب الأهلية الإسبانية، في ١٩٣٦-١٩٣٩. فقد منعت بريطانيا العظمى حكومة إسبانيا الدستورية من استيراد الأسلحة للدفاع عن نفسها، وكانت الحكومة الفرنسية، برئاسة الاشتراكي بلوم Blum لاتجرؤ على أن تتصرف من دون موافقة بريطانيا العظمى. وعلى أية حال، فإن لجنة القوى الديمقراطية المعهود إليها بفرض عدم التدخّل في إسبانيا لم تفعل شيئاً لمنع هتلر أو موسوليني من مواصلة التدخّل العسكري لصالح فرانكو.[1] وكانت الحادثة التالية هي عدم مقاومة الفرنسيين والبريطانيين احتلال هتلر لـ«راينلاد» Rhineland* منزوعة السلاح سنة ١٩٣٦، في الوقت الذي كان فيه الجيش الألماني غير مستعد للحرب بتاتاً. (لاحظ هتلر في أحاديث المائدة [H.Picker,1965] أنه لو كان في فرنسا رجل دولة حقيقي في ذلك الحين، لكان من شأن الفرنسيين أن يقاوموا احتلاله لراينلاند.) وكانت الخطوة الأخيرة، وهي زيارة تشامبرلين لالتماس الاعتدال من هتلر، غير ضرورية لتأكيد اقتناع هتلر بأن بريطانيا العظمى وفرنسا غير راغبتين في أن تعملا بمقتضى كلماتهما. وفي هذه الحالة أظهر هتلر البصيرة الواقعية في السلوك البشري، بصيرة تاجر خيل فطين يعرف حين يخدعه الطرف الآخر. والذي لم يره هتلر كان الواقع السياسي والاقتصادي الأوسع. لقد فاته أن يدرك اهتمام بريطانيا العظمى التقليدي بتوازن القوة في القارة الأوربية؛ ولم يدرك أن تشامبرلين لايمثل هو ودائرته المصالح

١ - إن السير أ. كادوغان Sir A.Cadogan، السكرتير الثاني الدائم في الدائرة الخارجية البريطانية، الذي ساعد على تشكيل السياسة البريطانية في ذلك الحين، يقدم صورة ممتازة ومفصّلة لمعالجة الحرب الأهلية الإسبانية التي كان يحرّضها إلى أبعد حد تعاطف المحافظين مع موسوليني وهتلر، وميلهم إلى السماح لهتلر بمهاجمة الاتحاد السوفييتي، وعجزهم عن إدراك نيّات هتلر إدراكاً كاملاً (Sir A.Cadogan,1972).

*- راينلاند: منطقة ألمانيا الغربية التي كانت واقعة في غربي نهر الراين. (المترجم).

السياسية لكل «المحافظين»، الذين هم أقل بكثير من الرأي العام لكل السكان البريطانيين. لقد اعتمد على رأي يواخيم فون ربنتروب Joachim von Ribben-trop، وهو ذو ذكاء سلس ولكنه في منتهى السطحية، وغير مُهيّأ أبداً لفهم التعقيدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للنظام البريطاني.

والقصور نفسه عن الحكم الواقعي نراه في افتقاره إلى أية معرفة حقيقية عن الولايات المتحدة وفي قصوره عن إعلام نفسه. وتتفق كل التقارير ذات الصلة بالموضوع أنه كان راضياً بأفكاره السطحية، من مثل أن الأمريكان أكثر ليونة من أن يكونوا جنوداً جيدين، وأن أمريكا يسيّرها اليهود، وأن الحكومة الأمريكية لن تجرؤ على دخول الحرب لأن البلد مليء بالمنازعات بحيث يمكن أن تندلع الثورة.

وتُظهر استراتيجية هتلر قصوراً متساوياً عن الإدراك التام للواقع وعن الموضوعية. ويشير پ. إ. شرام في تحليله النفّاذ والغني بالوثائق إلى هذا العيب في مقاربة هتلر الاستراتيجية، ويذكر ثلاثة أمثلة (وفقاً للجنرال أ. يودل A.Jodl) على الخطط الجريئة والخيالية. ولكن من ١٩٤٢ فما بعد، كان حكم هتلر في الأمور العسكرية شديد القصور. فقد فعل ما فعله بالمادة التي يقرؤها؛ كان يلملم تلك المعلومات المبثوثة في التقارير العسكرية التي تتوافق مع مخططاته ولايبالي بالمعلومات التي تجعله يشك فيها. وكانت أوامره بعدم التراجع التي أدت إلى كارثة ستالينغراد وإلى الخسائر الفادحة في أجزاء كثيرة أخرى من الجبهة، يصفها شرام بأنها «منعدمة الإحساس بصورة متزايدة». وأهملت خططه المرسومة للهجوم العدواني الأخير على منطقة «الآردن» Ardennes أن تأخذ في حسبانها العوامل المهمة في الوضع التكتيكي الفعلي. ويلاحظ شرام أن استراتيجية هتلر كانت استراتيجية «الوجاهة» و«الدعاية». وافتقاره إلى الواقعية جعله لايدرك أبداً أن الحرب والدعاية تحددهما قوانين ومبادئ مختلفة. ويغدو اغتراب هتلر عن الواقع ظاهراً بصورة عجيبة غريبة حين أصدر أمراً، في ٢٤ نيسان ١٩٤٥، قبل يومين من انتحاره، بأن «القرارات الأساسية ينبغي أن يُلفت انتباه الفورر Führer إليها قبل ست وثلاثين ساعة [من تنفيذها]» (P.Schramm,1965).

وامتزاج إرادة هتلر القاصرة مع شعوره القاصر بالواقع يُفضي إلى السؤال هل كانت لديه إرادة الظفر حقاً أم أن سيره كان يتجه لاشعورياً نحو الكارثة، على الرغم من مساعيه الظاهرة لبلوغ العكس. لقد عبّر عدة ملاحظين شديدي الحساسية عن الشبهة القوية بأن الأمر الثاني كان حالته. ويكتب سي بوركات C.Burckhardt، وهو واحد من أكثر ملاحظي هتلر دقة نظر: «ليس من التخريج البعيد أن نفترض إجمالاً أن الكاره الذي لايُشفى غليله والذي يعمل في داخله [هتلر] كان مرتبطاً في الأجزاء اللاشعورية من كيانه باليقين المستور ولكنه الموجود على الدوام بأن النهاية ستتم بأفظع الإخفاق والفناء الشخصي، كما حدث، في الواقع، في مستشارية الرايخ في ٣٠ نيسان ١٩٤٥» (C.Burckhardt,1965). ويذكر شپير أنه عندما كان هتلر في السنوات التي سبقت الحرب يناقش مخططاته الهندسية بمنتهى الحماسة، كان يشعر شعوراً غامضاً بأن هتلر لايعتقد حقاً بإمكان تحقيقها؛ ولم يكن ذلك اقتناعاً واضحاً، ولكنه نوع من الشعور الحدسي انتابه.»[1] ويعبّر ي. بروسه عن الفكرة ذاتها؛ وهو يثير السؤال هل آمن هتلر في أي يوم بالنصر النهائي، أو حتى رغب فيه حقاً (J.Brosse,1972). وعلى أساس تحليلي لهتلر توصلّت إلى نتيجة مشابهة. وأنا أشك في أنه يمكن لرجل على هذه الدرجة الشديدة وكلية الاستغراق من التدميرية أن يكون في عمق كيانه قد أراد حقاً العمل البنّاء الذي من شأن النصر أن يشتمل عليه. وشپير وبروسه وأنا لانصف الجانب الشعوري من ذهن هتلر. والافتراض أنه لم يعتقد بتحقيق أحلامه الفنية والسياسية ولم يُرِده يشير إلى ما من شأن المرء أن يضطر إلى اعتبار أنه لاشعوري تماماً؛ ومن دون مفهوم البواعث اللاشعورية يبدو القول بأن هتلر لم يُرِد الظفر منافياً للمعقول.[2]

١- من اتصال شخصي مع أ. شپير A.Speer .

٢- يوجد قدر كبير من المادة السريرية التي تُثبت أن الناس يمكن أن يجاهدوا من أجل دمارهم، مع أن هدفهم الشعوري هو النقيض تماماً. وليس التحليل النفسي هو وحده الذي يقدّم مثل هذه المادة بل المسرحيات العظيمة كذلك.

كان هتلر مقامراً؛ قامر بحيوات الألمان كافة وكذلك بحياته. وعندما انتهت اللعبة وخسر، لم يكن ثمت حتى السبب الكبير للندم. كان يمتلك ما كان يريده دوماً: السلطة وإشباع كرهه واشتهائه للتدمير. ولم يكن من المحتمل لهزيمته أن تأخذ منه هذا الإشباع. فالمدمِّر والمصاب بجنون العظمة لم يخسر حقاً. والذين خسروا هم ملايين البشر- الألمان، وأعضاء الأمم الأخرى والأقليات العرقية- الذين كان الموت بالنسبة إليهم أخف أشكال المعاناة. وبما أن هتلر كان خلواً من الشفقة على أي شخص، فإن معاناتهم لم تسبب له الألم أو تبكيت الضمير.

وقد وجدنا في تحليل هتلر عدداً من السمات المَرَضية الشديدة: فافترضنا وجود مسحة شبه منسحبة من الواقع في طفولته؛ ووجدنا النرجسية المفرطة. والافتقار إلى الصلة بالآخرين، والعيوب في إدراكه للواقع، والنكروفيليا الشديدة. ويمكن للمرء أن يفترض على نحو مسوَّغ وجود مسحة ذُهانية، أو ربما فصامية فيه. ولكن هل يعني ذلك أن هتلر كان «مجنوناً» أو يشكو من الذُّهان أو البارانويا، كما قيل في بعض الأحيان؟ أعتقد أن الجواب هو النفي. فعلى الرغم من المسحة الجنونية في هتلر كان سوياً إلى حد كافٍ لمتابعة أهدافه بصورة قصدية، وبنجاح مدة من الوقت. ومع كل الأخطاء في الحكم التي ارتكبها بسبب نرجسيته وتدميريته، لايمكن إنكار أنه كان ديماغوجياً وسياسياً ذا براعة بارزة وأنه لم تظهر عليه في أية مرحلة ردود أفعال ذُهانية صريحة. وحتى في أيامه الأخيرة، عندما كان إنساناً محطّماً من الناحية البدنية والنفسية، فقد ظل منضبطاً. أما نزَعاته البارانويائية، فإن ارتيابيته المؤسسة على الواقع بصورة كافية جداً- كما أثبتت المؤامرات المختلفة ضده- لاتجعل من الممكن للمرء أن يدعوها تبدياً للبارانويا. ومن المؤكد أن هتلر لو كان مدعى عليه في قصر العدل، حتى في أشد قصور العدل إمبريالية، فإن الادعاء بالجنون لايجد له أية فرصة. ولكن مع أن هتلر لم يكن إنساناً ذُهانياً بالمصطلحات التقليدية فإنه دينامياً وعلى أساس العلاقات الشخصية المتبادلة كان إنساناً جدَّ مريض. والمسألة الكلية حول هل يمكن أن يُعدّ هتلر غير سويّ

تغشّيها الصعوبة التي ناقشناها آنفاً حول القيمة المشكوك فيها للتصنيفات المَرضية النفسية؛ وقد تكون للأقوال حول الاختلاف بين المسحة الذُّهانية والذُّهان مكتمل الصفات قيمتها في محكمة عدلية لتقر هل يرسَل الشخص إلى السجن أم إلى مشفى عقلي، ولكن مانعالجه هو بعد التمحيص النهائي السيرورات الشخصية المتبادلة التي تتحدى أمثال هذه التصنيفات. ولكن التحليل السريري يجب ألا يُستخدم لخلع الغموض على المشكلة **الأخلاقية** للشر. وكما يوجد أناس «أسوياء» أشرار وطيبون، يوجد مجانين أشرار ومجانين طيبون. والشر يجب أن يُرى من أجل ماذا، والحكم الأخلاقي لايعطلّه التشخيص السريري. ولكن حتى أشد الناس شراً هو إنسان ويستدعي شفقتنا.

وفي ختام هذه الدراسة قد تكون بضع كلمات مفيدة للإشارة إلى القصد من إدماج هذه المادة المطوّلة، وكذلك المادة عن هملر، في هذه الدراسة. فعلاوة على الهدف النظري الواضح إلى توضيح مفهوم السادية والنكروفيليا بتقديم الأمثلة السريرية التوضيحية، فإن لديّ هدفاً آخر: هو الإشارة إلى المغالطة الكبرى التي تمنع الناس من تبيُّن الهتالرة Hitlers الكامنين قبل أن يُسفروا عن وجوههم الحقيقية. وتكمن المغالطة في أن الإنسان الشرير والتدميري بكل معنى الكلمة لابد أن يكون شيطاناً- وأن يبدو دوره؛ وأن يكون خالياً من أية صفة إيجابية؛ وأنه لابد أن يحمل علامة قايين [=قابيل] بصورة ملحوظة جداً بحيث يمكن لأي شخص أن يتبين تدميريته من بعيد. إن أمثال هؤلاء الشياطين موجودون، ولكنهم نادرون. وكما أشرت من قبل، فإن الشخص التدميري بشدة سوف يُظهر في أكثر الأحيان وجه اللطافة؛ الكياسة ومحبة الأسرة والأطفال والحيوانات؛ وسوف يتحدث عن مثُله ونيّاته الحسنة. ولكن ليس ذلك فقط. ومن الصعب أن يوجد إنسان خاوٍ تماماً من أي لطف، ومن أية نية حسنة. ولو وُجد، لكان على حافة الجنون، باستثناء «ذوي العته الأخلاقي» الموجود منذ الولادة. ومن ثم، **مادام المرء يعتقد أن الإنسان**

الشرير يحمل قرنين، فإنه لن يكتشف شريراً.

والافتراض الساذج أن الشرير يمكن أن يتبيّن بسهولة يؤدي إلى خطر أفدح: أنّ المرء لايتبيّن الأشرار قبل أن يبدؤوا في عملهم التدميري. وأعتقد أن أكثرية الناس ليس لها طبع تدميري شديد مثل هتلر. ولكن لو أن المرء يقدّر أن أمثال هؤلاء الأشخاص يشكّلون/ ١٠/ في المائة من سكاننا، فإنه يوجد منهم مايكفي ليكونوا خطرين إذا وصلوا إلى التأثير والسلطة. ومن المؤكد أنه لن يصبح كل مدمر «هتلراً» a Hitler، لأنه سيفتقر إلى مواهب هتلر؛ وهو لن يصير إلا عضواً مقتدراً في الـ«إس. إس» SS. ولكن من جهة أخرى، لم يكن هتلر عبقرياً، ولم تكن مواهبه فريدة. والذي كان فريداً هو الوضع السياسي- الاجتماعي الذي استطاع أن يصعد فيه؛ ومن المحتمل أن يكون بيننا المئات من الهتالرة الذين سوف يبرزون إذا حانت ساعتهم التاريخية.

وتحليل شخص مثل هتلر بموضوعية وبعد عن الهوى أمر لايمليه الضمير العلمي وحسب بل كذلك لأنه الشرط لتعلّم درس مهم في الحاضر والمستقبل. وأية محاولة من شأنها تحريف صورة هتلر بحرمانه من إنسانيته لن يكون لها إلا أن تزيد شدة التعامي عن الهتالرة الكامنين ما لم يكونوا يحملون قروناً.

خاتمة:
حول غموض الأمل

حاولتُ في هذه الدراسة أن أثبت أن إنسان ما قبل التاريخ، الذي يعيش في تجمعات بوصفه صياداً وجامعاً للقوت، كان يتّصف بالحد الأدنى من التدميرية وبالدرجة المثلى من التعاون والتقاسم، وأنه لم تنشأ التدميرية والقسوة واسعتا النطاق ولم تنموا إلا مع ازدياد الإنتاج وتقسيم الجهد، وتشكّل الفائض الكبير وبناء المدن ذات التراتبيات والنُّخَب عندما نمت الحضارة ونما دور السلطة.

فهل قدّمت هذه الدراسة الحجج المستندة إلى الواقع لصالح الفرضية القائلة بأنه يمكن للعدوان والتدميرية أن يأخذا من جديد دوراً أصغر في نسيج البواعث البشرية؟ أعتقد أنها قدّمتْ، وآمل أن يعتقد الكثير من القراء بذلك أيضاً.

وبمقدار مايكون العدوان ممنوحاً في الوحدات الوراثية بيولوجيًا، لايكون عفوياً، بل دفاعاً في وجه التهديدات الموجّهة ضد المصالح الحيوية للإنسان، دفاعاً عن نموه وبقاء نوعه. وقد كان هذا العدوان الدفاعي ضئيلاً نسبياً في ظل بعض الأوضاع البدائية- عندما لم يكن الإنسان ذا تهديد شديد للآخر. ومنذ ذلك الحين اجتاز الإنسان نشوءاً غير عادي. ومن المقبول عقلاً ومنطقاً أن نتصور أن المجتمع سوف يُتمّ دورة كاملة وينشئ مجتمعاً لايتهدّد فيه أحد: فلايتهدد الطفل بأحد الوالدين؛ ولاأحد الوالدين بمن هو فوقه؛ ولاطبقة اجتماعية بأخرى؛ ولاأمة بسلطة أعلى. وتحقيق هذه الغاية عسير إلى أقصى الحدود لأسباب اقتصادية وسياسية وثقافية وسيكولوجية- والصعوبة الإضافية هي أن أمم العالم تعبد الأوثان- ومختلف الأوثان- ولذلك لايفهم بعضها بعضاً، ولو أن كلاً منها تفهم لغات

الأخرى. وتجاهل هذه الصعوبات حماقة؛ ولكن الدراسة التجريبية لكل المعطيات تُظهر أنه توجد إمكانية لبناء عالم كهذا في مستقبل منشود إذا زالت العقبات السياسية والسيكولوجية.

ومن جهة أخرى، فإن الشكلين الخبيثين من العدوان- السادية والنكروفيليا- ليسا فطريين؛ ومن ثم يمكن تخفيفهما بدرجة كبيرة إذا حلت محل الأوضاع الاجتماعية- الاقتصادية أوضاع مؤاتية للنمو الكامل لحاجات الإنسان وقدراته الحقيقية؛ غايتها نمو النشاط الإنساني الذاتي والقدرة الإبداعية الإنسانية. والاستغلال والاحتيال يُحدثان الضجر والتفاهة؛ إنهما يشلاّن الإنسان، وكل العوامل التي تحوّل الإنسان إلى منشلّ نفسياً تحوّله كذلك إلى سادي ومدمّر.

إن هذا الوضع سوف يوصف بشيء من قبيل «الإفراط في التفاؤل» أو «اليوتوبية» أو «عدم الواقعية». ولمعرفة مزايا نقد كهذا حق المعرفة يبدو أن الأمر يستدعي مناقشة مفهوم غموض الأمل وطبيعة التفاؤل والتشاؤم.

افترضوا أنني أخطّط لرحلة في نهاية الأسبوع إلى الريف ومن المشكوك فيه أن يكون الجو صاحياً. وقد أقول «أنا متفائل» بمقدار ما يتعلق الأمر بالجو. ولكن إذا كان طفلي مريضاً بمرض خطير وحياته مجهولة النتيجة، فإن القول «أنا متفائل» يبدو للآذان الحساسة غريباً لأن التعبير في هذا السياق يبدو منفصلاً ونائياً. ومع ذلك لايمكن أن يكون من الصحيح أن أقول «أنا مقتنع أن ابني سوف يعيش»، لأنه ليس لديّ في الظروف الراهنة أساس واقعي للاقتناع.

فماذا يمكن أن أقول إذن؟

لعل أنسب الكلمات أن تكون: «لديّ إيمان بأن ابني سوف يعيش». ولكن «الإيمان»، بسبب تضميناته اللاهوتية، ليس كلمة الزمن الحاضر. ومع ذلك فالإيمان هو أفضل ما لدينا، لأنه يتضمن عنصراً مهماً للغاية: رغبتي الحماسية الشديدة في

أن يعيش طفلي، وعملي كل ما هو ممكن لأجلب له الشفاء. فأنا لستُ مجرد مُلاحظ، منفصل عن طفلي، كما هي الحال في كوني «متفائلاً». فأنا جزء من الوضع الذي ألاحظه؛ وأنا منشغل؛ وطفلي الذي أُنشئ، أنا «الذات»، حوله قولاً تشخيصياً ليس «شيئاً»؛ وإيماني راسخ في ارتباطي بطفلي؛ وهو مزيج من المعرفة والمشاركة. وحتماً لايكون ذلك صحيحاً إلا إذا كان المقصود بالإيمان «الإيمان العقلي» (E.Fromm,1947)، القائم على الإدراك الواضح لكل المعطيات ذات المتات إلى الموضوع، وليس وهماً مبنياً على رغباتنا، كما هي الحال في «الإيمان غير العقلي».

إن التفاؤل هو الشكل الاغترابي من الإيمان، والتشاؤم هو الشكل الاغترابي من اليأس. وإذا استجاب المرء بصدق للإنسان ومستقبله، أي باهتمام و«مسؤولية»، فإنه لايمكن أن يستجيب إلا بإيمان أو بيأس. ويقوم الإيمان العقلي وكذلك اليأس العقلي على أشمل المعرفة بكل العوامل وثيقة الصلة ببقاء الإنسان. وأساس الإيمان العقلي بالإنسان هو وجود الإمكان الحقيقي لخلاصه؛ وأساس اليأس العقلي هو معرفة أن هذا الإمكان لايمكن أن يُرى.

وتحتاج إحدى المسائل إلى أن تؤكَّد في هذا السياق. إن جلّ الناس على أتم الاستعداد لاتّهام الإيمان بتحسّن الإنسان بأنه غير واقعي؛ ولكنهم لايعترفون بأن اليأس كثيراً ما يكون غير واقعي أبداً. وإنه لمن السهل القول: «لقد كان الإنسان قاتلاً على الدوام.» ولكن القول هو مع ذلك غير صحيح، لأنه يهمل أن يأخذ في الحسبان تشابكات تاريخ التدميرية. ومن السهل كذلك القول: «إن الاتجاه إلى استغلال الآخرين هو من الطبيعة البشرية تماماً»، ولكن القول يهمل مرة أخرى الحقائق (أو يحرّفها). وباختصار، فإن القول، «الطبيعة البشرية شريرة» ليس أكثر واقعية بنتفة من القول، «الطبيعة البشرية خيّرة». ولكن القول الأول أسهل بكثير؛ فأي امرئ يود أن يُثبت شريرية الإنسان يجد الأتباع بمنتهى اليسر، لأنه يقدّم لكل

شخص عذراً لذنوبه- ولايخاطر ظاهراً بأي شيء. ومع ذلك فإن انتشار اليأس غير العقلي هو في ذاته تدميري، كما هو كل قول مخالف للحقيقة؛ فهو يشجّع ويشوّش. والوعظ بالإيمان غير العقلي أو الإعلان عن مسيح كاذب ليس أقل تدميرية- فهو يُغوي ثم يَشلّ.

وليس موقف الأكثرية موقف الإيمان ولاموقف اليأس، ولكنه، لسوء الحظ، موقف عدم الاكتراث التام بمستقبل الإنسان. والموقف عند مَنْ هم ليسوا في حالة عدم الاكتراث الكلي هوموقف «التفاؤل» أو «التشاؤم». والمتفائلون هم المعتقدون بالعقيدة الجازمة المسلَّم بها حول السير المستمر لـ«التقدم». وهم متعوّدون أن يماثلوا الإنجاز الإنساني مع الإنجاز التقني، والحرية الإنسانية بالتحرر من القَسْر وحرية المستهلك في الاختيار بين السلع المزعوم أنها مختلفة. ولاتؤثّر في نفوسهم كرامة البدائي وتعاونيته ولطفه؛ ويؤثّر فيها الإنجاز التقني والثراء والصلابة. وقد تركت قرون من السيطرة على الشعوب المتخلّفة تقنياً من ذوي اللون المختلف طابعها على أذهان المتفائلين. كيف يمكن لـ«همجي» أن يكون إنساناً ومساوياً للبشر الذين يستطيعون أن يطيروا إلى القمر- أو بضغطة زر يدمرون ملايين البشر؟ هذا إذا لم نتحدث عن المتفوقين؟

والمتفائلون يعيشون على مايرام بصورة كافية، على الأقل آنياً، وبوسعهم أن يكونوا «متفائلين». أو ذلك على الأقل مايعتقدون به لأنهم على درجة كبيرة من الاغتراب بحيث حتى تهديد مستقبل أحفادهم لايؤثّر فيهم تأثيراً صميمياً.

و«المتشائمون» لايختلفون في الحقيقة عن المتفائلين. وهم يعيشون براحة مثلهم ومنشغلون قليلاً مثلهم تماماً. ويهتمون بمصير البشرية قليلاً كما هو شأن المتفائلين. ولايشعرون باليأس؛ ولو شعروا به، لما عاشوا، أو لما استطاعوا أن يعيشوا، برضى كما يعيشون. وبينما يؤدي تشاؤمهم وإلى حد كبير دور حماية المتشائمين من أية مطالبة داخلية بالقيام بأي شيء، بطرح فكرة أنه «لاشيء يمكن القيام به»، فإن المتفائلين يدافعون عن أنفسهم في وجه المطالبة الداخلية ذاتها بإقناع

أنفسهم بأن كل شيء يسير في الاتجاه الصحيح في كل مكان، ولذلك لاحاجة إلى القيام بشيء.

والموقف المتخذ في هذا الكتاب هو موقف الإيمان العقلي بقدرة الإنسان على تخليص نفسه من نسيج الظروف المهلك الذي خلقه. إنه موقف الذين هم ليسوا «متفائلين» وليسوا «متشائمين»، بل هم جذريون لديهم إيمان عقلي بقدرة الإنسان على تجنّب الكارثة في نهاية الأمر. وهذه الجذرية القائمة على المذهب الإنساني تغوص في الجذور، وكذلك في الأسباب؛ وتَنشد تحرير الإنسان من قيود الأوهام؛ وتفترض أن التغييرات الأساسية ضرورية، لافي بنيتنا الاقتصادية والسياسية وحسب، بل كذلك في قيمنا، وفي مفهومنا لأهداف الإنسان، وفي سلوكنا الشخصي.

وامتلاك الإيمان يعني الجرأة على التفكير فيما لايُفكَّر فيه، والعمل مع ذلك ضمن حدود الممكن واقعياً؛ إنه الأمل القائم على المفارقة في توقّع المخلّص كل يوم، وعدم وهن العزيمة مع ذلك حين لايجيء في الساعة المحدّدة. وليس هذا الأمل سلبياً ولاوئيداً؛ بل على العكس، هو البحث اللجوج والدؤوب عن كل إمكانية للعمل ضد مجال الممكنات الحقيقية. وهو أقل من كل الأشياء سلبية بمقدار ما يتعلق الأمر بنمو الشخص وتحرير ذاته. ومن المؤكّد أن ثمت حدوداً صارمة للنمو الشخصي تحددها البنية الاجتماعية. ولكن أولئك الجذريين المزعومين الذين ينصحون بأن التغيير الشخصي غير ممكن أو غير مرغوب فيه في المجتمع الحالي يستخدمون أيديولوجيتهم الثورية تَعِلّة لمقاومتهم الشخصية للتغيّر الداخلي.

إن وضع الجنس البشري اليوم أشد خطورة من أن نسمح لأنفسنا بالاستماع إلى الديماغوجيين المنجذبين إلى التدمير - أو حتى إلى الزعماء الذين لايستخدمون إلا عقولهم والذين قسّوا قلوبهم. ولن يحمل الفكر النقدي والجذري الثمار إلا إذا امتزج بأكرم صفة حُبِيَ بها الإنسان - محبة الحياة.

ملحق:
نظرية فرويد في العدوانية والتدميرية

١- تطور مفهوم فرويد للعدوانية والتدميرية

لعل العنصر الأدعى إلى الملاحظة في دراسة فرويد للعدوان هو أنه لم يحفل بالعدوانية والتدميرية البشريتين حتى العام ١٩٢٠ . وهو نفسه قد عبّر عن تحيّره في هذا الأمر بعد سنوات كثيرة في كتابه «الحضارة وتنغيصاتها» Civilization and Its Discontents (1930) : «ولكنني لم أعد أستطيع أن أفهم كيف كان من الممكن أن نتغافل عن الوجود العام للعدوانية والتدميرية غير الإيروسيتين وكيف كان في وسعنا أن نهمل إعطاء ذلك مكانه المناسب في تفسيرنا للحياة» (S. Freud, 1930) .

وسيكون من المسعف لفهم هذه المنطقة العمياء الغريبة، أن نضع أنفسنا في الحالة النفسية للطبقات الوسطى في الزمن الذي سبق الحرب العالمية الأولى. فلم تكن هناك حرب كبيرة منذ العام ١٨٧١ . وكانت البرجوازية تتقدم بثبات، سياسياً واجتماعياً على السواء، وكان العداء الشديد بين الطبقات يتضاءل، بسبب التحسّنات الوطيدة في وضع الطبقة العاملة. وبدا العالم مسالمًا ويزداد تمدّنه دومًا، وخصوصًا عندما لا يلتفت المرء إلى الجزء الأكبر من الجنس البشري الذي يعيش في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية في الفقر والانحطاط المطبقين. وكان يبدو أن التدميرية البشرية عامل مثّل دورًا في العصور المظلمة وفي الكثير من القرون الأقدم،

ولكنها الآن قد حل محلها العقل وحسن النية. وكانت المشكلات السيكولوجية غير المكتشفة هي الناشئة عن المبادئ الأخلاقية المفرطة في الصرامة عند الطبقة الوسطى، وكان فرويد شديد التأثر بالدليل على النتائج الضارة للكبت الجنسي فلم يعلّق أهمية على مشكلة العدوانية، حتى لم يعد بالإمكان إغفالها بسبب الحرب العالمية الأولى. وتشكّل هذه الحرب الخطّ الفاصل في نشوء نظرية فرويد في العدوانية.

وكان فرويد في كتابه «ثلاث مقالات في نظرية الدافع الجنسي» Three Essays on the Theory of Sexuality (1905) يرى أن العدوانية هي إحدى «الغرائز الجزئية» في الغريزة الجنسية. وقد كتب: «وهكذا من شأن السادية أن تنسجم مع العنصر العدواني في الغريزة الجنسية الذي صار مستقلاً ومغالى فيه، وبالإزاحة، اغتصب الموقع الأول» (S. Freud, 1905)[1].

ومهما يكن، وكما هي الحال مع فرويد في كثير من الأحيان، فإنه وفي تباين شديد مع الخطّ الأساسي في نظريته، قد تشكّلت لديه فكرة كان لابد من أن تظل هاجعة حتى يمضي الكثير من الوقت. وفي القسم الرابع من «ثلاث مقالات...» كتب: «قد يُفترض أن دوافع القسوة تنشأ من مصادر **مستقلة عن الدوافع الجنسية**، ولكنها قد تصبح متحدة معها في مرحلة مبكرة» (S. Freud, 1905؛ والإبراز مضاف).

ولكن على الرغم من هذه الملاحظة، أعلن فرويد بعد أربع سنوات بصراحة شديدة في قصة «هانس الصغير» في دراسته **تحليل رهاب صبي في الخامسة من عمره**: «لا أستطيع أن أحمل نفسي على افتراض وجود غريزة عدوانية خاصة إلى جانب غريزة حفظ الذات وغرائز الجنس المألوفة وعلى أساس المساواة معها» (S. Freud, 1909). ويمكن للمرء أن يتبيّن في هذه الصياغة بعض التردّد في قول فرويد. فقوله «لا أستطيع أن أحمل نفسي على افتراض» ليس قويًا تمامًا مثلما يمكن

---

١ - من أجل تطور نظرية فرويد في العدوان راجع كذلك:

J. Strachey's summary in the editor's Introduction to Civilization and Its Discontents (Freud, 1930).

أن يكون النفي التام والبسيط، ويبدو أن التقييد الإضافي «وعلى أساس المساواة» يُفسح مجالاً لإمكان أن توجد عدوانية مستقلة إذا لم تكن على أساس المساواة.

واستمر فرويد في «الغرائز وتقلّباتها» Instincts and their Vicissitudes (1915) في كلا الخطّين الفكريين- خط التدميرية بوصفها من العناصر المكوّنة للغريزة الجنسية، وبوصفها قوة مستقلة عن الدافع الجنسي:

تبرز مراحل الحب بوصفها أهدافًا جنسية مؤقتة حين تجتاز الغرائز الجنسية نموّها المعقد. ونتعرف بمرحلة الدمج أو الالتهام على أنها أول هذه الأهداف- وهي نمط من الحب متساوق مع إلغاء الوجود المنفصل لموضوعه ولذلك يمكن أن يوصف بأنه جامع بين نقيضين. وفي المرحلة العليا من النظام الشرجي- السادي، تظهر المجاهدة من أجل الشيء على شكل الرغبة الملّحة في السيطرة، التي يكون فيها أذى الشيء أو إفناؤه مسألة عدم اكتراث. والحب بهذا الشكل وفي هذه المرحلة الأولية من الصعب تمييزه من البغض في موقفه من الشيء. ولا يصبح الحب نقيض البغض إلا حين يتأسس النظام التناسلي. (S.Freud, 1915)

ولكن فرويد يتبنى في البحث نفسه كذلك الموقف الآخر الذي عبّر عنه في «ثلاث مقالات. . .»- مع أنه تبدّل سنة ١٩١٥- أي أن العدوانية مستقلة عن الغريزة الجنسية. وهذه الفرضية الخيارية ترى أن غرائز الأنا هي مصدر العدوانية. وقد كتب فرويد:

إن الكره بوصفه صلة بالأشياء، هو أقدم من الحب. *إنه مستمد من نبذ «الأنا النرجسي» الأزلي للعالم الخارجي*[1] مع تدفّق مثيراته. وتعبيرًا عن رد فعله على النفور الذي تثيره الأشياء، *يظل على الدوام على صلة حميمة بغرائز حفظ الذات*؛ وهكذا يمكن للغرائز الجنسية ولغرائز الأنا ويسر أن تنشئ نقيضة تكرر

١- نجد في هذا القول تعبيرًا عن بديهية فرويد العامة وهي أن تخفيف التوتّر هو القانون الأساسي لتأدية الأعصاب وظيفتها. وراجع كذلك البحث المفصّل في هذه البديهية في نهاية هذا «الملحق».

غريزة الحب وغريزة الكره. وعندما تهيمن الوظيفة الجنسية على غرائز الأنا، كما هي الحال في مرحلة النظام الشرجي- السادي، تنقل خصائص الكره إلى الهدف الغريزي كذلك. (S. Freud, 1915؛ **والإبراز مضاف**).

هنا يفترض فرويد أن الكره أقدم من الحب وأنه راسخ في غرائز الأنا، أو غرائز حفظ الذات، التي تنبذ قبل كل شيء «سيل المثيرات» الذي يسيل من العالم الخارجي والذي هو نقيض الدوافع الجنسية. ويجب أن يُذكَر في معرض الكلام كم هذا الموقف مهم بالنسبة إلى النموذج الكلي للإنسان عند فرويد. فالوليد يُنظَر إليه على أنه يرفض المثيرات أولاً ويكره العالم لتطفّله. وهذا الموقف هو نقيض الموقف الذي يدعمه قدر كبير من الدليل السريري كما ظهر مؤخراً، والذي يُظهر أن الإنسان، وحتى المولود بعد عدة أيام من الولادة، تواق إلى المثيرات، ويحتاج إليها، ولا يكره العالم دائماً لتطفّله.

ويخطو فرويد خطوة أخرى في صياغته حول الكره في البحث نفسه:

إن الأنا يكره كل الأشياء التي هي مصدر الشعور البغيض عنده ويشمئز منها ويتعقّبها بنيّة تدميرها، من دون أن يأخذ في الحسبان هل هي تعني الإحباط للإشباع الجنسي أم الإشباع لحاجات حفظ الذات. وبالفعل يمكن التأكيد أن *الأنماط البَدْئية الحقيقية لعلاقة الكره ليست مستمدة من الحياة الجنسية، بل من مجاهدة الأنا ليبقى ويحافظ على نفسه*. (S. Freud, 1915؛ **والإبراز مضاف**).

وبالبحث في «الغرائز وتقلباتها» (١٩١٥) تنتهي المرحلة الأولى من تفكير فرويد في التدميرية. وقد رأينا أنه كان يتّبع مفهومين في وقت واحد: العدوانية بوصفها جزءاً من الدافع الجنسي (السادية الفمية والشرجية)، والعدوانية بوصفها مستقلة عن الغريزة الجنسية، وبوصفها صفة مميزة لغرائز الأنا التي تعارض وتكره تطفّل المثيرات الخارجية والعقبات أمام إشباع الحاجات الجنسية وغرائز حفظ الذات.

وفي ١٩٢٠ ، يبدأ فرويد بـ «وراء مبدأ اللذة» تنقيحًا أساسيًا لنظريته الكلية في الغرائز. وفي هذا العمل نسب فرويد خصائص الغريزة إلى «الإجبار على التكرار»؛ وهنا كذلك افترض فرويد التقسيم الجديد إلى الإيروس Eros وغريزة الموت، الذي ناقش طبيعته بتفصيل أشد في كتابه «الأنا والهو» The Ego and the Id (1923) وفي كتاباته اللاحقة. وهذا التقسيم الجديد إلى «غريزة الحياة» أو غرائزها Eros و «غريزة الموت» أو غرائزها [١] يأخذ مكان الانقسام الأصلي بين غرائز الأنا والغريزة الجنسية. ومع أن فرويد يحاول أن يماثل الإيروس مع اللبيدو، فإن التقاطب الجديد يشكل مفهومًا للدافع مختلفًا كليًا عن المفهوم القديم. [٢]

وفرويد نفسه يقدّم وصفًا موجزًا لنشوء نظريته الجديدة في «الحضارة وتنغيصاتها» (١٩٣٠). وقد كتب،

لنبدأ بغرائز الأنا وغرائز الهدف في مواجهة كل منها للأخرى. وكنت قد أدخلتُ مصطلح «اللبيدو» للدلالة على نشاط غرائز الهدف وغرائز الهدف فقط. [٣] وعلى هذا النحو كان التناقض بين غرائز الأنا وغرائز الحب «الليبدية» (بأوسع معانيها) الموجَّهة نحو هدف [٤]، . . . ولكن هذه التناقضات (فيما يتصل بالسادية) قد جرى التغلّب عليها؛ ومع ذلك، كان من الواضح أن السادية جزء من الحياة الجنسية، في النشاطات التي يمكن أن تحل القسوة فيها محل الشفقة. . . وكانت الخطوة الحاسمة إلى الأمام هي إدخال مفهوم النرجسية- أي اكتشاف أن الأنا نفسه يستولي عليه اللبيدو، وأن الأنا هو، بالفعل، الموطن الأصلي

١- في النشوء اللاحق لهذا المفهوم يميل فرويد إلى أن يتحدث أكثر عن غريزة حياة (إيروس) وغريزة موت.

٢- إن من شأن الخوض في تفصيلات محاولة فرويد مماثلة الإيروس مع الدافع الجنسي أن يتطلب بحد ذاته فصلاً كاملاً من المحتمل ألا يكون مثيرًا إلا لاهتمام الدارس المتخصّص بنظرية فرويد.

٣- إشارة فرويد هنا هي إلى القسم الثاني من بحثه الأول في عُصاب القلق (Freud, 1885).

٤- في هذه الصياغة يبدو أن النزاع الأساسي في الإنسان هو شبين الأثَرة والإيثار (الأنانية والغيرية). وفي نظرية فرويد في الهو والأنا (مبدأ اللذة ومبدأ الواقع) فإن كلا جانبي التقاطب أناني: إشباع المرء حاجاته اللبيدية وإشباع حاجته إلى حفظ الذات.

للبيدو، ويظل مقر قيادته إلى حد ما [1]... وقد اتُّخذتْ خطوتي التالية في «وراء مبدأ اللذة» Beyond the Pleasure Principle (1970)، عندما جذب انتباهي أولَ مرة مبدأ الإجبار على التكرار والصفة المحافظة للحياة الغريزية. وانطلاقًا من التخمينات حول بدء الحياة ومن الموازيات البيولوجية، استخلصت النتيجة التي هي أنه *إلى جانب غريزة حفظ المادة الحية وإلحاقها بوحدات أكبر، لابد من وجود غريزة أخرى عكسية تنشد تفكيك هذه الوحدات وإعادتها إلى الحالة الأولى غير العضوية*. وذلك يعني أنه كما يوجد الإيروس توجد غريزة الموت. (S. Freud, 1930؛ والإبراز مضاف)

وعندما كتب فرويد **وراء مذهب اللذة** لم يكن مقتنعًا أن الفرضية الجديدة كانت صحيحة أبداً. وكتب، «قد يقال هل أنا مقتنع وإلى أي حد بصحة الفرضية الواردة في هذه الصفحات. والجواب هو أنني نفسي لست مقتنعًا ولا أسعى إلى إقناع الآخرين بالاعتقاد بها. أو بدقة أكثر، لا أعرف إلى أي مدى أعتقد بها» (S. Freud, 1920). وبعد محاولته بناء صرح جديد، صرحٍ يهدد صحة المفهومات السابقة الكثيرة، وبعد قيامه بذلك بجهد فكري هائل، فإن إخلاص فرويد هذا، الذي يسري في عمله الكلي، مؤثّر في النفس بصورة خاصة. وأنفق السنوات الثماني عشرة التالية في النظرية الجديدة، واكتسب الشعور بالاقتناع المتزايد الذي لم يكن لديه في البداية. ولم يكن ما فعله هو أنه أضاف جوانب جديدة كل الجدة إلى الفرضية؛ بل كان ما فعله هو أن «العمل من الداخل» هو ما تركه مقتنعًا، ولابد أن ما جعله مخيِّبًا أكثر من كل شيء هو أن الكثيرين من أتباعه لم يفهموا آراءه حقًا ولم يشاركوه فيها.

ووجدت النظرية الجديدة إنشاءها الكامل الأول في **الأنا والهو** The Ego

---

١- كان فرويد، في الواقع، يتراوح بين هذا الرأي والرأي الذي مفاده أن الهو كان مقعد اللبيدو أو «حوضَه». وقد قَدَّم ج. ستراتشي J. Strachey، محرر الطبعة النموذجية تاريخًا مفصلاً لهذه التذبذبات في عمل فرويد الكلي من أوله إلى آخره. انظر الملحق B لكتاب The Ego and the Id (Freud, 1923).

and the Id (1923). وبما له أهمية خاصة ذلك الافتراض حول العملية الفيزيولوجية الخاصة (للتمثّل العضوي وانتكاث التمثّل العضوي) [التي] من شأنها أن ترتبط بكل فئة من فئتي الغريزة؛ فكلا نوعي الغريزة سيكون نشيطًا في كل جُزَيّئة من المادة الحية، ولو بنسب غير متساوية، بحيث يمكن لمادة حية ما أن تكون الممثّل الأساسي للإيروس. وهذه الفرضية لا تلقي ضوءًا من أي نوع على الطريقة التي ينصهر فيها هذان الصنفان من الغرائز ويمتزجان ويشوب بعضهما بعضًا؛ ولكن حدوث ذلك بانتظام وشمول إنما هو افتراض لا غنى لتصورنا عنه. ويبدو أنه، نتيجةً لاتحاد الكائنات الحية أحادية الخلية في أشكال متعدّدة الخلايا من الحياة، فإن *غريزة موت الخلية* الواحدة يمكن تحييدها بنجاح وإن *الدوافع التدميرية يمكن تحويلها* إلى العالم الخارجي بوسيلة كائن حي معين. ويبدو أن هذا الكائن الحي الخاص هو الجهاز العضلي؛ وهكذا يبدو أن غريزة الموت تعبّر عن أنها- ولو جزئيًا على الأرجح- غريزة تدمير موجّهة ضد العالم الخارجي والكائنات الحية الأخرى. (S. Freud, 1923 ؛ والإبراز مضاف)

وفي هذه الصياغات يكشف فرويد الاتجاه الجديد في تفكيره بصراحة أشد مما يكشفها في وراء مبدأ اللذة. فبدلاً من المقاربة الفيزيولوجية الميكانيكية في النظرية القديمة، التي كانت مبنية على أنموذج التوتّر الناتج كيميائيًا و الحاجة إلى تخفيض هذا التوتر إلى حدّه العادي (مبدأ اللذة)، فإن النظرية الجديدة نظرية بيولوجية يُفترض فيها أن كل خلية حية تُحبى بصفتين أساسيتين للمادة الحية، الإيروس، والمجاهدة من أجل الموت؛ ومهما يكن، فإن مبدأ تخفيض التوتّر يجري الاحتفاظ به في شكل أكثر جذرية: تخفيض التهيج إلى درجة الصفر (مبدأ النرڤانَة Nirvana).

وبعد سنة (1924)، يخطو فرويد في «المشكلة الاقتصادية للمازوخية» خطوة أخرى في توضيح العلاقة بين الغريزتين. وقد كتب:

للبيدومهمة جعل الغريزة المدمِّرة غير ضارة، وهو يحقق هذه المهمة بتوجيه

تلك الغريزة إلى« الخارج إلى حد بعيد- عاجلاً بمعونة نظام عضوي خاص، هو الجهاز العضلي- نحو أهداف في العالم الخارجي. فالغريزة إذن تُدعى الغريزة التدميرية، غريزة السيادة، أو إرادة السيطرة. [1] ويوضع قسم من الغريزة في خدمة الوظيفة الجنسية مباشرة، حيث عليه أن يمثّل دورًا مهمًا. وهذه هي السادية بالمعنى الصحيح. ولا يشترك قسم آخر في هذا التحوّل نحو الخارج؛ بل يظل في داخل الكائن الحي ويصبح، بمعونة الهياج الجنسي المصاحب والموصوف أعلاه، مرتبطًا لبيديًا بالداخل. وعلينا في هذا القسم أن نتبيّن المازوخية الأصلية المهيّجة للشهوة. (S. Freud, 1924)

وفي كتاب محاضرات تمهيدية جديدة (1933) تتم المحافظة على الموقف المتّخذ من قبل: يتكلم فرويد عن «الغرائز الجنسية التي تسعى إلى دمج المادة الحية باطّراد في وحدات أكبر دائمًا، وغرائز الموت التي تقاوم هذا المسعى وتُعيد ماهو حي إلى حالة غير عضوية» (S. Freud, 1933). وفي المحاضرات نفسها كتب فرويد عن الغريزة التدميرية الأصلية:

لا يمكن أن ندركها إلا بشرطين: إذا اندمجت في المازوخية مع الغرائز الجنسية أو إذا كانت موجّهة- مع إضافة جنسية أكبر أو أصغر- ضد العالم الخارجي بوصفها عدوانية. والآن نحن مأخوذون بأهمية احتمال ألاّ تكون العدوانية قادرة على العثور على إشباع في العالم الخارجي لأنه تجابهها عقبات

---

١ - يدمج فرويد هنا ثلاث نزعات مختلفة جداً. إن غريزة التدمير مختلفة أساسًا عن إرادة السيطرة: ففي الحالة الأولى أريد أن أدمّر الهدف وفي الحالة الثانية، أريد المحافظة عليه والتحكّم فيه، وكلتا النزعتين تختلف كليًا عن الدافع إلى السيادة، الذي هدفه هو الإبداع والإنتاج، والذي هو في الواقع النقيض تمامًا لإرادة التدمير.

حقيقية. وإذا حدث ذلك، فقد تنسحب وتزيد مقدار التدمير الذاتي وتُحكم السيطرة على الداخل. وسوف نسمع كيف يكون هذا هو ما يحدث في الواقع وكم هي مهمة هذه العملية. ويبدو أن العدوانية المعوَّقة تحتوي على ضرر فادح. ***ويبدو حقًا كأنه من الضروري أن ندمر شيئاً أو شخصًا آخر لئلا ندمّر أنفسنا، ولكي نحمي أنفسنا من الدافع إلى تدمير الذات. وإنه لكشفٌ محزن لمعلم المبادئ الأخلاقية!*** (S. Freud, 1933 ؛ **والإبراز مضاف**).

وفرويد، في بحثيه المكتوبين قبل سنة وسنتين من وفاته، لم يقم بأي تبديل مهم في المفهومات التي أنشأها في السنوات السابقة. وفي «التحليل محدَّد الأجل وغير محدَّد الأجل» (1937) أكّد بشدة أكثر قوة غريزة الموت. وكما يكتب ستراتشي Strachey في ملاحظاته التحريرية: «ولكن العامل المعيق أكثر من كل العوامل»، كما كتب، «**والعامل الذي يتجاوز كليًا أية إمكانية للسيطرة... هو غريزة الموت**» (S. Freud, 1937 ؛ والإبراز مضاف). وفي «**مجمل التحليل النفسي**» (المكتوب في ١٩٣٨ ؛ والمنشور في ١٩٤٠) يعيد فرويد بطريقة منتظمة تأكيد افتراضاته السابقة من دون أن يقوم بأي تغيير له صلة بها.

تحليل التقلّبات ونقد نظريتي فرويد في الإيروس وغريزة الموت

إن الوصف الوجيز السابق لنظريتي فرويد الجديدتين، المتعلقتين بالإيروس وغريزة الموت، لا يمكن أن يُظهر كم كان التحول من النظرية القديمة إلى الجديدة جذريًا، أو أن فرويد لم يرَ الطبيعة الجذرية لهذا التحول وأنه في النتيجة كان ملتصقًا بالتقلّبات النظرية الكثيرة وما يلازمها من التناقضات. وسأحاول فيما يلي أن أصف أهمية التحولات وأن أحلل التنازع بين النظرية القديمة والجديدة.

كانت لدى فرويد رؤيتان جديدتان بعد الحرب العالمية الأولى. وكانت الأولى هي رؤية قوة المجاهدات العدوانية- التدميرية وشدتها في الإنسان، بمعزل عن الدافع الجنسي. والقول إن هذه الرؤية كانت **جديدة** ليس صحيحًا تمامًا. وكما سبق أن أظهرتُ، فإنه لم يكن غير مدرك كليًا لوجود الدوافع العدوانية بمعزل عن الدافع الجنسي. ولكن هذا الاستبصار لم يكن يُعبَّر عنه إلا بين حين وآخر، ولم يغيّر الفرضية الرئيسية حول التقاطب الأساسي بين الغرائز الجنسية وغرائز الأنا، ولو أنه قد عدّل هذه الفرضية فيما بعد بإدخال مفهوم النرجسية. وفي نظرية غريزة الموت التي ينطلق فيها إدراك التدميرية البشرية بكامل القوة، وقد أصبحت التدميرية أحد قطبي الوجود الذي، بقتاله مع القطب الآخر، الإيروس، يشكّل الماهية الصميمية للحياة. فالتدميرية تصبح ظاهرة **أولية** من ظواهر الحياة.

والرؤية الثانية التي تتسم بها نظرية فرويد الجديدة ليست خلوًا من السوابق في نظريته القديمة وحسب، بل هي على تناقض كامل معها. إنها رؤية أن الإيروس، الموجود في خلية كل مادة حية، له هدف هو توحيد كل الخلايا ودمجها، وفوق ذلك، خدمة الحضارة، ودمج الوحدات الصغرى في وحدة الجنس البشري (S. Freud, 1930). ويكتشف فرويد الحب غير الجنسي. ويسمي غريزة الحياة «غريزة الحب» كذلك؛ والحب متماثل مع الحياة والنمو ويحدد الوجود الإنساني- والقتال متماثل مع غريزة الموت. وقد كان يُنظَر إلى الإنسان في النظرية القديمة على أنه نظام منعزل، يدفعه دافعان: دافع إلى البقاء (غريزة الأنا) ودافع إلى الحصول على اللذة بالتغلّب على التوتّرات التي هي بالتالي ناجمة كيميائيًا في داخل الجسم ومتموضعة في «المناطق المهيّجة للشهوة» التي تعدّ الأعضاء التناسلية إحداها. وفي هذه الصورة يكون الإنسان منعزلاً في الدرجة الأولى، ولكنه يدخل

في علاقات مع أعضاء الجنس الآخر لإشباع مجاهدته من أجل اللذة. وكان يتمّ تصورّ العلاقة بين الجنسين على نحو يشبه العلاقات البشرية في ساحة السوق. فكل شخص ليس معنيًا إلا بإشباع حاجاته، ولكنه من أجل إشباعها على وجه الضبط يضطر إلى الدخول في علاقة مع الآخرين الذين يقدّمون ما يحتاج إليه، ويحتاجون إلى ما يقدّمه.

وهذا الأمر مختلف تمامًا في نظرية الإيروس. فلم يعد يجري تصور الإنسان على أنه منعزل وأناني في الدرجة الأولى، كالإنسان الآلي L'homme machine، ولكنه متواصل مع الآخرين. أولاً، تجبره على ذلك غرائز الحياة التي تجعله يحتاج إلى الاتحاد مع الآخرين. والحياة والحب والنمو ثلاثة أمور ولكنها الأمر الواحد نفسه، وهي أعمق جذوراً وأكثر أساسية من الدافع الجنسي و «اللذة».

ويظهر التغيّر في رؤية فرويد بوضوح في تقديمه لوصية الكتاب المقدس: «أحبب جارك حبك لنفسك». فقد كتب في «لماذا الحرب» (1939 a):

إن أي شيء يشجّع على نمو الروابط الانفعالية بين الناس لابد أن يعمل ضد الحرب. وقد تكون هذه الروابط من نوعين. أولاً قد تكون علاقات تشبه العلاقات المتجهة نحو هدف محبوب، ولو لم يكن *لها* هدف جنسي. ولا موجب أن يخجل التحليل النفسي من التكلم عن الحب في هذا السياق، لأن الدين نفسه يستخدم الكلمات نفسها: «أحبب جارك حبك لنفسك.» ولكن قول هذا أسهل من فعله. والنوع الثاني من الرابطة يكون بوساطة المماثلة. فكل ما يُفضي بالناس إلى المشاركة في الاهتمامات المهمة يُحدث هذه الجماعية في الشعور، هذه المماثلات. وتعتمد بنية المجتمع البشري عليها إلى حد كبير. (S. Freud, 1933 a؛ والإبراز مضاف).

إن هذه الأسطر قد كتبها ذلك الإنسان الذي أنهى قبل ثلاث سنوات فقط تعليقه على الوصية نفسها من الكتاب المقدس بقوله: «ماالغرض من وصية تُنطَق

بالكثير جداً من الجديّة إذا كان تحقيقها لا يمكن أن يُمتدح بوصفه معقولاً؟» (S. Freud, 1930).[1]

---

١ - توصّل فرويد إلى هذه النتيجة على أساس الحجة التالية: «قد يمدنا بمفتاح الحل مطلب من المطالب المثالية للمجتمع المتمدن، كما سميّناه. وهو يجري على هذا النحو: «أحبب جارك حبك لنفسك» وهو معروف في كل أنحاء العالم ولا ريب أنه أقدم من المسيحية، التي تقدّمه على أنه أفخم مطالبها. ومع ذلك فمن المؤكد أنه ليس قديماً جداً؛ وحتى في الأزمنة التاريخية كان بعدُ غريباً على البشر. ولنتبنّ موقفاً ساذجاً منه، كأننا نسمعه أولَ مرة؛ إننا سنكون عندئذ عاجزين عن كبح مشاعر الاندهاش والحيرة. لماذا علينا أن نكون كذلك؟ أي خير سيفعله لنا؟ ولكن قبل كل شيء، كيف سنحقق ذلك؟ كيف سيكون ذلك ممكناً؟ إن حبي شيء ثمين بالنسبة إليّ وعليّ ألا ألقي به من دون تفكير. إنه يفرض عليّ واجبات يجب من أجل تنفيذها أن أكون مستعداً للقيام بالتضحيات. وإذا أحببتُ شخصاً، فيجب أن يستحق ذلك على نحو ما. (وأنا أحذف الفائدة التي يمكن أن يحققها لي، وكذلك أهميته الممكنة عندي بوصفه هدفاً جنسياً، لأنه لا تدخل في المسألة أية علاقة من هاتين العلاقتين فيما يتصل بوصية محبة جاري.) وهو يستحقها إذا كان أكمل مني بكثير بحيث يمكن أن أحب المثل الأعلى لذاتي فيه. ثم إنه ينبغي لي أن أحبّه إذا كان ابن صديقي، مادام الألم الذي من شأن صديقي أن يشعر به إذا جاءه أي أذى سيكون ألمي أيضاً- وعليّ أن أشارك فيه. ولكنه إذا كان غريباً عني ولم يستطع أن يجذبني بأية مزيّة منه أو أهمية كان قد اكتسبها بالنسبة إلى حياتي الانفعالية، فسيكون من الصعب عليّ أن أحبه. وبالفعل، سأكون غالطاً لو أحببته، لأن محبتي يقدّر قيمتَها كلُّ الذين أحببتهم بوصفها علامة على تفضيلي لهم، ومن الظلم لهم أن أضع الغريب على مستوى واحد معهم. ولكنني إذا كنت سأحبه (ذلك الحب الشامل) لمجرد أنه، أيضاً، ساكن من سكان هذه الأرض، كالحشرة أو دودة الأرض أو حية العشب، فإنني أخشى ألا يكون من نصيبه إلا الشيء الضئيل من محبتي- وليس هناك أي إمكان أن تكون، بحكم العقل، بمقدار ما أنا مخوّل أن أحتفظ به لنفسي» (S. Freud, 1930). ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ كيف تصوّر فرويد الحب كلياً في الإطار المرجعي للمبادئ الأخلاقية البرجوازية، وهي على الخصوص الطبع الاجتماعي للطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر. والسؤال الأول: «أي خير سيفعله لنا؟»- هو مبدأ الفائدة. والمقدمة التالية هي أن الحب يجب أن يكون «مستحقاً» (المبدأ الأبوي المغاير للمبدأ الأمومي في الحب غير المشروط وغير المستحق، ثم على أساس المبدأ النرجسي وهو أن الآخر لا «يستحق» محبتي إلا بالنظر إلى أنه مثلي في النواحي المهمة؛ وحتى محبة ابن صديق المرء تُفسَّر على أساس أناني، لأنه إذا أصابه أذى فأصاب صديقي على نحو غير مباشر سيكون ألمي. وأخيراً يجري تصوّر المحبة على أنها مقدار معين ثابت كمياً، ومحبتي لأقراني المخلوقات لا يمكن أن تترك لكل مخلوق إلا قدراً بالغ الضآلة من المحبة.

لم يحدث شيء أقل من التغيّر الجذري في وجهة النظر. إن فرويد، عدو الدين، الذي دعاه وهمًا يمنع الإنسان من بلوغ النضج والاستقلال، يستشهد الآن بوصية من أشد الوصايا جوهرية في كل الأديان الإنسانية الكبيرة، دعمًا لافتراضه السيكولوجي. ويؤكد أنه «لا موجب أن يخجل التحليل النفسي من التكلم عن الحب في هذا السياق» (S. Freud, 1933 a)، وهو بحاجة إلى هذا التأكيد للتغلّب على الارتباك الذي لابد أنه قد أحسّ به في قيامه بهذا التغيّر العنيف فيما يتصل بمفهوم الحب الأخوي.

هل كان فرويد مدركًا كم كان التغيّر عنيفًا في مقاربته؟ هل كان شاعرًا بالتناقض العميق وغير القابل للتوفيق بين نظريته القديمة والجديدة؟ من الواضح تمامًا أنه لم يكن. وكان في «الأنا والهو» (1923) [1] يماثل بين الإيروس (غريزة الحياة أو غريزة الحب) والغرائز الجنسية (بالإضافة إلى غريزة حفظ الذات):

وفقًا لهذه الرؤية علينا أن نميز بين فئتين من الغرائز، وإحداهما، وهي فئة *الغرائز الجنسية أو الإيروس*، هي الأبرز والأيسر للدراسة بكثير. وهي لا تشتمل على مجرد الغريزة الجنسية غير المزجورة تمامًا والدوافع الغريزية المزجور هدفها أو ذات الطبيعة التصعيدية المستمدة منها، بل كذلك على غريزة حفظ الذات، التي يجب أن تُنسب إلى الأنا والتي كان لدينا في بداية عملنا التحليلي سبب وجيه لمباينتها عن غرائز الهدف الجنسية. (S. Freud, 1923؛ والإبراز مضاف)

وإنه على وجه الدقة بسبب عدم إدراكه التناقض جعل محاولة التوفيق بين النظريتين القديمة والجديدة على نحو بدا أنهما يشكلان اتصالاً ليس فيه انقطاع شديد. وكان لامناص من أن تؤدي هذه المحاولة إلى الكثير من التناقضات والتنافرات الملازمة لها حين حاول فرويد مرة بعد أخرى أن يردم الهوّة، أو يسترّها، أو ينكرها، ولكن من دون أن ينجح في قيامه بذلك أبدًا. وسوف أسعى في الصفحات التالية أن أصف تقلّبات النظرية الجديدة التي أحدثها إخفاق فرويد في،

1- cf. also S. Freud (1908 a)

تبيّن أن الخمرة الجديدة- وأعتقد في هذه الحالة أنها الخمرة الأجود- لا يمكن ملؤها في زجاجات قديمة.

ولكن قبل أن نبدأ هذا التحليل لابد من ذكر تغيّر آخر كذلك، وهو بمروره من دون اعتراف أيضًا، قد عقّد الأمور تعقيدًا أشد. إذ كان فرويد قد بنى نظريته القديمة على أنموذج علمي من السهل تبيُّنه؛ الأنموذج المادي- الميكانيكي الذي كان المثل الأعلى لمعلمه، فون بروكه Von Brücke، والدائرة الكلية للماديين- الميكانيكيين أمثال «هلمولتس» Helmolz و«بوخنر» Buchner، وفون بروكه وسواهم. [١] كانوا ينظرون إلى الإنسان على أنه آلة تدفعه عملية كيميائية؛ فكانت المشاعر والعواطف والانفعالات تسبّبها عمليات فيزيولوجية خاصة وغير قابلة للتحديد. وكان جلّ المكتشفات في «علم الهرمونات» و«فيزيولوجيا الأعصاب» في العقود الأخيرة مجهولاً بالنسبة إلى هؤلاء الرجال، ومع ذلك يُصرّون بجرأة وبراعة على صواب مقاربتهم. وكانت الحاجات والاهتمامات التي لا يمكن أن يُعثَر لها على مصادر جسمية يتمّ تجاهلها، وفهمُ تلك العمليات التي لم تُهمَل يتبع مبادئ التفكير الميكانيكي. ونموذج فيزيولوجيا فون بروكه ونموذج الإنسان عند فرويد يمكن أن يتكرر اليوم في الحاسوب المبرمَج كما ينبغي. «هو» يُظهر توتّرًا معينًا، يجب عند حد معين تفريجه وتخفيضه، في حين يضبط ذلك جزء آخر، هو الأنا، الذي يلاحظ الواقع ويمنع التفريج عندما يتنازع مع حاجات البقاء. وهذا «الروبوت» الفرويدي سيكون شبيهًا بـ«روبوت» الخيال العلمي عند إسحاق عظيموف Isaac

---

١- إن اعتماد نظرية فرويد في تشكّله على تفكير معلميه قد وصفه بيتر أماشر PeterAmmacher (1962) وبوجز روبرت ر. هولت الفرضية الرئيسية لهذا العمل على نحو مقبول فيما يلي: «يشتمل الكثير من أدعى تحولات النظرية التحليلية النفسية إلى الحيرة وأكثرها تحكمية، كما يظهر، على قضايا هي زائفة إلى حد أنها غير قابلة للاختبار مطلقًا، وهي إما افتراضات بيولوجية خفية وإما ناجمة مباشرة عن مثل هذه الافتراضات، التي تعلمها فرويد في المدرسة الطبية. وقد أصبحت جزءًا أساسيًا من عدته الفكرية، ومن المحتمل أنها لم تكن تتبين له دائمًا على أنها بيولوجية، وهكذا بقيت أجزاء ضرورية عندما حاول أن يتولى عن إخضاع النفس لعلم الأعصاب واتجه إلى بناء أنموذج سيكولوجي مجرد» (R.R. Holt, 1965).

Azimov، ولكن المبرمج سيكون مختلفًا. فلن يكون قانونه الأول إيذاء البشر، بل تجنّب إيذاء الذات أو تدمير الذات.

والنظرية الجديدة لا تتبع الأنموذج الميكانيكي (الذي يُخضع النفس لعلم الأعصاب). بل هي متمحورة حول توجّه بيولوجي تصبح فيه قوّة الحياة الأساسية (ونقيضها: الموت) القوتين الرئيسيتين اللتين تحرّضان الإنسان. وطبيعة الخلية، أي طبيعة المادة الحية، تصبح الأساس النظري لنظرية التحريض، وليس العملية الفيزيولوجية التي تجري في أعضاء معينة من الجسم. ولعل النظرية الجديدة كانت أقرب إلى فلسفة المبدأ الحيوي [1] من مفهوم الماديين الميكانيكيين الألمان. ولكن كما سبق أن قلتُ، لم يكن فرويد واضح الإدراك لهذا التغيّر؛ ومن ثم فهو يحاول مرة بعد مرة أن يطبّق منهجه الذي يُخضع النفس للفيزيولوجيا على النظرية الجديدة وكان لابد من أن يخفق بالضرورة في هذه المحاولة لتربيع الدائرة. وعلى أية حال، فإن لكلتا النظريتين في أحد الاعتبارات مقدمة مشتركة كانت البديهية التي تتبدّل في تفكير فرويد: هي المفهوم الذي مفاده أن القانون الذي يحكم الجهاز النفسي هو الميل إلى تخفيض التوتر (أو الهياج) إلى مستوى ثابت الانخفاض (مبدأ الثبات الذي يعتمد عليه مبدأ (اللذة) أو إلى مستوى الصفر (مبدأ النرڤانه، الذي تقوم عليه غريزة الموت).

وعلينا الآن أن نعود إلى تحليل أشد تفصيلاً لرؤيتين جديدتين من رؤى فرويد، هما رؤية غريزة الموت ورؤية غريزة الحياة بوصفهما القوتين الأساسيتين المحدّدتين للوجود الإنساني. [٢]

1- cf. J. Pratt (1959).

٢- ليست اصطلاحيات فرويد متساوقة على الدوام. فهو يتحدث أحيانًا عن غرائز الحياة والموت، وأحيانًا أخرى عن غريزة الحياة والموت (بالمفرد). وغريزة الموت (أو غرائزه) تُدعى كذلك الغريزة التدميرية (أو الغرائز التدميرية). وكلمة «ثاناتوس» thanatos (الموازية لإيروس)، بوصفها مساوية لغريزة الموت لم يستخدمها فرويد، بل أدخلها في البحث ب. فدرن P. Federn.

فما الأسباب التي حثّت فرويد على أن يفترض غريزة الموت؟

من المرجّح أن أحد الأسباب، وقد سبق أن ذكرتُه، كان الحرب العالمية الأولى. فكان، مثل أناس كثيرين في زمانه وعمره، يشارك في الرؤية التفاؤلية المعهودة كثيراً في الطبقة الوسطى الأوربية، ورأى نفسه فجأة بمواجهة فورة بغض وتدمير يكادان لا يُصدَّقان قبل / ١/ آب ١٩١٤ .

وقد يتكون لدى المرء رأي مفاده أنه يمكن أن يضاف إلى هذا العامل التاريخي عامل شخصي. وكما نعرف من سيرة إرنست جونز (E. Jones, 1957)، فقد كان فرويد منشغل الذهن في الموت. وكان بعد بلوغه الأربعين يفكّر فيه يوميًا؛ وكانت تنتابه نوبات من «الخوف من الموت» Todesangst، ومن شأنه أن يضيف إلى قوله «وداعًا»: «قد لا تراني مرة أخرى». وقد يقدّر المرء أن مرض فرويد الشديد قد أثّر في نفسه كثيراً بوصفه تأكيداً لخوفه من المرض، فأسهم بذلك في صياغة غريزة الموت . إلا أن هذا الظن ليس منيعًا في هذه الصيغة المبسّطة مادامت أولى علامات مرضه لم تظهر حتى شباط ١٩٢٣، بعد عدة سنوات من تصوّره لغريزة الموت (E. Jones, 1957). ولكن قد لا يكون من التخريج البعيد أن نفترض أن انشغاله السابق بالموت قد زاد بشدة عندما صار مريضاً وأفضى به إلى مفهوم كان فيه النزاع بين الحياة والموت محور التجربة الإنسانية، بدلاً من النزاعين بين الدافعين المؤكدين للحياة، الرغبة الجنسية ودوافع الأنا. وافتراض أن الإنسان يحتاج إلى أن يموت لأن الموت هو الغاية الخفيّة لحياته يمكن أن يُعدّ نوعًا من الراحة المقصود بها أن تخفّف من خوفه من الموت.

وبينما تشكل هذه العوامل التاريخية والشخصية مجموعة واحدة من البواعث على إنشاء غريزة الموت، توجد مجموعة أخرى لابد أنها استمالته إلى تصور غريزة الموت. فقد كان فرويد يفكر دائمًا على أساس مثنوي. ولكنه بمفهوم النرجسية الذي يضع غريزة حفظ الذات في معسكر اللبيدو، بدا أن المثنوية القديمة

قد تهدّدت. ألم تفرض نظرية النرجسية نظرية وحدانية تقول بأن كل الغرائز لبيدية؟ ثم والأسوأ، أليس من شأن ذلك أن يسوّغ الهرطقة الرئيسية عند يونغ، وهي المفهوم القائل بأن اللبيدو يدل على **الطاقة النفسية كلها**؟ وبالفعل، كان على فرويد أن يخلّص نفسه من هذا الإحراج غير المحتمل، وغير المحتمل لأنه كان من شأنه أن يصل إلى الموافقة على مفهوم يونغ للبيدو. فكان عليه أن يعثر على غريزة جديدة، معارضة للبيدو، تكون الأساس للمقاربة المثنوية الجديدة. ولبّت غريزة الموت هذا المطلب. وبدلاً من المثنوية القديمة، وُجدت مثنوية جديدة، ويمكن أن يرى الوجود مثنويًا من جديد بوصفه ساحة معركة بين الغرائز المتعارضة، الإيروس وغرائز الموت.

وفي حالة المثنوية الجديدة اتّبع فرويد أنموذج تفكير سوف يجري قول المزيد حوله فيما بعد، أي أنه أنشأ مفهومين واسعين لابد أن تنسلك فيهما كل ظاهرة. وقد فعل ذلك مع مفهوم الدافع الجنسي بتوسيعه، بحيث إن كل شيء ليس غريزة أنا يكون منتسبًا إلى الغريزة الجنسية. واتبع المنهج مرة أخرى مع غريزة الموت. فقد جعلها شديدة الاتّساع بحيث صارت كل مجاهدة لا تندرج تحت الإيروس تنتمي في النتيجة إلى غريزة الموت، والعكس صحيح. وعلى هذا المنوال كانت العدوانية والتدميرية والسادية والرغبة في السيطرة والسيادة، وعلى الرغم من اختلافاتها النوعية، تبدّيات للقوة نفسها- غريزة الموت.

ثم إن فرويد قد اتّبع في جانب آخر كذلك نموذج التفكير نفسه، ذلك النموذج الذي كانت له سيطرة قوية عليه في المرحلة الأولى من نظامه النظري. ويقول في غريزة الموت إنها في الأصل كلها في الداخل؛ ثم يُرسَل جزء منها إلى الخارج ويعمل بوصفه عدوانية، في حين يظل جزء منها في الداخل بوصفه المازوخية الأولية. ولكن حين يصادف الجزء المرسَلُ إلى الخارج العقبات التي هي أكبر من أن يتغلّب عليها، تتجه غريزة الموت إلى الداخل من جديد وتتبدى بوصفها

المازوخية الثانوية. وهذا النموذج من التفكير هو عينه تماماً كما يستخدمه فرويد في بحثه في النرجسية. في البدء يكون اللبيدو كله في الأنا (النرجسية الأولية) ثم يمتد إلى الخارج نحو الأهداف أو الموضوعات (لبيدو الهدف أو الموضوع)، ولكنه كثيراً ما يتجه إلى الداخل من جديد وعندئذ يشكّل ما يسمى النرجسية الثانوية.

وفي الكثير من الأحيان تُستخدم «غريزة الموت» مرادفة لـ «غريزة التدمير» و «الغرائز العدوانية». [1] ولكن فرويد يقدم في الوقت نفسه تمييزات دقيقة بين هذه المصطلحات المختلفة. وعلى العموم، وكما أشار جيمس ستراتشي James Strachey في تقديمه لكتاب «الحضارة وتنغيصاتها» (S. Freud, 1930)، فإن فرويد في كتاباته الأخيرة (منها مثلاً **الحضارة وتنغيصاتها**، 1930، **الأنا والهو**، 1923، **محاضرات تمهيدية جديدة**، 1933؛ **مجمل التحليلي النفسي**، 1938) يجعل الغريزة العدوانية شيئاً ثانوياً، مستمداً من التدمير الذاتي الأولي.

وفي الفقرة التالية أستشهد ببعض الأمثلة على هذه العلاقة بين غريزة الموت والعدوانية. وفي **الحضارة وتنغيصاتها** يتحدث فرويد عن أن غريزة الموت «تتحول إلى العالم الخارجي وتتضح بوصفها غريزة العدوانية والتدميرية». وفي **محاضرات تمهيدية جديدة** يتحدث عن أن «التدمير الذاتي تعبير عن «غريزة الموت» التي لا يمكن أن تقصّر عن الحضور في كل عملية حيوية» (الإبراز مضاف). وفي العمل نفسه يجعل فرويد هذه الفكرة أشد صراحة كذلك: «إن ذلك يؤدي بنا إلى رؤية أن المازوخية أقدم من السادية، وأن السادية هي الغريزة الموجّهة نحو الخارج، وهكذا تكتسب صفة العدوانية» (S. Freud, 1933). وكمية الغريزة التدميرية التي تظل في الداخل إما أن تتحد مع «الغرائز الجنسية في المازوخية وإما- مع إضافة جنسية أكبر أو أصغر- تتجه ضد العالم الخارجي بوصفها العدوانية» (S. Freud, 1933). ويتابع فرويد، ولكن إذا صادفت العدوانية الموجهة إلى الخارج عوائق قوية جداً،

1- cf., for instance, S. Freud (1930).

عادت وزادت كمية التدميرية الذاتية ممسكة بزمام السيطرة على الداخل. ويتم الوصول إلى نهاية هذا الإيضاح النظري والمتناقض إلى حد ما في بحثي فرويد الأخيرين. ويقول في «مجمل التحليل النفسي» إنه في داخل «الهو» تعمل **الغرائز** العضوية المركبة من انصهارات **قوتين أصليتين** (الإيروس والتدميرية) بنسب متفاوتة. . . » (S. Freud, 1938؛ والإبراز مضاف). وفي «التحليل محدَّد الأجل وغير محدَّد الأجل» يتحدث فرويد كذلك عن غريزة الموت والإيروس بوصفهما «غريزتين أصليتين» (S. Freud, 1937).

وإنه لمن المذهل والمؤثر كيف التصق فرويد بقوة بمفهومه لغريزة الموت، على الرغم من المصاعب النظرية الكبيرة التي حاول جاهداً أن يتغلَّب عليها- وفي رأيي، من دون طائل.

ولعل الصعوبة الكبرى تكمن في افتراض المماثلة بين نزوعين، نزوع الجسم إلى العودة إلى الحالة الأصلية، غير العضوية (نتيجة لمبدأ الإجبار على التكرار) ونزوع الغريزة إلى التدمير، فإما أن يدمِّر المرء نفسه وإما الآخرين. وبالنسبة إلى النزوع الأول فإن المصطلح «ثاناتوس» thanatos (وقد استخدمه پ. فدرن P. Fe- dren أولاً) الذي يشير إلى الموت، قد يكون وافياً، أو حتى «مبدأ النرڤانَه»، الذي يشير إلى الميل إلى تخفيض **التوتر**، وتخفيض الطاقة إلى حد انتهاء كل المجاهدات النشيطة.[1] ولكن هل هذا النقصان البطيء في القوة الحياتية هو نفسه التدميرية؟ لا ريب أن بوسع المرء أن يُحاجّ منطقياً- وفرويد يقوم بذلك ضمنياً- أنه إذا كان النزوع إلى الموت متأصلاً في الكائن الحي، فلا بد من وجود قوة نشيطة تتجه إلى التدمير.

١ - إن استخدام مبدأ «النرڤانَه» nirvana غير موفَّق بالنظر إلى أنه يسيء تفسير النرڤانه البوذية. فالنرڤانه على وجه الدقة ليست حالة انعدام الحياة التي تُحدِثها الطبيعة (التي لها، وفقاً للبوذية، الميل المضاد)، بل الجهد الروحي للإنسان الذي يجد الخلاص وكمال الحياة إذا نجح في التغلّب على كل جشعه وأنانيته وامتلأ بالحنو نحو كل الكائنات القادرة على الحس. وفي حالة النرڤانه يعيش البوذا تجربة الفرح الأسمى.

(وهذا هو في الحقيقة النوع نفسه من التفكير الذي نجده عند الغريزويين الذين يفترضون وجود غريزة خاصة خلف كل نوع من السلوك.) ولكننا إذا تخطّينا هذا التفكير الدائري، فهل هناك أي دليل على هذه المماثلة بين الميل إلى توقّف الهياج كله والدافع إلى التدمير، وحتى مسوّغ لها؟ من الصعب أن يبدو الأمر كذلك. وإذا افترضنا، متّبعين تفكير فرويد على أساس الإجبار على التكرار، أن الحياة لها ميل متأصّل إلى التباطؤ وفي المآل إلى الموت، فإن هذا الميل البيولوجي الفطري من شأنه أن يكون مختلفًا عن الدافع النشيط إلى التدمير تمامًا. وإذا أضفنا أن هذا الميل نفسه إلى الموت يُفترض كذلك أن يكون مصدر عاطفة السيطرة وغريزة السيادة، ومصدر السادية [1] والمازوخية- عندما تمتزج بالدافع الجنسي- فإن العمل النظري الدال على القوة لا بد أن ينهار. ومبدأ «النرفانة» والشغف بالتدمير كيانان منفصلان لا يمكن إدراجهما تحت صنف غريزة الموت (أو غرائزه) نفسها.

وتكمن الصعوبة الأخرى في أن «غريزة» الموت لا تنسجم مع مفهوم فرويد العام للغرائز. أولاً ليست لها، كما للغرائز في نظرية فرويد السابقة، منطقة خاصة في الجسم تنشأ منه، وإنما هي قوة بيولوجية متأصّلة في كل مادة حية. وهذه المسألة قد أثبتها أوتو فينيكل إثباتًا مقنعًا:

إن الموازاة في الخلايا... أي الدمار الفعلي- لا يمكن أن يكون مصدر الغريزة التدميرية بالمعنى ذاته حين نقول إن التحسّس المحدَّد كيميائيًا للعضو المركزي من خلال إثارة المناطق المهيِّجة للشهوة هو مصدر الغريزة الجنسية. لأنه وفقًا للتعريف، تهدف الغريزة إلى إزالة التبدّل البدني الذي نشير إلى أنه مصدر الغريزة؛ ولكن غريزة الموت لا تهدف إلى إزالة الموازاة. ولهذا السبب لا يبدو لي من الممكن أن ندّعي أن «غريزة الموت» نوع من الغريزة في مقابل الأنواع الأخرى. (O, Fenichel, 1953)

١-لا ينتبه فرويد إلى أن الغريزة التدميرية تهدف إلى تدمير الهدف أو الموضوع، في حين تريد السادية الاحتفاظ به للسيطرة عليه، أو إذلاله أو إيذائه. راجع بحث السادية في الفصل الحادي عشر.

يشير فينيكل إلى إحدى الصعوبات النظرية التي خلقها فرويد لنفسه، ولو أنه، كما يمكن أن يقال، قد كبت إدراكها. وهذه الصعوبة هي أخطر من كل الصعوبات مادام فرويد، كما سأُظهر بعدئذ، قد اضطر إلى الوصول إلى النتيجة التي مفادها أن الإيروس لا يحقق الشروط النظرية للغريزة كذلك. ومن المؤكد أن فرويد لو لم تكن لديه الحوافز الشخصية القوية لما استخدم مصطلح «غريزة الموت» بمعنى مختلف تمامًا عن الأصلي من دون أن يشير بنفسه إلى هذا الاختلاف. (هذه الصعوبة تُشعِر بنفسها حتى في المصطلحات. فالإيروس لا يمكن أن يُستخدم مع «الغريزة»؛ ومن المنطقي أن فرويد لم يتحدث عن «غريزة الإيروس» ولكنه أفسح مجالاً لمصطلح «الغريزة» باستخدامه «غريزة الحياة» بدلاً من الإيروس.)

وفعلاً، لا صلة لغريزة الموت بنظرية فرويد السابقة، إلا في بديهيّة العامة المتعلقة بتخفيف الدافع. وكما رأينا، فقد كان العدوان في النظرية السابقة إما دافعًا جزئيًا من الدافع الجنسي وإما دافعًا من دوافع الأنا موجّهًا ضد المثيرات من الخارج. وفي نظرية غريزة الموت لاتُقام صلة مع مصادر العدوان السابقة، باستثناء أن غريزة الموت تُستخدم الآن لتفسير السادية (في امتزاجها مع الدافع الجنسي) (S. Freud, 1933).[1]

وباختصار كان مفهوم غريزة الموت يحدده مستلزمان أساسيان: أولاً، الحاجة إلى التلاؤم مع اقتناع فرويد الجديد بقوة العدوان البشري؛ ثانيًا، الحاجة إلى الالتصاق بالمفهوم المثنوي للغرائز. إذ بعد أن عُدّت غرائز الأنا لبيدية كذلك، اضطر فرويد إلى العثور على انقسام جديد والانقسام بين الإيروس وغريزة الموت قد قدّم نفسه على أنه الأنسب. ولكن بينما هو مناسبٌ من وجهة نظر الحل المباشر للصعوبة، كان غير مناسب أبدًا من وجهة نظر نشوء النظرية الكلية عند فرويد في

١- سأحاول فيما بعد أن أظهر أنه توجد، بالفعل، صلة ممكنة بين نظرية اللبيدو ونظرية غريزة الموت من خلال الصلة بنظرية اللبيدو الشرجي.

الباعث الغريزي. وصارت غريزة الموت مفهومًا للشيء الذي يحتوي على الكثير من المواد، حاول به المرء أن يحل المتناقضات غير القابلة للامتزاج من دون أن يتكلل بالنجاح. ولعل فرويد، بسبب عمره ومرضه، لم يتناول المشكلة مواجهة ولذلك قام بترقيع المتناقضات. ووجد جلّ المحللين النفسيين الذين لم يقبلوا مفهومه للإيروس وغريزة التدمير حلاً سهلاً؛ فقد حولّوا غريزة الموت إلى «الغريزة التدميرية» المضادة للغريزة الجنسية القديمة. وهكذا جمعوا بين ولائهم لفرويد وعجزهم عن تجاوز نظرية الغريزة العتيقة. وحتى إذا أخذنا في الاعتبار صعوبات النظرية الجديدة فقد شكّلت إنجازًا ليس بقليل: لقد أدركت أن النزاع الأساسي في الوجود الإنساني هو الخيار بين الحياة والموت، واستغنت عن المفهوم الفيزيولوجي العتيق للدوافع من أجل تأمّل بيولوجي أعمق. إذ لم يحصل فرويد على الرضى في العثور على حل، وكان عليه أن يترك نظريته في الغريزة كأنها لم تكن. وينبغي للنشوء الإضافي لنظرية فرويد أن يواجه المشكلة وأن يعالج الصعوبات بأمانة، على أمل العثور على الحلول الجديدة.

ونحن في بحثنا في نظرية غريزة الحياة والإيروس نجد أن الصعوبات، إذا وجدنا أي شيء، هي حتى أخطر من الصعوبات المرتبطة بمفهوم غريزة الموت. وسبب الصعوبات واضح إلى حد ما. فالهياج في نظرية اللبيدو كان ناشئًا عن التحسّس المحدَّد كيميائيًا، من خلال إثارة المناطق المهيّجة للشهوة. وفي حال غريزة الحياة نحن نتعامل مع ميل، معهود في كل مادة حية، لا يوجد له مصدر فيزيولوجي خاص أو عضو خاص. فكيف يمكن للغريزة الجنسية القديمة وغريزة الحياة الجديدة- كيف يمكن للدافع الجنسي والإيروس أن يكونا الشيء نفسه؟

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن فرويد كتب في «محاضرات تمهيدية جديدة» أن النظرية الجديدة قد «حلت محل» نظرية اللبيدو، فهو يؤكد في المحاضرات نفسها وفي سواها أن الغرائز الجنسية متماثلة مع الإيروس. وقد كتب: «إن فرضيتنا هي

أنه يوجد صنفان مختلفان ماهويًا من الغرائز: الغرائز الجنسية، المفهومة بالمعنى الواسع- الإيروس، إذا كنتم تفضّلون الاسم- والغرائز العدوانية، التي هدفها التدمير» (S. Freud, 1933). أو في **مجمل التحليل النفسي**: «الطاقة الكلية المتاحة للإيروس.. الذي سنتحدث عنه من الآن فصاعدًا بوصفه «الليبدو» (S. Freud, 1938). وفي بعض الأحيان يماثل الإيروس مع الغريزة الجنسية وغريزة حفظ النوع (S. Freud, 1933) الأمر الذي لم يكن منطقيًا إلا بعد أن عدّل النظرية الأصلية وصنّف كلا الخصمين الأصليين، غريزة حفظ الذات والغريزة الجنسية، بأنه لبيدي. ولكن بينما يساوي فرويد في بعض الأحيان بين الإيروس والليبدو، فهو يعبّر عن وجهة نظر مختلفة قليلاً في عمله الأخير، **مجمل التحليل النفسي**. وهو يكتب: «إن الجانب الأكبر الذي نعرفه عن الإيروس- أي عن دليله الليبدو- قد تمّ اكتسابه من دراسة الوظيفة الجنسية، التي هي بالفعل، في الرأي السائد، **ولو لم يكن وفقًا لنظريتنا**، تتطابق مع الإيروس» (S. Freud. 1938؛ والإبراز مضاف). ووفقًا لهذا القول، وهو على تناقض مع الأقوال المستشهد بها آنفًا، فإن الإيروس والدافع الجنسي لا يتطابقان. ويبدو أن ما كان في ذهن فرويد هنا هو أن الإيروس هو «غريزة أولية» (إضافة إلى غريزة الموت) وأحدُ **دلائلها الغريزةُ الجنسية**. وهو في الواقع يعود إلي رأي سبق أن عبّر عنه في **وراء مبدأ اللذة** حيث يقول في إحدى الحواشي إن الغريزة الجنسية «قد تحولت بالنسبة إلينا إلى الإيروس، الذي يسعى إلى إرغام أجزاء المادة الحية على أن يكون بعضها مع بعض ويجعلها تتماسك معًا. وما يُدعى الغرائز الجنسية عمومًا ننظر إليه على أنه الجزء من الإيروس الموجّه نحو الأهداف» (S. Freud, 1920).

وفي إحدى المرات يقوم فرويد حتى بمحاولة الإشارة إلى مفهومه الأصلي للدافع الجنسي «لم يكن متماثلاً مطلقًا مع الاندفاع إلى الاتحاد بين الجنسين أو إحداث الإحساس اللذيذ بالأعضاء التناسلية؛ إن له شبهًا أشد بكثير بالإيروس كلي

الإغارة وكلي الحفظ في **مأدبة أفلاطون**» (S. Freud, 1925). والحقيقة في الجزء الأول من هذا القول واضحة. فقد كان فرويد على الدوام يعرّف الدافع الجنسي بأنه أوسع من الدافع الجنسي التناسلي. ولكن من الصعب أن نرى على أي أساس يجزم بأن مفهومه القديم مشبه للإيروس الأفلاطوني.

كانت النظرية القديمة على النقيض تمامًا من النظرية الأفلاطونية. وكان اللبيدو، وفقًا لفرويد، مذكرًا، وليس هناك مقابله لبيدو مؤنث: وانسجامًا مع تحيّز فرويد الأبوي، لم تكن المرأة مساوية للرجل بل هي ذكر مخصيّ أشل. والماهية الصميمية للأسطورة الأفلاطونية هي أن الذكر والأنثى كانا واحداً فيما مضى ثم انقسما إلى نصفين، وذلك يتضمن، ولا ريب، أن النصفين متساويان، وأنهما يشكلان تقاطبًا حُبِيَ بالميل إلى الاتحاد من جديد.

ولابد أن السبب الوحيد لمحاولة فرويد تفسير نظرية اللبيدو القديمة على ضوء الإيروس الأفلاطوني قد كان الرغبة في إنكار الانقطاع بين المرحلتين، ولو على حساب التحريف الواضح للنظرية القديمة.

وكما في حالة غريزة الموت، فقد وقع فرويد في صعوبة فيما يتصل بالطبيعة الغريزية لغريزة الحياة. وكما أشار فينيكل، فإن غريزة الموت لا يمكن أن تُدعى «غريزة» على أساس مفهوم فرويد **الجديد** للغريزة، الذي ظهر أول مرة في **وراء مبدأ اللذة** واستمر في كل أعماله اللاحقة، وفي جملتها **مجمل التحليل النفسي** (O. Fenichel, 1953). وقد كتب فرويد: «مع أنها [الغرائز] السبب النهائي لكل نشاط، فهي ذات طبيعة محافظة؛ ومهما كانت الحالة التي بلغها الكائن الحي، فهي حالة تسبّب ميلاً، تسبّب إعادة تأسيس تلك الحالة حالما تكون قد هُجرت» (S. Freud, 1938).

فهل للإيروس وغريزة الحياة هذه الصفة المحافظة في كل الغرائز، فيمكن بذلك أن تُدعى غريزة بكل معنى الكلمة؟ كان فرويد يحاول جاهداً أن يعثر على حل يوفر الصفة المحافظة لكل غرائز الحياة.

وفي الحديث عن الخلايا الجرثومية التي «تعمل ضد موت المادة الحية وتنجح في أن تُحرز لها مالايمكن إلا أن نعدّه أبدية محتملة» قد قال:

إن الغرائز التي ترعى مصائر هذه الكائنات الحية الأولية التي تبقى بعد حياة الفرد الكلي، والتي توفّر لها الملاذ الآمن حين تبقى من دون حماية في وجه مثيرات العالم الخارجي، والتي تسبّب التقاءها مع الخلايا الجرثومية، وهلم جرا- إن هذه الغرائز تشكل مجموعة من الغرائز الجنسية. وهي محافظة بالمعنى نفسه كالغرائز الأخرى في أنها تعيد الأحوال السابقة للمادة الحية؛ ولكنها محافظة مقاوِمة بصورة مميزة للتأثيرات الخارجية؛ وهي محافظة كذلك بمعنى آخر في أنها تحفظ الحياة نفسها مدة طويلة نسبيًا. إنها غرائز الحياة الحقيقية. وهي تعمل ضد قصد الغرائز الأخرى، التي تؤدي، بسبب وظيفتها، إلى الموت؛ وتدل هذه الحقيقة على أن ثمت تعارضًا بينها وبين الغرائز الأخرى، تعارضًا كانت نظرية العُصاب قد أدركته قبل زمن طويل. لكأنّ الحياة يحركها إيقاع متذبذب. وتندفع إحدى مجموعتي الغرائز إلى الأمام لبلوغ الهدف النهائي للحياة بما أمكن من السرعة؛ ولكن عند بلوغ مرحلة معينة في التقدم، تنتفض المجموعة الأخرى إلى الوراء إلى حد معين لتقوم بانطلاقة جديدة فتطيل بذلك أمد الرحلة. ومع أنه من المؤكد أن الدافع الجنسي *والتمييز بين الجنسين لم يوجدا عندما بدأت الحياة*، يظل من الممكن أن الغرائز التي وُصفت لاحقًا بأنها جنسية كانت تعمل من البداية الأولى، وقد لا يكون صحيحًا أنها لم تبدأ إلا في زمن لاحق في عملها المقاوم لنشاطات «غرائز الأنا». (S. Freud, 1920؛ والإبراز مضاف).

إن أكثر ما يثير الاهتمام بهذه الفقرة، والسبب الذي دعاني إلى الاستشهاد المطوّل بها، هو كم حاول فرويد يائسًا أن يستبقي على مفهوم المحافظة في كل الغرائز ومن ثم في غريزة الحياة أيضًا. وكان عليه أن يلوذ بصياغة جديدة للغريزة

الجنسية بوصفها ترعى مصائر الخلايا الجرثومية، وهو تعريف مختلف عن مفهومه الكلي للغريزة في عمله السابق.

وبعد بضع سنوات يقوم فرويد، في **الأنا والهو**، بالمحاولة نفسها لإعطاء الإيروس مكانة الغريزة الحقيقية، بأن ينسب إليه الطبيعة المحافظة وقد كتب:

على أساس الاعتبارات النظرية، التي تدعمها البيولوجيا، نقدم فرضية غريزة الموت، التي مهمتها إعادة الحياة العضوية إلى الحالة غير الحية؛ ومن جهة أخرى، نفترض أن الإيروس، بقيامه بالتوحيد المتزايد للجُزَيئات التي تنتشر فيها المادة الحية، يهدف إلى تعقيد الحياة، وفي الوقت نفسه حتمًا، إلى المحافظة عليها. وإذ يعمل كلا النوعين من الغرائز على هذا النحو، فإنهما سيكونان محافظين بأدقّ معنى للكلمة، مادام كلاهما سوف يسعى إلى إعادة تأسيس حالة الأشياء التي يشوّشها ظهور الحياة. وهكذا سيكون ظهور الحياة سببًا في استمرار الحياة وكذلك في الوقت نفسه في المجاهدة في اتجاه الموت؛ ومن شأن الحياة نفسها أن تكون نزاعًا وتوفيقًا بين هذين الاتجاهين. ومن شأن مشكلة أصل الحياة أن تظل مشكلة كونية؛ وسيكون الجواب عن مشكلة غاية الحياة ومقصدها مثنويًا. (S. Freud, 1923)

إن الإيروس يهدف إلى تعقيد الحياة والمحافظة عليها، ومن ثم فهو محافظ أيضًا، لأنه مع ظهور الحياة تولد غريزة تحافظ عليها. ولكن علينا أن نسأل، إذا كانت طبيعة الغريزة هي إعادة تأسيس حالة الوجود السابقة، المادة غير العضوية، كيف سوف تتجه في الوقت نفسه إلى إعادة تأسيس شكل لاحق للوجود، هو الحياة؟

وبعد هذه المحاولات العقيمة لإضفاء الصفة المحافظة على غريزة الحياة، يتوصّل فرويد، في **مجمل التحليل النفسي** إلى حل سلبي: **«لا نستطيع في حالة** الإيروس (وغريزة الحب) أن نستخدم هذه الصيغة [صيغة الصفة المحافظة في الغرائز]. وللقيام بذلك من شأننا أن نفترض مقدمًا أن المادة الحية كانت فيما مضى

وحدة تمزّقت وهي تجاهد الآن من أجل إعادة الوحدة» (S. Freud, 1938؛ والإبراز مضاف). ومن الواضح تمامًا أن فرويد يشير هنا إلى أسطورة إيروس لأفلاطون، ومع ذلك فهو يعترض عليها بوصفها نتاجًا للتخيل الشعري. وهذا الرفض محيّر حقًا. فالجواب الأفلاطوني من شأنه أن يلبي هذا المطلب النظري للطبيعة المحافظة في الإيروس. وإذا كان الذكر والأنثى متحدين في البداية، ثم انفصلا، وتدفعهما الرغبة في ضم الشمل، فماذا يمكن أن يكون أصلح من ذلك للتلاؤم مع صيغة أن الغريزة تتجه إلى إعادة الحالة السابقة؟ لماذا لم يقبل فرويد هذا المَخرج ليتخلّص من الارتباك النظري وهو أن الإيروس ليس غريزة حقيقية.

وربما يُلقي ضوءأكثر قليلاً على هذه المسألة لو قارنّا هذه الحاشية في ال **مجمل** مع القول الأسبق والأشد تفصيلاً في **وراء مبدأ اللذة**. ففيه استشهد بنص أفلاطون في **المأدبة** فيما يتعلق بالوحدة الأصلية للإنسان الذي قسمه زيوس بعدئذ إلى نصفين، وبعد هذا التقسيم، وفي رغبة كل نصف في نصفه الآخر، اجتمع بعضهما ببعض وألقى كل منهما بذراعيه حول الآخر تائقين إلى أن يصيرا واحدًا. وقد كتب:

هل سوف نتّبع الإشارة الخفية التي يقدمها إلينا الفيلسوف- الشاعر، ونغامر في افتراض الفرضية القائلة بأن المادة الحية قد انشقّت حين مجيئها إلى الحياة وانقسمت إلى جُزَيْئَين صغيرين، صارا يحاولان منذ ذلك الحين أن يتحدا من جديد من خلال الغرائز الجنسية؟ وأن هذه الغرائز، التي استمر فيها التجانس الكيميائي الموجود في المادة غير الحية، قد نجحت بالتدريج، كما أظهرت من خلال مملكة الكائنات الحية وحيدة الخلية أو غير الخلوية، في التغلّب على الصعاب التي تضعها في طريق تلك المحاولة بيئة مثقلة بالمثيرات الخطرة- مثيرات ترغم الغرائز على تشكيل طبقة قشرية واقية؟ وأن هذه القطع المتفلّقة للمادة الحية قد

وصلت على هذا النحو إلى حالة متعددة الخلايا وفي آخر الأمر حوّلت غريزة إعادة الاتحاد، وبالشكل الأشد تركيزًا، إلى الخلايا الجرثومية؟- ولكنني أعتقد هنا أنه قد آن الأوان لكي ننفصل عن هذه الفرضية. (S. Freud, 1920) [١]

بسهولة نرى الاختلاف بين هذين القولين: ففي الصياغة الأولى (**وراء مبدأ اللذة**) يترك فرويد الجواب مفتوحًا، في حين أن الجواب في القول اللاحق (**مجمل التحليل النفسي**) سلبي بصورة قاطعة.

ولكن الأهم بكثير هو الصياغة الخاصة، التي هي مشتركة في كلا القولين. فهو في كلتا المرتين يتحدث عن «مادة حية» قد تم انقسامها. غير أن الأسطورة الأفلاطونية لا تتحدث عن «مادة حية» قد انقسمت، بل عن **ذكر و أنثى** انفصلا ويجاهدان لكي يتحدا من جديد. لماذا يصر فرويد على أن المسألة الحاسمة هي «المادة الحية»؟

أعتقد أن الجواب يمكن أن يكمن في عامل ذاتي. فقد كان فرويد عميق التشبّع بالاعتقاد الأبوي بأن الرجال متفوقون على النساء، وليسوا مساوين لهن. ومن ثم فإن نظرية التقاطب الأنثوي- الذكري- الذي هو ككل تقاطب يتضمن الاختلاف والمساواة- لم تكن مقبولة عنده. وقد أفضى به هذا الانحياز الانفعالي الذكري، في مرحلة أسبق بكثير، إلى النظرية التي مفادها أن النساء رجال مشلولون، وتحكمهن عقدة الخصاء والحسد على القضيب، وهن أدنى من الرجال كذلك في أن الأنا العليا عندهن أضعف، ولكن نرجسيتهن أقوى من نرجسية الرجال. وبينما يمكن للمرء أن يُعجَب بألمعية إنشائه، فإنه من العسير أن ينكر أن افتراض أن نصف الجنس البشري نسخة مشلولة من النصف الآخر ليس أمرًا أقل من الحماقة، التي لا يمكن تفسيرها إلا بعمق التعصب الجنسي (الذي لا يختلف كثيرًا

---

١ - في إحدى الحواشي يقتبس فرويد من «أوبانيشاد بريهَدارمكه» Brihadarmâka upanishad.

عن التعصّب العرقي و/ أو التعصّب الديني). فهل من المدهش، إذن، أن فرويد قد اعتُرض سبيله، عندما أُرغم وهو يتّبع أسطورة أفلاطون على افتراض المساواة الذكرية- الأنثوية؟ بالفعل، ففرويد لم يتمكن من اتّخاذ هذه الخطوة؛ ولذلك بدّل الاتحاد الذكري- الأنثوي بـ «المادة الحية»، ورفض المخرج المنطقي من صعوبة أن الإيروس لا يشارك في الطبيعة المحافظة للغرائز.

لقد أسهبت كثيراً في هذه المسألة لعدة أسباب. أولها، أنها تساعد على فهم التناقضات التي تلازم نظرية فرويد إذا عرفنا البواعث التي أجبرته على الوصول إلى الحلول المتناقضة. ثانياً، لأن المشكلة التي يتمّ البحث فيها الآن مثيرة للاهتمام بقطع النظر عن المشكلة الخاصة بالتقلّبات في نظرية فرويد في الغريزة. فنحن نحاول هنا أن نفهم أن فكر فرويد الشعوري توفيق بين الرؤية الجديدة و «العادات الفكرية القديمة، المترسّخة في «عقدته الأبوية»، والتي منعته من التعبير عن رؤيته الجديدة بطريقة واضحة لا غموض فيها. وبكلمات أخرى، كان فرويد أسير مشاعر مجتمعه وعاداته الفكرية، التي لم يكن قادراً على تجاوزها[1]. فعندما طرأت عليه رؤية جديدة، لم يصبح شعورياً إلا جزء منها- أو عواقبه- في حين ظل الجزء الآخر لا شعورياً لأنه لم يكن متلائماً مع «عقدته» وفكره الشعوري السابق. وكان على تفكيره الشعوري إنكار التناقضات والتنافرات بإقامة أبنية معقولة في الظاهر إلى درجة كافية لإرضاء العمليات الفكرية الشعورية.[2]

١- كما تجاوزها، مثلاً، جون ستيوارت مل، و «ي. ي. باخوفن»، و «كارل ماركس»، و «فريدريك إنجلس»، وعدد غير قليل من المؤلفين.

٢- إن هذه العملية تحدث للكثيرين من المفكرين الإبداعيين. وسبينوزا هو المثال اللافت للنظر. فمثلاً، لا يمكن أن تُفهم تماماً مشكلة هل كان سبينوزا موحّداً أم لا مالم يأخذ المرء في حسبانه الاختلاف بين عاداته الفكرية الشعورية (على المستوى التوحيدي)، والرؤية الجديدة (غير التوحيدية)، والحل الوسط الناتج في تعريف الله، الذي هو، في الواقع، إنكار لله. وهذا المنهج في تفحّص كتابات المؤلف هو تحليلي نفسي في بعض النواحي المهمة. فالمرء يقرأ بين سطور النص المكتوب كما يقرأ المحلل النفسي بين سطور تداعيات المريض الحرة أو أحلامه. ونقطة الانطلاق هي عثورنا على تناقضات في فكر مفكر بارز. ومادام قد لاحظ هذه التناقضات بنفسه، ومن المحتمل أن يكون قد حلّها إذا كانت المسألة مسألة=

ولم يستطع فرويد- كما حاولتُ أن أظهر- أن يختار حلَّ جعلِ الإيروس ملائمًا لتعريفه للغرائز، أي لطبيعتها المحافظة. فهل كان ثمت خيار نظري آخر متاحًا له؟ أعتقد أنه قد كان. إذ كان في مستطاعه أن يعثر على حل آخر يوافق رؤيته الجديدة، والدور المهيمن للحب والتدميرية، ضمن نظريته القديمة في اللبيدو. وكان في ميسوره أن يقيم تقاطبًا بين الدوافع الجنسية ما قبل التناسلية (السادية الفمية أو الشرجية) بوصفها مصدر التدميرية والدافع الجنسي التناسلي بوصفه مصدر الحب.[1] ولكن لاريب أن هذا الحل كان من الصعب على فرويد قبوله لسبب ذكرناه من قبل في سياق آخر. فقد كان من شأنه أن يقترب بصورة خطيرة من رؤية وحدة الكون، لأنه ستكون التدميرية والمحبة لبيديتين على السواء. ومع ذلك، فقد سبق لفرويد أن بنى الأساس لربط التدميرية بالدافع الجنسي التناسلي بوصوله إلى النتيجة التي فحواها أن الجانب التدميري من اللبيدو السادي- الشرجي هو غريزة الموت (S. Freud 1923, 1920). وإذا كان ذلك كذلك، بدا من الإنصاف الظن أن اللبيدو الشرجي نفسه لابد أن له صلة عميقة بغريزة الموت؛ وفي الواقع قد يبدو أن النتيجة الإضافية مسوَّغة وهي أنه من ماهية اللبيدو الشرجي أن يهدف إلى التدمير.

ولكن فرويد لم يصل إلى هذه النتيجة، وإنه لمن المثير للاهتمام التفكّر في السبب الذي لم يجعله يصل.

=موهبة نظرية، فعلينا أن نفترض أن التناقضات الملازمة لفكره يسبّبها النزاع بين بنيتين. البنية القديمة التي تحتل معظم المساحة الشعورية، والبنية الجديدة جذريًا، التي لا تنجح في التعبير عن نفسها تمامًا في الفكر الشعوري؛ أي أن جزءًا منها يظل لا شعوريًا. والتناقض الملازم للفكر يمكن أن يعامَل معاملة العَرَض أو الحلم، بوصفه توفيقًا بين البنية القديمة للفكر الشعوري الراسخ عاطفيًا والبنية الجديدة للرؤية النظرية التي لا يمكن التعبير عنها تمامًا بسبب قوة الأفكار والمشاعر القديمة. وقد يكون المؤلف، ولو كان عبقريًا، غير مدرك كليًا وجود هذه التناقضات أو طبيعتها، في حين يمكن للغريب- غير العالق في المقدمات نفسها- أن يراها بيسر شديد. ولعل «كانْت» كان يشير إلى ذلك عندما لاحظ أننا «نفهم المؤلف في بعض الأحيان فهمًا أفضل مما يفهم المؤلف نفسه.»

١ - اقترح إرنست زيمل هذا الحل بالضبط (E. Simmel, 1944).

يكمن السبب الأول في التفسير الضيق جداً لليبدو الشرجي. فعند فرويد وتلامذته يكمن الجانب الأساسي للشرجية في الميل إلى السيطرة والامتلاك (بالإضافة إلى الجانب الودي في الاحتفاظ). والآن، فمن المؤكد أن السيطرة والامتلاك نزعتان مضادتان للمحبة، والعمل على الإنجاح، والتحرير، وهي الأمور التي تشكل تناذراً فيما بينها. إلا أن «التملك» و «السيطرة» لا يشتملان على الماهية الصميمية للتدميرية، وهي الرغبة في التدمير، ومعاداة الحياة. ومما لاريب فيه أن الشخص الشرجي لديه اهتمام وارتباط عميقان بالغائط بوصفه جزءاً من صلته العامة بكل ماهو غير حي. والغائط نتاج ما يُخرجه الجسم أخيراً، لأنه لافائدة له من بعد ذلك. والشخص الشرجي يجذبه الغائط كما يجذبه كل شيء عديم الفائدة للحياة، كالقذَر، والموت، والعفَن. [1] ويمكن أن نقول إن الميل إلى السيطرة والتملك هو مجرد جانب من الطبع الشرجي، ولكنه أخفّ وأقل خبثًا من بغض الحياة. وأعتقد أن فرويد لو أنه رأى هذه الصلة المباشرة بين الغائط والموت لأمكن له أن يتوصّل إلى النتيجة التي فحواها أن التقاطب الأساسي هو بين التوجّه التناسلي والتوجّه الشرجي، وهما كيانان قد دُرِسَ سريرياً وبصورة جيدة أنهما معادلان للإيروس وغريزة الموت. ولو أنه رأى ذلك لما ظهر أن الإيروس وغريزة الموت ميلان موروثان بيولوجيًا ومتساويان في القوة، بل لتم النظر إلى أن الإيروس هو هدف النمو الطبيعي بيولوجيًا، ولتمّ النظر إلى أن غريزة الموت قائمة على إخفاق النمو الطبيعي وبهذا المعنى فهي مجاهَدة مرَضية وإن كانت عميقة الجذور. وإذا أراد المرء أن يركب مركب التخمين البيولوجي فقد يربط الشرجية بمسألة أن التوجّه بالشمّ هو خصيصة اللبونات رباعية الأرجل، وأن الوقفة المنتصبة تتضمن التحول من التوجّه بالشمّ إلى التوجّه بالنظر. ومن شأن التبدّل في وظيفة الدماغ الشمّي أن

---

١ - إن الصلة بين الشرجية والنكروفيليا مدروسة في الفصل الثاني عشر. وأنا أذكر فيه أن الحلم النكروفيلي النموذجي مليء برموز كالغائط والجثث- الكاملة أو المقطّعة- والقبور، والخرائب، وما إلى ذلك، ويشتمل الفصل على أمثلة على هذه الأحلام النكروفيلية.

ينسجم مع التحول نفسه في التوجّه. وبالنظر إلى ذلك، يمكن أن يَعدّ المرء أن الطبع الشرجي يشكل مرحلة نكوصية في النمو البيولوجي يمكن حتى أن يكون لها أساس وراثي تكويني. والشرجية عند الوليد يمكن أن تعدّ أنها تمثّل تكراراً تطورياً لمرحلة بيولوجية أسبق في عملية الانتقال إلى الأداء الوظيفي الإنساني كامل النمو. (وفي مصطلحات فرويد، فإن الشرجية- التدميرية تكون لها الطبيعة المحافظة للغريزة، أي العودة من توجّه التناسلية- المحبة- النظر إلى توجّه الشرجية- التدمير- الشم.)

وكان من شأن العلاقة بين غريزة الموت وغريزة الحياة أن تكون هي نفسها من حيث الأساس بين الليبيدو ماقبل التناسلي والتناسلي في ترسيمة النمو عند فرويد. وتثبّت الليبيدو على المستوى الشرجي كان من شأنه أن يكون ظاهرة مرَضية، ولكنها ظاهرة ذات جذور عميقة في التكوين النفسي- الجنسي، في حين من شأن المستوى التناسلي أن يكون خصيصة الفرد الصحيح. وإذن، ففي هذا التأمّل سيكون للمستوى الشرجي جانبان مختلفان إلى حد ما: أحدهما، الدافع إلى السيطرة؛ والآخر، الدافع إلى التدمير. وكما حاولت أن أظهر، فإن ذلك سيكون الاختلاف بين السادية والنكروفيليا.

ولكن فرويد لم يعقد هذه الصلة، ولعله لم يستطع القيام بذلك للأسباب المدروسة آنفاً فيما يتصل بالصعوبات في نظرية الإيروس.

٣-قوة غريزة الموت وتحديداتها

أشرت في الصفحات السابقة إلى التناقضات المتأصّلة التي أُرغم فرويد عليها عندما تحوّل من نظرية الليبيدو إلى نظرية الإيروس- غريزة الموت. وثمت نزاع آخر من نوع مختلف في النظرية اللاحقة يجب أن يجذب انتباهنا: هو النزاع بين فرويد المنظّر وفرويد الإنساني. فالمنظّر يتوصّل إلى النتيجة القائلة بأن الإنسان ليس لديه إلا

الاختيار بين تدمير نفسه (ببطء، بالمرض) أو تدمير الآخرين؛ أو- إذا صغنا ذلك بكلمات أخرى- بين إحداث الألم إما لنفسه وإما للآخرين. والإنساني يتمرد على فكرة هذا الخيار المأساوي الذي من شأنه أن يحارب الحل العقلي لهذا الجانب من الوجود الإنساني.

وليس الأمر أن فرويد كان نافراً من الخيارات المأساوية. فقد بنى في نظريته السابقة مثل هذا الخيار المأساوي: كبت المتطلّبات الغريزية (ولاسيما المتطلبات ما قبل التناسلية) كان يُفترض أنه أساس نشوء الحضارة؛ فالدافع الغريزي المكبوت «يُصعَّد» إلى أقنية ثقافية قيّمة، ولكن ذلك يظل على حساب السعادة الإنسانية التامة. ومن جهة أخرى، فإن الكبت لم يؤدّ إلى ازدياد الحضارة وحسب، بل كذلك إلى نشوء العُصاب عند الكثيرين الذين لم تعمل العملية الكبتيّة فيهم بنجاح. وكان يبدو أن الخيار هو بين انعدام الحضارة المقترن بالسعادة التامة، أو الحضارة المقترنة بالعُصاب والسعادة الناقصة.[1]

١- راجع، على سبيل المثال:

Civilised Sexual Morality and Modern Nervous Illness.

حيث كتب فرويد: «يمكن بحق أن نتمسك بحضارتنا مسؤولين عن تهديد الإنهاك العصبي» (S. Freud, 1908 a).

ويُصرّ هربرت ماركوزه Herbert Marcuse على مسألة أن فرويد قد قال إن السعادة التامة تتطلّب التعبير التام عن كل الغرائز الجنسية (التي هي بالمعنى الفرويدي تعني العناصر ما قبل التناسلية بصورة خاصة) (H. Marcuse, 1955). وبقطع النظر عن مسألة هل فرويد مصيب في رأيه، فإن ماركوزه يتغافل عن أن المسألة الأساسية عند فرويد قد كانت الخيار المأساوي. ومن ثم، فإنه ليس من الرؤية الفرويدية مطلقًا أن الغاية يجب أن تكون التعبير عن كل عناصر الغريزة الجنسية. وعلى الضد من ذلك، فإن فرويد- ولأنه في جانب الحضارة ضد الهمجية- يفضّل الكبت على نقيضه. ثم إن فرويد تحدّث دائمًا عن التأثير الكابت لـ «الحضارة» في الغرائز، وفكرة أن ذلك لا يحدث إلا في الرأسمالية وليس من الضروري أن يحدث في الاشتراكية هي على النقيض تمامًا من تفكيره. وأفكار ماركوزه في هذا الموضوع تشكو من المعرفة غير الكافية بتفصيلات نظرية فرويد.

والتناقض بين غريزة الموت والإيروس يواجه الإنسان بالخيار المأساوي الحقيقي والصادق. وهو خيار حقيقي لأنه يستطيع أن يقرر أن يهاجم وأن يشنّ الحرب، وأن يكون عدوانيًا، وأن يعبّر عن خصومته لأنه يفضّل القيام بذلك على أن يكون مريضًا. وأن يكون هذا الخيار خيارًا مأساويًا فهو أمر لا يحتاج إلى برهان، على الأقل بمقدار ما يتعلق الأمر بفرويد أو أي إنساني آخر.

ولم يحاول فرويد أن يجعل المسألة ضبابية بتغشية حدة النزاع بالغموض. وكما استشهدنا من قبل، فقد كتب في **«محاضرات تمهيدية جديدة»**:

والآن نحن مأخوذون بأهمية احتمال ألا تكون العدوانية قادرة على العثور على إشباع في العالم الخارجي لأنه تجابهها عقبات حقيقية. وإذا حدث ذلك، فقد تنسحب وتزيد مقدار التدمير الذاتي وتُحكم السيطرة على الداخل. وسوف نسمع كيف يكون هذا ما يحدث في الواقع وكم هي مهمة هذه العملية. (S. Freud, 1933).

وكتب في **مجمل التحليل النفسي**: «إن كبح العدوانية هو على العموم غير صحي ويؤدي إلى المرض» (S. Freud, 1938). وبعد أن رسم فرويد الخطوط على هذا النحو من الصرامة، كيف يستجيب للدافع بعدم ترك الشؤون الإنسانية، في مثل هذه الرؤية اليائسة، وتحاشي مؤازرة الذين يوصون بأن الحرب هي الدواء الأمثل للجنس البشري؟

وبالفعل، فقد قام فرويد بعدة محاولات نظرية لإيجاد مخرج من هذا الإحراج بين المنظّر والإنساني. وتكمن إحدى المحاولات في فكرة أن الغريزة التدميرية يمكن أن تتحول إلى ضمير. وفي **الحضارة وتنغيصاتها** يسأل فرويد: «ماذا يحدث له (المعتدي) ليجعل رغبته في العدوان غير ضارة؟» ويجيب فرويد هكذا:

شيء لافت للنظر جدًا، لابد أننا لم نخمنه ومع ذلك فهو واضح تمامًا. إن عدوانيته منغرسة في الذهن ومنغلّة في الداخل؛ إنها في واقع الحال ترتدّ إلى المكان الذي جاءت منه- أي، إنها موجّهة نحو أناه. وهناك يتولاها قسم من الأنا، يفرض نفسه على بقية الأنا بوصفه الأنا الأعلى، والذي هو الآن، وعلى شكل «الضمير»، مستعد أن يضع موضع العمل ضد الأنا العدوانية الفظة نفسها، تلك العدوانية التي كان من شأنه إشباعها ضد الأفراد الغرباء الآخرين. والتوتّر بين الأنا الأعلى الفظ والأنا الخاضع له ندعوه الإحساس بالذنب؛ وهو يعبّر عن نفسه بوصفه حاجة إلى العقاب. ولذلك فالحضارة تحتفظ بالسيادة على رغبة الفرد الخطرة في العدوان بإضعافها ونزع سلاحها وبإقامة وكالة في داخله، مثل حامية عسكرية في مدينة مفتوحة. (S. Freud, 1930)[1]

لايبدو أن تحوّل التدميرية إلى ضمير معاقب ذاتيًا كثير الفائدة كما يشير فرويد. ووفقًا لنظريته في الضمير كان من شأنه أن يكون قاسيًا مثل غريزة الموت، مادام مشحونًا بطاقاتها، ولايُعطى أي سبب يفسّر لماذا يجب «إضعاف» غريزة الموت و «نزع سلاحها». ويبدو بالأحرى أن التشبيه التالي يعبّر عن العواقب الحقيقية لفكر فرويد تعبيرًا أكثر منطقية: إن المدينة التي حكمها عدوّ بطاش تهزمه بمعونة دكتاتور ينشئ عندئذ نظامًا يعادل في بطشه بطش العدو المهزوم؛ وهكذا، ماذا كسبت؟

على أية حال، فإن هذه النظرية في الضمير الصارم بوصفه تبديًّا لغريزة الموت ليست المحاولة الوحيدة التي يقوم بها فرويد لتخفيف مفهوم الخيار المأساوي. فهو يعبّر عن تفسير أقل مأساوية فيما يلي: «إن غريزة التدمير، المخفّفة والملطّفة، والمزجورة عن هدفها إن جاز التعبير، لابدّ عندما تتوجّه إلى الموضوعات من أن توفر

١ - من المؤكد أن مفهوم فرويد للضمير بأنه في ماهيته ضمير معاقب مفهومٌ شديد الضيق، وهو على سنن بعض الأفكار الدينية؛ إنه مفهوم الضمير «التسلّطي» لا «الإنساني» cf. E. Fromm (1947)

للأنا إشباع حاجاته الحيوية وسيطرته على الطبيعة» (S. Freud, 1930). ويبدو هذا مثالاً جيداً على «التصعيد»؛ [1] فهدف الغريزة لا يضعف، ولكنه يتجه نحو الأهداف الأخرى ذات القيمة الاجتماعية، وهي في هذه الحال «الهيمنة على الطبيعة».

ويبدو هذا الأمر مثل حل كامل. فالمرء يتحرر من الخيار المأساوي بين تدمير إما نفسه وإما الآخرين، لأن طاقة الغريزة التدميرية تُستخدم للسيطرة على الطبيعة. ولكن علينا أن نسأل، هل يمكن أن يكون ذلك حقًا؟ أيمكن أن يكون صحيحًا أن التدميرية تتحول إلى بنائية؟ وماذا يمكن أن تعني «السيطرة على الطبيعة»؟ تدجين الحيوانات وتربيتها، وجمع النباتات وزراعتها، ونسج الثياب، وبناء الأكواخ، وتصنيع الفخاريات، والكثير من النشاطات الأخرى، بما في ذلك إنشاء الآلات والسكك الحديدية وناطحات السحاب. وكل هذه الأعمال هي أعمال إنشاء وبناء وتوحيد وتركيب، وبالفعل إذا أراد المرء أن ينسبها إلى إحدى الغريزتين الأساسيتين، فإنها يمكن أن تعدّ من الأعمال التي يحرّضها الإيروس لا غريزة الموت. ومع الاستثناء الممكن لقتل الحيوانات للاستهلاك وقتل البشر في الحرب، وكلا القتلين يمكن أن يُعدّ مترسّخًا في التدميرية، فإن الإنتاج المادي ليس هدّامًا بل بنّاء.

ويقوم فرويد بمحاولة أخرى لتليين قسوة خياره في رده على رسالة ألبرت أينشتاين في موضوع لماذا الحرب؟ وحتى في هذه المناسبة، عندما يجابهه عالم من

---

١ - لم يستخدم فرويد عمومًا مصطلح «التصعيد» فيما يتعلق بغريزة الموت، ولكن يبدو لي أن المفهوم الذي تعالجه الفقرة التالية هو المصطلح نفسه الذي يدعوه فرويد «التصعيد» فيما يتصل بالليبيدو. ولكن مفهوم «التصعيد» مشكوك فيه حتى عندما استخدمه للغرائز الجنسية، وخصوصًا ما قبل التناسلية. وعلى أساس نظريته القديمة، فالمثال الذي كان شعبيًا هو الجراح الذي يصعّد طاقته التدميرية. ولكن هل هذا صحيح حقًا؟ فالجراح في النهاية لا يقص وحسب: إنه يحسّن الصحة كذلك، والأرجح أن أفضل الجراحين لا تحرضهم سادية مصعّدة، بل عوامل أخرى كثيرة، مثل خفة اليد، والرغبة في الشفاء من خلال العمل المباشر، والقدرة على تكوين القرارات السريعة، وما إلى ذلك.

أعظم العلماء والإنسانيين في القرن بالسؤال حول الأسباب السيكولوجية للحرب، لم يقم فرويد بمحاولة إخفاء قسوة خياره السابق أو تخفيفه. وقد كتب بمنتهى الوضوح:

نتيجة لقليل من التخمين، يمكن أن نصل إلى افتراض أن هذه الغريزة تعمل عملها في كل كائن حي وتجهد أن توصله إلى حالة التهدّم وأن تخفض الحياة إلى حالتها الأصلية حالة المادة غير الحية. وهكذا فهي تستحق بجدية أن تدعى غريزة الموت، على حين تمثّل الغرائز الجنسية السعي إلى الحياة. وتتحول غريزة الموت إلى غريزة تدميرية عندما تتوجه، بمساعدة أعضاء خاصة، نحو الخارج إلى الأهداف. ويحافظ الكائن الحي على حياته، ولنقل، بقضائه على حياة كائن غريب. ولكن قسمًا من غريزة الموت يظل عاملاً في *داخل* الكائن الحي، وقد توخّينا أن نتتبع عددًا غير قليل من الظواهر الطبيعية والمَرَضية إلى هذا الإدخال للغريزة التدميرية. وكنا مذنبين حتى ببدعة نسبة أصل الضمير إلى تحول العدوانية نحو الداخل. وسوف تلاحظون أنه ليس أمرًا تافهًا على الإطلاق لو انتقلت هذه العملية إلى البعيد جدًا؛ فذلك غير صحي يقينًا. ومن جهة أخرى فإذا تحوّلت هذه القوى إلى التدمير في العالم الخارجي عاد الكائن الحي إلى الحياة ولا بد أن تكون النتيجة مفيدة. *إن من شأن ذلك أن يخدم بوصفه تسويغًا بيولوجيًا لكل الدوافع القبيحة والخطيرة التي نتنازع معها. ويجب الاعتراف أنها تقف أقرب إلى «الطبيعة» مما تقف مقاومتها ومن الضروري العثور على تفسير ذلك أيضًا*. (S. Freud, 1939 a؛ والإبراز مضاف).

إن فرويد، بعد إدلائه بهذا التصريح الواضح جدًا والمتصلّب مجملاً آراءه التي سبق أن عبّر عنها حول غريزة الموت، وبعد أن أعلن أنه لا يمكن أن يصدّق القصص حول تلك المناطق السعيدة التي توجد فيها أعراق «لا تعرف القَسْر ولا العدوان»، حاول قبيل نهاية الرسالة أن يصل إلى حل أقل تشاؤمية مما بدا أن البداية قد ألمعت إليه. إن أمله قائم على عدة إمكانات. فكتب: «إذا كانت إرادة الانخراط

في الحرب نتيجة الغريزة التدميرية، فإن أوضح خطة ستكون استخدام عدوّها الإيروس ضدها. وأي شيء يشجّع الروابط الانفعالية ضد البشر يجب أن يعمل ضد الحرب (S.Freud, 1933a).

ومن اللافت للنظر والمؤثر كيف يحاول هنا فرويد الإنساني، و«السلامي»، كما يدعو نفسه، باهتياج تقريبًا أن يتملص من النتائج المنطقية لمقدماته. وإذا كانت غريزة الموت قوية وأساسية كما يزعم فرويد من البداية إلى النهاية، فكيف يمكن تخفيضها بصورة ملحوظة باستخدام الإيروس، آخذين في الاعتبار أن كلتا الغريزتين تشتمل عليهما كل خلية وأنهما يشكلان خصيصة لا يمكن تخفيضها في كل مادة حية؟

وحجة فرويد الثانية لصالح السلام هي أكثر جوهرية. وهو يكتب في نهاية رسالته لأينشتاين:

والآن فإن الحرب على أتم التعارض مع الموقف النفسي الذي تفرضه علينا سيرورة الحضارة، ولهذا السبب فنحن مصمّمون على التمرد عليها؛ ونحن لم نعد نستطيع البتة أن نتحملها. وليس هذا مجرد نَبْذ فكري وانفعالي، فنحن السلاميين لدينا عدم تحمّل تكويني للحرب، وهذه خصيصة معظّمة، إن جاز القول، إلى أعلى درجة. ويبدو، بالفعل، أن انخفاض المعايير الجمالية في الحرب تؤدي في تمردنا دورًا أقل مما تؤديه أعمالها الوحشية. وكم علينا أن ننتظر طويلاً قبل أن تصبح بقية الجنس البشري دعاة سلام أيضًا؟ لا أحد يدري. (S. Freud, 1933a)

وفي نهاية الرسالة يتناول فرويد فكرة موجودة أحيانًا في أعماله،[1] وهي فكرة سيرورة الحضارة بوصفها عاملاً مؤديًا إلى كبت للغرائز، دائم، وإن جاز القول، «تكويني»، «عضوي».

١- راجع (S. Freud (1930، وكذلك المصادر التي استشهد بها تقديم المحرر لذلك البحث.

وقد سبق لفرويد أن عبّر عن هذا الرأي قبل زمن طويل، **في ثلاث مقالات**، عندما تحدّث عن النزاع الحادّ بين الغريزة والحضارة: «يحصل المرء على الانطباع من الأطفال المتحضّرين بأن بناء هذه الحواجز هو نتاج التربية، ولا ريب أن للتربية علاقة كبيرة بذلك. ولكن في الواقع فإن **هذا النشوء محدّد عضويًا** ومثبّت بالوراثة، ويمكن في بعض الأحيان أن يحدث من دون التربية على الإطلاق» (S. Frud, 1905؛ والإبراز مضاف).

وفي **الحضارة وتنغيصاتها** واصل فرويد هذا الخط الفكري بحديثه عن الكبت «العضوي»، مثلاً، في الحالة التي يرتبط فيها المحرّم بالحائض أو الشهوة الجنسة الشرجية، حيث يمهّد بذلك السبيل إلى الحضارة. ونجد حتى في أوائل ١٨٩٧ أن فرويد قد عبّر عن نفسه في رسالة إلى «فليس» Fliess (١٤ تشرين الثاني ١٨٩٧، الرسالة ٧٥) أن «شيئًا عضويًا قد أدى دورًا في الكبت» (S. Freud, 1897). [1]

تُظهر الأقوال المختلفة المستشهد بها هنا أن اعتماد فرويد على عدم التحمل البيولوجي للحرب لم يكن مجرد محاولة لتجاوز المنظور المأساوي لمفهومه لغريزة الموت الذي ينتجه لذلك الغرض، إن جاز القول، نقاشه مع أينشتاين، ولكنه كان على اتفاق مع خطه الفكري الذي كان في خلفية أفكاره منذ ١٨٩٧، ولو لم يكن مهيمنًا.

وإذا كانت افتراضات فرويد صائبة، وهي أن الحضارة تُحدِث الكبت «التكويني» والوراثي، أي أن بعض الحاجات الغريزية تضعف حقًا في سيرورة

---

١ - أقرّ بعرفاني بجميل المجمَل المسعف جداً لكل آراء فرويد في الكبت «العضوي» الذي وضعه محرر الطبعة النموذجية، جيمس ستراتشي James Strachey، في تقديمه لـ «الحضارة وتنغيصاتها» (Freud, 1930). وهذا العرفان بالجميل يمتد إلى كل مقدماته الأخرى، التي تمكّن القارئ، ولو كان جيد الاطّلاع على أعمال فرويد، من تحديد الشاهد الذي يبحث عنه بسرعة أشد، وفوق ذلك، من تذكّر الشواهد غير المطروقة التي نسيها. وغني عن القول إنها بالنسبة إلى القارئ الأقل اطلاعاً على أعمال فرويد كذلك المرشِدة الأكثر عونًا.

الحضارة، فإنه قد وجد المخرج من المعضلة فعلاً. فليس من شأن الإنسان المتحضّر أن تحفزه مطالب غريزية معينة مضادة للحضارة بالدرجة التي تحفز الإنسان البدائي. ولن يكون للدافع إلى التدمير من الشدة والقوة في الإنسان المتحضّر مالهما في الإنسان البدائي. ومن شأن هذا الخطّ الفكري أن يُفضي كذلك إلى الظن أن بعض الكوابح ضد القتل قد تأسست في سيرورة الحضارة وأصبحت ثابتة وراثيًا. ومهما يكن، ولو أن المرء استطاع أن يكتشف مثل هذه العوامل الوراثية عمومًا، فإنه لمن العسير للغاية أن يزعم وجودها في حالة غريزة الموت.

ووفقًا لمفهوم فرويد فإن غريزة الموت ميل متأصّل في كل مادة حية؛ ويبدو أنها قضية صعبة نظريًا أن يفترض المرء أن هذه القوة البيولوجية الجوهرية يمكن أن تضعف في غضون الحضارة. فبالمنطق نفسه يمكن أن يزعم المرء أن الإيروس يمكن أن يضعف تكوينيًا ومن شأن مثل هذه الافتراضات أن تُفضي إلى الافتراض الأعم وهو أن الطبيعة الصميمية للمادة الحية يمكن أن يبدّلها سير الحضارة، بوساطة «الكبت» العضوي. [1]

ومهما يكن ذلك، يبدو أن السعي إلى إثبات الوقائع فيما يتصل بهذه المسألة هو موضوع من أهم موضوعات البحث. فهل ثمت دليل كافٍ يبيّن وجود كبت تكويني عضوي لبعض المتطلّبات الغريزية في غضون الحضارة؟ وهل هذا الكبت مختلف عن الكبت بالمعنى المألوف عند فرويد، بالنظر إلى أنه يُضعف المطلب الغريزي، بدلاً من إزالته من الوعي أو تحويله إلى أهداف أخرى؟ وعلى نحو أخصّ، فهل أصبحت الدوافع التدميرية عند الإنسان في سير التاريخ أضعف، أم أن الدوافع الزجرية قد نشأت وهي الآن ثابتة وراثيًا؟ والإجابة عن هذا السؤال تقتضي الدراسات الموسّعة، ولا سيما في الأنثروبولوجيا، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الوراثة.

---

١ - كان أبلغ ما ينطق ضد افتراض فرويد هو أن إنسان ما قبل التاريخ لم يكن الأكثر عدوانية من الإنسان المتحضّر بل كان الأقل.

وعندما يستعيد المرء النظر إلى محاولات فرويد المختلفة للتخفيف من قسوة خياره الأساسي- تدمير المرء للآخرين أم لنفسه- لا يملك المرء إلا أن يعجب بمثابرته على المحاولة للعثور على مخرج من المعضلة، وفي الوقت نفسه، بصدقه في كفّه عن الاعتقاد بأنه قد وجد حلاً مُرضيًا. وهكذا، فإنه في **مجمل التحليل النفسي** لم يعد يشير إلى العوامل التي تحدّ قدرة التدميرية (ماعدا دور الأنا الأعلى) ويختتم هذا الموضوع بقوله: «إن هذا هو أحد الأخطار على الصحة التي تواجه البشر في طريق نموهم الثقافي. فالإحجام عن العدوانية غير صحي عمومًا ويُفضي إلى المرض (مما يحزّ في النفس)» (S. Freud, 1938) .[1]

٤-نقد مادة النظرية

علينا أن ننتقل الآن من النقد الملازم لنظرية فرويد في غريزتي الموت والحياة إلى نقد مادة محاجته. وبما أنه قد كُتب قدر كبير حول ذلك فلست بحاجة إلى الدخول في مناقشة كل الأمور المتعلقة بهذا النقد. ولن أذكر إلا الأمور ذات الأهمية الخاصة من وجهة نظري، أو التي لم يعالجها الكتّاب الآخرون معالجة وافية.

ولعل أشد الضعف في افتراض فرويد يكمن سواء هنا أو فيما يتصل ببعض المشكلات الأخرى في أن المنظّر وباني النظام فيه قد تقدّم على الملاحظ السريري. ثم إن فرويد قد كان يسترشد وعلى نحو أحادي الجانب بالتصور **العقلي** بدلاً من التصور **التجريبي**؛ ولو لم يكن كذلك للمَس أن السادية، والتدميرية، والسيادة، وإرادة القوة ظواهر مختلفة نوعيًا كل الاختلاف، ولو أن خط الحدود قد لا يكون

١- أود أن أشير مرة أخرى إلى التبدل في رؤية فرويد بخصوص العلاقة بين الغريزة والحضارة. فعلى أساس نظرية اللبيدو، فإن الحضارة تؤدي إلى كبت المجاهدات **الجنسية** وقد تسبّب **العصاب**. وفي النظرية الجديدة، فإن الحضارة تؤدي إلى الإحجام عن العدوانية وتؤدي إلى المرض الجسدي.

مفروزاً بوضوح دائماً. ولكن فرويد كان يفكر في المصطلحات النظرية المجرَّدة التي تشير ضمناً إلى أن كل ماهو ليس حبّاً إنما هو غريزة موت، مادام على كل ميل أن يندرج تحت المثنوية الجديدة. ونتيجة وضع الميول النفسية المختلفة والمتناقضة جزئياً في صنف واحد تؤدي بالضرورة إلى النتيجة التي مفادها أن المرء لا يفهم أي ميل منها؛ فيُضطر المرء إلى التحدث بلغة مغتربة عن ظواهر لا يمكن للمرء أن يتحدث عنها حديثاً له معنى إلا إذا أشارت كلمات المرء إلى أشكال معيّنة ومختلفة من التجربة.

ومع ذلك فإنه لدليل على قدرة فرويد على تجاوز التزامه بنظرية الغريزة المثنوية أحياناً أن نجد أنه رأى بعض الاختلافات الماهوية في النوعية بين مختلف أشكال العدوانية، ولو أنه لم يفرق بينها بمصطلحات مختلفة. وهذه هي أهم الأشكال التي رآها:

١- دوافع القسوة، المستقلة عن الدافع الجنسي، والقائمة على غرائز حفظ الذات؛ وأهدافها هي إدراك الأخطار الواقعية والدفاع عن نفسها إزاء الهجوم (Freud, 1905). ووظيفة هذا العدوان هي البقاء، أي الدفاع في وجه التهديدات للمصالح الحيوية. وهذا النمط ينسجم تقريباً مع مادعوتُه «العدوان الدفاعي».

٢- رأى فرويد في مفهومه للسادية أحد أشكال التدميرية الذي يثير شهوته فعل التدمير، والإجبار، والتعذيب (على الرغم من أنه فسّر الصفة الخاصة في هذا الشكل من التدميرية على أنها مزيج من الشهوة الجنسية وغريزة الموت غير الجنسية). ومن شأن هذا النمط أن ينسجم مع «السادية».

٣-أخيراً، لقد تبيّن فرويد نمطاً ثالثاً من التدميرية وصفه كما يلي: «ولكن حتى حيث تظهر من دون أي مقصد جنسي، فإننا لا يمكن في أشد الهياج عماءً ألا ندرك أن إشباع الغريزة تصحبه درجة عالية على نحو خارق للعادة من المتعة النرجسية، نتيجة لتقديمها للأنا تحقيق رغباته القديمة في القدرة على كل شيء.»

ليس من السهل القول إلى أية ظاهرة يشير فرويد هنا. إلى تدميرية الشخص النكروفيلي، أم إلى الشكل المتطرف من السادي العضو في جماعة الإعدام التعسّفي أو رعاع النهب. ولعل الصعوبة تكمن في المشكلة العامة للتفريق بين الأشكال المتطرفة من الفورة السادية القادرة على كل شيء والنكروفيليا الخالصة، وهي صعوبة علّقت عليها في النص. ولكن مهما كان الجواب، تظل الحقيقة هي أن فرويد قد تبيّن ظواهر مختلفة، ومع ذلك تخلى عن هذا التفريق عندما اضطر إلى جعل الوقائع السريرية تتوافق مع متطلباته النظرية.

إلى أين وصلنا بعد هذا التحليل لنظرية الموت لفرويد؟ أليست مختلفة ماهوياً عن بنية «الغريزة التدميرية» التي أنشأها الكثيرون من المحللين النفسيين، أو عن إنشاء فرويد السابق، نظرية اللبيدو؟ لقد كنا في سياق هذا البحث قد أشرنا إلى التغيّرات الدقيقة والتناقضات في نشوء نظرية العدوان. ورأينا أن فرويد، في إجابته لأينشتاين، قد استرسل بعض الوقت في تأملات اتجهت إلى جعل موقفه أقل قسوة وأقل قابلية للاستخدام تبريراً للحرب. ولكننا عندما ننظر إلى صرح فرويد النظري مرة أخرى، يصير من الواضح أنه على الرغم من كل ذلك، فإن الصفة الأساسية لغريزة الموت تتبع على نحو ما منطق الأنموذج الهيدروليكي الذي كان فرويد قد طبّقه في الأصل على الغريزة الجنسية. فالمجاهدة من أجل الموت حادثة باستمرار في كل مادة حية، ولا تترك إلا خياراً واحداً: إما أن تقوم بالعمل الصامت على تدمير الإنسان من الداخل، وإما أن تتجه نحو الخارج بوصفها «تدميرية» وتنقذ الإنسان من التدمير الذاتي بتدمير الآخرين. وكما يعبّر فرويد: «فالإحجام عن العدوانية غير صحي عمومًا ويُفضي إلى المرض (مما يحزّ في النفس)» (S. Freud, 1938).

وإذا أجملنا هذا التفحص لنظرية فرويد في غريزتي الحياة والموت، فمن الصعب أن نتحاشى النتيجة التي مفادها أن فرويد قد وقع منذ العام ١٩٢٠ في شرك مفهومين مختلفين ماهويًا، وفي مقاربتين متميزتين لمشكلة الباعث الإنساني. وكان الأول، وهو النزاع بين حفظ الذات والدافع الجنسي، مفهومًا تقليديًا يقوم على أن

القوى الدافعة في الإنسان هي العقل ضد العاطفة، أو الواجب ضد الميل الطبيعي، أو الجوع ضد الحب. وكانت النظرية اللاحقة، وهي القائمة على النزاع بين الميل الطبيعي إلى العيش ضد الميل الطبيعي إلى الموت، مختلفة تمامًا. وبينما يمكن للمرء أن يقول إنها قد قامت على المفهوم الشعبي للحب والكره بوصفها قوتين تدفعان الإنسان، كانت في الواقع أعمق وأشد أصالة؛ وقد اتّبعت تراث الإيروس الأفلاطوني ونظرت إلى أن الحب هو الطاقة التي تربط كل المادة الحية معًا وهو الضامن للحياة. وعلى نحو أخص كذلك، يبدو أنها تتبع فكرة أنباذوقليس Empe-docles وهي أن عالم الكائنات الحية لا يمكن أن يوجد إلا مادام الصراع قائمًا بين القوتين المتعارضتين للخصام ولأفرديت، أو الحب، أي كانت قوى الجذب والصد تعمل معًا. [1]

٥-مبدأ تخفيف التهيّج:

أساس مبدأ اللذة وغريزة الموت

مهما كانت الاختلافات بين نظريتي فرويد القديمة والجديدة، فيجب ألا تجعلنا ننسى أنه كانت هناك بديهية واحدة، ثابتة بعمق في ذهن فرويد منذ أن تتلمذ على فون بروكه von Brüke، وهي مشتركة في كلتا النظريتين. وهذه البديهية، وهي «تخفيف التوتّر» تكمن في أساس تفكير فرويد من ١٨٨٨ إلى بحثه الأخير في نظرية الموت.

وقد سبق لفرويد في البداية الأولى لعمله سنة ١٨٨٨ أن تكلم عن «كمية مستقرة من التهيّج» (S. Freud, 1888). وصاغ المبدأ بوضوح أشد سنة ١٨٩٢ عندما كتب: «**يسعى الجهاز العصبي إلى المحافظة على شيء ثابت في علاقاته**

١-إن أوجه الشبه بين مفهومي أنباذوقليس وفرويد ربما لم تكن حقيقية كما تظهر لدى الوهلة الأولى. فالحب عند أنباذوقليس هو الجذب بين المتغايرين؛ والخصام هو جذب الشبيه إلى الشبيه. وتتطلب المقارنة الجدية تفحص النظام الكلي عند أنباذوقليس» (cf. W. K. C. Guthrie, 1965).

الوظيفية يمكن أن نصفه بأنه "مجموع التهيّج". وهو يضع هذا الشرط موضع العمل بالتخلّص ترابطيًا من كل لملمة حسية للتهيّج Eregungszwachs أو بإفراغه بمحرك مناسب لرد الفعل» (S. Freud, 1892؛ والإبراز مضاف).

وبصورة مماثلة عرّف الصدمة النفسية، كما استخدمها في نظريته في الهستيريا بأنها «**أي انطباع يجد الجهاز العصبي صعوبة في التخلّص منه بوساطة رد الفعل المترابط أو بمحرك رد الفعل يصبح صدمة نفسية**» (S. Freud, 1892؛ والإبراز مضاف).

وفي كتاب **مشروع من أجل علم النفس العلمي** (1895 a) تحدّث فرويد عن مبدأ العطالة في الخلايا العصبية» الذي يجزم أن «الخلايا العصبية تجنح إلى التجرد من «كيو» Q. وعلى هذا الأساس يجب أن تُفهم بنية (الخلايا العصبية) ونموها وكذلك وظائفها» (Freud, 1895 a). وما يقصده فرويد بـ «كيو» Q ليس واضحًا تمامًا. وهو يعرّفه في البحث بأنه «ما يميّز النشاط من الراحة» (Freud, 1895 a)، [١] قاصدًا الطاقة العصبية. [٢] وعلى أية حال، فإنه سيكون من المأمون للمرء أن يقول

١-من أجل البحث المفصّل في معنى «كيو» Q راجع :

J. Strachey, Standard Edition, vol. 3, Appendix C.

٢- راجع ملاحظات ج. ستراتشي للجزء الثالث من «الطبعة النموذجية». ويؤكد ستراتشي أن مفهوم الطاقة النفسية ليس موجودًا في أي مكان من كتاب «مشروع..»، في حين أنه يُستخدم استخدامًا عامًا في كتاب «تفسير الأحلام». وعلاوةً، يجذب ستراتشي الانتباه إلى أن آثار الخلفية القديمة من علم الأعصاب موجودة في كتابات فرويد بعد زمن طويل من قبوله مفهوم الطاقة النفسية- بوصفها متميزة من الطاقة الجسدية؛ وحتى في أواخر ١٩١٥، يتحدث فرويد في بحثه «اللاشعور» عن طاقة «عصبية» وليس عن طاقة نفسية. ويقول ستراتشي إنه، في الواقع، «قد بقي الكثير من صفات كيو Q الرئيسة بشكل ممسوخ حتى آخر كتابات فرويد» (Vol. 1, p. 345). وقد وصل فرويد نفسه إلى النتيجة التي هي أننا لم نعرف الجواب عن سؤال ماهو الـ «كيو» Q. وكتب في **وراء مذهب اللذة**: «إن عدم تحدّد كل بحثنا فيما نصفه بأنه علم النفس التأملي ناشئ ولا ريب عن أننا لا نعرف شيئًا عن طبيعة العملية التهيّجية التي تحدث في عناصر الأنظمة النفسية، وأننا لا نشعر بأنه من المبرَّر تركيب أية فرضية على الذات. ونحن بالتالي نشتغل طوال الوقت على عامل كبير مجهول، ومرغمون على حشره في كل صياغة جديدة» (S. Freud, 1920).

إنه في تلك السنوات الباكرة تكمن بداية ما أطلق عليه فرويد بعدئذ مبدأ «الثبات» أو إشارته الضمنية إلى تخفيض النشاط العصبي إلى مستوى أدنى. وبعد خمس وعشرين سنة أعلن فرويد المبدأ الذي هو بالمصطلحات السيكولوجية كما يلي: «مساعي الجهاز الذهني إلى المحافظة على كمية الهياج فيه **منخفضة ما أمكن الانخفاض أو على الأقل المحافظة عليها ثابتة**» (S. Freud, 1920؛ والإبراز مضاف). ويتحدث فرويد هنا عن المبدأ نفسه- «الثبات» أو «العطالة» بوصفهما صيغتين: صيغة المحافظة على الهياج ثابتًا، والأخرى تخفيضه إلى أدنى مستوى ممكن. وقد استخدم فرويد في بعض الأحيان أي مصطلح من هذين المصطلحين للدلالة على إحدى صيغتي المبدأ الأساسي أو الأخرى.[1]

ومبدأ اللذة قائم على مبدأ الثبات. فالهياج اللبيدي الناتج كيميائيًا يحتاج إلى أن ينخفض إلى مستواه العادي؛ وهذا المبدأ في المحافظة على التوتّر ثابتًا يحكم الأداء الوظيفي للجهاز العصبي. والتوتّر الذي ارتفع فوق المستوى المعتاد يتم الشعور بأنه «كراهة»، وتخفيضه إلى المستوى الثابت بأنه «لذة». «إن الوقائع التي سبّبت لنا أن نعتقد بهيمنة مبدأ اللذة تجد تعبيرها كذلك في الفرضية التي مفادها أن الجهاز الذهني يسعى إلى المحافظة على كمية الهياج فيه منخفضة ما أمكن الانخفاض، أو على الأقل المحافظة عليها ثابتة... **فمبدأ اللذة ينجم عن مبدأ الثبات**» (S. Freud, 1920؛ والإبراز مضاف). وإذا لم يفهم المرء بديهية فرويد في تخفيض التوتّر، فإنه لن يفهم موقفه، الذي لم يكن متمحوراً حول المجاهدة من أجل اللذة في مذهب اللذة، بل متمحوراً حول افتراض الضرورة الفيزيولوجية لتخفيض التوتّر ومعه- من الناحية النفسية- تخفيض الكراهة. ومبدأ اللذة قائم

١- إن ج. باولبي، في مناقشته الممتازة لهذه المشكلة، يقول إن فرويد كان في الأصل يعدّ مبدأ العطالة أوليًا ومبدأ الثبات ثانويًا. وقد أفضت بي قراءة المقاطع ذات الصلة بالموضوع إلى افتراض مختلف يبدو كذلك متوافقًا مع تفسير ج. ستراتشي (Cf. J. Bowlby, 1969).

على المحافظة على الهياج في أدنى مستوى؛ فهو في هذه الصيغة يصبح الأساس لغريزة الموت. وكما أعرب فرويد عن ذلك:

إن الميل المهيمن في الحياة الذهنية، وربما في الحياة العصبية عمومًا، هو السعي إلى تخفيض التوتّر الناشئ عن المثيرات، أو المحافظة عليه ثابتًا، أو إزالته (مبدأ النرڤانَه، باستعارة المصطلح من قانون بربارة Barbara Law)- وهو ميل يجد التعبير في مبدأ اللذة؛ وإقرارنا بهذه الحقيقة الواقعة هو من أقوى الأسباب للاعتقاد بوجود غرائز الموت. (S. Freud, 1920)

يصل فرويد الآن إلى موقف يكاد يتعذّر الدفاع عنه؛ فيتماثل مبدأ الثبات، والعطالة والنرڤانَه؛ ومبدأ تخفيض التوتّر يحكم الغريزة الجنسية. (على أساس مبدأ اللذة) وهو في الوقت ذاته ماهية غريزة الموت. وبالنظر إلى أن فرويد ينسب إلى غريزة الموت لا تدمير الذات وحسب بل كذلك التدمير الموجّه ضد الآخرين، فإنه يصل إلى المفارقة التي فحواها أن مبدأ اللذة والغريزة التدميرية يدينان بوجودهما للمبدأ نفسه. ومن الطبيعي تمامًا أن فرويد لم يستطع أن يكون راضيًا بفكرة كهذه، ولا سيما بما أنها تتوافق مع الأنموذج الأحادي للقوى المتصارعة بدلاً من الأنموذج المثنوي الذي لم يتخلّ فرويد عنه. وبعد أربع سنوات كتب في «المشكلة الاقتصادية للمازوخية»:

ولكننا من دون تردّد ماثلنا مبدأ اللذة- الكراهة مع مبدأ النرڤانَه... ومبدأ النرڤانه (ومبدأ اللذة الذي من المفترض أن يتماثل معه) من شأنه أن يكون كليًا في خدمة غرائز الموت، التي هدفها هو تسيير اضطراب الحياة في استقرار الحالة العضوية، وأن تكون له وظيفة إعطاء التحذيرات من متطلّبات غرائز الحياة- الليبدو- التي تحاول أن تشوّش الوجهة المقصودة للحياة. ولكن رأيًا كهذا لا يمكن أن يكون صحيحًا. (S. Freud, 1924)

ولكي يثبت فرويد عدم صحة هذا الرأي يتّخذ خطوة هي أن الملاءمة العادية للغرض من شأنها أن تكون مستحسنة من البداية الأولى. وقد كتب:

يبدو أننا في سلسلة أحاسيس التوتّر يكون لدينا شعور مباشر بازدياد كميات المثيرات وتناقصها، ولا يمكن الشك في وجود التوتّرات اللذيذة والإرخاءات الكريهة للتوتّر. وحالة التهيّج الجنسي هي المثال الأكثر إثارة للانتباه على زيادة اللذة في المثيرات التي هي من هذا النوع، ولكنها ليست المثال الوحيد بالتأكيد.

ولذلك لا تمكن الإشارة إلى اللذة والكراهة على أنهما زيادة أو نقصان في الكمية (التي نصفها بأنها «التوتّر الناشئ عن المثير»، برغم أنه من الواضح أن فيهما قدرًا كبيرًا من الارتباط بهذا العامل. ويظهر أنهما يعتمدان، لا على هذا العامل الكمي، بل على خصيصة فيه لا يمكن أن نصفها بأنها خصيصة كيفية. وإذا كنا قادرين على أن نقول ماهذه الخصيصة الكيفية، فلا بد أننا تقدمّنا كثيرًا في علم النفس. وربما تكون الإيقاعَ، أي التتابع الزمني للتغيّرات، الذي يعلو ويهبط في كيفية المثير. لا ندري. (S. Freud, 1924)

وعلى أية حال، لم يتابع فرويد هذا الفكر بعد ذلك، مع أنه بدا غير راض عن هذا التفسير. وبدلاً من ذلك قدّم فكرًا آخر كان المقصود منه التغلّب على خطر مماثلة اللذة مع التدمير. وقد تابع:

مهما يكن هذا الأمر، علينا أن نتبيّن أن مبدأ النرفانة، بانتمائه إلى غريزة الموت، قد خضع لتعديل في الكائنات الحية التي من خلالها قد أصبح مبدأ اللذة؛ وسوف نتحاشى من الآن فصاعدًا أن نعتبر المبدأين مبدأ واحدًا... فمبدأ النرفانه يعبر عن اتجاه غريزة الموت؛ ومبدأ اللذة يمثّل مطالب الليدو؛ وتعديل مبدأ اللذة، أي مبدأ *الواقع* يمثّل تأثير العالم الخارجي. (S. Freud, 1924)

يبدو هذا التفسير أمرًا نظرياًوليس بالأحرى تفسيرًا للجزم بأن مبدأ اللذة ومبدأ الموت ليسا متماثلين.

وفي حين أن محاولة فرويد للتخلّص من الموقف القائم على المفارقة، غير ناجحة، حسب رأيي، على الرغم من أنها الأشد ألمعية، فإن المشكلة الأساسية في

هذه المسألة ليست مسألة هل نجح أم لا. بل هي أن التفكير السيكولوجي الكلي عند فرويد من البداية الأولى إلى النهاية تسيطر عليه الحقيقة المقررة التي هي أن مبدأ تخفيض التهيّج هو المبدأ الذي يحكم كل الحياة النفسية والعصبية.

ونحن نعرف مصدر هذه الحقيقة المقررة. وقد استشهد فرويد بـ «ج. ت. فشنر». (1873) G. T. Fechner بوصفه أبًا لهذه الفكرة. وقد كتب:

على أننا لا نستطيع أن نظل غير مبالين باكتشاف أن باحثًا له فهم ثاقب مثل ج. ت. فشنر قد ارتأى رأيًا في موضوع اللذة والكراهة يتطابق مع الرأي الذي فرضه علينا العمل التحليلي. وقول فشنر موجود ويتضمنه كتاب صغير، Einige Ideen zur Schöpfungs- und Entwicklungeschichte der Organismen, 1873, (Part XI, Supplment, 94) وهو ينصّ على مايلي: «بالنظر إلى أن للدوافع اللاشعورية بعض العلاقة دائمًا باللذة والكراهة، يمكن كذلك أن يُنظر إلى أن اللذة والكراهة لهما علاقة نفسية- بدنية بشروط الاستقرار وعدم الاستقرار. وهذا يوفّر الأساس لنظرية أقترح الخوض فيها بالتفصيل في موضع آخر. ووفقًا لهذه الفرضية، فإن كل حركة نفسية- جسدية ترتفع فوق حد الوعي تلازمها لذة بنسبة تقارب الاستقرار التام عندما تتعدّى حدًا معينًا، وتلازمها الكراهة بنسبة تحيد عن الاستقرار التام عندما تتعدّى حدًا معينًا، في حين يوجد بين الحدّين، اللذين يمكن أن يوصفا بأنهما الحدّان الكيفيان للذة، والكراهة، هامش معين من عدم الاكتراث الجمالي...» (١)

والوقائع التي كانت السبب في اعتقادنا بهيمنة اللذة في الحياة الذهنية تجد تعبيرها كذلك في الفرضية القائلة بأن الجهاز الذهني يسعى إلى المحافظة على كمية

١ - صرّح فرويد في «الأنا والهو»: «إذا صح أن مبدأ فشنر في الثبات يحكم الحياة، وهو يتألف من النزول المستمر نحو الموت...» (S. Freud. 1923). وهذا «النزول نحو الموت» ليس موجودًا في قول فشنر، إنه صيغة فرويد في توسيع مبدأ فشنر.

الهياج فيه في أدنى مستوى ممكن أو على الأقل إلى المحافظة عليها ثابتة. وهذه الفرضية اللاحقة هي مجرد طريقة أخرى في الإعراب عن مبدأ اللذة؛ لأنه إذا كان عمل الجهاز الذهني موجّهًا نحو المحافظة على كمية التهيّج منخفضة، فإن أي شيء يُنتظر منه أن يزيد تلك الكمية لابد أن يُعتقد أنه مضاد لأداء الجهاز وظيفته، أي أنه كريه. ومبدأ اللذة ينجم عن مبدأ الثبات؛ وفعليًا فإن مبدأ اللذة قد تمّ الاستدلال عليه من الوقائع التي أرغمتنا على تبنّي مبدأ اللذة. وعلاوةً، فإن البحث الأشد تفصيلاً سوف يُظهر أن الميل الذي يُنسب هكذا إلى الجهاز الذهني يندرج بوصفه حالة خاصة تحت مبدأ فشنر وهو «الميل نحو الاستقرار»، الذي أدخل أحاسيس اللذة والكراهة في علاقة معه. (S. Freud, 1920) .

ولكن بشنر لم يكن الممثّل الوحيد لمبأ تخفيض التوتّر مطلقًا. ومفهوم الطاقة والمحافظة على الطاقة، بمحاكاته مفهوم الطاقة في الفيزياء، أصبح شعبيًا عند الفيزيولوجيين. وإذا كان فرويد قد تأثّر بهذه النظريات الفيزيائية، فقد كان من شأنها أن تبدو متضمنة أن غريزة الموت لم تكن إلا حالة خاصة من القانون الفيزيائي العام. ولكن الأغلوطة في استنتاج كهذا تصبح واضحة إذا نظرنا إلى الاختلاف بين المادة غير العضوية والمادة العضوية. وقد عبّر رنيه دوبو عن هذه المسألة بإيجاز شديد:

وفقًا لأحد أهم قوانين الفيزياء، فإن الميل العام بالنسبة إلى كل شيء في عالم المادة هو النزول إلى الأسفل، هو الهبوط إلى أدنى مستوي ممكن من التوتّر، مع الفقدان الدائم للطاقة الكامنة وللتنظيم. وخلافًا لذلك، فإن الحياة تخلق من عشوائية المادة النظام وتحافظ عليه. ولفهم الدلالة العميقة لهذه الحقيقة لا يحتاج المرء إلا أن يفكر فيما يحدث لأي كائن حي- أصغر الكائنات الحية. وأكبرها وأكثرها تطورًا- عندما يموت أخيرًا (R. Dubos, 1962).

وقد انتقد الكاتبان الإنجليزيان ر. كاب (1931) R. Kapp و «ل. س. پنروز L. S. Penrose محاولات بعض المؤلفين ربط النظرية الفيزيائية بغريزة الموت نقدًا

شديد الإقناع بحيث على المرء «أن يتخلّص أخيراً من فكرة أنه يمكن أن تكون هناك أية علاقة بين الإنتروبي Entropy (مقياس الطاقة غير المستفادة في نظام دينامي حراري) وغريزة الموت.»[1]

ولا تهمّ كثيراً مسألة هل كان في ذهن فرويد الصلة بين الإنتروبي وغريزة الموت أم لا. حتى إن لم تكن في ذهنه، فإن المبدأ الكلي للتهيّج وتخفيض التوتّر إلى أدنى مستوى ممكن يعتمد على الغلط الأساسي الذي يشير إليه دوبو في الشاهد الوارد أعلاه: الغلط في جهل الاختلاف الجوهري بين الحياة وعدم الحياة، بين «الكائنات الحية» و«الأشياء».

وللانصراف عن القوانين التي لا تكون صحيحة إلا بالنسبة إلى المادة الحية، جرى في السنوات اللاحقة تشبيه كان المفضّل على التشبيه بـ «الإنتروبي»، وأقصد به «مفهوم المحافظة على التوازن في التمثيل العضوي» Homeostasis كما قدّمه وولتر ب. كانون (1963) Walter B. Cannon. ولكن جونز وسواه ممن يرون في هذا المفهوم تشبيهاً بمبدأ النرڤانة عند فرويد يخلطون المبدأين. ففرويد يتحدث عن مبدأ إزالة التهيّج - أو تخفيضه. أما كانون، والكثيرون من الباحثين اللاحقين، فيتحدثون عن ضرورة المحافظة على بيئة داخلية مستقرة نسبياً. ويتضمن هذا الاستقرار أن البيئة الداخلية تنزع إلى أن تظل مستقرة، لا إلى تخفيض الطاقة إلى أدنى حد. ومن الواضح أن هذا الخلط ينشأ بسبب غموض كلمتي «الاستقرار» و «الثبات». ويمكن لمثال بسيط أن يوضح هذه الأغلوطة. فإذا كانت درجة حرارة الغرفة يجب أن تحافظ على مستوى مستقر أو ثابت بوساطة جهاز تنظيم الحرارة، فإن ذلك يعني أنها يجب ألا تكون أعلى أو أدنى من مستوى معين؛ ولكن إذا كان

1- E. Jones (1957).

وراجع الكتابات التي يستشهد بها جونز، وخصوصاً:

S. Bernfield and S. Feitelberg (1930); cf. also K. H. Pribram (1962).

الميل متجهًا إلى أن تكون درجة الحرارة في أدنى مستوى، فإن المسألة ستكون مختلفة كل الاختلاف؛ وفي الواقع، فإن مبدأ الاستقرار في تنظيم الحرارة يناقض مبدأ النرڤانة في التخفيض الكلي أو النسبي للطاقة.

ويبدو أن ثمت شكًا ضئيلاً في أن أساس الحقيقة المقررة عند فرويد في تخفيض التوتّر، الذي هو الأصل لكل من مبدأ اللذة وغريزة الموت، يدين بوجوده للتفكير المعهود في المادية الميكانيكية الألمانية. إذ لم تكن التجربة السريرية هي التي أوحت لفرويد بهذا المفهوم؛ وتعلّق فرويد العميق بالنظريات الفيزيولوجية عند معلميه قد أثقل كاهله وكاهل التحليل النفسي بعدئذ بهذه «الحقيقة المقررة». وقد حملت الملاحظة السريرية وما نتج عنها من صياغة نظرية على الدخول قسرًا في الإطار الضيق للتوتّر، الذي لا تمكن مساواته بثراء المعلومات الاستدلالية التي تُظهر أن الإنسان، في كل الأعمار، يَنشد الإهاجة، والإثارة، وعلاقات الحب والصداقة، وهو تواق إلى زيادة ارتباطه بالعالم؛ وباختصار، يبدو أن الإنسان يحرضه مبدأ زيادة التوتّر كما يحرضه مبدأ تخفيض التوتّر. ولكن على الرغم من أن المحللين النفسيين الكثيرين قد تأثّروا بالصحة المحدودة لتخفيض التوتّر، فإنهم لم يغيروا موقفهم الأساسي وحاولوا التخبّط في خليط غريب من مفهومات فرويد النفسية التأملية غير القائمة على التجارب ومنطق معلوماتهم السريرية.

ولعل لغز خداع الذات عند فرويد بخصوص صحة مفهوم غريزة الموت لا يزال يتطلّب عنصرًا آخر لحله. فكل قارئ مهتم لأعمال فرويد يجب أن يكون مدركًا كذلك كم تعاملَ بتجريبية وحذر مع أبنيته النظرية الجديدة عندما قدّمها أول مرة. ولكن كلما مر الوقت، ازداد تحوّل البنيات النظرية إلى نظريات تُبنى عليها أبنية ونظريات جديدة. وكان فرويد المنظّر مدركًا للمشروعية المشكوك فيها للكثير من إنشاءاته. فلماذا نسي هذه الشكوك الأصلية؟ من الصعب الجواب عن هذا السؤال؛ وقد يكون الجواب الممكن الوحيد موجودًا في دوره زعيمًا لحركة التحليل

النفسي. [١] والذين تجرؤوا من طلابه على نقد جوانب أساسية في نظريته تركوه أو تمّ إخراجهم بطريقة أو بأخرى. والذين بنوا الحركة كانوا في معظمهم من الناس العابرين، من وجهة قدرتهم النظرية، وكان من الصعب عليهم أن يتابعوا فرويد عبر التغيرات النظرية الأساسية. وكانوا بحاجة إلى عقيدة جازمة مسلّم بها يعتقدون بها ويمكن أن ينظموا الحركة حولها. [٢] وهكذا فإن فرويد العالم قد أصبح إلى حد ما أسير فرويد زعيم الحركة؛ أو لنعبّر عن ذلك بصورة مختلفة، صار فرويد المعلّم أسير تلامذته الذين كانوا أوفياء ولكنهم غير مبدعين.

1- cf. E. Fromm (1959).

٢- يثبت صحة ذلك رد فعل أكثرية الفرويديين على غريزة الموت. فإنهم لم يستطيعوا أن يتابعوا هذا التأمل الجديد ووجدوا مخرجاً بصياغة أفكار فرويد حول العدوان على أساس نظرية الغريزة القديمة.

ببليوغرافيا

لدواعي الحيّز فإن هذه الببليوغرافيا لاتُدرج كل المواد التي تم الرجوع إليها، ولكنها تقتصر، مع استثناءات قليلة، على تلك الكتب والبحوث المشار إليها في المتن أو الحواشي.

ABRAMOVA, Z. A. (1967). *Palaeolithic Art in the U.S.S.R.*, trans. Catherine Page. Arctic Anthropology, vol. 4. Moscow-Leningrad: Akademiia Nauk SSSR. (Quoted in A. Marschack, ed., 1972, q.v.)

ACKERMANN, J. (1970). *Heinrich Himmler als Ideologe*. Göttingen: Musterschmidt.

ACKERT, K. (1967). (Quoted in B. Kaada, 1967, q.v.)

ADORNO, T. W., FRENKEL-BRUNSWIK, E., LEVINSON, D. F., and SANFORD, R. N. (1950). *The Authoritarian Personality*. New York: Harper & Bros.

ALANBROOKE, Viscount [ALAN FRANCIS BROOKE]. (1957). *The Turning of the Tide*. London: Collins.

ALEE, W. C., NISSEN, H. W., and NIMKOFF, M. F. (1953). A Reexamination of the Concept of Instinct. *Psych. Rev.* 60 (5): 287–97.

ALEXANDER, F. (1921). Metapsychologische Betrachtungen. *Intern. Ztsch. f. Psychoanalyse*. 6: 270–85. (Quoted in E. Jones, 1957, q.v.)

ALTMAN, J. (1967). Effects of Early Experience on Brain Morphology. In *Malnutrition, Learning, and Behavior*, ed. N. S. Scrimshaw and J. E. Gordon. Cambridge: M.I.T. Press, 1972. (Quoted in G. C. Quarton, T. O. Melnechuk, and F. O. Schmitt, 1967, q.v.)

ALTMAN, J. (1967a). Postnatal Growth and Differentiation of the Mammalian Brain, with Implications for a Morphological Theory of Memory. In *The Neurosciences: A Study Program*, ed. G. C. Quarton, T. O. Melnechuk, and F. O. Schmitt. New York: Rockefeller Univ. Press, 1967.

ALTMAN, J., and DAS, C. D. (1964). Autobiographic Examination of the Effects of Enriched Environment on the Rate of Glial Multiplication in the Adult Rat Brain. *Nature*. 204: 1161–3. (Quoted by J. Altman, in G. C. Quarton, T. O. Melnechuk, and F. O. Schmitt, 1967, q.v.)

ALTMAN, S. A. (1960). A Field Study of the Sociobiology of Rhesus Monkeys, *Macaca mulata*. Thesis, Harvard Univ. Unpublished.

AMES, O. (1939). *Economic Annuals and Human Cultures*. Cambridge: Botanical Museum of Harvard Univ.

AMMACHER, P. (1962). On the Significance of Freud's Neurological Background. In *Psychological Issues*. Seattle: Univ. of Washington Press.

ANDERSON, E. (1967). *Plants, Man and Life*. Rev. ed. Berkeley: Univ. of California Press. (1st ed. Boston: Little, Brown, 1952.)

ANDRESKI, S. (1964). Origins of War. In *The Natural History of Aggression*, ed. J. D. Carthy and F. J. Ebling. New York: Academic.

ANDRESKI, S. (1972). *Social Science as Sorcery*. London: A. Deutsch.

ANGRESS, W. T., and SMITH, B. F. (1959). Diaries of Heinrich Himmler's Early Years. *Journal of Modern History*. 51 (Sept.)

ARAMONI, A. (1965). *Psicoánalisis de la Dinámica de un Pueblo (México, Tierra de Hombres)* [Psychoanalysis of the dynamics of a people (Mexico, land of men)]. Mexico: B. Costa-Amic, Editorial.

ARDREY, R. (1961). *African Genesis*. New York: Atheneum. London: Collins.

ARDREY, R. (1966). *The Territorial Imperative: A Personal Inquiry into the Animal Origins of Property and Nations*. New York: Atheneum. London: Collins.

AVIS, V. See Washburn, S. L. (1958), joint author.

BACHOFEN, J. J. (1967). *Myth, Religion and the Mother Right: Selected Writings of Johann Jakob Bachofen*, ed. J. Campbell; trans. R. Manheim. Princeton: Princeton Univ. Press. (Original ed. *Das Mutterrecht*, 1861.)

BANKS, C. See Haney, C. In press, joint author.

BARNETT, S. A. (1958). An Analysis of Social Behavior in Wild Rats. *Proc. Zool. Soc. Lond.* 130: 107–52.

BARNETT, S. A. (1958a). Experiments on 'Neophobia' in Wild and Laboratory Rats. *Brit. Jour. Med. Psychol.* 49: 195–201.

BARNETT, S. A., and SPENCER, M. M. (1951). Feeding, Social Behaviour and Interspecific Competition in Wild Rats. *Behaviour*. 3: 229–42.

BARTELL, G. T. (1971). *Group Sex*. New York: Peter H. Wyden.

BEACH, F. A. (1945). Bisexual Mating Behavior in the Male Rat: Effects of Castration and Hormone Administration. *Physiol. Zool.* 18: 390.

BEACH, F. A. (1955). The Descent of Instinct. *Psych. Rev.* 62 (6): 401–10.

BEEMAN, E. A. (1947). The Effect of Male Hormone on Aggressive Behavior in Mice. *Physiol. Zool.* 20: 373.

BEG, M. A. See Southwick, C. H. (1965), joint author.

BELAV, J. (1960). *Trance in Bali*. New York: Columbia Univ. Press.

BENDER, L. (1942). Childhood Schizophrenia. *Nerv. Child.* 1: 138–40.

BENEDICT, R. (1934). *Patterns of Culture*. New York: New American Library, Mentor. London: Routledge.

BENEDICT, R. (1959). The Natural History of War. In *An American Anthropologist at Work*, ed. M. Mead. Boston: Houghton Mifflin.

BENJAMIN, W. (1968). The Work of Art in the Age of Mechanical Reproduction. In *Illuminations* by W. Benjamin. New York: Harcourt Brace Jovanovich. London: Cape.

BENNETT, E. L., DIAMOND, M. C., KRECH, D., and ROSENZWEIG, M. R. (1964). Chemical and Anatomical Plasticity of the Brain. *Science*. 146: 610–19. (Quoted by J. Altman in G. C. Quarton, T. O. Melnechuk, and F. O. Schmitt, 1967, q.v.)

BERGOUNIOUX, F. M. (1964). Notes on the Mentality of Primitive Man. In *Social Life of Early Man*, ed. S. L. Washburn. Chicago: Aldine.

BERKOWITZ, L. (1962). The Frustration-Aggression Theory Revisited. In *Aggression: A Social Psychological Analysis* by L. Berkowitz. New York: McGraw-Hill.

BERKOWITZ, L. (1967). Readiness or Necessity? *Cont. Psychol.* 12: 580–83

BERKOWITZ, L (1969). The Frustration-Aggression Hypothesis Revisited. In *The Roots of Aggression: A Re-examination of the Frustration-Aggression Hypothesis*, ed. L. Berkowitz. New York: Atherton.

BERNFELD, S. (1934). Ueber die Einteilung der Triebe. *Imago*. 21.

BERNFELD, S. and FEITELBERG, S. (1930). Der Entropiesatz und der Todestrieb [Principles of Entropy and the death instinct]. *Imago.* 17: 137–206. (Quoted in E. Jones, 1957, q.v. See also R. Kapp, 1931.)

BERTALANFFY, L. von (1956). Comments on Aggression. Paper presented at the 1956 Winter Meeting of the American Psychoanalytic Association, New York City.

BERTALANFFY, L. von (1968). *General System Theory.* New York: G. Braziller. London: Allen Lane; Penguin Books.

BETTELHEIM, B. (1960). *The Informed Heart: Autonomy in a Mass Age.* New York: Macmillan Free Press.

BEXTON, W. H., HERON, W., and SCOTT, T. H. (1954). Effect of Decreased Variation in the Sensory Environment. *Can. Jour. of Psych.* 8 (2): 10–76.

BINGHAM, H. C. (1932). *Gorillas in Native Habitat.* Publication No. 426. Washington, D.C.: Carnegie Inst. of Washington.

BIRD, H. G. See Clark, G. (1946), joint author.

BLANC, A. C. (1961). Some Evidence for the Ideologies of Early Man. In *Social Life of Early Man,* ed. S. L. Washburn. Chicago: Aldine.

BLEULER, E. (1951). *Autistic Thinking. Organization and Pathology of Thought.* New York: Columbia Univ. Press.

BLEULER, E. (1969). *Lehrbuch der Psychiatrie.* 11th ed. Heidelberg: Springer-Verlag.

BLISS, E. L., ed. (1968). *Roots of Behavior.* New York: Hafner.

BOULDING, K. E. (1967). Review in *Peace and War Report.* (Mar.): 15–17.

BOURKE, J. G. (1913). *Der Unrat in Sitte, Brauch, Blauben und Gewohnheitrecht der Völker* [Scatalogical rites of all nations] with an Introduction by S. Freud. Leipzig: Ethnologischer Verlag.

BOWLBY, J. (1958). The Nature of the Child's Tie to His Mother. *Int. Journ. of Psychoan.* 39: 350–73.

BOWLBY, J. (1969). *Attachment and Love.* International Psychoanalytic Library. London: Hogarth.

BOWLBY, J. See Durbin, E. F. M. (1939), joint author.

BRANDT, H. (1970). *The Search for a Third Way.* Garden City: Doubleday.

BRAUN, E. (1935). *Diaries.* Alexandria: Archives.

BROSSE, J. (1972). *Hitler avant Hitler.* Paris: Fayard.

BRYANT, J. (1775). *Mythology.* Vol. 2. London. (quoted in J. G. Bourke, 1913, q.v.)

BUCKE, R. M. (1946). *Cosmic Consciousness*, ed. G. M. Acklom. Rev. ed. New York: Dutton.

BULLOCK, A. (1965). *A Study in Tyranny*. (Quoted in W. Maser, 1971, q.v.)

BULLOCK, T. H. (1961). The Origins of Patterned Nervous Discharge. *Behaviour*. 17: 48–59.

BURCKHARDT, C. (1965) (Quoted in P. E. Schramm. 1965, q.v.)

BURCKHARDT, K. J. (1960). *Meine Danziger Mission*, 1937–39. (Quoted in J. Ackermann, 1970, q.v.)

BURTON, A. (1967). The Meaning of Psychotherapy. *Jour. of Existentialism*. 29.

BUSS, A. H. (1961). *The Psychology of Aggression*. New York: Wiley.

CABOT, C. (Quoted in C. and W. M. S. Russell, 1968 q.v.)

CADOGAN, Sir A. (1972). *The Diaries of Sir Alexander Cadogan 1938–1945*, ed. David Dilks. New York: Putnam. London: Cassell.

CALDWELL, M. (1968). *Indonesia*. New York: Oxford Univ. Press.

CALHOUN, J. B. (1948). Mortality and Movement of Brown Rats (*Rattus norvegicus*) in Artificially Supersaturated Populations. *Jour. of Wildlife Management*. 12: 167–72.

CAMPBELL, B. G. (1966). *Human Evolution*. Chicago: Aldine. London: Heinemann.

CANNON, W. B. (1963). *Wisdom of the Body*. Rev. ed. New York: Norton.

CARPENTER, C. R. (1934). A Field Study of the Behavior and Social Relations of Howling Monkeys. *Comp. Psych. Monog.* 10 (48).

CARRIGHAR, S. (1968). War Is Not in Our Genes. In *Man and Aggression*, ed. M. F. A. Montagu, New York: Oxford Univ. Press.

CARTHY, J. D., and EBLING, F. J., eds. (1964). *The Natural History of Aggression*. New York: Academic.

CHILDE, V. G. (1936). *Man Makes Himself*. London: Watts.

CHOMSKY, N. (1959). Review of *Verbal Behavior* by B. F. Skinner. *Language*. 35: 26–58.

CHOMSKY, N. (1971). The Case Against B. F. Skinner. *The New York Review of Books*. (30 Dec.)

CHURCHMAN, C. W. (1968). *The System Approach*. New York: Dell, Delta Books.

CLARK, G., and BIRD, H. G. (1946). Hormonal Modification of Social Behavior. *Psychosom. Med. Jour.* 8: 320–31. (Quoted in J. P. Scott, 1958, q.v.)

CLARKE, G. (1969). *World Prehistory.* New York: Cambridge Univ. Press.

CLAUSEWITZ, K. von (1961). *On War*, ed. F. N. Maude; trans. J. J. Graham. Rev. ed. New York: Barnes & Noble. London: Routledge. (1st ed. *Vom Kriege*, 1833) Chapter 2, section 17.

COBLINER, G. See Spitz, R. (1965), joint author.

COLE, S. (1967). *The Neolithic Revolution.* 7th ed. London: Trustees of the British Museum.

COLLIAS, N. (Quoted in C. and W. M. S. Russell, 1968, q.v.)

DARWIN, C. (1946). *The Descent of Man.* London: Watts. (1st ed., 1872.) *The Origin of Species and the Descent of Man.* New York: Modern Library, 1936.

DAS, G. O. See Altman, J. (1964), joint author.

DAVIE, M. R. (1929). *The Evolution of War.* Port Washington, N.Y.: Kennikat.

DEETZ, J. (1968). Discussion remarks. In *Man, the Hunter*, ed. R. B. Lee and I. DeVore. Chicago: Aldine.

DELGADO, J. M. R. (1967). Aggression and Defense Under Cerebral Radio Control. In *Aggression and Defense: Neural Mechanisms and Social Patterns.* Brain Function, vol. 5, ed. C. D. Clemente and D. B. Lindsley. Berkeley: Univ. of California Press.

DELGADO, J. M. R. (1969). *Physical Control of the Mind.* World Perspective Series, ed. R. N. Anshen. New York: Harper & Row.

DEMENT, W. (1960). The Effect of Dream Deprivation. *Science.* 131: 1705–7.

DE RIVER, J. P. (1956). *The Sexual Criminal: A Psychoanalytic Study.* 2nd ed. Springfield, Ill.: C. C. Thomas. (Quoted in H. von Hentig, 1964, q.v.)

DEVORE, I., ed. (1965). *Primate Behavior: Field Studies of Primates and Apes.* New York: Holt, Rinehart & Winston.

DEVORE, I. (1970). (Quoted in D. Ploog and T. O. Melnechuk, 1970, q.v.)

DEVORE, I. See Hall, K. R. L. (1965), joint author.

DEVORE, I. See Lee, R. B. (1968), joint author.

DEVORE, I. See Washburn, S. L. (1971), joint author.

DOANE, B. K., MAHATOO, W., HERON, W., and SCOTT, T. H.

(1959). Changes in Perceptual Function after Isolation. *Can. Jour. of Psych.* 13 (3): 210–19.

DOBZHANSKY, T. (1962). *Mankind Evolving: The Evolution of the Human Species.* New Haven: Yale Univ. Press.

DOLLARD, J., MILLER, N. E., MOWRER, O. H., SEARS, G. H., and SEARS, R. R. (1939). *Frustration and Aggression.* New Haven: Yale Univ. Press.

DUBOS, R. (1962). *The Torch of Life.* Credo Series, ed. R. N. Anshen. New York: Simon & Schuster.

DUNAYEVSKAYA, R. (1973). *Philosophy and Revolution.* New York: Dell.

DURBIN, E. F. M., and BOWLBY, J. (1939). *Personal Aggressiveness in War.* New York: Columbia Univ. Press.

DURKHEIM, E. (1897). *Le Suicide.* Paris: Librarie Félix Alcan.

DUYVENDAK, J. J. L. (1928). Introduction. In *The Book of Lord Shang,* trans. J. J. L. Duyvendak. London. (Quoted in S. Andreski, 1964, q.v.)

EBLING, F. J. See Carthy, J. D. (1964), joint author.

EGGAN, D. (1943). The General Problem of Hopi Adjustment. *Amer. Anthropologist.* 45: 357–73.

EGGER, M. D., and FLYNN, J. P. (1963). Effects of Electrical Stimulation of the Amygdala on Hypothalamically Elicited Attack Behavior in Cats. *Jour. Neuro. Physiol.* 26: 705–20. (Quoted in B. Kaada, 1967, q.v.)

EIBL-EIBESFELDT, I. (1972). *On Love and Hate: The Natural History of Behavior Patterns,* trans. G. Strachan, New York: Holt, Rinehart & Winston.

EISELEY, L. (1971). The Uncompleted Man. In *In the Name of Life,* ed. B. Landis and E. S. Tauber. New York: Holt, Rinehart & Winston.

EISENBERG, L. (1972). The Human Nature of Human Nature. *Science.* 179 (14 Apr.)

ENGELS, F. (1891). *The Origin of Family, Private Property and the State, in the Light of the Researches of Lewis H. Morgan.* New York: Int. Univs. Press, 1942.

ENGELS, F. See Marx, K., joint author.

ERIKSON, E. H. (1964). *Childhood and Society.* Rev. ed. New York: Norton. London: Hogarth Press, Harmondsworth: Penguin Books.

ERVIN, F. R. See Mark, V. H. (1970), joint author.

FABING, H. D. (1956). On Going Berserk: A Neurochemical Enquiry. *Science Monthly*. 83: 232–7.
FANTZ, R. L. (1958). Pattern Vision in Young Infants. *Psych. Rec.* 8: 43–7. (Quoted in D. E. Schecter, 1973, q.v.)
FECHNER, G. T. (1873). *Einige Ideen zur Schopfungs – und Entwicklungsgeschichte der Organismen*. Pt 11, supp. 94.
FENICHEL, O. (1953). A Critique of the Death Instinct. In *Collected Papers*. 1st series. New York: Norton.
FISCHER, F. (1967). *Germany's Aims in the First World War*. New York: Norton. London: Chatto & Windus. (1st ed. *Der Griff nach der Weltmacht*. Düsseldorf: Droste Verlag, 1961.)
FLAUBERT, G. (1964). *The Legend of St. Julian the Hospitaler*. New York: New American Library.
FLETCHER, R. (1968). *Instinct in Man*. New York: Int. Univs. Press. London: Allen & Unwin. (1st ed. 1957.)
FLINT, R. W., ed. (1971). *Selected Writings of F. T. Marinetti*. New York: Farrar, Strauss & Giroux.
FLYNN, J. P. See Egger, M. D. (1963), joint author.
FOERSTER, H. von (1963). Logical Structure of Environment and Its Internal Representation. In *Internal Design Conference, Aspen, 1962*, ed. A. E. Eckerstrom. Zeeland, Mich.: Miller. Inc.
FOERSTER, H. von (1970). Molecular Ethnology. In *Molecular Mechanisms in Memory and Learning*. New York: Plenum.
FOERSTER, H. von (1971). Perception of the Future and the Future of Perception. Address at the 24th Conference on World Affairs. Boulder: Univ. of Colorado. 29 Mar.
FOSTER, G. M. (1972). The Anatomy of Envy. *Current Anthropology*. 13 (2): 165–202.
FREEMAN, D. (1964). Human Aggression in Anthropological Perspective. In *Natural History of Aggression*, ed. J. D. Carthy and F. J. Ebling. New York: Academic, 1964.
FREUCHEN, P. (1961). *Book of the Eskimos*. New York: World. (Quoted in E. R. Service, 1966, q.v.)
FREUD, S. (1888). *Hysteria*. S.E., vol. 1.*
FREUD, S. (1892). *Sketches for the 'Preliminary Communication of 1893'*. S. E., vol. 1.

*Except for Letter 75, to Fliess (1897), the source for the works of S. Freud noted throughout this book is the *Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud* (shortened in this bibliography to S. E.), 23 vols., ed. J. Strachey. London: Hogarth Press, 1886-1939.

FREUD, S. (1895). 'The Clinical Symptomatology of Anxiety Neurosis.' In *On the Grounds for Detaching a Particular Syndrome from Neurasthenia under the Description of 'Anxiety Neurosis'*. S.E., vol. 3.

FREUD, S. (1895a). *Project for a Scientific Psychology*. S.E., vol. 1.

FREUD, S. (1897). Letter 75, to Fliess. *Letters 1873–1939*. London: Hogarth, 1961.

FREUD, S. (1898). *Sexuality in the Development of Neurosis*. S.E., vol. 3.

FREUD, S. (1900). *The Interpretation of Dreams*. S.E., vol. 3.

FREUD, S. (1905). *Three Essays on the Theory of Sexuality*. S.E., vol. 7.

FREUD, S. (1908). *Character and Anal Eroticism*. S.E., vol. 9.

FREUD, S. (1908a). *Civilized Sexual Morality and Modern Nervous Illness*. S.E., vol. 9.

FREUD, S. (1909). *Analysis of a Phobia in a Five-Year-Old Boy*. S.E., vol. 10.

FREUD, S. (1913). *Totem and Tabu*. S.E., vol. 13.

FREUD, S. (1914). *On Narcissism*. S.E., vol. 14.

FRUED, S. (1915). *Instincts and Their Vicissitudes*. S.E., vol. 14.

FREUD, S. (1915a). *The Unconscious*. S.E., vol. 14.

FREUD, S. (1915–16). *Introductory Lectures on Psychoanalysis*. S.E., vol. 15.

FREUD, S. (1916–17). *Introductory Lectures on Psychoanalysis*. S.E., vol. 16.

FREUD, S. (1920). *Beyond the Pleasure Principle*. S.E., vol. 18.

FREUD, S. (1923). *The Ego and the Id*. S.E., vol. 19.

FREUD, S. (1924). *Economic Problem of Masochism*, S.E., vol. 19.

FREUD, S. (1925). *The Resistance to Psychoanalysis*. S.E., vol. 19.

FREUD, S. (1927). *The Future of an Illusion*. S.E., vol. 21.

FREUD, S. (1930). *Civilization and Its Discontents*. S.E., vol. 21.

FREUD, S. (1931). *Female Sexuality*. S.E., vol. 21.

FREUD, S. (1933). *New Introductory Lectures*. S.E., vol. 22.

FREUD, S. (1933a). *Why War?* S.E., vol. 22.

FREUD, S. (1937). *Analysis Terminable and Interminable*. S.E., vol. 23.

FREUD, S. (1938; pub. 1940). *An Outline of Psychoanalysis*. S.E., vol. 23.

FROMM, E. (1932). Die psychoanalytische Charakterologie und ihre Bedeutung für Sozialforschung. *Ztsch. f. Sozialforschung*. 1: 253–77. Psychoanalytic Characterology and Its Relevance

for Social Psychology. In *The Crisis of Psychoanalysis* by E. Fromm, New York: Holt, Rinehart & Winston, 1970. London: Cape, 1971.

FROMM, E. (1934). Die Sozialpsychologische Bedeutung der Mutterrechtstheorie. *Ztsch. f. Sozialforschung.* 3: 196–277. The Theory of Mother Right and Its Relevance for Social Psychology. In *The Crisis of Psychoanalysis* by E. Fromm. New York: Holt, Rinehart & Winston, 1970. London: Cape, 1971.

FROMM, E. (1941). *Escape from Freedom.* New York: Holt, Rinehart & Winston.

FROMM, E. (1947). *Man for Himself: An Inquiry into the Psychology of Ethics.* New York: Holt, Rinehart & Winston. London: Routledge, 1956.

FROMM, E. (1950). *Psychoanalysis and Religion.* New Haven: Yale Univ. Press.

FROMM, E. (1951). *The Forgotten Language: An Introduction to the Understanding of Dreams, Fairytales, and Myths.* New York: Holt, Rinehart & Winston.

FROMM, E. (1955). *The Sane Society.* New York: Holt, Rinehart & Winston. London: Routledge, 1971.

FROMM, E. (1959). *Sigmund Freud's Mission.* New York: Harper & Bros.

FROMM, E. (1961). *Marx's Concept of Man.* New York: Frederick Ungar.

FROMM, E. (1963). *The Dogma of Christ and Other Essays on Religion, Psychology and Culture.* New York: Holt, Rinehart & Winston. (1st ed. in German, 1931.)

FROMM, E. (1964). *The Heart of Man.* New York: Harper & Row. London: Routledge, 1965.

FROMM, E. (1968). Marx's Contribution to the Knowledge of Man. *Social Science Information.* 7 (3): 7–17. (Reprinted in E. Fromm, 1970, q.v.)

FROMM, E. (1968a). *The Revolution of Hope.* New York: Harper & Row.

FROMM, E. (1970). *The Crisis of Psychoanalysis: Essays on Freud, Marx, and Social Psychology.* New York: Holt, Rinehart & Winston. London: Cape, 1971.

FROMM, E. (1970a) Freud's Model of Man and Its Social Determinants. In *The Crisis of Psychoanalysis* by E. Fromm. New York: Holt, Rinehart & Winston. London: Cape, 1971.

FROMM, E. (1970b). The Oedipus Complex: Comments on the

Case of Little Hans. In *The Crisis of Psychoanalysis* by E. Fromm. New York: Holt, Rinehart & Winston. London: Cape, 1971.
FROMM, E., and MACCOBY, M. (1970). *Social Character in a Mexican Village.* Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall.
FROMM, E., with the collaboration of E. Schachtel, A. Hartoch-Schachtel, P. Lazarsfeld, *et al.* 1936. The Authoritarian Character Structure of German Workers and Employees Before Hitler. Unpublished.
FROMM, E., SUZUKI, D. T., and MARTINO, R. de (1960). *Zen Buddhism and Psychoanalysis.* New York: Harper & Bros.
FROMM, E., and XIRAU, R., eds. (1968). *The Nature of Man.* New York: Macmillan.

GARATTINI, S., and SIGG, E. B. (1969). Relationship of Aggressive Behavior to Adrenal and Gonadal Function in Male Mice. In *Aggressive Behavior*, ed. S. Garattini and E. B. Sigg, Amsterdam: Excerpta Medica Foundation.
GILL, D. G. (1970). *Violence Against Children.* Cambridge: Harvard Univ. Press.
GINSBERG, M. See Glover, E. (1934), joint author.
GLICKMAN, S. E., and SROGES, R. W. (1966). Curiosity in Zoo Animals. *Behaviour.* 26: 151–88.
GLOVER, E., and GINSBERG, M. (1934). A Symposium on the Psychology of Peace and War. *Brit. Jour. Med. Psych.* 14: 274–93.
GOODALL, J. (1965). Chimpanzees of the Gombe Stream Reserve. In *Primate Behavior: Field Studies of Primates and Apes,* ed. I. DeVore. New York: Holt, Rinehart & Winston.
GOODALL, J. See also Van Lawick-Goodall, J.
GOSLINER, B. J. See Mahler, H. S. (1955), joint author.
GOWER, G. (1968). Man Has No Killer Instinct. In *Man and Aggression*, ed. M. F. A. Montagu. New York: Oxford Univ. Press.
GREEN, M. R., and SCHECTER, D. E. (1957). Autistic and Symbiotic Disorders in Three Blind Children. *Psychiat. Quar.* 31: 628–48.
GROOS, K. (1901). *The Play of Man.* New York: D. L. Appleton.
GUDERIAN, H. (1951). *Erinnerungen eines Soldaten.* Heidelberg. (Quoted in J. Ackermann, 1970, q.v.)
GUNTRIP, H. (1971). The Promise of Psychoanalysis. In *In the Name of Life*, ed. B. Landis and E. S. Tauber. New York: Holt, Rinehart & Winston.

GUTHRIE, W. K. (1962). *Earlier Presocratics and the Pythagoreans.* A History of Greek Philosophy, vol. 1. New York and London: Cambridge Univ. Press.
GUTHRIE, W. K. (1965). *Presocratic Traditions from Parmenides to Democritus.* A History of Greek Philosophy, vol. 2. New York and London: Cambridge Univ. Press.
GUTTINGER, R. C. (Quoted in C. and W. M. S. Russell, 1968, q.v.)

HALL, K. R. L. (1960). The Social Vigilance Behaviour of the Chacma Baboon, *Papio ursinus*. *Behaviour.* 16: 261–94.
HALL, K. R. L. (1964). Aggression in Monkey and Ape Societies. In *The Natural History of Aggression*, ed. J. D. Carthy and F. J. Ebling. New York: Academic.
HALL, K. R. L., and DEVORE, I (1965). Baboon Social Behavior. In *Primate Behavior: Field Studies of Primates and Apes*, ed. I. DeVore. New York: Holt, Rinehart & Winston.
HALL, T. E. (1963). Proxemics – A Study of Man's Spatial Relationships. In *Man's Image in Medicine and Anthropology*, ed. I. Galdston. New York: Int. Univs. Press.
HALL, T. E. (1966). *The Hidden Dimension.* Garden City: Doubleday.
HALLGARTEN, G. W. F. (1963). *Imperialism vor 1914.* Munich. C. H. Becksche Verlagsbuchhandlung.
HALLGARTEN, G. W. F. (1969). *Als die Schattenfielen, Memoiren 1900–1968.* Ullstein Vlg.
HANEY, C., BANKS, C., and ZIMBARDO, P. In press. Interpersonal Dynamics in a Simulated Prison. *Int. Jour. of Criminology and Penology.* 1.
HANFSTAENGL, E. (1970). *Zwischen Weissem und Braunem Haus* [Between the white and the brown house]. Munich: R. Piper.
HARLOW, H. F. (1969). William James and Instinct Theory. In *William James, Unfinished Business*, ed. B. Macleod. Washington, D.C.: Amer. Psychol. Assoc.
HARLOW, H. F., MCGAUGH, J. L., and THOMPSON, R. F. (1971). *Psychology.* San Francisco: Albion.
HART, C. W. M., and PILLING, A. R. (1960). *The Tiwi of North Australia* (Case Histories in Cultural Anthropology). New York: Holt, Rinehart & Winston.
HARTMANN, H., KRIS, E., and LOEWENSTEIN, R. M. (1949).

The Psychoanalytic Study of the Child. Vols. 3, 4. New York: Int. Univs. Press.
HARTOCH-SCHACHTEL, A. See Fromm, E. (1936).
HAYES, C. (1951). *The Ape in Our House.* New York: Harper & Bros.
HAYES, C. See Hayes, K. J. (1951), joint author.
HAYES, K. J., and HAYES, C. (1951). The Intellectual Development of a Home-Raised Chimpanzee. *Proc. Amer. Phil. Soc.* 95: 105–9.
HEATH, R. G. (1962). Brain Centers and Control of Behavior. In *Psychosomatic Medicine*, ed. R. G. Heath. Philadelphia: Lea & Fabiger.
HEATH, R. G., ed. (1964). *The Role of Pleasure in Behavior.* New York: Harper & Row.
HEDIGER, H. (1942). *Wildtiere in Gefangenschaft.* Basel: Bruno Schwab. Translated as *Wild Animals in Captivity*, New York and London, Dover, 1965.
HEIBER, H., ed. (1958). *Reichfuhrer: Letters to and from Himmler.* Deutschverlagsanstalt.
HEIDEL, A. (1942). *The Babylonian Genesis: Enuma Elish.* Chicago: Univ. of Chicago Press.
HEISENBERG, W. (1958). The Representation of Nature in Contemporary Physics. *Daedalus.* 87(3): 95–108.
HELFFERICH, E. (Quoted in J. Ackermann, 1970, q.v.)
HELFNER, R., and KEMPE, C. H., eds. (1968). *The Battered Child.* Chicago: Univ. of Chicago Press.
HELMUTH, H. (1967). Zum Verhalten des Menschen: die Aggression. *Ztsch. f. Ethnologie.* 92: 265–73.
HENTIG, H. von (1964). *Der Nekrotope Mensch.* Stuttgart: F. Enke Verlag.
HERON, W. (1957). The Pathology of Boredom. *Sci. Amer.* (Jan.)
HERON, W., DOANE, B. K., and SCOTT, T. H. (1956). *Can. Jour. of Psych.* 10 (1): 13–18.
HERRICK, C. J. (1928). *Brains of Rats and Man.* Chicago: Univ. of Chicago Press. (Quoted by R. B. Livingston, 1967a, q.v.)
HERRIGEL, E. (1953). *Zen in the Art of Archery.* New York: Pantheon. London: Routledge.
HESS, W. R. (1954). *Diencephalon Automatic and Extrapyramidal Structures.* New York: Grune & Stratton.

HINDE, R. A. (1960). Energy Models of Motivation. In *Readings in Animal Behavior*, ed. T. E. McGill. New York: Holt, Rinchart & Winston.

HINDE, R. A. (1967). *New Society*. 9: 302.

HITLER, A. (1943). *Mein Kampf*, trans. R. Manhein. Boston: Houghton Mifflin. London: Hutchinson.

HOEBEL, E. A. (1954). *The Law of Primitive Man*. Cambridge: Harvard Univ. Press. (Quoted in E. R. Service, 1966, q.v.)

HOEBEL, E. A. (1958). *Man in the Primitive World*. New York: McGraw-Hill.

HOLBACH, P. H. D. (1822). *Systeme Social*. Paris. (Quoted in *Die Heilige Familie* by K. Marx, 1844.)

HOLT, R. R. (1965). A Review of Some of Freud's Biological Assumptions and Their Influence on His Theories. In *Psychoanalysis and Current Biological Thought*, ed. N. S. Greenfield and W. C. Lewis. Madison: Univ. of Wisconsin Press.

HORKHEIMER, M., ed. (1936). *Autoritat und Famlie*. Paris: Librarie Félix Alcan.

HOWELL, F. C. See Washburn, S. L. (1960), joint author.

JACOBS, P. A., BRUNTON, M., MELVILLE, M. M., BRITAIN, R. P., and MCCLEMONT, W. F. (1965). Aggressive Behavior: Mental Subnormality and the XYY Male. *Nature*. 208: 1351–2.

JAMES, W. (1890). *Principles of Psychology*. New York: Holt, Rinehart & Winston.

JAMES, W. (1911). The Moral Equivalents of War. In *Memories and Studies* by W. James. New York: Longman's Green.

JAMES, W. (1923). *Outline of Psychology*. New York: Scribner's.

JAY, M. (1973). *The Dialectical Imagination*. Boston: Little, Brown. London: Heinemann.

JAY, P. See Washburn, S. L., and Jay, P. (1968), joint editors.

JONES, E. (1957). *The Life and Work of Sigmund Freud*. Vol. 3. New York: Basic Books. London: Hogarth Press.

KAADA, B. (1967). *Aggression and Defense: Neural Mechanisms and Social Patterns*. Brain Function, vol. 5, ed. C. D. Clemente and D. B. Lindsley. Los Angeles: Univ. of Californa Press.

KAHN, H. (1960). *On Thermonuclear War*. Princeton: Princeton Univ. Press.

KANNER, L. (1944). Early Infantile Autism. *Jour. Pediat.* 25: 211–17.

KAPP, R. (1931). Comments on Bernfeld and Feitelberg's 'Principles of Entropy and the Death Instinct'. *Int. Jour. Psychoan.* 12: 82–6.
KEMPE, C. H. *et al.* (1962). The Battered Child Syndrome. *Jour. A.M.A.* 181 (1): 17–24.
KEMPE, C. H. See Helfner, R. (1968), joint author.
KEMPNER, R. M. W. (1969). *Das Dritte Reich am Kreuzverhör.* Munich: Bechtle Verlag.
KLÜVER, H., and BUCY, P. C. (1934). Preliminary Analysis of Functions of the Temporal Lobes in Monkeys. *Arch. Neurol. Psych.* 42: 929.
KOFFLER, F. See Tauber, E. W. (1966), joint author.
KORTLANDT, A. (1962). Chimpanzees in the Wild. *Sci. Amer.* 206 (5): 128–38.
KRAUSNICK, H., BUCHHEIM, H., BROSZAT, M., and JACOBSEN, H. A. (1968). *Anatomy of the SS State.* New York: Walker. London: Paladin.
KREBS, A. (Quoted in J. Ackermann, 1970; q.v.)
KROPOTKIN, P. (1955). *Mutual Aid.* Boston: Porter Sargent. London: Allen Lane.
KUBIZEK, A. (1953). *Adolf Hitler, Mein Jugenfreund* [Adolf Hitler, the friend of my youth]. Graz: L. Stocker Verlag.
KUMMER, H. (1951). Soziales Verhalten einer Mantelpaviangruppe. *Beiheft z. Schweizerischen Ztsch. f. Psychologie und ihre Anwendungen* 33: 1–91. (Quoted in C. and W. M. S. Russell, 1968, q.v.)

LAGERSPETZ, K. M. J. (1969). Aggression and Aggressiveness in Laboratory Mice. In *Aggressive Behavior*, ed. S. Garattini and E. B. Sigg. Amsterdam: Excerpta Medica Foundation.
LANCASTER, C. S. See Washburn, S. L., and Lancaster, C. S. (1968), joint authors.
LANGER, W. C. (1972). *The Mind of Adolf Hitler*, New York: Basic Books. London: Pan Books.
LAUGHLIN, W. S. (1968). Hunting: An Integrating Biobehavior System and Its Evolutionary Importance. In *Man, the Hunter*, ed. R. B. Lee and I. DeVore. Chicago: Aldine.
LAZARSFELD, P. See Fromm, E. (1936).
LEE, R. B. (1968). What Hunters Do for a Living: Or How to Make Out on Scarce Resources. In *Man, the Hunter*, ed. R. B. Lee and I. DeVore. Chicago: Aldine.

LEE, R. B., and DEVORE, I. (1968). *Man, the Hunter*. Chicago: Aldine.

LEHRMAN, D. S. (1953). Problems Raised by Instinct Theory: A Critique of Konrad Lorenz's Theory of Instinctive Behavior. *Quar. Rev. Biol.* 28 (4): 337–64.

LENIN, V. I. *Sochinenia*. 4th ed. Vol. 35. (Quoted in R. A. Medvedev, 1971, q.v.)

LEYHAUSEN, P. (1956). Verhaltensstudien an Katzen. *Beih. z. Ztsch. f. Tierpsychologie*. (Quoted in C. and W. M. S. Russell, 1968, q.v.)

LEYHAUSEN, P. (1965). The Communal Organization of Solitary Mammals. *Symposia Zool. Soc. Lond.* No. 14: 249–63.

LEYHAUSEN, P. See Lorenz, K., (1968), joint author.

LINDSLEY, D. B. (1964). The Ontogeny of Pleasure: Neural and Behavioral Development. In *The Role of Pleasure in Behavior*, ed. R. G. Heath. New York: Harper & Row.

LIVINGSTON, R. B. (1962). How Man Looks at His Own Brain: An Adventure Shared by Psychology and Neurology. In *Biologically Oriented Fields*. Psychology: A Study of a Science, ed. S. Koch. New York: McGraw-Hill.

LIVINGSTON, R. B. (1967). Brain Circuitry Relating to Complex Behavior. In *The Neurosciences: A Study Program*, ed. G. C. Quarton, T. O. Melnechuk, and F. O. Schmitt. New York: Rockefeller Univ. Press.

LIVINGSTON, R. B. (1967a). Reinforcement. In *The Neurosciences: A Study Program*, ed. G. C. Quarton, T. O. Melnechuk, and F. O. Schmitt. New York: Rockefeller Univ. Press.

LORENZ, K. (1937). Über die Bildung des Instinktbegriffes. In *Über tierisches und menschliches Verhalten*. Munich: R. Piper, 1965.

LORENZ, K. (1940). Durch Domestikation verursachte Störungen arteigenen Verhaltens. *Ztsch. z. angew. Psychol. Charakterkunde*. 59: 75.

LORENZ, K. (1950). The Comparative Method in Studying Innate Behavior Patterns. *Symp. Soc. Exp. Biol.* (Animal Behavior). 4: 221–68.

LORENZ, K. (1952). *King Solomon's Ring*. New York: Crowell. London: Methuen.

LORENZ, K. (1955). Über das Toten von Artgenossen. *Jahrb. d. Max-Planck-Ges.* 105–140. (Quoted by K. Lorenz, 1966, q.v.)

LORENZ, K. (1964). Ritualized Aggression. In *The Natural History of Aggression*, ed. J. D. Carthy and F. J. Ebling. New York: Academic.
LORENZ, K. (1965). *Evolution and Modification of Behavior*. Chicago: Univ. of Chicago Press.
LORENZ, K. (1966). *On Aggression*. New York: Harcourt Brace Jovanovich. London: Methuen. (1st ed. *Das Sogenannte Böse, Zur Naturgeschichte der Aggression*. [The so-called evil, natural history of aggression]. Vienna: Borotha-Schoeler Verlag, 1963.)
LORENZ, K. (1970). The Establishment of the Instinct Concept, trans. R. Martin, from the German papers pub. 1931–42. In *Studies in Animal and Human Behavior*. Cambridge: Harvard Univ. Press. London: Methuen.
LORENZ, K., and LEYHAUSEN, P. (1968). *Antriebe tierischen und menschlichen Verhaltens*. Munich: R. Piper.

MACCOBY, M. (1972). Emotional Attitudes and Political Choices. *Politics and Society* (Winter): 209–39.
MACCOBY, M. (1972a). *Technology, Work and Character*. Program on Technology and Society (a final review). Cambridge: Harvard Univ.
MACCOBY, M. (Forthcoming). *Social Character, Work, and Technology* (working title).
MACCOBY, M. See Fromm, E. (1970), joint author.
MACCORQUODALE, K. (1970). On Chomsky's Review of *Verbal Behavior* by B. F. Skinner. *Jour. of the Exp. Anal. of Behavior*. 13 (1): 83–99.
MCDERMOTT, J. J., ed. (1967). *The Writings of William James: A Comprehensive Edition*. New York: Random House.
MCDOUGALL, W. (1913). The Sources and Direction of Psycho-Physical Energy. *Amer. Jour. of Insanity*. 69.
MCDOUGALL, W. (1923). *An Introduction to Social Psychology*. 7th ed. Boston: John W. Luce. London: Methuen.
MCDOUGALL, W. (1923a). *An Outline of Psychology*. London: Methuen.
MCDOUGALL, W. (1932). *The Energies of Men: A Study of the Fundamentals of Dynamic Psychology*. New York: Scribner's.
MCDOUGALL, W. (1948). *The Energies of Men*. 7th ed. London: Methuen.
MCGAUGH, J. L. See Harlow, H. F. (1971), joint author.
MACLEAN, P. D. (1958). The Limbic System with Respect to

Self-Preservation and the Preservation of the Species. *Jour. Nerv. Ment. Dis.* 127: 1–11.

MAHLER, M. S. (1968). *On Human Symbiosis and the Vicissitudes of Individuation.* Vol. 1. New York: Int. Univs. Press.

MAHLER, M. S., and GOSLINER, B. J. (1955). On Symbiotic Child Psychosis. In *Psychoanalytic Study of the Child.* New York: Int. Univs. Press.

MAHRINGER, J. (1952). *Vorgeschichtliche Kultur.* Benziger Verlag.

MAIER, N. R. F., and SCHNEIRLA, T. C. (1964). *Principles of Animal Psychology.* New York: Dover.

MARCUSE, H. (1955). *Eros and Civilization.* Boston: Beacon. London: Sphere.

MARCUSE, H. (1964). *One Dimensional Man.* Boston: Beacon. London: Routledge; Sphere.

MARINETTI, F. T. (1909). *Futurist Manifesto.* See Flint, R. W., ed. (1971).

MARINETTI, F. T. (1916). *Futurist Manifesto.* See Flint, R. W., ed. (1971).

MARK, V. H., and ERVIN, F. R. (1970). *Violence and the Brain.* New York: Harper & Row.

MARSHACK, A. (1972). *The Roots of Civilization.* New York: McGraw-Hill. London: Weidenfeld & Nicolson.

MARX, K. (1906). *Capital.* Vol. 1. Charles S. Kerr. New York: Int. Univs. Press. London: Dent; Laurence & Wishart.

MARX, K. and ENGELS, F. *Gesamtausgabe* (MEGA) [Complete works of Marx and Engels]. Vol. 5. Moscow.

MASER, W. (1971). *Adolph Hitler, Legende, Mythos, Wirklichkeit.* Munich: Bechtle Verlag.

MASLOW, A. (1954). *Motivation and Personality.* New York: Harper & Bros.

MASON, W. A. (1970). Chimpanzee Social Behavior. In *The Chimpanzee,* ed. G. H. Bourne. Vol. 2. Baltimore: Univ. Park.

MATTHEWS, L. H. (1963). *Symposium on Aggression.* Institute of Biology.

MATURANA, H. R., and VARELA, F. G. (Forthcoming.) *Autopoietic Systems.*

MAYO, E. (1933). *The Human Problems of an Industrial Civilization.* New York: Macmillan.

MEAD, M. (1961). *Cooperation and Competition Among Primitive Peoples.* Rev. ed. Boston: Beacon. (1st ed. New York: McGraw-Hill, 1937.)

MEDVEDEV, R. A. (1971). *Let History Judge*. New York: Knopf. London: Macmillan.

MAGARGEE, E. I. (1969). The Psychology of Violence: A Critical Review of Theories of Violence. Prepared for the U.S. National Commission on the Causes and Prevention of Violence, Task Force III: Individual Acts of Violence.

MEGGITT, M. J. (1960). *Desert People*. Chicago: Univ. of Chicago Press. (Quoted in E. R. Service, 1966, q.v.)

MEGGITT, M. J. (1964). *Aboriginal Food-Gatherers of Tropical Australia*. Morges, Switzerland: Int. Union for Conservation of Nature and Natural Resources. (Quoted in E. R. Service, 1966, q.v.)

MELLAART, J. (1967). *Çatal Hüyük: A Neolithic Town in Anatolia*. London: Thames & Hudson. New York: McGraw-Hill.

MELNECHUK, T. O. See Ploog, D. (1970), joint author.

MENNINGER, K. A. (1968). *The Crime of Punishment*. New York: Viking.

MILGRAM, S. (1963). Behavioral Study of Obedience. *Jour. Abn.* [Social & *Socl. Psychol.* 67: 371–8.

MILLÁN, I. (Forthcoming (1974)). *Caracter Social y Desarrollo* Social character and development].

MILLER, N. E. (1941). Frustration-Aggression Hypothesis. *Psych. Rev.* 48: 337–342.

MILNER, P. See Olds, J. (1954), joint author.

MONAKOW, C. von (1950). *Gehirn und Gewissen* [Brain and conscience]. Zurich: Morgarten.

MONTAGU, M. F. A. (1967). *The Human Revolution*. New York: Bantam.

MONTAGU, M. F. A. (1968). Chromosomes and Crime. *Psychology Today*. 2 (5): 42–4, 46–9.

MONTAGU, M. F. A. (1968a). The New Litany of Innate Depravity: Or Original Sin Revisited. In *Man and Aggression*, ed. M. F. A. Montagu. New York: Oxford Univ. Press.

MONTEIL, V. (1970). *Indonésie*. Paris: Horizons de France.

MORAN, Lord (1966). *Churchill: Taken from the Diaries of Lord Moran*. Boston: Houghton Mifflin. London: Constable.

MORGAN, L. H. (1870). *Systems of Sanguinity and Affinity of the Human Family*. Publication 218. Washington, D.C.: Smithsonian Inst.

MORGAN, L. H. (1877). *Ancient Society: Or Researches in the Lines of*

Human Progress from Savagery Through Barbarism to Civilization. New York: H. Holt.
MORRIS, D. (1967). *The Naked Ape.* New York: McGraw-Hill. London: Cape; Corgi.
MOYER, K. E. (1968). Kinds of Aggression and Their Physiological Basis. In *Communication in Behavioral Biology.* Pt A, vol. 2. New York: Academic.
MUMFORD, L. (1961). *The City in History.* New York: Harcourt Brace Jovanovich. Harmondsworth: Penguin Books, 1966.
MUMFORD, L. (1967). *The Myth of the Machine: Techniques in Human Development.* New York: Harcourt Brace Jovanovich. London: Secker & Warburg.
MURDOCK, G. P. (1934). *Our Primitive Contemporaries.* New York: Macmillan.
MURDOCK, G. P. (1968). Discussion remarks. In *Man, the Hunter,* ed. R. B. Lee and I. DeVore. Chicago: Aldine.

NAPIER, J. (1970). *The Roots of Mankind.* Washington, D.C.: Smithsonian Inst. London: Allen & Unwin.
NARR, K. J. (1961). *Urgeschichte der Kultur.* Stuttgart: Kröner Verlag.
NIELSEN, J. (1968). Y Chromosomes in Male Psychiatric Patients above 180 cms. Tall. *Brit. Jour. Psychiat.* 114: 1589–90.
NISSEN, H. W. (1931). A Field Study of the Chimpanzee. *Comp. Psych. Monog.* 8 (36).
NISSEN, H. W. See Alee, W. C. (1953), joint author.
NIMKOFF, M. F. See Alee, W. C. (1953), joint author.

OKLADNIKOV, A. P. (1972). (Quoted in A. Marshack, 1972, q.v.)
OLDS, J., and MILNER, J. (1954). Positive Reinforcement Produced by Electrical Stimulation of the Septal Area and Other Regions of the Rat Brain. *Jour. Comp. Physiol.* 47: 419–28.
OPPENHEIMER, J. R. (1955). Address at the 63rd Annual Meeting of the American Psych. Assoc. 4 Sept.
OZBEKHAN, H. (1966). The Triumph of Technology: 'Can' Implies 'Ought'. In *Planning for Diversity and Choice: Possible Futures and Their Relations to the Non-Controlled Environment,* ed. S. Anderson. Cambridge: M.I.T. Press, 1968.

PALMER, S. (1955). Crime, Law. *Criminology and Political Science.* 66: 323–4.

PASTORE, N. (1949). *The Nature-Nurture Controversy*. New York: Columbia Univ. Press, King's Crown.

PENFIELD, W. (1960). Introduction. In *Neurophysiological Basis of the Higher Functions of the Nervous System*. Handbook of Physiology. 12 vols., ed. J. Field. Sec. 1, vol. 3, ed. H. W. Magoun *et al.* Washington, D.C.: American Physiological Soc.

PENROSE, L. S. (1931). Freud's Theory of Instinct and Other Psycho-Biological Theories. *Inter. Jour. of Psychoan.* 12: 92.

PERRY, W. J. (1917). An Ethnological Study of Warfare. In *Manchester Memoirs*. Vol. 61. Manchester: Manchester Literary and Philosophical Society.

PERRY, W. J. (1923). *The Children of the Sun*. London.

PERRY, W. J. (1923a). *The Growth of Civilization*. New York.

PIAGET, J. (1952). *The Origins of Intelligence in Children*. New York: Int. Univs. Press. London: Routledge.

PICKER, H. (1965). *Hitler's Tischgesprache im Führerhauptquartier*, [Hitler's table talk in the Führer's headquarters], ed, and with an Introduction by P. E. Schramm. Stuttgart: Seewald Verlag.

PIGGOTT, S. (1960). Theory and Prehistory. In *The Evolution of Man: Mind, Culture and Society*. 'Evolution after Darwin', vol. 2, ed. S. Tax. Chicago: Univ. of Chicago Press.

PILBEAM, D. (1970). *The Evolution of Man*. London: Thames & Hudson.

PILBEAM, D., and SIMONS, E. L. (1965). Some Problems of Hominid Classification. *Amer. Sci.* 53: 237–59.

PILLING, A. R. See Hart, C. W. M. (1960), joint author.

PLOOG, D. (1970). Social Communication Among Animals. In *Neurosciences: Second Study Program*, ed. F. O. Schmitt. New York: Rockefeller Univ. Press.

PLOOG, D., and MELNECHUK, T. O. (1970). Primate Communication. In *Neurosciences Research Symposium Summaries*. Vol. 4, ed. F. O. Schmitt, T. O. Melnechuk, G. C. Quarton, and G. Adelman. Cambridge: M.I.T. Press.

POLLOCK, C. B. See Steele, B. F. (1968), joint author.

PORTMANN, A. (1965). *Vom Ursprung des Menschen*. Basel: F. Rein Lardt.

PRATT, J. (1958). Epilegomena to the Study of Freudian Instinct Theory. *Int. Jour. of Psychoan.* 39: 17.

PRIBRAM, K. (1962). The Neurophysiology of Sigmund Freud. In *Experimental Foundation of Clinical Psychology*, ed. A. J. Bachrach. New York: Basic Books.

QUARTON, G. C., MELNECHUK, T. O., and SCHMITT, F. O., eds. (1967). *The Neurosciences: A Study Program.* New York: Rockefeller Univ. Press.

RADHILL, S. X. (1968). A History of Child Abuse and Infanticide. In *The Battered Child*, ed. R. Helfner and C. H. Kempe. Chicago: Univ. of Chicago Press.

RAPAPORT, D. C. (1971). Foreword. In *Primitive War* by H. H. Turney-High. 2nd ed. Columbia: Univ. of South Carolina Press, 1971.

RAUCH, H. J. (1947). *Arch f. Psychiatrie und Nervenkrankheiten.* Berlin. (Quoted in H. von Hentig, 1964, q.v.)

RAUSCHNING, H. (1940). *The Voice of Destruction.* New York: Putnam.

RÉAGE, P. (1965). *The Story of O.* New York: Grove Press. London: Corgi.

RENSCH, B., ed. (1965). *Homo Sapiens.* Göttingen: Vanderhoek & Ruprecht.

REYNOLDS, V. (1961). The Social Life of a Colony of Rhesus Monkeys (*Macaca mulata*). Ph.D. thesis, Univ. of London. (Quoted in C. and W. M. S. Russell, 1968, q.v.)

REYNOLDS, V., and REYNOLDS, F. (1965). The Chimpanzees of the Bodongo Forest. In *Primate Behavior: Field Studies of Primates and Apes*, ed. I. DeVore. New York: Holt, Rinehart & Winston.

ROE, A., and SIMPSON, G. C., eds. (1967). *Behavior and Evolution.* Rev. ed. New Haven: Yale Univ. Press. (1st ed. 1958.)

ROGERS, C. R., and SKINNER, B. F. (1956). Some Issues Concerning the Control of Human Behavior: A Symposium. *Science.* 124: 1057–66.

ROWELL, T. E. (1966). Hierarchy in the Organization of the Captive Baboon Group. *Animal Behavior.* 14 (4): 430–43.

RUSSELL, C., and RUSSELL, W. M. S. (1968). *Violence, Monkeys and Man.* London: Macmillan.

RUSSELL, C., and RUSSELL, W. M. S. (1968a). Violence: What Are Its Roots? *New Society.* (24 Oct.): 595–600.

SAHLINS, M. D. (1960). The Origin of Society. *Sci. Amer.* 203 (3).

SAHLINS, M. D. (1968). Notes on the Original Affluent Society. In *Man, the Hunter*, ed. R. B. Lee and I. DeVore. Chicago: Aldine.

SALOMON, E. von (1930). *Die Geächteten.* Rowohlt, Taschenbuch Ausgabe. *The Outlaws*, London: Jonathan Cape, 1962.
SAUER, C. O. (1952). *Agricultural Origins and Dispersals.* New York: American Geographic Soc.
SCHACHTEL, E. See Fromm, E. (1936).
SCHALLER, G. B. (1963). *The Mountain Gorilla.* Chicago: Univ. of Chicago Press.
SCHALLER, G. B. (1965). The Behavior of the Mountain Gorilla. In *Primate Behavior: Field Studies of Primates and Apes*, ed. I. DeVore. New York: Holt, Rinehart & Winston.
SCHECTER, D. E. (1968). The Oedipus Complex: Considerations of Ego Development and Parental Interaction. *Cont. Psychoan.* 4 (2): 117.
SCHECTER, D. E. (1973). On the Emergence of Human Relatedness. In *Interpersonal Explorations in Psychoanalysis*, ed. E. G. Witenberg. New York: Basic Books.
SCHECTER, D. E. See Green, M. R. (1957), joint author.
SCHNEIRLA, T. C. (1966). *Quar. Rev. Biol.* 41: 283.
SCHNEIRLA, T. C. See Maier, N. R. F. (1964), joint author.
SCHRAMM, P. E. (1965). *Hitler als militärischer Führer.* 2nd ed. Frankfurt: Athenäum Verlag.
SCHRAMM, P. E. See Picker, H. (1965).
SCHWIDETZKI, I. (1971). *Das Menschenbild der Biologie.* Stuttgart: G. Fischer Verlag.
SCOTT, J. P. (1958). *Aggression.* Chicago: Univ. of Chicago Press.
SCOTT, J. P. (1968). Hostility and Aggression in Animals. In *Roots of Behavior*, ed. E. L. Bliss. New York: Hafner.
SCOTT, J. P. (1968a). That Old-Time Aggression. In *Man and Aggression*, ed. M. F. A. Montagu. New York: Oxford Univ. Press.
SCOTT, J. P., BEXTON, W. H., HERON, W., and DOANE, B. K. (1959). Cognitive Effects of Perceptual Isolation. *Can. Jour. of Psych.* 13 (3): 200–209.
SECHENOV, I. M. (1863). *Reflexes of the Brain.* Cambridge: M.I.T. Press. (Quoted in D. B. Lindsley, 1964, q.v.)
SERVICE, E. R. (1966). *The Hunters.* Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall.
SHAH, S. A. (1970). Report on XYY Chromosomal Abnormality. *National Institute of Mental health Conference Report,* Washington, D.C.: U.S. Govt. Printing Office.

SIDDIQI, M. R. See Southwick, C. H. (1965), joint author.
SIGG, E. B. See Garattini, S. (1969), joint author.
SIMMEL, E. (1944). Self-Preservation and the Death Instinct. *Psychoan. Quar.* 13: 160.
SIMONS, E. L. See Pilbeam, D. R. (1965), joint author.
SIMPSON, G. G. (1944). *Tempo and Mode in Evolution.* New York: Columbia Univ. Press.
SIMPSON, G. G. (1949). *The Meaning of Evolution.* New Haven: Yale Univ. Press.
SIMPSON, G. G. (1953). *The Major Features of Evolution.* New York: Columbia Univ. Press.
SIMPSON, G. G. (1964). *Biology and Man.* New York: Harcourt Brace Jovanovich.
SIMPSON, G. G. See Roe, A. (1967), joint eds.
SKINNER, B. F. (1953). *Science and Human Behavior.* New York: Macmillan.
SKINNER, B. F. (1961). The Design of Cultures. *Daedalus.* 534–46.
SKINNER, B. F. (1963). Behaviorism at Fifty. *Science.* 134: 566–602. In *Behaviorism and Phenomenology,* ed. T. W. Wann, Chicago: Univ. of Chicago Press, 1964.
SKINNER, B. F. (1971). *Beyond Freedom and Dignity.* New York: Knopf.
SKINNER, B. F. See Rogers, C. R., (1956) joint author.
SMITH, B. F. (1967). *Adolf Hitler: His Family, Childhood and Youth.* Stanford: Hoover Inst., Stanford Univ.
SMITH, B. F. (1971). *Heinrich Himmler: A Nazi in the Making, 1900–1926.* Stanford: Hoover Inst., Stanford Univ.
SMITH, B. F. See Angress, S. J. (1959), joint author.
SMITH, G. E. (1924). *Essays on the Evolution of Man.* London: Humphrey Milford.
SMITH, G. E. (1924a). *The Evolution of Man.* New York: Oxford Univ. Press.
SMOLLA, G. (1967). *Studium Universale: Epochen der Menschlichen Frühzeit.* Munich: Karl Alber Freiburg.
SOUTHWICK, C. H. (1964). An Experimental Study of Intragroup Agnostic Behavior in Rhesus Monkeys (*Macaca mulata*). *Behavior.* 28: 182–209.
SOUTHWICK, C. H., BEG, M. A., and SIDDIQI, M. R. (1965). Rhesus Monkeys in North India. In *Primate Behavior: Field Studies of Primates and Apes,* ed. I. DeVore. New York: Holt, Rinehart & Winston.

SPEER, A. (1970). *Inside the Third Reich: Memoirs of Albert Speer*, trans. R. and C. Winston; Introduction by E. Davidson. London: Weidenfeld & Nicolson. New York: Macmillan.

SPEER, A. (1972). Afterword. In *Hitler avant Hitler* by J. Brosse. Paris: Fayard.

SPENCER, M. M. See Barnett, S. A. (1951), joint author.

SPINOZA, BENEDICTUS DE (1927). *Ethics*. New York: Oxford Univ. Press. London: Dent.

SPITZ, R., and COBLINER, G. (1965). *The First Year of Life: A Psychoanalytic Study of Normal and Deviant Development of Object Relations*. New York: Int. Univs. Press.

SPOERRI, T. (1959). *Ueber Nikrophile*. Basel. (Quoted in H. von Hentig, 1964, q.v.)

SROGES, R. W. See Glickman, S. E. 1966, joint author.

STEELE, B. F., and POLLOCK, C. B. (1968). A Psychiatric Study of Parents Who Abuse Infants and Small Children. In *The Battered Child*, ed. R. Helfner and C. H. Kempe. Chicago: Univ. of Chicago Press.

STEINER, J. M. In preparation. Study based on interviews with former Nazi concentration camp guards.

STEWART, U. H. (1968). Casual Factors and Processes in the Evolution of Prefarming Societies. In *Man, the Hunter*, ed. R. B. Lee and I. DeVore. Chicago: Aldine.

STRACHEY, A. (1957). *The Unconscious Motives of War*. London: Allen & Unwin.

STRACHEY, J., ed. (1886–1939). *Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*. 23 vols. London: Hogarth.

STRACHEY, J. (1961). Editor's Introduction. In *Civilization and Its Discontents* by S. Freud, S.E., vol. 21.

SULLIVAN, H. S. (1953). *Interpersonal Theory of Psychiatry*. New York: Norton.

TAUBER, E., and KOFFLER, F. (1966). Optomotor Response in Human Infants to Apparent Motion: Evidence of Inactiveness. *Science*. 152: 382–3.

TAX, S., ed. (1960). *The Evolution of Man: Mind, Culture and Society*. 'Evolution After Darwin', vol. 2. Chicago: Univ. of Chicago Press.

THOMAS, H. (1961). *The Spanish Civil War*. New York: Harper & Bros. Harmondsworth: Penguin Books, 1965.

THOMPSON, R. F. See Harlow, H. F. (1971), joint author.

THUCYDIDES, (1959). *Peloponnesian War: The Thomas Hobbes Translation*, ed. David Grene. 2 vols. Ann Arbor: Univ. of Michigan Press.

TINBERGEN, N. (1948). Physiologische Instinktforschung. *Experientia*. 4: 121–33.

TINBERGEN, N. (1953). *Social Behavior in Animals*. New York: Wiley. London: Chapman & Hale.

TINBERGEN, N. (1968). Of War and Peace in Animals and Men. *Science*. 160: 1411–18.

TÖNNIES, F. (1926). *Gesellschaft und Gemeinschaft*. Berlin: Curtius. *Fundamental Concepts of Society*, trans. and with a Supplement by C. H. P. Loomis. New York: American Book, 1940.

TURNBULL, C. M. (1965). *Wayward Servants, or the Two Worlds of the African Pygmies*. London: Eyre & Spottiswoode.

TURNEY-HIGH, H. H. (1971). *Primitive War*. 2nd ed. Columbia: Univ. of South Carolina Press. (1st ed. New York: Columbia Univ. Press, 1949.)

UNAMUNO, M. de (1936). (Quoted in H. Thomas, 1961, q.v.)

UNDERHILL, R. (1953). *Here Come the Navaho*. Washington, D.C.: Bur, of Indian Affairs, U.S. Dept. of the Interior.

VALENSTEIN, E. (1968). Biology of Drives. *Neurosciences Research Program Bulletin*. 6: 1. Cambridge: M.I.T. Press.

VAN LAWICK-GOODALL, J. (1968). The Behavior of Free-Living Chimpanzees in the Gombe Stream Reserve. *Animal Behavior Monographs*, ed. J. M. Cullen and C. G. Beer. Vol. I, pt. 3. London: Balliere, Tindall & Castle.

VAN LAWICK-GOODALL, J. (1971). *In the Shadow of Man*. Boston: Houghton Mifflin. London: Collins.

VAN LAWICK-GOODALL, J. See also Goodall, J.

VARELA, F. C. See Maturana, H. R. (Forthcoming), joint author.

VOLLHARD, E. (Quoted in A. C. Blanc, 1961, q.v.)

WAELDER, R. (1956). Critical Discussion of the Concept of an Instinct of Destruction. *Bul. Phil. Assoc.* 97–109.

WARLIMONT, W. (1964). *Im Hauptquartier der Deutschen Wehrmacht 1939–1945*. Frankfurt M.-Bonn.

WASHBURN, S. L. (1957). Australopithecines, the Hunters or the Hunted? *Amer. Anthropologist*. 59.

WASHBURN, S. L. (1959). Speculations on the Interrelations of

the History of Tools and Biological Evolution. In *The Evolution of Man's Capacity for Culture*. ed. J. N. Spuhler. Detroit: Wayne State Univ. Press.

WASHBURN, S. L., ed. (1961). *Social Life of Early Man*. Chicago: Aldine.

WASHBURN, S. L., and AVIS, V. (1958). Evolution of Human Behavior. In *Behavior and Evolution*, ed. A. Roe and G. G. Simpson. Rev. ed. New Haven: Yale Univ. Press, 1967.

WASHBURN, S. L., and DEVORE, I. (1961). The Social Life of Baboons. *Sci. Amer.* 31 (June): 353–9.

WASHBURN, S. L., and HOWELL, F. C. (1960). Human Evolution and Culture. In *The Evolution of Man*, ed. S. Tax. Chicago: Univ. of Chicago Press.

WASHBURN, S. L., and JAY, P., eds. (1968). *Perspectives of Human Evolution*. New York: Holt, Rinehart & Winston.

WASHBURN, S. L., and LANCASTER, C. S. (1968). The Evolution of Hunting. In *Man, the Hunter*, ed. R. B. Lee and I. DeVore. Chicago: Aldine.

WATSON, J. B. (1914). *Behavior: An Introduction to Comparative Psychology*. New York: H. Holt.

WATSON, J. B. (1958). *Behaviorism*. Chicago: Univ. of Chicago Press.

WEISS, P. (1925). Tierisches Verhalten als 'Systemreaktion'. Die Orientierung der Ruhestellungen von Schmetterlingen (Vanessa) gegen Licht und Schwerkraft. *Biologia Generalis*. 1: 168–248.

WEISS, P. (1967). 1 + 1 ≠ 2 [When one plus one does not equal two.] In *The Neurosciences: A Study Program*, ed. G. C. Quarton, T. O. Melnechuk, and F. O. Schmitt. New York: Rockefeller Univ. Press.

WEISS, P. (1970). The Living System. In *Beyond Reductionism*, ed. A. Koestler and L. Smithies. New York: Macmillan.

WHITE, B. L. See Wolff, P. (1965), joint author.

WHITE, R. W. (1959). Motivation Reconsidered: The Concept of Competence. *Psych. Rev.* 66: 297–323.

WHITEHEAD, A. N. (1967). *The Function of Reason*. Rev. ed. Boston: Beacon.

WICKER, T. (1971). 'Op-Ed' section. *The New York Times*. (18 Sept.)

WIESEL, E. (1972). *Souls on Fire*. New York: Random House. London: Weidenfeld & Nicolson.

WOLFF, K. (1961). Eichmann's Chief, Heinrich Himmler. *Neue Illustrierte.* 17 (16): 20. (Quoted in J. Ackermann, 1970, q.v.)

WOLFF, P., and WHITE, B. L. (1965). Visual Pursuit and Attention in Young Infants. *Jour. Child Psychiat.* 4. (Quoted in D. E. Schecter, 1973, q.v.)

WORDEN, F. G. (Forthcoming). *Scientific Concepts and the Nature of Conscious Experience.* American Handbook of Psychiatry, vol. 6. New York: Basic Books.

WRIGHT, Q. (1965). *A Study of War.* 2nd ed. Chicago: Univ. of Chicago Press.

YERKES, R. M., and YERKES, A. V. (1929). *The Great Apes: A Study of Anthropoid Life.* New Haven: Yale Univ. Press.

YOUNG, J. (1971). *An Introduction to the Study of Man.* New York: Oxford Univ. Press, Clarendon.

ZEISSLER, A. (1943). Interview, June 24. (Quoted in W. C. Langer, 1972, q.v.)

ZIEGLER, H. S. (1965). *Adolf Hitler.* 3rd ed. Göttingen: K. W. Schutz Verlag.

ZIEGLER, H. S., ed. (1970). *Wer War Hitler?* Beiträge zur Hitlerforschung, herausgegeben in Verbindung mit dem Institut für Deutsch Nachriegsgeschichte, Verlag der *Deutschen Hochschullehrzeitung* [Who was Hitler? Contributions to the research on Hitler, undertaken in conjunction with the Institute for Postwar History, publishing house of the German high school teachers' journal]. Göttingen: Grabert Verlag.

ZIMBARDO, P. (1972). Pathology of Imprisonment. *Trans-Action.* 9 (Apr.): 4–8.

ZIMBARDO, P. See Haney, C. In press, joint author.

ZING YANG KUO (1960). Studies on the Basic Factors in Animal Fighting: VII, Inter-species Co-existence in Mammals. *Jour. Gen. Psychol.* 97: 211–25.

ZUCKERMAN, S. (1932). *The Social Life of Monkeys and Apes.* London: K. Paul, Trench, Trubner.

جدول محتويات الجزء الثاني

الصفحة

الصفحة

تشريح التدميرية البشرية

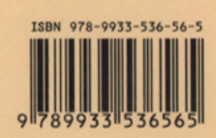
THE ANATOMY OF HUMAN DESTRUCTIVENESS

إن هذه الدراسة هي الكتاب الأول من عمل شامل في النظرية التحليلية النفسية. وقد بدأتُ بدراسة العدوان والتدميرية لأنها، فضلاً عن أنها إحدى المشكلات النظرية الأساسية في التحليل النفسي، تجعلها موجةُ التدميرية التي تغمر العالم إحدى أوثق الدراسات اتصالاً بالأمور العملية.

وعندما شرعت في هذا الكتاب قبل أكثر من ست سنوات استهنت كثيراً بالصعوبات التي من شأني أن أواجهها. وسرعان ما صار واضحاً أنني لن أستطيع أن أكتب عن التدميرية البشرية على الوجه الذي يفي بالغرض إذا ظللت ضمن حدود ميدان كفاءتي الأكبر، وهو التحليل النفسي. إذ بينما المقصود أن يكون هذا البحث تحليلياً نفسياً قبل كل شيء، فأنا أحتاج كذلك إلى القليل من المعرفة في ميادين أخرى، وخصوصاً في فيزيولوجيا الأعصاب، وعلم النفس الحيواني، وعلم المستحاثات، والأنثروبولوجيا، لكي أتجنَّب العمل في إطار مرجعي شديد الضيق يؤدِّي، من ثم، إلى التحريف. كان ينبغي لي على الأقل أن أكون قادراً على التحقق من صحة استنتاجاتي بالمعطيات الرئيسية من الميادين الأخرى لأتيقَّن من أن فرضياتي لا تناقضها وأحدِّد، كما كان أملي، مسألة هل تؤكد فرضياتي.

ومادام لا يوجد عمل يَذكر ويوحِّد المكتشفات حول العدوان في كل هذه الميادين، أو حتى يُجمِّلها في أي مجال من مجالات التخصّص، كان عليّ أن أقوم بهذه المحاولة بنفسي. وقد اعتقدتُ أن من شأن هذه المحاولة أن تخدم قرّائي.




ISBN 978-9933-536-56-5



تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح